

٧٤٤
٩٤٧

الجامعة الأردنية

كلية الآداب

عمان

شعر الجرح والفراسة

في

العصر الأموي

الطالب

عادل جابر صالح محمد

إشراف

الدكتور الدكتور حسين عويش

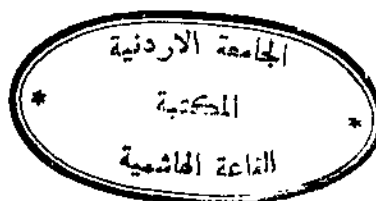
١٩٧٩ - ١٩٨٠

عمان فاطمة

٩٠١
١٢١,٤٩
س

المكتبة والمخبرية الادبية
١٩٤٤٨٧
رقم التسجيل
رقم التصنيف
التاريخ ١٥ تموز ١٩٦٠

هذير



شجر الجحيم الفاتية
في العصر الأموي

(٥٤٠ - ١٣٢ هـ)

الطالب : غاذاك جابر صالح محمد

اشراف : الدكتور عبد الله بن هلال

قدّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير
في الآداب العربي بكلية الآداب في الجامعة الأردنية

١٩٧٩ - ١٩٨٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ
وَقَدَّرَ لَهُمْ رَحْمَةً وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ

عَادِلًا

فهرسسسسسست

٩-٩	مقدسسسسسة
٧٥-١٠	الفصل الاولسسسس : الجغرافية التاريخية
٥١-١٢	القسم الاول : البيئة الجغرافية والسكانية
٧٥-٥٢	القسم الثاني : الاحداث التاريخية ومواقف القياثل
١٤٨-٧٦	الفصل الثانيسسسي : شعر الصراع القبلي
٩٩-٧٧	القسم الاول : شعر الصراع بين قيس وتغلبهين كلب
١٤٨-٩٩	القسم الثاني : شعر الصراع بين قيس وتغلب
٢١٣-١٤٦	الفصل الثالثسسست : سائر الشعر القبلي
١٥٨-١٥٠	القسم الاول : المدح القبلي
١٨٢-١٥٩	القسم الثاني : الفخر القبلي
٢١٣-١٨٣	القسم الثالث : المهجاء القبلي
٢٣٩-٢١٤	الفصل الرابعسسج : الشعر السياسي
٢٣٢-٢١٥	القسم الاول : السياسة في شعر الاخطل
٢٣٩-٢٣٣	القسم الثاني : السياسة في شعر الخوارج
٣٣٧-٢٤٠	الفصل الخامسسسس : الشعر الوجدانسي
٣٢٥-٢٤١	القسم الاول : الوصف
٢٦٩-٢٤٢	١- وصف الطبيعة الساكنة
٣٠٠-٢٧٠	٢- وصف الطبيعة المتحركة
٣٢٥-٣٠١	٣- وصف الخمسسسسس
٣٣٧-٣٢٦	القسم الثاني : الرؤساء
٣٣١-٣٢٧	١- رثاء السادة والامراء والخلفاء
٣٣٧-٣٣٢	٢- رثاء الاخوان والاهسسسل
٣٤٠-٣٣٨	خاتسسسسسة
٣٥٤-٣٤١	المصادر والمراجع

تسمى هذه الدراسة إني جلاء جانب من جوانب الإنتاج الأدبي خلال عصر بني أمية ، في بيئة لم يدرس تاريخها الأدبي حتى الآن وهي الجزيرة الفراتية ، التي عرفت بهذا الاسم ميّزاً لها عن مواطن عدة أطلق عليها اسم الجزيرة ، وكانت في آخره من العصر الأموي مقراً لحكومة آخر خلفاء البيت مرواني : مروان ابن محمد .

وهي بيئة تجلّت فيها الخصومة السياسية بين القيسيّة أنصار الزبيريين وبين اليمنية أنصار الأمويين ، واشتدّت فيها العصبية القبلية التي تجلّت في النزاعات القبلية المسلّحة بين قيس وتغلب وبين كلاب ثم بين قيس وتغلب ، وكثرت فيها حركات الخوارج الصّفرية كثرة جعلتها تعرف عند مؤرخي الألب بأنها موطن هذه الجماعة الإسلامية وقاعدة انطلاقها إلى أقاليم الدولة المجاورة فسي ثورتها على السلطة وممثليها . وهذه أحداث نظم فيها شعراء الجزيرة شعراً وفبراً ، انتهى إلينا كثير منه : بعضه مجموع في دواوين ، وآخر غير قليل لم يُقيّض له من ينظر فيه فيضمّ أشعته ، إذ هو مفرّق في الكتب التاريخية والأدبية . ولأهمية هذا التراث الشعري ، وبعد أن تبين لي أنه يمكن أن يدرس دراسة أدبية - تفيد من معطيات البيئة الجغرافية والأحداث التاريخية لتبرز القيمة التاريخية والاجتماعية لشعر المنطقة ، وتبين قدرته في معالجة الأحداث والتعبير عنها ، وتكشف عن النواحي الحمالية فيه ، وتقوم على استقصاء الأشعار والأخبار في مصادرها والتوثيق لها واستخلاص النتائج منها - مضيت في جمعه ، حتى إذا أحست أنني ظفرت بأكثر المواد من المصادر والمطابع المتوفرة ، عكفت على دراسة ما جمعته منها ، وعلى فحصه ومراجعته وتبويبها ومماودة النظر فيه ، حتى تمثّلته تمثلاً أداني إلى قسمته بين خمسة فصول .

أما الفصل الأول - فخصته للجغرافية التاريخية للجزيرة ، وعرضت في القسم الأول منه لوصفها ، فرسمت حدودها ، وبيّنت أقسامها الداخلية الثلاثة مصوراً ما في كل قسم منها من مدن وقرى وأنهار ، وتحدثت عن سكانها من القبائل العربية والمناصر الأخرى ، ذاكرة كل ما عثرت به من الروايات التي تتعلق بهجرة القبائل العربية إلى الجزيرة . وألّمت في القسم الثاني

بتحليل للأوضاع السياسية والظروف التي أثرت في حياة القبائل ومواقفها،
فصوّرت ما أسفر عنه موت معاوية الثاني من اضطراب للأمور في الشام، و—
اضطراب أدى إلى نشوب موقعة مرج راهط، التي وقفت فيها القبائل اليمنية
بزعامة كلب إلى جانب الأمويين وناصرت فيها قبائل قيس ابن الزبير ودعت له
بكل قوتها، والتي أجلت عن مزينة القيسيين واستقرارهم بالجزيرة، مزاحمين
لتغلب الربعية ومجاورين لواتريهم من كلب واليمنية الذين كانوا ينزلون
غربي الفرات. الأمر الذي أدى إلى اشتداد العصبية القبلية وعودتها جذعة،
فحدثت نزاعات قبلية مسلحة، شنت فيها قيس بمساعدة تغلب غارات متصلة على
اليمنية، وأوقعت بها في أكثر من موطن حتى ألحقها بضرر الشام. وما لبثت
أن تصدت وحدة قيس وتغلب، فهاج الشر بينهما وأوقعت كل منهما بالأخرى في
أيام مذكورة، حتى أصلح بينهما الخليفة عبد الملك بن مروان. وأنهيت الفصل
بالحديث عن ثورات الخوارج الصفرية الذين كانت كثرتهم الساحقة من بني شيبان
الربيعيين، وناهضوا الدولة وعمالها في الجزيرة والأقاليم المجاورة،
واستطاعوا في كثير من الأحيان السيطرة على مناطق واسعة.

وأفردت الفصل الثاني لشعر الصراع القبلي، فمرضت في أوله للشعر الذي
قيل في الخصومة السياسية بين القيسيين واليمنيين عقب مرج راهط، وذهب
فيه شعراء قيس إلى تهديد اليمنية وعلى رأسها كلب، أما شعراء اليمنية
فمضوا يفخرون بالنصر الذي تحقق لقومهم على القيسية. ثم وقفت عند شعر
الصراع القبلي الذي قاله شعراء قيس المضربة وشعراء كلب اليمنية وشعراء
تغلب الربعية فيما حدث بينهم من وقائع وأيام، وفاخروا فيه بانتصارات قومهم
وهجوا فيه أعداءهم وتوعدوهم ونددوا بهزائمهم.

وتحدثت في الفصل الثالث عن سائر الشعر القبلي، فجردت القسم الأول منه
لشعر المديح القبلي الذي أنشأه الأنطال التغلبي في مدح أشرف قبيلته وقبيلة
بكر التي تتصل بتغلب برابطة العصبية لربيعة، واستقام لي فيه أن مدائح
الأنطال في ساداتها تين القبيلتين اتسم بالنزعة القبلية، إذ اصطفى
لتقريبهم كل ما كان يشغفه زعماء القبائل ويرويه أمارة السيادة والشرف
التي تميز شخصياتهم وترضي عواطفهم القبلية من فضائل: النباهة وضخامة
المكانة، وبذل الأموال في إغاثة المكروبين ومساعدة المحتاجين، والحفاظ

على كيان القبيلة والصبر على الملمات والفناء في الحرب والوفاء للمشيرة في حمل الديات، والاتصاف بسوءد الأمل ورجحان العقل وسماحة الخلق، وغير ذلك من معاني المديح المألوفة النابعة من صميم النية العربية. وقصرت القسم الثاني منه على الفخر القبلي، وزجج لي فيه أن شعراء الجزيرة تداولوا المعاني التي دارت عليها ~~هنا~~ معاصريهم من الشعراء الأمويين وسابقيهم من الشعراء الجاهليين، فهم يفتخرون بالعبودية والرمط الأذنين وبالقبيلة الجامعة والبطون التي تتحدث منها، وما يتصل بهم من مناقب ومآثر، وما عرف عنهم في حياتهم من فضائل: الفروسية والشاعة، وإيثار حياة البادية، وقرى الضيف والاحتفاء به. وخصصت القسم الثالث منه للشعراء القبلي، وانكشف لي فيه أن الأخطال والقطامي التغلبيين ارتقيا بفن الهجاء بعض الرقي، فلم يلما به عبر القصيدة التقليدية ومن خلال الحماسة والفخر دائما، بل استقلالاً به أحيانا عن غيره من الموضوعات فأفرداه في مقطوعات أو أبيات خاصة. كما أن واحداً منهما وهو الأخطال، لم يقتصر في هجائه على الإقادة من المعاني القديمة بل تأثر بعض التأثير بمعاني الدين الجديد فوصم مهجويه بالضلال والنفاق، وجارى جريراً والفرزدق بعض المجازاة في فحشهما وإقذاعهما.

وعرضت في الفصل الرابع للشعر السياسي، فتحدثت في القسم الأول منه عن السياسة في شعر الأخطال التغلبي، وتبين لي فيه أن السياسة تلعب دوراً كبيراً في شعره، فقد جمل أشعاره في الأمويين من السفينانيين والمروانيين دفاعاً عن خلافتهم ونظريتهم في الحكم، وبتاً لمبادئهم، وإشادة بسياسة ولانهم. وتكلمت في القسم الثاني منه على السياسة في شعر الخوارج، وانكشف لي فيه أن أصحاب هذا الشعر لم يستطيعوا أن يبطلوا لنا معتقدتهم في نظرية سياسية واضحة المعالم، لأننا لا نجد لهم شعراً مذهبياً يصور وجهة نظرهم التي تعمقتهم وتصبوا لها، وإنما هو شعر حماسي يذهب في مجموعته في تصوير حروبهم وإصرارهم على مواصلة القتال وتمجيد أبطالهم وقوادهم والإشادة ببسالتهن في مقارعة جيوش الدولة والظهور عليها والتعديدهن بهزيمتهن. ومن هنا رأينا اتصال هذا الشعر بالسياسة، لأنه قيل في إطار هذه الخصومة السياسية التي قامت بين فئتين متحارختين أو بالأحرى بين حزبين كان لكل منهما وجهة نظره في مسألة الخلافة والحكم.

وعقدت الفصل الخامس للشعر الوجداني ، ووقفت في القسم الأول منه عند الوصف ، فخصصت بعضه لوصف الطبيعة الساكنة ، واستبان لي فيه أن شعراء الجزيرة رسموا في تضاعيف قصائدهم مشاهد للصحراء والرياح والمطر والنهر والرحلة النهرية والبحر ، وذكروا كل كبيرة وصغيرة تتصل بها ، ودققوا في ظواهرها ، وتقصوا في صفات موصوفاتها ، وحركوا صورها الساكنة . وقصرت بعضه لوصف الطبيعة المتحركة ، وتبين لي فيه أن شعراء الجزيرة بثوا في قصائدهم الطويلة صوراً للثور الوحشي والذئب والفراب والحرباء وطير القطا . وأفردت بعضه لوصف الخمر ، ورجح لي فيه أن تمرز الأخطال والقطامي التغلبيين لهذا الموضوع كان - في الغالب - من خلال القصيدة العامة التي تجمع فلذات شتى ، وأنهما لم يتجاوزا في وصف الخمر بيان مظاهرها وآثارها الخارجية الحسية ، فصورا أشكال آنيتهما ووصفا رائحتها وطعمها وغير ذلك مما يقع في دائرة الحواس الإنسانية ، ولم يتطرقا للحديث عن آثارها الداخلية في النفوس والمقول ، مما يؤكد أنهما تناوبا على المعاني القديمة التي تتردد في ألب الخمر عند الأعشى وغيره ، كما أنهما استخدما في وصفها الأوزان الطويلية الضخمة ، هذا بالإضافة إلى ما اتسم به وصفها عندما من إيجاز واقتضاب وإلى ما اتصف به أسلوبهما من فخامة السبارة وجزالة اللفظ . وجردت القسم الثاني منه للرثاء ، فرضت في بعضه لمراثي السادة ، وصح لي فيه أن شعراء الجزيرة ارتقوا بها ، فلم تعد المراثية جزءاً من قصائدهم بل أفردوا لها مقطوعة خاصة ، وأسقطوا منها أسلوب التمزية البدوي ، وشمئها بعضهم معانسي جديدة أفادوها مما لأبرحياة المراثيين أو حياة آبائهم من ظروف المصير الإسلامي وأحداثه ، فيما استمر معظمهم يضيفون إلى تصوير أحزانهم إشادة بمآثر المراثيين ومناقبهم وثناء على خصالهم وصفاتهم العربية من جود وسيادة وعراقة منبت . وتحدثت في بعضه عن مراثي الخوارج لإخوانهم في المنصب ولأنهم ممن لاقوا حتفهم في صراعهم المرير مع جيوش الدولة ، وتأكد لي فيه أن هذه المراثي جديدة ، فأصحابها لا يبيكون في المراثيين خلال المروءة التقليدية التي عهدناها في شعر الرثاء ، لأن قتلهم يحقق سعادة حلموا بها . ولذلك شرعوا يمجّدون قتالهم ويشيدون ببطولاتهم وتضحياتهم ، مصوّرين قتلهم تقرباً إلى الله ، ورأسمين تراميهم على حياض الموت ابتغاء مرضاة الله وطمأ في الفوز

٨
بجئاته ، وواصفين رفضهم للحياة الدنيا ومنتعها الزائلة وبيعهم أنفسهم لربهم .

أما مصادر البحث ومراجعته فكثيرة متنوعة ، وأخص منها المصادر الجغرافية ، وفي مقدمتها كتاب (المسالك والممالك) للأصغرسي ، فان فيه أدق المعلومات وأوفاهما عن بيئة الجزيرة الفراتية . وأضيف اليه كتاب (بلدان الخلافة الشرقية) للمستشرق الانجليزي لسترنج ، فقد أفدت منه افادات واسعة في تحديد مواقع المدن والقرى . ومن المصادر التي اعتمدت عليها الكتب التاريخية ، وأهمها كتاب (أنساب الأشراف) للبلاذري ، وبخاصة الجزء الثاني المخطوط والجزء الخامس المطبوع منه ، فان بهما معلومات وأشعاراً وافية عن الأحداث التاريخية ومواقف القبائل ، قبل موقعة مرج راهط وبعدها وإبان التعصب القبلي وأثناء ثورات الخوارج الصفورية . ومنها الكتب الأدبية ، وأشهرها كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني ، فان به أخباراً وأشعاراً لم تذكر في المصادر الأخرى عن الصراع القبلي بين قيس وتغلب وبين كلب . بالإضافة إلى ديواني الأنطلس والقطامي التغلبيين ، فهما مصدران أساسيان في هذه الدراسة .

وبعد ، فأرجو أن أكون حققت بهذا البحث صورة واضحة عن شمر الجزيرة الفراتية في العصر الأموي ، وتبيان جوانبه الاجتماعية والسياسية والفنية ، كما أرجو أن يكون فيه ما ينفع الباحثين المهتمين بالتاريخ والأدب ، فسلان قصرت أو أخطأت فمذري أنني اجتهدت . وإذا كان لي من فضل في إخراجـه على هذا النحو ، فحقيق بي أن أتوجه بوافر التقدير والإجلال لـ الأستاذ الدكتور حسين عطوان ، فإنه تفضل بالإشراف عليه ، ولم يأل جهداً في قراءته والتعليق عليه وتصويبه ، فكان لملاحظاته القيمة وتوجيهاته السديدة أثر بين في تقويمه وخروجـه على هذه الصورة التي ارتضيتها وارتضاها لي ، ومهما اعترفت بما أسداه إلي من إرشاد فأنا عاجز عن أن أوفيه حقه من الشكر والامتنان . ولا يفوتني أن أنوه بفضل الأستاذ الدكتور عبدالعزيز الدوري ، فإنه تفضل بمراجعته الجغرافية التاريخية للجزيرة ، وأمدني

٦
١٩
بفيض من ملاحظاته الثمينة ، وزودني ببعض المصادر
التاريخية المخطوطة .

والله ولي التوفيق

عادل جابر صالح محمد

الزرقاء في :

شعبان سنة ١٣٩٩م

تموز سنة ١٩٧٩م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْجُغَرَاْفِيَّةُ التَّارِيْخِيَّةُ

١- البيئَةُ الجغرافية والسكانية

٢- الأحداث التاريخية وموقف القبائل

(٢) رؤساء الإخوان والأهل

ومضى شمراء الخوارج وشواعرهم الجزريون يرثون في أبيات معدودات من يقتل من إخوانهم في المذهب ومن أدلهم في صراعهم الرير مع جيوش الدولة . فمن المحقق أنَّ أعداداً كبيرة من الخوارج كانوا يتضون في تلك الغروب خدمة لمقيدتهم وفي سبيل مبادئهم التي خرجوا من أجلها ، بل يحض القاري بشعرهم أن طلب الموت والاستشهاد في سبيل الله كان أمنية كل فرد منهم ^(١) . يقول بهلول — ابن بـ — :

من كان يكره أن يلقي منيته فالموت أشهى إلى قلبي من المصل
فلا التَّقدم في الهيجا يُجَلِّني ولا الحذار يُنَجِّني من الأجل
فهم يقبلون على الموت في رضا وطمأنينة ، لأن ذلك يحقق لهم اللحاق بالمالئ الأعلى ولقاء الإخوان الأبرار الذين تقدّمهم في جنات الخلد والنعيم المقيم .
يقول أحد أصحاب الضحّاك ^(٢) :

يا نفس من طول الحياة مُلِّني وعيشك المنقطع المولِّي
علِّي ألقى عاصماً لمُلِّني في جنة عالية وطـ_____ل ^(٣)
وتبتّها وكهّس المصّلّي ^(٤)

(١) أنظر : شعر الخوارج ٣ ، الفرق الإسلامية في الشعر الأموي ٢٣٧ ، المعصم الإسلامي ٣٠٣ .

(٢) أنساب الأشراف المخطوط ٢٦٤/٢ ، شعر الخوارج ٣ . وبهلول بن بشر خرج باع جزيرة أيام هشام بن عبد الملك ، فتكاثر عليه جند الدولة فقتلوه مع أصغابه عند الكحيل بالجزيرة (أنظر ص ٧٢ من هذا البحث) .

(٣) شعر الخوارج ١١٢ . ومن المعروف أن الضحاك بن قيس الشيباني قاد أكبر ثورة لخوارج الجزيرة في أسرة من البصر الأموي ، فسار إليه الخليفة مروان الثاني من " حران " والتقى بنواحي كفرتوثا من الجزيرة فقتل الضحاك (أنظر ص ٧٤-٧٣ من هذا البحث) .

(٤) عاصم : هو عاصم بن الحدّان (أنساب الأشراف المخطوط ٣٦٠/٢) .

(٥) كهّس : هو كهّس بن عثمان الرفاعي من بني يشكر —
(أنساب الأشراف المخطوط ٣٦٩/٢) .

فهم يستمذّبون الموت بل يتمجّلونه حتى تكاد رغبتهم فيه تطفئ على رغبتهم في تحقيق أهدافهم ، ويستطيلون الحياة ويحرصون على التخلص منها ورفض متممها ولذائها (١) .

وهكذا تبدو الحياة للخارجي ذميمة فيزهد فيها ، ويقبل على حياض الموت الزوأم دون خوف أو وجل ، حتى يلحق بأعبائه الذين سبقوه ويفوز برضوان ربه وجناته .

ومن هنا أصبحنا نجد صورة جديدة للثراء عند شعراء الخوارج ، فهم - في الغالب - لا يكونون في المرثيين خلال المروءة التقليدية التي عهدناها في شعر الرثاء ، لأن قتلهم يحقق سعادة حلموا بها وغاية صبوإ إليها . ولذلك شرعوا يمجّدون قتلاهم ويشيدون ببطولاتهم وتضحياتهم ومواقفهم ، مصوّرين قتلاهم تقرباً إلى الله ، ورأسمين تراميهم على الموت ابتغاء مرضاة الله وطمعاً في الفوز بجناته ونسيمة ، وواصفين رفضهم للحياة الدنيا وتمتعها الزائلة وبيعهم أنفسهم لربهم حتى إذا رعدت الحرب بصواعق الموت أقبلوا على طلب الشهادة التي تفتح أمامهم أبواب الفرديس (٢) .

وهذا الرثاء وإن كان يتفق مع الرثاء التقليدي فيما يشيع فيه من مشاعر الحزن ، فإنه يختلف عنه فيما يظللّه من روح التسليم بالقضاء والإيمان بالقدر الذي هو حقيقة واقعة لا سبيل إلى تخطيها ، والامتناع لإرادة الله وحسن تقبّلها ، وتمثّل ما أعدّه الله للمقاتلين في سبيل السقيدة من عظيم الأجر وحسن الثواب .

ويبدو لنا من مطالعة الأشعار القليلة التي وصلتنا في هذا الموضوع أن مصرع قائد الجماعة كان يثير في نفوس أصحابه أسمى عميقاً فيرثونه ، وهذا طبيعي فقائد الجماعة هو رمز وحدتها وقوتها وتماسكها ، ومصرعه يهدد كيان الجماعة ويصدع بناءها لأن المصاب يفقده بجلّ بجماعته كلها .

(١) أنظر: الفرق الإسلامية في الشعر الأموي ٤٣٧ - ٤٣٨ ، السمر

الإسلامي ٣٠٣ ، شعر الخوارج ٧ .

(٢) أنظر : المعسر الإسلامي ٣٠٤ - ٣٠٥ ، الفرق الإسلامية

في الشعر الأموي ٤٤٧ .

فعمدا قُتل بهلول بن بشر - قائد الخوارج الصفرية الذي حكم في عهد هشام بن عبد الملك - في حربه لجيوش الدولة بالكحيل من الجزيرة ، رثاه أحد رجاله المشهورين وهو الضحاك بن قيس الشيباني في هذين البيتين اللذين بكاه فيهما بكاءً حاراً ومنج بكاه بما ينتظره من نعيم الغلد . قال (١) :
يا عينُ أذري دموعاً منك تهتنا وابكي لناصحة بانوا وإخوانا (٢)
غلوا لنا ظاهر الدنيا وباطنها وأصبحوا في جنان الخلد جيرانا

ومن قادة الخوارج الذين بكاهم الضحاك ، سعيد بن بهدل الذي خرج بالجزيرة في أول أيام مروان الثاني وما لبث أن مات ، فرثاه الضحاك بهذين البيتين اللذين دعا فيهما بالسقيا لقبره وبأن يلحقه الله به وبنييره من إخوانه الأبرار الذين قتلوا في سبيله فسبقوه إلى جنات النعيم . قال (٣) :
سقى الله يا خوضاً قبراً وحشوه إذا رحل الشارون لم يترحس (٤)
فيا ملحق الأرواح هل أنت ملحتي بموتى مضى فيهم سعيد بن بهدل

ومن قادة جيش الضحاك بن قيس الشيباني الذين قتلوا بأخرة من الصفر الأموي ، أثناء لقاء الخوارج لجيش الخليفة مروان بن محمد بكفرتوثا ، الخيرى ومسكين اليشكري ويسقوب التغلبي (٥) . وقد رثاهم أحد الشعراء رثاءً أشاد فيه ببسالتهن وبطولتهن وتضحياتهن التي قدمنها في أعنف قتال جرء للخوارج مع جيوش مروان الفخمة . قال (٦) :

دم ضربوا الجنود بكفرتوثا وهم نزلوا وقد كره الزعمام
سقى بلداً تضمن خيبرياً ومسكينا ويسقوب الضمام
دم ضربوا على قرع المنايا ولم يقرعهم الجيوش اللهم (٧)

(١) الطبري : ١٣٢/٧ ، الكامل في التاريخ ٧١٦/٥ .

(٢) تهتنا : غزيرة .

(٣) شعر الخوارج ٨٢ ، وانظر : الطبري ٣١٧/٧ .

(٤) خوضاً : زوجة سعيد بن بهدل المرثي (شعر الخوارج ١٤٤) .

(٥) يسقوب التغلبي : بايعة الخوارج بعد قتل الخيرى (أنساب الأشراف المخطوط ٢٦٧/٢) .

(٦) أنساب الأشراف المخطوط ٢٦٧/٢ .

(٧) القراع والمقارعة : المصاربة بالسيوف . والجيوش للهام : الكثير الذي يلتهم كلشي .

ولم يقصر شعراء الخوارج مراثيهم على من قتل من قادة جيوشهم ، بل رثوا الأفراد العاديين الذين انضموا إلى تلك الحركات الثائرة وأرخصوا نفوسهم فقتلوا في سبيل عقيدتهم . وتطال المنا هذا بعض المراثي لشواعر كنّ - على ما يبدو - قد انضموا إلى الخوارج ، وهي مراث بكين فيها من لاقوا حتوفهم من أهلهم في قتال الخوارج لجيش الدولة . ولعل وجه الاختلاف بينها وبين مراثي الشعراء للقادة أنها تطالب بها غيالات الحزن وتسكب في أحنائها الدموع ولا تصدر إلا عن قلوب ملتاعة ونفوس حزينة سقرها موت المرثيين وأدما المصاب بفقدهم . لكنها مليئة بالإشادة ببطولاتهم وتضحياتهم وبيسهم نفوسهم رخيصة خدمة لعقيدتهم وطلباً للموت الذي يحقق لهم السعادة المنشودة وهي لقاء ربهم واللحاق بمن تقدمهم ممن إخوانهم الأبرار . على نحو ما يتضح في قول امرأة من بني شيبان ترثي أباهما وأخاهما وزوجها وأماً وعمتها وغالتها الذين قتلوا مع الضحاك (١) :

مَنْ لِقَلْبِ شَفَّةِ الْخُسْرَى	أَوْ لِنَفْسِ مَا لَهَا سَكَنٌ
ظَنَّ الْأَبْرَارَ فَارْتَحَلُوا	خَيْرُهُمْ مِنْ مَعْرِ ظَمْنُوا
مَحَرَّ قَضَا نَحْوِيهِمْ	كَلَّ مَا قَدْ قَدَّمُوا حَسَنَ
صَبَرُوا عِنْدَ السُّيُوفِ فَلَمْ	يَنْكَلُوا عَنْهَا وَلَا جَبْنُوا
فَتِيَّةً بَاعُوا نَفْسَهُمْ	لَا وَرَبَّ الْبَيْتِ مَا غَبْنُوا
تَبِعُوا مَرْضَاةَ رَبِّهِمْ	حِينَ مَاتَ الدِّينُ وَالشُّنَنُ
فَأَصَابَ الْمَوْتَ مَا طَلَبُوا	مِنَّةً مَا قَبَلَهَا مَنُنُ

وكما يظهر في قول امرأة أخرى من الخوارج ترثي أخاهما وكان قتل مع الضحاك بكفرتوثا ، وتشيد بمقام تضحيات إخوانها الخوارج وهم يقارعون جيوش الدولة مقارعة متصلة ، وتصور ما كان يتممها من أحزان مبرحة كانت تشققها شقاً وتلدغ كبدها لقعا على من يقتل منهم من حين لآخر (٢) :

مَنْ لَعِينَ رِيًّا مِنَ الدَّمْعِ عَجْرَى	وَلِنَفْسٍ مِنَ الْمَصَائِبِ حَسْرَى
أَفْسَدَتْ عَيْشَنَا صَرْوُ اللَّيَالِي	وَوَقَاعُ مِنَ الْكَتَائِبِ تَسْرَى
كَلَّمَا سَكَنَتْ حَرَارَةُ وَجْهِهِ	مِنْ فَقِيدٍ مَنَا شُجِينَا بِأَخْرَى

(١) تاريخ خليفة بن خياط ٥٧٥/٢ - ٥٧٦ .

(٢) أنساب الأشراف المخطوط ٤٦٧/٢ ، شعر الخوارج ١١٣ .

وقولها فيه واصفة ولها به وجزعها عليه وانكبابها على نفسها بلا كيسة
تستدرّ الدمع مدرارا وتتجرّع غصص الفراق (١) :

يا عين جودى بالدموع وابكي بجهد المستطیع
يا موت ويحك ما تزال مفرقا بين الجمیع
أبكي وما ينني القلبي فوالبكاء عن الجـزوع

واضح أن الأبيات مفعمة بالمشاعر الصادقة ، وهي مشاعر أختضضها حزن مكن في
فؤادها حتى كاد يكو به بعرارته ، وهي لا تملك وسيلة تطفي بها هذه الحرارة
الملتبهة غير هذه الدموع التي تجود بها ما استطاعت .

وغير عاف أن رثاء شواعر الخوارج لأهلهم يرتفع فيه النشيج والبكاء وتقوال
فيه حركات الألم وأثاته أكثر بكثير من رثاء أقرانهم المشراء لقادة الخوارج ،
ومرد ذلك إلى رقة شعور المرأة وعدم احتراسها من البكاء عند تأثرها بأدنى
مكروه ، فكيف إذا أصيبت في أهلها ؟ لاشك أنها ستجن جزعا شديدا وتلتصاع
أعظم التيمصاع .

وتقدم أن خوارج الجزيرة كانت تدفعهم ظروف القتال إلى الجهاد في المناطق
المجاورة وبخاصة العراق ، وكان قتل بعض قادتهم وأصحابهم هناك يثير في نفوس
شعراء تلك البلاد ممن يوافقونهم في الاعتقاد أسى بالنا ، فيرثونهم في أبيات
محدودات تتجلى فيها نفس المساني التي رأيناها في رثاء الجزيريين لهم ، من :
الثناء على شجاعتهم وإقدامهم ، وانصرافهم عن الدار الدنيا ، وطالبهم للموت
حتى يتحقق لهم الهدف الذي خرجوا من أجله وعمو نيل الشهادة واللحاق بمن سبقوهم
من إخوانهم في دار الخلد . (٢)

(١) أنساب الأشراف المخطوط ٢/٢٦٧ - ٣٦٨ ، شعير

الخوارج ١١٣ .

(٢) أنظر : أنساب الأشراف المخطوط ٢/٨٧ و ٣٦٤ ، الطبري

٥٧٦/٦ - ٥٧٨ و ٢/٢٧٢ و ٢٧٨ ، شعر الخوارج ٦١ و

٦٩ و ٧١ و ٧٧ و ٧٨ .

ولعلّ فيما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على أن هذه الصورة من الرثاء في شعر الصوّارح الجزريين الأمويين لقتلهم ، تختلف في معانيها وأساليبها عما ألفناه في شعر الرثاء التقليدي . أما اختلافها في المعاني فراجع إلى أمرين : أولهما ، أنها صورة لا تبكي في المرثيين من القتلى خلال المروءة التقليديّة ، لأنّ قتلهم كان يحقق غاية طلبوها وسعادة حلموا بها ، ولذلك مضى الصوّارح بمجدون قتلتهم ويشيدون بتضحياتهم ومواقفهم ، فصوّروا رفضهم للحياة الدنيا وتمتعهم بالفانية ، ووصفوا إقبالهم على الموت وتراسيهم في حياضه زلفى إلى الله وابتغاء مرضاته وطمأنينة في الفوز بثوابه . وثانيهما ، أنها صورة لا تطيسر بها خيالات الحزن والدموع ، بل غالبا ما تظللها روح التسليم بقضاء الله والامتثال لإرادته وتمثّل ما أعدّه للمقاتلين في سبيله من عظيم الأجر . وأما اختلافها في الأساليب فراجع إلى أن الصوّارح أفردوها في مقطوعات خاصة ، تخيّرولة لها لغة بسيطة مألوفة ، وهاغوها في أوزان قصيرة موجبة لشدة جزنهم على المرثيين وفراط ولهم بهم .

لنل استهلالي هذا البحث بوصف الجزيرة الفراتية والتعريف بسكانها وماثار بينهم من نزاعات أو قاموا به من ثورات على السلطة كان طبيعيا ، ففي ذلك تعريف بالمنطقة وتوضيح لصورتها وكشف عن مواقع الأحداث فيها ، وضبط لأدائها ومن هاجروا إليها ، وتحديد لملاقاتهم ومواقفهم من بعضهم ومن الحاكمين . وهي أمور كان رصدها ضروريا ، لكي ألم بحياة الجزريين من الناحية التاريخية والسياسية التي ترتبط بحياة الشعر وتشرح الظروف والأجواء القبلية والسياسية التي قيل فيها وعبر عنها . وإذا عسست أنني بسطت هذه المسائل بسطا واضحا ، انتقلت إلى استقصاء موضوعات الشعر ، فوجدت أنها تنحصر في ثلاثة ، هي : الشعر القبلي ، والشعر السياسي ، والشعر الوجداني .

أما الشعر القبلي ، فقد كان ثمرة للعصبية القبلية التي تجلت أولا في شعر الصراع القبلي ، واتضح لنا فيه أن المشراء أصروا على إبراز انتصارات قومهم في المعارك وإضفاء سمات البطولة عليها ، وألحوا على تصوير مزائيم أعدائهم ووصفهم بالجبن وتوعدتهم بالقتل والتذكيل وتهديدهم بالثأر لأبنسائهم . وأنهم اندفعوا إلى قول الشعر في مجالين : الأول — أثناء المعركة ، والثاني فيما بعدها ، فذاتوا في المجال الثاني أكثر إبداعا وإسهابا ، وفي الأول — أكثر إثارة وحساسة ، ففي أثناء المعركة لم يمنوا بالإطالة ولا بالجوانب الفنية ، إذ أن نضالهم في حومة الوعي دفعهم إلى استنهاض الهمم والنض على الاستبسال ، وذلك بأبيات مرتجلة أوحتها مناسبة الحرب . كما تجلت ثانيا في ألوان أخرى من الشعر ، هي : المدح القبلي ، الذي أنشأه الأخطار التغلبي في أشراف قبيلته وقبيلة بكر ، مختاراً لتقريظهم مجموعة الفضائل التي تميز شخصية زعيم القبيلة ، من النباهة وضخامة المكانة ، وإهلاك الأموال — في الحروب على المحتاجين ، والصبر على الملمات والفناء في الحرب ، والاتصاف بسوءد الأصل ورجحان السقل وسماحة الخلق ، وغير ذلك من المماني المتداولة التي دارت عليها هذه المدائح ، وأخرجها الأخطل إخراجاً أعرابيا ضخماً ، باختياره لها الأوزان الطويلة ، وبإحاطة فيها الأساليب المتينة ، وبنشره في تضاعفها بسر الصور والتشبيهات البدوية . والفخر القبلي ، وقد رأينا كيف أن مفاخر المشراء ظلت تجرى على الصورة الجاهلية ، فهم يفتخرون بشعرهم

بتحليل للأوضاع السياسية والظروف التي أثرت في حياة القبائل ومواقفها ،
 فصورّت ما أسفر عنه موت معاوية الثاني من اضطراب للأمور في الشام ، و—
 اضطراب أدى إلى نشوب موقعة مرج راهط ، التي وقفت فيها القبائل اليمنية
 بزعامة كلب إلى جانب الأمويين وناصرت فيها قبائل قيس ابن الزبير ودعت له
 بكل قوتها ، والتي أجلت عن هزيمة القيسيين واستقرارهم بالجزيرة ، مزاحمين
 لتغلب الربعية ومجاورين لواتريهم من كلب واليمينية الذين كانوا ينزلون
 غربي الفرات . الأمر الذي أدى إلى اشتداد المصبات القبلية وعودتها جذعة ،
 فحدثت نزاعات قبلية مسلحة ، شنت فيها قيس بمساعدة تغلب غارات متصلة على
 اليمينية ، وأوقعت فيها في أكثر من موطن حتى ألحقها بغير الشام . وما لبثت
 أن تصدعت وحدة قيس وتغلب ، فهاج الشر بينهما وأوقعت كل منهما بالأخرى في
 أيام مذكورة ، حتى أصلح بينهما الخليفة عبد الملك بن مروان . وأنهيت الفصل
 بالحديث عن ثورات الخوارج الصفرية الذين كانت كثرتهم الساحقة من بني شيبان
 الربيعيين ، وناضوا الدولة وعمالها في الجزيرة والأقاليم المجاورة ،
 واستطاعوا في كثير من الأحيان السيطرة على مناطق واسعة .

وأفردت الفصل الثاني لشعر الصراع القبلي ، فمرّضت في أوله للشعر الذي
 قيل في الخصومة السياسية بين القيسيين واليمنيين عقب مرج راهط ، ونمّـب
 فيه شعراء قيس إلى تهديد اليمينية وعلى رأسها كلب ، أما شعراء اليمينية
 فمضوا يفتخرون بالنصر الذي تحقّق لقومهم على القيسية . ثم وقفت عند شعر
 الصراع القبلي الذي قاله شعراء قيس المضربة وشعراء كلب اليمينية وشعراء
 تغلب الربعية فيما حدث بينهم من وقائع وأيام ، وفاخروا فيه بانتصارات قومهم
 وهجّوا فيه أعداءهم وتوعّدوهم وندّدوا بهزائمهم .

وتحدثت في الفصل الثالث عن سائر الشعر القبلي ، فجرّدت القسم الأول منه
 لشعر المديح القبلي الذي أنشأه الأخطل التغلبي في مدح أشرف قبيلته وقبيلة
 بكر التي تتصل بتغلب برابطة المصينة لربيعة ، واستقام لي فيه أن مدائح
 الأخطل في سادات ماتين القبيلتين اتّسم بالنزعة القبلية ، إذ اصطفى
 لتقريبهم كل ما كان يشغفه زعماء القبائل ويرويه أماراة السيادة والشرف
 التي تميّز شخصياتهم وترضي عواطفهم القبلية من فضائل : النباهة وضامّة
 المكانة ، وبذل الأموال في إغاثة المكروبين ومساعدة المحتاجين ، والحفاظ

على كيان القبيلة والصبر على الملمات والفناء في الحرب والوفاء للمشييرة في حمل الديات، والاتصاف بسوءد الأصل ورجحان العقل وسماحة الخلق، وغير ذلك من معاني المديح المألوفة النابعة من صميم النية العربية. وقصرت القسم الثاني منه على الفخر القبلي، وزجج لي فيه أن شعراء الجزيرة تداولوا المعاني التي دارت عليها ~~مطالغ~~ معاصريهم من الشعراء الأمويين وسابقيهم من الشعراء الباهليين، فهم يفتخرون بالمعشيرة والرمط الأذنين وبالقبيلة الجامعة والبطون التي تتحدث منها، وما يتصل بهم من مناقب ومآثر، وما عرف عنهم في حياتهم من فضائل: الفروسية والشجاعة، وإيثار حياة البادية، وقسري الضيف والاحتفاء به. وخصصت القسم الثالث منه للهجاء القبلي، وانكشف لي فيه أن الأخطال والقطامي التغلبيين ارتقيا بفن الهجاء بعض الرقي، فلم يلما به عبر القصيدة التقليدية ومن خلال الحماسة والفخر دائما، بل استقلّا به أحيانا عن غيره من الموضوعات فأفرداه في مقطوعات أو أبيات خاصة. كما أن واحداً منهما وهو الأخطال، لم يقتصر في هجائه على الإفادة من المعاني القديمة، بل تأثر بعض التأثير بمعاني الدين الجديد فوصم مهجويه بالضلال والنفاس، وجارى جريراً والفرزدق بعض المجازاة في فحشهما وإقذاعهما.

وعرضت في الفصل الرابع للشعر السياسي، فتحدثت في القسم الأول من شأنه عن السياسة في شعر الأخطال التغلبي، وتبين لي فيه أن السياسة تلعب دوراً كبيراً في شعره، فقد جمل أشعاره في الأمويين من السفينيين والمروانيين دفاعاً عن غلافتهم ونظرياتهم في الحكم، وبتاً لمبادئهم، وإشادة بسياسة ولاتهم. وتكلمت في القسم الثاني منه على السياسة في شعر الخوارج، وانكشف لي فيه أن أصحاب هذا الشعر لم يستطيعوا أن يُبلِّروا لنا معتقدهم في نظرية سياسية واضحة المعالم، لأننا لا نجد لهم شعراً منهجياً يصور وجهة نظرهم التي تممقتهاهم وتصبوا لها، وإنما هو شعر حماسي ينصب في مجموعه في تصوير حروبهم وإصرارهم على مواصلة القتال وتمجيد أبطالهم وقوادهم والإشادة ببسالتههم في مقارنة جيوش الدولة والظهور عليها والتنديد بهزيمتها. ومن هنا رأينا اتصال هذا الشعر بالسياسة، لأنه قيل في إطار هذه الخصومة السياسية التي قامت بين فئتين متعارضتين أو بالأحرى بين حزبين كان لكل منهما وجهة نظره في مسألة الخلافة والحكم.

وعقدت الفصل الخامس للشعر الوجداني ، ووقفت في القسم الأول منه عند الوصف ، فخصصت بعضه لوصف الطبيعة الساكنة ، واستبان لي فيه أن شعراء الجزيرة رسموا في تضاعيف قصائدهم مشاهد للصحراء والرياح والمطر والنهر والرحلة النهرية والبحر ، وذكروا كل كبيرة وصغيرة تتصل بها ، ودققوا في ظواهرها ، وتقصوا في صفات موصوفاتها ، وحركوا صورها الساكنة . وقصرت بعضه لوصف الطبيعة المتحركة ، وتبين لي فيه أن شعراء الجزيرة بثوا في قصائدهم الطويلة صوراً للشور الوحشي والذئب والفراب والحرباء وطير القطا . وأفردت بعضه لوصف الخمر ، ورجح لي فيه أن تمرر الأطلال والقطامي التغلبيين لهذا الموضوع كان - في الغالب - من خلال القصيدة المامة التي تجمع فلذات شتى ، وأنهما لم يتجاوزا في وصف الخمر بيان مظاهرها وآثارها الخارجية الحسية ؛ فصورا أشكال آنيتهما ووصفا رائحتها وطعمها وغير ذلك مما يقع في دائرة الحواس الإنسانية ، ولم يتطرقا للحديث عن آثارها الداخلية في النفوس والمقول ، مما يؤكد أنهما تناوبا على المعاني القديمة التي تتردد في أدب الخمر عند الأغني وغيره ، كما أنهما استخدما في وصفها الأوزان الطويلة الضخمة ، هذا بالإضافة إلى ما اتسم به وصفها عندهما من إيجاز واقتضاب وإلى ما اتصف به أسلوبهما من فخامة السبارة وجزالة اللفظ . وجردت القسم الثاني منه للرثاء ، فعرضت في بعضه لمراثي السادة ، وضح لي فيه أن شعراء الجزيرة ارتقوا بها ، فلم تعد المراثية جزءاً من قصائدهم بل أفردوا لها مقطوعة خاصة ، وأسقطوا منها أسلوب التمزية البدوي ، وعمتها بعضهم معانسي جديدة أفادوها مما لابس حياة المراثيين أو حياة آبائهم من ظروف العصر الإسلامي وأحداثه ، فيما استمر معظمهم يضيفون إلى تصوير أحزانهم إرشادة بمآثر المراثيين ومناقبتهم وثناء على خصالهم وصفاتهم العربية من جود وسيادة وعراقة منبت . وتحدثت في بعضه عن مراثي الخوارج لإخوانهم في المذهب ولأدبهم ممن لاقوا حتفهم في صراعهم المير مع جيوش الدولة ، وتأكد لي فيه أن هذه المراثي جديدة ، فأصحابها لا يكون في المراثيين خلال المروءة التقليدية التي عهدناها في شعر الرثاء ، لأن قتلهم يحقق سعادة حلموا بها . ولذلك شرعوا يمجّدون قتلاهم ويشيدون ببطولاتهم وتضحياتهم ، مصوّرين قتلهم تقريباً إلى الله ، ورأسمين تراميهم على حياض الموت ابتغاء مرضاة الله وطمعاً في الفوز

٨
بجئاته ، وواصلين رفضهم للحياة الدنيا وامتصها الزائلة وبيعهم أنفسهم لربهم .

أما مصادر البحث ومراجعته فكثيرة متنوعة ، وأخر منها المصادر الجغرافية ، وفي مقدمتها كتاب (الممالك والممالك) للأصطخري ، فان فيه أدق المعلومات وأوفاهما عن بيئة الجزيرة الفراتية . وأضيف اليه كتاب (بلدان الخلافة الشرقية) للمستشرق الانجليزي لسترنج ، فقد أفدت منه افادات واسعة في تحديد مواقع المدن والقرى . ومن المصادر التي اعتمدت عليها الكتب التاريخية ، وأهمها كتاب (أنساب الأشراف) للبلاذري ، وبخاصة الجزء الثاني المخطوط والجزء الثالث المطبوع منه ، فان بهما معلومات وأشعاراً وافية عن الأحداث التاريخية ومواقف القبائل ، قبل موقعة مرج راهط وبعدها وإبان التصب القبلي وأثناء ثورات الخوارج الصفرية . ومنها الكتب الأدبية ، وأشهرها كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني ، فلن به أخباراً وأشعاراً لم تذكر في المصادر الأخرى عن الصراع القبلي بين قيس وتغلب وبين كلب . بالإضافة إلى ديواني الأطلال والقطامي التغلبيين ، فهما مصدران أساسيان في هذه الدراسة .

وبعد ، فأرجو أن أكون حققت بهذا البحث صورة واضحة عن شعر الجزيرة الفراتية في العصر الأموي ، وتبيان جوانبه الاجتماعية والسياسية والفنية ، كما أرجو أن يكون فيه ما ينفع الباحثين المهتمين بالتاريخ والأدب ، فإن قصرت أو أخطأت فعذري أنني اجتهدت . وإذا كان لي من فضل في إخراج هذه على هذا النحو ، فحقيق بي أن أتوجه بوافر التقدير والإجلال لأستاذي الدكتور حسين عطوان ، فإنه تفضل بالإشراف عليه ، ولم يأل جهداً في قراءته والتعليق عليه وتصويبه ، فكان لملاحظاته القيمة وتوجيهاته السديدة أثر بين في تقويمه وخروجه على هذه الصورة التي ارتضيها وارتضاها لي ، ومهما اعترفت بمسا أسداه والسي من إرشاد فأنا عاجز عن أن أوفيه حقه من الشكر والامتنان . ولا يفوتني أن أنوه بفضل الأستاذ الدكتور عبدالعزيز الدوري ، فإنه تفضل بمراجعته الجغرافية التاريخية للجزيرة ، وأمدني

بفيض من ملاحظاته الثمينة ، وزودني ببعض المصادر
التاريخية المخطوطة .

والله ولي التوفيق

عادل جابر صالح محمد

الزرقاء في :

شعبان سنة ١٤٣٩هـ

تموز سنة ١٩٢٩م

(١) البيئة الجغرافية والسكانية (التحديد الجغرافي)

الجزيرة هي الاسم الذي أطلقه الجغرافيون العرب على الأراضي الشمالية التي يكتنفها نهرا فجلة والفرات^(١) ، وعلى بعض البلاد الواقعة إلى الغرب من الفرات وإلى الشرق من فجلة في البرّ لقربها منها واتصالها بها^(٢) وهي المعروفة لدى اليونان باسم ميزوبوتاميا Mesopotamia^(٣) ، وتتصل بتخوم العراق الشمالية^(٤) من جهة الجنوب ، وتجاور الشام^(٥) من جهة الجنوب الغربي ، وتمتد إلى بلاد الروم^(٦) (تركيا) من الشمال الغربي ، وإلى أرمينية^(٧) من الشمال الشرقي .

فالفرات هو الحدّ الغربي الجنوبي للجزيرة . ويبتدئ حدّها عليه عند مدينة

(١) ابن الفقيه (البلدان ص ١٢٨) ، الإسطخرى ٥٢ ، صورة الأرض ١٨٩ ، أحسن التقاسيم ٦٣ ، معجم البلدان ١٣٤/٢ ، آثار البلاد ٣٥١ ، تقويم البلدان ٢٧٣ ، خريدة الجائز ٤٤ ، بلدان الخلافة الشرقية ١١٤ ، كانار ٧٤ ، دائرة المعارف الإسلامية ٤٥٠/٦ .

(٢) ابن الفقيه ١٢٨ ، الإسطخرى ٥٢ ، صورة الأرض ١٨٩ ، أحسن التقاسيم ٦٣ ، تقويم البلدان ٢٧٣ ، الأعلام الخطيرة (القسم الخاص بالجزيرة : مخطوط مصوّر ٣) ، صبح الأعشى ٣١٥/٤ و ٣٢٦ - ٣٢٧ ، بلدان الخلافة الشرقية ١١٥ ، كانار ٧٦ .

(٣) سليمان صائغ (تاريخ الموصل ٣١/١) ، التاريخ السياسي ٢٠٦/١ ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦٤١/١ .

(٤) أحسن التقاسيم ٦٣ .

(٥) معجم البلدان ١٣٤/٢ ، الترجمانة الكبرى ١٨٣ ، التاريخ السياسي ٢٠٦/١ .

(٦) أحسن التقاسيم ٦٣ ، التاريخ السياسي ٢٠٦/١ .

(٧) الإسطخرى ٥٢ ، صورة الأرض ١٨٩ ، التاريخ السياسي ٢٠٦/١ .

سَمِيطاً (١) ، ويمتدّ إلى جسر منبج (٢) ، فالرّقة (٣) ، فقرّ قيسياً (٤) ، فماندة (٥) ، وأسفل منها بشي* قليل عند انعطاف النهر جنوباً (٦) ، ينقطع الحدّ على الفرات .

(١) الأعلام النفيسة ١٠٦، ابن الفقيه ١٣٣، الإصطخرى ٥٢، صورة الأرض ١٨٩، معجم

ما: استعجم ٧٥٧ ، بلدان الخلافة ١٣٢ و ١٣٩ .

(٢) فتوح البلدان ١٨٠، الإصطخرى ٥٢، الطبري ٥٦٥/٤، صورة الأرض ١٨٩، بلدان الخلافة ١٣٢.

(٣) الأعلـاق النفيسة ٩٠ و٩٣، ابن الفقيه ١٣٢، الإصطخرى ٥٢، الطبرى ٤/٥٤، صورة الأرض ١٨٩،

مجمع ما استمع ٦٦٦، مجمع البلدان ٥٩/٣، تقويم البلدان ٢٢٤، بلدان الخلافة ١٣٢.

(٤) فتوح البلدان ١٢٨، الأعلام النفيسة ١٠٦، ابن الفقيه ١٣٢، الأصغر ٥٢، ص ٥٠٠

الأرض ١٨٩، أحسن التقاسيم ١٣٨، بلدان الخلافة ١٣٢.

(٥) فتوح البلدان ١٨٣، ابن الفقيه ١٣٣، الاطخري ٥٤، صورة الأرض ١٨٧، أحسن التقاسيم

٥٤٠ معجم البلدان ٢/٧٢، تقويم البلدان ٢٨٦، صبح الأعشى ٤/٣٣٣، بلدان الخلافة

• ۱۳۲، ۷۶، ۷۷

(٦) بلدان الخلافة ٨٩ •

ملاحظة : حمل الأمطار، وهو من أوائل الجغرافيين العرب محدّ الجزيرة يمتدّ

إلى مسافة متقدمة في الجنوب على الفرات، إذ رأينا ه يصل بحرهما الشرقي الجنوبي

إلى الأنبار (المالك والمالك ٥٥ و ٥٤) • ونقل عنه ذلك ابن حوقل في (صورة الأرض ١٨٩) و

٢٠٥) وأبرز الفداء في (تقويم البلدان ٢٧٣) هو القلقشندي في (صبح الأعشى ٣١٤/٤).

وبذلك فإن الاصطخرى ومن نقلوا عنه يضمنون إلى الجزيرة بعض المدن التي نُسب

على أنها من إقليم العراق ، مثل : (ميت) الواقعة على الضفة اليمنى من الفرات

و(الأنبار) الواقعة إلى الجنوب منها ولكن على شرقي الفرات وقد أخرج هاتين

المدينتين من الجزيرة عدد كبير من الباحثين، منهم : كي لسترنج (بلدان الخلافة

الشرقية ٨٩)، و كانار ٧٦، و مشترك (دائرة المعارف الإسلامية ١/٣) ، و نابليون

ماريــــــــــــــني (مجلة المشـــــرق الســـــنة ٦ ص ٤٤٠ ،

وشيت خطّاب (قيادة فتح العراق

والجزيرة ٥٤٩) •

ثم يتجه في خط مستقيم تقريباً إلى تكريت^(١) على نهر دجلة ، حتى ينتهي إلى
السن^(٢) ، والحدثة^(٣) ، والموصل^(٤) . ويبقى على امتداده إلى الشمال ، ثم
يمطد إلى الغرب حتى يتجاوز آمد^(٥) ، على بعد من حد أرمينية^(٦) ، حيث
ينقطع الحد على دجلة ، ثم يمتد مضرباً إلى سُميساط من حيث وقع الابتداء^(٧) .

(الأقسام الداخلية)

وقد جرى الجغرافيون العرب على تقسيم الجزيرة إلى ثلاث كور ، هي :
"ديار بكر : وهي سقي دجلة من منبعه إلى منعطفه العظيم في الجنوب أسفل من
(تل فافان) مع ما في شمالها من أرض تسقيها روافد دجلة الكثيرة التي تصب
في يساره غرب تل فافان . وديار مضر : إلى الجنوب الغربي ، وهي الأراضي
المحاذية للفرات ، من (سُميساط) حيث يفادر سلاسل الجبال منحدرًا إلى عانة مع

(١) ابن خرداذبة (المسالك والممالك ٩٤) ، الأعلاني النفيسة ١٠٦ ، ابن الفقيه
١٢٩ ، الإصطخرى ٥٢ ، صورة الأرض ١٨٩ ، صبح الأعشى ٣١٤/٤ ، كانار ٧٦ ،
دائرة المعارف الإسلامية ٤٣٥/٥ .

(٢) الإصطخرى ٥٢ ، صورة الأرض ١٨٩ ، تقويم البلدان ٧٨٨ ، بلدان الخلافة ١١٤ .
(٣) الإصطخرى ٥٢ ، صورة الأرض ١٨٩ ، أحسن التقاسيم ٥٤ ، معجم البلدان ٣٣٠/٢ ،
تقويم البلدان ٢٨٦ ، بلدان الخلافة ١١٤ .

(٤) ابن الفقيه ١٢٨ ، الإصطخرى ٥٢ ، الطبري ٥٤/٤ ، صورة الأرض ١٨٩ ، أحسن
التقاسيم ٥٤ ، معجم البلدان ٣٣٣/٥ ، خريدة المجانب ٤٤ ، تقويم البلدان
٢٨٤ ، الترجمانة الكبرى ١٨٣ ، بلدان الخلافة ١١٤ ، تاريخ الموصل
٣١/١ .

(٥) الإصطخرى ٥٢ ، صورة الأرض ١٨٩ ، تقويم البلدان ٢٧٤ ، صبح الأعشى
٣٢٤/٤ ، بلدان الخلافة ١٤٠ .

(٦) الإصطخرى ٥٢ ، صورة الأرض ١٨٩ .

(٧) الإصطخرى ٥٢ ، صورة الأرض ١٨٩ ، تقويم
البلدان ٢٧٣ ، صبح الأعشى ٣١٤/٤ .

السهول التي يسقيها نهر البليخ زائد الفرات الآتي من (حَرَّان) وديار ربيعة: في شرق ديار مضر ، وتتألف من الأراضي التي في شرقي الخابور (الكبير) المنحدر من [رأس العين] ، ومن الأراضي التي في شرق الهرماس وهو النهر المنساب في وادي الثرثار نحو الشرق إلى دجلة ، وكذلك ممّا على ضفتي دجلة من أراضٍ تمتدّ بانحدار النهر من تلّ فافان إلى (تكريت) ، أي الأراضي التي في شرقي دجلة حتى (نصيبين) والتي في شرقيها المشتملة على السهول التي يسقيها الزابان الأسفل والأعلى ونهر الخابور الصغير (١) . وكانت "الموصل" على ضفة نهر دجلة القريبة أعظم مدن ديار ربيعة ، و "الرقة" على ضفة نهر الفرات الشرقية قاعدة ديار مضر ، و "أمّ سد" في أعالي نهر دجلة أكبر مدن ديار بكر (٢).

(١) النص مقبوس عن كتاب: بلدان الخلافة الشرقية ص ١١٥، لما فيه من الوفاة بالفرس . ويستطيع القارئ أن يراجع: الأعلام النفيسة ١٠٦ ، الإصطخسري ٥٢ ، صورة الأرض ١٨٩ ، أحسن التقاسيم ١٣٧ ، معجم ما استمع ٣٨١ و ٥٦٨ ، معجم البلدان ١٢٤/٢ و ٤٩٤ ، آثار البلاد ٢٥١ ، الأعلام الخطسية (مخطوط مصوّر ٣) ، تقويم البلدان ٢٧٣ ، خريدة السجائب ٤٤ ، صبح الأعشى ٣١٥/٤ . كانار ٧٧ ، معجم قبائل العرب ٩٤/١ ، تاريخ الموصل ٣١/١ ، التاريخ السياسي ١/ ٢٠٧ .

وما بين المقوفتين أي رأس العين كانت تُعرف في العصر الأموي أيضاً بـ (عين الورد) . أنظر: تاريخ خليفة ابن غياث ٥٣/٢ ، أنساب الأشراف ٢٠٤/٥ ، فتوح البلدان ١٨٠ - ١٨١ ، تاريخ اليمقوبي ٤/٣ ، الطبري ٥٩٦/٥ ، مروج الذهب ٧٣/٢ - ٧٥ ، التنبيه والإشراف ٤٩ و ٢٦٩ ، قيادة فتح العراق والجزيرة ٥١٤ ، أيام العرب في الإسلام ٤٢٧ .

(٢) الإصطخسري ٥٣ ، صورة الأرض ٢٠٣ ، أحسن التقاسيم ٤٧ ، بسط الأرض ٨٨ ، بلدان الخلافة ١١٤ ، كانار ٧٧ ، مجلة المشرق السنوية ١٩٣٦ ص ٢٦١ ، تاريخ الموصل ٣١/١ .

وأعظم مدنها : الموصل " ، قائمة على الطرف الغربي لدجلة فوق نَشْرٍ مرتفع من الأرض حيث تتصل عواقل النهر فتوصل مجرى كبيراً واحداً ، مُطلّة على مياه النهر وسهول نينوى القديمة ^(١) ، وبموقعها هذا وصلت الجزيرة بالعراق ^(٢) من ناحية والجزيرة بالشام ^(٣) من ناحية أخرى ، وقد أدرك القدماء خطورة موقعها هذا حتى قال ابن حوقل : إنّها " فُرْضة لأذربيجان وأرمينية والعراق والشام ^(٤) " وقال ياقوت : إنّها " مَحَطّ رجال الرُكبان ومنها يُقصد إلى جميع البلدان ، فهي : باب العراق ، ومفتاح خراسان ، ومنها يقصد إلى أذربيجان ^(٥) " . وهي قديمة التّسم ^(٦) ، وكانت قبل الفتح حصناً يضم إلى جانبه بعض البيع للنصارى ومحلّة لليهود ^(٧) ، فإِذَا دخلها العرب المسلمون اختطّوها هَرَمَة بن عَرَفْجة البارقسي والي خراجها لعمرو بن الخطاب ^(٨) وبقي فيها المسجد الجامع ^(٩) . وعلا شأنها في عهد بني أمية ، فمَصَّرُوها ^(١٠) وفرشوها بالحجارة ^(١١) ووصلوا بها المصارّة ،

(١) الإصطخرى ٥٣ ، صورة الأرض ١٩٤ ، بسط الأرض ٩٠ ، معجم البلدان ٢٣٣/٥ ، تقويم البلدان ٣٨٤ ، خريدة السجائب ١٣٧ ، تاريخ الموصل ٣٧/١ ، بلدان الخلافة ١١٥ ، كاتار ١١٧ .

(٢) معجم البلدان ٢٣٣/٥ ، نخبه الدمر ١٩٠ .

(٣) ابن الفقيه ١٢٨ .

(٤) صورة الأرض ١٩٥ .

(٥) معجم البلدان ٢٣٣/٥ .

(٦) أحسن التقاسيم ١٣٨ ، معجم البلدان ٢٣٣/٥ ، آثار البلاد ٤٦١ ، صبح الأعشى ٣١٥/٤ .

(٧) فتوح البلدان ٣٢٧ ، ابن الفقيه ١٢٩ ، الطبري ٣٦/٤ ، نخبه الدمر ١٩٠ ، تاريخ

الموصل ٥١/١ ، قادة فتح العراق والجزيرة ٣٩٢ .

(٨) فتوح البلدان ٣٢٧ ، ابن الفقيه ١٢٨ - ١٢٩ ، نخبه الدمر ١٩٠ ، البدايات

والنهاية ٧٢/٧ ، قادة فتح العراق والجزيرة ٣٩٠ - ٣٩٢ .

(٩) نخبه الدمر ١٩٠ ، وذكر المولى أنّ محمد بن مروان هو الذي مَصَّرَها .

(١٠) فتوح البلدان ٣٢٨ ، وذكر المولى أنّ الذي فرش الموصل بالحجارة هو

ابن تليسد صاحب شرطة محمد بن مروان والي الجزيرة ، وفرشها

أيضاً الأمير سعيد بن عبد الملك .

فهذا محمد بن مروان واليها لأخيه عبدالملك يُنشيء لها على دجلة جسر سفـن يربطها بخرائب نينوى التي في الجانب الشرقي^(١)، ويبني عليها الأمير سعيد ابن الخليفة عبدالملك سوراً^(٢)، ويلبها الحر بن يوسف بن الحكم لهشام فينظم أمورها ويبني له فيها داراً فسيحة يزخرفها بأنواع التماوير وينقشها بالساج والترخام والحجارة الملونة فتسمى بالمنقوشة، ثم يسقى في جلب مياه دجلة إلى المدينة فيأذن له هشام بحفر نهر أو قناة كبيرة ويضع تحت تصرفه مبلـغ ثمانية آلاف ألف درهم، لكن الحر يتوفى قبل إتمام المشروع، فيستعمل هشام على الموصل الوليد بن تليد العبسي فيفرغ من حفر النهر سنة ١٢١ هـ وينصب عليه ثمانية أحجار للطلح^(٣). وفي آخره من العصر يجهد مروان الثاني في تكبير المدينة وتوسيعها^(٤) وتزيورها^(٥)، ويبني فيها الجامع الذي عرف بعدئذ بالجامع العتيق، فتصير في عهده قاعدة إقليم الجزيرة^(٦). ويصفى المدينة حاره وبردها قاص^(٧)، وماؤها عذب، إذ أن مياه دجلة التي يتزود منها أهل المدينة عرفت بطيبها ونفعتها وسرعة هضمها للطعام^(٨) حتى قيل: ومن أقسام

- (١) الكامل في التاريخ ٤٣٤/٥، بلدان الخلافة ١١٥، كانار ١١٧ هـ
- (٢) فتوح البلدان ٣٢٨ هـ، كانار ١١٧ هـ
- (٣) صورة الأرض ١٩٤ هـ، الأزدى (تاريخ الموصل ٢٦ - ٢٧ و ٣٥ - ٤٠)، الكامل في التاريخ ١٣٢/٥ و ١٧٦ و ٢٤١ و ٤٢٤ هـ، نخبة النهر ١٩٠ هـ، تاريخ الموصل ٦٤/١ هـ، كانار ١١٧ هـ
- (٤) الأخبار الطوال ١٦٧ هـ
- (٥) معجم البلدان ٢٣٣/٥ هـ
- (٦) معجم البلدان ٢٣٣/٥ هـ، بلدان الخلافة ١١٦ هـ، كانار ١١٣ هـ
- (٧) الإصطخرى ٥٣ هـ، صورة الأرض ١٩٤ هـ، أحسن التقاسيم ١٣٨ هـ، معجم البلدان ٢٣٣/٥ هـ، آثار البلاد ٤٦١ هـ، خريدة المجائب ٤٤ هـ، كانار ١٢١ هـ
- (٨) عيون الأخبار ٧٩/٣ هـ، الإصطخرى ٥٣ هـ، صورة الأرض ١٩٤ هـ، أحسن التقاسيم ١٣٨ هـ، معجم البلدان ٢٣٣/٥ هـ، خريدة المجائب ١٣٧ هـ، الترجمانة الكبرى ٣١١ هـ، كانار ١١٨ هـ

بالموصل عاماً ثم تفقد قوته وجد فيها فضلاً^(١) ، ولا يُزرع فيها من النباتات والشجر إلا الشيء القليل في عدوة دجلة من شقيتها^(٢) . وتضاف إليها كُور كثيرة^(٣) تشتمل على قرى وبواد ، وعلى مزارع وأرياف ومروج غزيرة الإنتاج والخيرات كثيرة المواشي والسائمة من الأغنام والأبقار^(٤) .

و " دجلة " شرقي البلد ، ترفدها مجموعة كبيرة من الأنهار والوديان والينابيع^(٥) ، فهي تستقبل في ضفتها الشرقية بين الموصل وتكريت ميسساة الوابن^(٦) اللذين يصب أحدهما على نحو مائة ميل فوق الآخر^(٧) ، ويمدآن دجلة بنحو النصف من مائها^(٨) ، أما الأسفل منهما فيتوسط في جريانه برية بسببين الحديثة والسّن^(٩) ثم يكون مصبه في دجلة عند مدينة السن^(١٠) ، وأما الأعلى فيمر بـ " باشيزا " على مسيرة يومين من الموصل إلى أرض " حفتون " حيث ينشني قبل أن يتردّ التلال ، ثم يمتدّ حتى يفيض في دجلة على فرســـــــــــــــــيـــــــــــــــــخ مـــــــــــــــــن

-
- (١) عيون الأخبار ٢١٩/١ ، ابن خرداذبة ١٢٠ ، معجم البلدان ٢٣٣/٥ .
 (٢) الإصطخرى ٥٣ ، صورة الأرض ١٩٤ ، أحسن التقاسيم ١٣٨ ، معجم البلدان ٢٣٣/٥ ،
 خريدة العجائب ٤٤ .
 (٣) معجم ما استعجم ١٢٧٨ .
 (٤) فتوح البلدان ٣٢٧ ، ابن خرداذبة ٩٤ ، ابن الفقيه ١٣١ ، الأعلام النفيسة ١٠٦ ، الخراج وصناعة الكتابة ٢٤٥ ، صورة الأرض ١٩٥ و ١٩٦ ، معجم ما استعجم ١٢٧٨ ، معجم البلدان ٢٣٣/٥ ، خريدة العجائب ٤٤ ، نخبة النضر ١٩٠ ، كانار ١١٨ .
 (٥) دائرة المعارف الإسلامية ١٤٩/٩ .
 (٦) بسط الأرض ٩٠ ، بلدان الخلافة ١١٩ ، دائرة المعارف الإسلامية ٣٢٧/ ١٠ .
 (٧) بلدان الخلافة ١١٩ .
 (٨) الإصطخرى ٥٤ ، معجم البلدان ١٣٣/٢ .
 (٩) الخراج وصناعة الكتابة ٢١٤ .
 (١٠) ابن خرداذبة ١٢٥ ، الأعلام النفيسة ٩٠ ، التنبيه والإشراف ٤٧ ، معجم البلدان ١٢٤/٣ ، المسير ١٧٤/١ ، دائرة المعارف الإسلامية ٣٣٣/١٠ ، كانار ١٢٦ .

الحديث (١). وقد أطرى ابن حوقل ما بين الزابين من مراعي ومزارع خصبة، كانت تُنتج لوفرة غيرها وتدقق مياهها، وتربى فيها الأبقار والأغنام والماعز والبخيل والبغال والحمير (٢). كما تستقبل دجلة قبل انتهائها إلى الموصل نهر "الخابور" الأصغر الذي يمر بين جبل الجودي وجبل التنين، ثم يصب في دجلة شمال مدينة فيسابور على نحو مائة وخمسين ميلاً فوق الموصل (٣). ومن الواضح أن دجلة على جانب كبير من الأهمية لأنها تسقي السهول الواسعة الواقعة على ضفتيها، ولأنها ظلت منفذاً لمرور التجارة من الهند وأرمينيا وأذربيجان (٤) و "الحديثة" على الضفة دجلة الشرقية، فوق مصب الزاب الأعلى بفرسوخ وإلى الجنوب الشرقي من الموصل بأربعة عشر فرسخاً (٥). لم يكن فيها حين دخلها العرب غير بيعة وأبيات للنصارى، فمصرها مرثمة (٦) بن هرة البارقى ولم يكن لها كبير شأن في عصر بني أمية حتى جدد عمارتها مروان بن محمد (٧) وقد أطرى الإسطرعى طيب موائها وخصب أرضها وكثرة أشجارها، فقال: "وهي مدينة نزهة جداً، ذات بساتين وأشجار وزروع" (٨). وتحدث ابن حوقل عن

(١) ابن خردادبة ١٧٥، الأعلام النفيسة ٩٠، التقية والإشراف ٤٧، معجم

البلدان ٣٠٨/١ و ١٧٣/٢، غريدة المعائب ١٣٨، المعبر ١٧٤، كانار ١٦٢،

دائرة المعارف الإسلامية ٣٢٢/١٠.

والفرس ثلاثة أميال ويساوي ٥٥٤٤ متراً. أنظر: معجم البلدان ٢٦/١، المكايل

والأوزان الإسلامية ٩٤، الخراج والنظم المالية ٢٩٩.

(٢) صورة الأرض ١٩٥ و ١٩٦ و ٢٠٥، كانار ١٢٥.

(٣) التقية والإشراف ٤٨، معجم البلدان ٤٤٢/٢ و ٢٨٤/٤، بلدان الخلافة

١٢٢، دائرة المعارف الإسلامية ١٥٠/٩، كانار ١١٠.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ٣٣٤/٥ و ١٥٢/٩، الأطل شاعر بني أمية ٧٩ و ٩٦.

(٥) أحسن التقاسيم ١٣٩، معجم البلدان ٣٣٠/٢، نخبة الدرر ١٩٠، تقويم البلدان ٢٨٦،

كانار ١٢٢، دائرة المعارف الإسلامية ٣٤٧/٢.

(٦) فتوح البلدان ٣٦٨، ابن الفقيه ١٢٩، معجم البلدان ٣٣٠/٢، كانار ١٢٢،

دائرة المعارف الإسلامية ٣٤٧/٢.

(٧) معجم البلدان ٣٣٠/٢، دائرة المعارف الإسلامية ٣٤٧/٢.

(٨) الإسطرعى ٥٣.

(١) ١٠٨٠ لا يقرى ١٨٠٠

٥/٣٥٣ ٥٠٠٠ لا يقرى ١٨٠٠ لا يقرى ٣/٥٨٨ لا يقرى ٨٧٨ لا يقرى ١٨٠٠

(٥) لا يقرى ٨/٧٨٨ لا يقرى ٥٠٠ لا يقرى ٣٥ لا يقرى ١٨٠٠ لا يقرى ٨٧٨ لا يقرى ١٨٠٠

٥٠٠ - ٥/٣٥٣ لا يقرى ١٨٠٠ لا يقرى ٨/٧٨٨ لا يقرى ١٨٠٠

(١) لا يقرى ٨/٧٨٨ لا يقرى ٥٠٠ لا يقرى ٣٥ لا يقرى ١٨٠٠ لا يقرى ٨٧٨ لا يقرى ١٨٠٠

(٢) لا يقرى ٨/٧٨٨ لا يقرى ٥٠٠ لا يقرى ٣٥ لا يقرى ١٨٠٠ لا يقرى ٨٧٨ لا يقرى ١٨٠٠

(٣) لا يقرى ٨/٧٨٨ لا يقرى ٥٠٠ لا يقرى ٣٥ لا يقرى ١٨٠٠ لا يقرى ٨٧٨ لا يقرى ١٨٠٠

(٤) لا يقرى ٨/٧٨٨ لا يقرى ٥٠٠ لا يقرى ٣٥ لا يقرى ١٨٠٠ لا يقرى ٨٧٨ لا يقرى ١٨٠٠

(٥) لا يقرى ٨/٧٨٨ لا يقرى ٥٠٠ لا يقرى ٣٥ لا يقرى ١٨٠٠ لا يقرى ٨٧٨ لا يقرى ١٨٠٠

(٦) لا يقرى ٨/٧٨٨ لا يقرى ٥٠٠ لا يقرى ٣٥ لا يقرى ١٨٠٠ لا يقرى ٨٧٨ لا يقرى ١٨٠٠

(٧) لا يقرى ٨/٧٨٨ لا يقرى ٥٠٠ لا يقرى ٣٥ لا يقرى ١٨٠٠ لا يقرى ٨٧٨ لا يقرى ١٨٠٠

(٨) لا يقرى ٨/٧٨٨ لا يقرى ٥٠٠ لا يقرى ٣٥ لا يقرى ١٨٠٠ لا يقرى ٨٧٨ لا يقرى ١٨٠٠

(٩) لا يقرى ٨/٧٨٨ لا يقرى ٥٠٠ لا يقرى ٣٥ لا يقرى ١٨٠٠ لا يقرى ٨٧٨ لا يقرى ١٨٠٠

(١٠) لا يقرى ٨/٧٨٨ لا يقرى ٥٠٠ لا يقرى ٣٥ لا يقرى ١٨٠٠ لا يقرى ٨٧٨ لا يقرى ١٨٠٠

(١١) لا يقرى ٨/٧٨٨ لا يقرى ٥٠٠ لا يقرى ٣٥ لا يقرى ١٨٠٠ لا يقرى ٨٧٨ لا يقرى ١٨٠٠

ديسار مضر :

وأجلّ مدنها " الرقة " ، وهي قديمة ^(١) ، تقع على الشاطئ الشرقي للفرات قبيل اتصاله بنهر البليخ ^(٢) ، وإنما سُميت كذلك لأنّ الماء ينسبط عليها عند المدّ وكل أرض هذه حالها تسمى رقة ^(٣) . وهي في أرض مستوية خصبة كثيرة البساتين ^(٤) والزروع مثل القمح ، ولولى جانبها في وسط الفرات أقيمت مطاحن القمح التي عملت بقوة الماء ^(٥) . كما زُرعت فيها أشجار الزيتون بكثرة لاقتة ، ويبدو أنّ أهلها عرفوا نوعاً من مساصر الزيتون البدائية ، فاستخرجوا الزيت من ثمار الزيتون ، وأعادوا من بعض الزيت غير الصافي في صناعة الصابون ، فقد ذاع أنّ صناعة الصابون الجيد تقدّمت في الرقة ^(٦) . وبظاهر المدينة بين نهر البليخ والفرات يقوم للسريان دير كبير مشهور هو دير زكا ^(٧) . ودون المدينة نهر سيده يخرج عن يمين الفرات ويمود فيصبّ فيه ^(٨) ، أجراه الأمير سعيد بن عبد الملك المُلقب

(١) بلدان الخلافة ١٣١ .

(٢) ابن الفقيه ١٣٢ ، ابن خرداذبة ٧٣ ، الإصطخرى ٥٣ ، أحسن التقاسيم ١٤١ ، بسط الأرض ٨٨ ، معجم البلدان ٥٩/٣ .

(٣) الإصطخرى ٥٣ ، معجم البلدان ٥٩/٣ ، تقويم البلدان ٢٧٧ ، بلدان الخلافة ١٣٢ ، كانار ٩٠ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٥٧/١٠ .

(٤) معجم ما استمع ٦٦٦ ، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصوّر ٢١) ، بلدان الخلافة ١٣٢ ، كانار ٩٠ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٦٠/١٠ .

(٥) الإصطخرى ٥٣ ، أحسن التقاسيم ١٤١ ، معجم البلدان ٥٩/٣ ، بلدان الخلافة ١٣٣ ، كانار ٩١ .

(٦) صورة الأرض ١٦٨ .

(٧) صورة الأرض ١٦٩ ، أحسن التقاسيم ١٤١ ، وانظر : الخراج ٤١ .

(٨) الديارات ٢١٨ ، معجم البلدان ٥١٧/٧ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٥٧/١٠ ، وهذا الدير يُدعى على الأرجح في المائة الخامسة للميلاد ، ومن مشاهير رهبانه : مار يوحنا بن قورسوس لترقي ٥٣٨ م وضمود وعند السريان من أفضلا لقسيسين ، ومار رقياس ٦١٣ م وكان ذا شأنٍ لصيت بفضيلته وعلته (الديارات ٣٨٤ - ٣٨٥) .

(٩) معجم البلدان ٣٢١/٥ ، بلدان الخلافة ١٣٧ ، كانار ٩٦ .

وعلى مرحلة واحدة غربي بلد فيما بينها وبين نجر تقوم قرية
 " تل أعفر" ^(١) على جبل منفرد ، في وسط واد فيه نهر جار . وهي حصينة تمنعها
 قلعة ، ولها ربض ^(٢) ، وأرضها طيبة تنمو بها أشجار النخيل ^(٣) .
 و " برقميد" على طريق القوافل المتجه من الموصل إلى نصيبين ، بينها
 وبين الموصل مسافة تتراوح بين سبعة عشر وتسعة عشر فرسخا ، وبينها وبين
 نصيبين عشرة فراسخ ^(٤) ، تقدمت وازدهرت نظراً لأهمية موقعها ^(٥) . شرب أهلها
 من آبار عذبة فيها ^(٦) ، وتزرع أرضها بالحنطة والشعير ^(٧) . وهي مسورة ولها
 ثلاثة أبواب ^(٨) .

وعلى خمسة فراسخ إلى الغرب من برقميد بينها وبين نصيبين ، تقوم قرية
 صغيرة في البرية يُقال عليها " أذرمة" ^(٩) ، كثيرة الفلات ^(١٠) ، وماؤها من
 آبار ^(١١) ، وعند ياقوت أن بها نهراً يشقها ^(١٢) وعليه قنطرة معقودة بالصخر
 والجص . ويشتمل عليها سوران أحدهما دون الآخر ، ومن خارجه

-
- (١) معجم البلدان ٣٩/٢ ، تقويم البلدان ٢٨٤ ، صبح الأعشى ٣٣٣/٤ ، بلدان
 الخلافة ١٣٠ .
 (٢) معجم البلدان ٣٩/٢ ، تقويم البلدان ٢٨٤ ، صبح الأعشى ٣٣٣/٤ ، كانسار
 ١٠٧ .
 (٣) معجم البلدان ٣٩/٢ ، كانار ١٠٧ .
 (٤) معجم البلدان ٣٨٧/١ ، آثار البلاد ٣٠٦ ، كانار ١٠٤ ، دائرة المعارف
 الإسلامية ٥٥٤/٣ .
 (٥) دائرة المعارف الإسلامية ٥٥٤/٣ .
 (٦) صورة الأرض ١٩٩ ، معجم البلدان ٣٨٧/١ ، كانار ١٠٥ .
 (٧) صورة الأرض ١٩٩ ، كانار ١٠٤ .
 (٨) بلدان الخلافة ١٣٠ ، كانار ١٠٤ .
 (٩) فتوح البلدان ١٨٤ ، أحسن التقاسيم ١٤٠ ، معجم البلدان ١٣٧/١ .
 (١٠) صورة الأرض ١٩٩ ، كانار ١٠٤ .
 (١١) أحسن التقاسيم ١٤٠ .
 (١٢) معجم البلدان ١٣٧/١ .

وفي البرية بين سنجار وتكريت على خمسة عشر فرساً من دجلة تقسم
 "الحضر" (١)، والثرثار يشقها عند منتصف السافة بين سنجار وملتها بدجلة
 قرب تكريت (٢). وهي حصن عظيم كالمدينة (٣)، قديم فيه آثار عجيبة (٤) والمدينة
 قائمة على تل، مبنية بالحجارة البيض المهندمة بيوتها وسقوفها وأبوابها،
 وتشتمل على ستين برجاً كباراً، وبين كل برجين تسعة أبراج صغار، على رأس كل
 برج قصر أسفله حمام (٥). وقريباً منها يقع المكان المعروف بـ "المقار" (٦).
 و "بلسد" على سبعة فراسخ شمال الموصل على الجانب الغربي لدجلة (٧)،
 تقوم مكان المدينة الفارسية شهرباد (٨). وهي مدينة صغيرة (٩) ماؤها من دجلة،
 كثيرة الزروع والأشجار (١٠)، وإلى جانبها في وسط دجلة أقيمت مطاحن القمح
 التي عملت بقوة الماء (١١).

-
- (١) ابن الفقيه ١٢٩، الإصطخرى ٤٧/٢، معجم ما استمع ٤٥٣، معجم البلدان
 ٢٦٨/٢، آثار البلاد ٣٥٤، تقويم البلدان ٢٨٤، تاريخ الموصل ٣٠/١، دائرة
 المعارف الإسلامية ٤٥٨/٧.
- (٢) ابن الفقيه ١٢٩، معجم ما استمع ٤٥٤، معجم البلدان ٢٦٨/٢، آثار البلاد
 ٣٥٤، بلدان الخلافة ١٢٩، دائرة المعارف الإسلامية ٤٥٨/٧.
- (٣) السيرة النبوية ٧١/١.
- (٤) تقويم البلدان ٢٨٤، كانار ١٠٨.
- (٥) ابن الفقيه ١٢٩، معجم البلدان ٢٦٨/٢، بلدان الخلافة ١٢٩، دائرة
 المعارف الإسلامية ٤٥٨/٧.
- (٦) أنساب الأشراف ٣٢١/٥.
- (٧) تقويم البلدان ٢٨٤، نخبة الدرر ٩٩١، كانار ١١٧.
- (٨) بلدان الخلافة ١٣٠.
- (٩) ابن الفقيه ١٢٩، الإصطخرى ٥٣، تقويم
 البلدان ٢٨٤، الترجمان الكبري ٤٩٠.
- (١٠) الإصطخرى ٥٣، صورة الأرض ١٩٩، كانار ١١٧.
- (١١) صورة الأرض ١٨٩.

بضم الأول وكسره (١) ، وبقربه مكان آخر يقال له : " الشرعبيّة " (٢) ، ويصّب الحثّاث في نجلة (٣) .

و " سنجار " قديمة (٤) ، تقع في وسط بريّة ديار ربيعة (٥) ، في سفح جبل عال غصب (٦) بغضره وبساتينه وكرومه التي زُرعت بالجوز واللوز والزيتون والرمان والأترنج والسماق ، إلى سعة غلات من التّمس (٧) . ويشقّها نهر يصبّ في الثرثارة وعيونها كثيرة (٨) . وتشتهر من بين بلدان الجزيرة بنمو أشجار النخيل في أراضيها (٩) . وبقربها " الحيال " وهو واد فيه مشاجر وضياح وكروم (١٠) .

(١) معجم ما استعجم ٣٦٠ ، معجم البلدان ٣٦٥/١ .

(٢) معجم البلدان ٣٣٥/٣ .

(٣) معجم البلدان ٢٦٢/٢ .

(٤) قدامة (الخراج ٢١٦) .

(٥) الإصطخرى ٥٣ ، صورة الأرض ١٩٩ ، معجم ما استعجم ٧٦٠ ، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصوّر ٤٥) .

(٦) صورة الأرض ١٩٩ ، بسط الأرض ٩٠ ، معجم البلدان ٢٦٢/٣ ، آثار البلاد ٣٩٣ ، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصوّر ٤٥) ، تقويم البلدان ٢٨٣ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٢ / ٢٤٤ .

(٧) صورة الأرض ١٩٩ ، بسط الأرض ٩٠ ، معجم البلدان ٢٦٢/٣ ، آثار البلاد ٣٩٣ ، تقويم البلدان ٢٨٣ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٢ / ٢٤٤ ، كانسار ١٠٦ .

(٨) صورة الأرض ١٩٩ ، أحسن التقاسيم ١٤٠ ، معجم البلدان ٢٦٢/٣ ، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصوّر ٤٥) ، نخبة النهر ١٩١ ، كانسار ١٠٦ .

(٩) الإصطخرى ٥٣ ، صورة الأرض ١٩٩ ، أحسن التقاسيم ١٤٠ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٢ / ٢٤٤ .

(١٠) صورة الأرض ١٩٩ .

و " الفُديّين " قرية على شاطئ النهر (١) ما بين ماكسين وقرقيسيا (٢) . وعلى مائة ميل أو يزيد جنوب نصيبين القرية التي تشق على نهر الخابور وهي المسروفة بـ " الشُّكَّير " (٣) الكثيرة الفلات (٤) . وعندنا ينساب فاضل مياه نهر الهرماس بعد أن يرفد الخابور في واد يقال له : " الثَّرثار " ، وهو واد عظيم بالجزيرة ترفده أودية كثيرة (٥) ، ويجري في بريّة ديار ربيعة فيمترّ جنوب سنجار ويشقّ " الحَضْر " (٦) ، ويخرج منها مفيضاً من سيره باتجاه الجنوب قليلاً حتى يصل إلى دجلة فيصبّ فيها عند تكريت بين " الكُحَيْل " و " رأس الأيّل " (٧) واتّسع هذا الوادي وكبره يسمّى بمرور القوارب فيه بين الخابور ودجلة (٨) ، وعلى جانبه قرى وجنان كثيرة (٩) .

وإلى جانب الثرثار وادي " الحَفَّاك " (١٠) ، يأخذ من الهرماس نهر نصيبين (١١) وعلى منافتيه تلال وقور (١٢) . وإلى جانبه موضع يقال له : " يــــُــــراق " .

- (١) ابن خرداذبة ٧٤ ، ابن الفقيه ١٣٣ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٦٩/٨ .
- (٢) ابن خرداذبة ٩٦ ، معجم البلدان ٢٤٠/٤ .
- (٣) ابن خرداذبة ٧٤ ، ابن الفقيه ١٣٦ ، أحسن التقاسيم ٥٤ ، كانار ١٠١ .
- (٤) صورة الأرض ٢٠١ .
- (٥) ابن خرداذبة ١٧٥ ، الأعلاق النفيسة ٩٠ ، ابن الفقيه ١٣٥ ، معجم ما استمع
- ٣٣٨ ، معجم البلدان ٧٥/٢ ، كانار ١٠٨ .
- (٦) ابن خرداذبة ١٧٥ ، الأعلاق النفيسة ٩٠ ، ابن الفقيه ١٢٩ و ١٣٥ ، بسط
- الأرض ٩٠ ، معجم البلدان ٧٥/٢ ، آثار البلاد ٣٥٤ ، كانار ١٠٨ .
- (٧) ابن خرداذبة ١٧٥ ، الأعلاق النفيسة ٩٠ ، ابن الفقيه ١٣٥ ، معجم ما استمع
- ٣٣٨ ، معجم البلدان ٧٥/٢ .
- (٨) ابن الفقيه ١٢٩ ، معجم البلدان ٧٥/٢ .
- (٩) ابن الفقيه ١٢٩ ، معجم البلدان ٧٥/٢ ، آثار البلاد ٣٥٤ .
- (١٠) معجم ما استمع ٤٥٠ ، معجم البلدان ٢٦٢/٢ ، كانار ١٠٨ .
- (١١) معجم البلدان ٢٦٢/٢ .
- (١٢) أنساب الأشراف ٣٣/٥ .

أنّ مَظْم مياه هذا النهر تنساب من موضع " السَّكَّير " القرية الكائنة على شى يسير فوق ملتقى الهرماس بالخابور إلى وادي الثَّرثار ^(١). فتمتدح من ذلك في الخابور مياه عظيمة ترفده وتنشط من جريانه فيصير نهراً كبيراً ^(٢) يسير باتجاه الجنوب، ثم يخيّر اتجاهه في الجزء الأخير من مجراه صوب جنوب الجنوب الغربي ^(٣) حتى ينتهي إلى مصبه في الفرات أسفل من مدينة قرقيسيا ^(٤). وبهذا يجري النهر في سهل الجزيرة مسافة طويلة تُقدَّر بحوالي أربع مائة كيلومتر، هي طول هذا النهر من منبعه إلى مصبه ^(٥). وعلى ضفتي النهر أراض مخصبة للغاية كثيرة القلات والفواكه ^(٦)، وبخاصة عند مجراه الأدنى. وقد ذكر الجغرافيون العرب أسماء عدة أماكن متفاوتة في أهميتها على مجراه بين جبل عبدالعزیز وقرقيسيا ^(٧)، لعل أشهرها: قرية " ماكين " ^(٨) على شعبة فراسخ مسنن قرقيسيا وعلى يومين من عين الورد ^(٩)، وتجاورها بحيرة صغيرة عميقة لا يُسَبَّر غورها تسمى المنخَرَق استدارتها مسافة جريب أو أزيد ومياها زرقاء ^(١٠).

(١) بلدان الخلافة ١٢٧.

(٢) الأعلام النفيسة ٩٠، ابن الفقيه ١٣٥، معجم البلدان ٤٣٤/٢.

(٣) بلدان الخلافة ١٢٧، دائرة المعارف الإسلامية ١٦٩/٨.

(٤) ابن خرداذبة ١٧٥، الأعلام النفيسة ٩٠، ابن الفقيه ١٣٥، معجم البلدان

٤٣٤/٢، بلدان الخلافة ١٢٧، دائرة المعارف الإسلامية ١٦٩/٨، مجلة المشرق

السنة ١٩٢٨ ص ٥٠٢.

(٥) نهر الذهب ٦٠١/١، مجلة المشرق السنة ١٩٢٨ ص ٥٠٢.

(٦) صورة الأرض ١٩٦.

(٧) كانار ٩٨، دائرة المعارف الإسلامية ١٦٩/٨، مجلة المشرق السنة ١٩٢٨ ص ٥٠٢.

(٨) ابن خرداذبة ٧٤، ابن الفقيه ١٣٣، أحسن التقاسيم ٥٤، معجم البلدان

٤٣/٥، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصوّر ٤٢)، تقويم البلدان ٢٨٣، صبح

الأعشى ٣٢١/٤، كانار ١٠١.

(٩) صبح الأعشى ٣٢١/٤.

(١٠) صورة الأرض ١٩٠ - ١٩١، نخبة السمر ١٩١، دائرة المعارف

الإسلامية ١٦٩/٨، والجريب: يعادل ٨٧٥ متراً مربعاً و $\frac{٦٨٦٤}{١٠٠٠٠}$ من المتر (الخراج

والنظم المالية ٢٨٦).

في لُحْفَ جَبَل ، قديمة (١) وهي صغيرة (٢) طيبة خصبة كثيرة الثَلَاث والزروع والبساتين، وتشتمل على مياه جارئة (٣) . ومن أعمالها يُجلب المِغْلَب الذي تَنْطَيَّب به الأعراب (٤) و " كَفَرْتَوْثَا " حصن بين دارا وعين الوردة (٥) ، غربي دارا بخمسة فراسخ (٦) في أرض مستوية . حطَّها من المياه والزروع والأشجار زيل (٧) .
ومخرج نهر الخابور من جبال الجزيرة الشماليَّة (٨) ، وابتداء جريانه في واد يسمى الجَرْجَب ، وبعد أن تصبَّ فيه مياه بنابيع عين الوردة (٩) تنظم مياهه ، ويصبُّ ابتداءً من هذا الموضع نهراً يطلق عليه اسم الخابور (١٠) . وتتصل مياه النهر الجارية باتجاه الجنوب الشرقي بنهر ماردين (١١) ، ثم يصبُّ فيه أسفل من ذلك قُبَيْل مروره بين جبل عبدالعزيز وجبال سنجار مياه نهر نصيبين (الهرماس) هذا إلى ما ينصبُّ فيه من مياه جداول كثيرة في أيام الربيع والشتاء (١٢) . على

(١) الإصطخرى ٥٣ ، صورة الأرض ١٩٩ ، معجم البلدان ٤١٨/٢ ، تقويم البلدان ٢٨١ ، نخبة الدهر ١٩١ ، كانار ٩٦ و ٩٩ .

(٢) الإصطخرى ٥٣ ، أحسن التقاسيم ١٤٠ ، تقويم البلدان ٢٨١ .

(٣) الإصطخرى ٥٣ ، صورة الأرض ١٩٩ - ٢٠٠ ، معجم البلدان ٤١٨/٢ ، كانار ١٠٠ .

(٤) معجم البلدان ٤١٨/٢ ، كانار ١٠٧ .

(٥) فتوح البلدان ١٨٤ ، صورة الأرض ٢٠٠ ، معجم البلدان ٤٦٨/٤ .

(٦) معجم البلدان ٤٦٨/٤ ، تقويم البلدان ٢٨٤ .

(٧) الإصطخرى ٥٣ ، صورة الأرض ٢٠٠ ، تقويم البلدان ٢٨٤ .

(٨) كانار ٧٦ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٦٩/٨ ، مجلة المشرق السنة ١٥ ص ١٥٠ .

(٩) ابن خرداذبة ١٧٥ ، الأخلاق النفيسة ٩٠ ، ابن الفقيه ١٣٥ ، معجم الاستعجم

٦١٣ ، معجم البلدان ١٣/٣ ، كانار ٩٧ ، مجلة المشرق السنة ١٩٢٨ ص ٥٠٢ .

(١٠) دائرة المعارف الإسلامية ٤٦٢/٩ .

(١١) معجم البلدان ٣٣٤/٧ ، كانار ١٠١ ، دائرة المعارف

الإسلامية ١٦٩/٨ .

(١٢) الأخلاق النفيسة ٩٠ ، ابن الفقيه ١٣٥ .

معجم البلدان ٤٣٤/٢ ، كانار ٩٨ و ١٠١ ، دائرة المعارف

الإسلامية ١٦٩/٨ ، مجلة المشرق السنة ١٩٢٨ ص ٥٠٢ .

قلعة حصينة واسعة الأرضاء مرتفعة الأشوار^(١) ، مبنية على قلة جبل شاهق^(٢) مشرف على ما يدانيه من جبال تلك البقاع والبراري ، فليس ثمة شيء يحول دون النظر إلى ذلك الفضاء الواسع الممتد إلى جهات الخابور وضاخان الفرات^(٣) . والماء فيه من عيون قليلة^(٤) ، وهو أوم نقي ، وأشجاره وكرومه كثيرة^(٥) . ويقوم في شرقها على نثر من الأرض دير نزه طيب ، جامع بين جمال الموقع وحسن المستشف ونقاوة الهواء وعذوبة الماء ، يُحدّق به الجبل من سائر جهاته ما عدا الجنوبية فإنه يطل منها على رستاق ماردين^(٦) . وأسفل منها في الصحراء من جانب القبلة ، على أربعة فراسخ كما ذكر ابن حوقل وفرسخين على ما ذكر ياقوت ، تقع قرية " دُنَيْسِر " التي اشتهرت بكونها سرقاً يجتمع فيه الناس^(٧) . ماؤها من آبار عذبة ، وهو أوم نقي^(٨) . و " دارا " بين نصيبين وماردين^(٩) ، على بضعة أميال إلى الشرق من دنيسر^(١٠) .

(١) الإسطخرى ٥٢، صورة الأرض ٢٠٢ ، بسط الأرض ٩٠ ، معجم البلدان ٣٩/٥ ، آثار

البلاد ٢٥٦ ، كانار ٩٨ ، مجلة المشرق السنة ١٩٠٩ ص ٥٨٩ .

(٢) الإسطخرى ٥٢ ، بسط الأرض ٩٠ ، معجم البلدان ٣٩/٥ ، الأعلام الخطيرة (مخطوط

مصور ٣٧ ، تقويم البلدان ٢٧٨ ، صبح الأعشى ٤/٣١٦ ، كانار ٩٨ ، دائرة

المعارف الإسلامية ٤٢/٤ .

(٣) صورة الأرض ٢٠٢ ، معجم البلدان ٣٩/٥ ، آثار البلاد ٢٥٦ ، مجلة المشرق السنة

١٩٠٩ ص ٥٨٩ .

(٤) صورة الأرض ٢٠٢ ، معجم البلدان ٣٩/٥ ، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصور ١٣٠) .

(٥) صورة الأرض ٢٠٢ ، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصور ١٣٠) .

(٦) الديارات ٣٨١ .

(٧) صورة الأرض ٢٠٢ ، معجم البلدان ٤٧٨/٢ ، نخبة الدهر ١٩١ ، تاريخ الموصل

٢/١٦١ ، دائرة المعارف الإسلامية ٤٢/٤ .

(٨) معجم البلدان ٤٧٨/٢ .

(٩) بسط الأرض ٩٠ ، معجم البلدان ٤١٨/٢ .

(١٠) بلدان الخلافة ١٣٦ .

من الفرات^(١)، عند تقاطع الطريق الممتد بين سُميساط إلى حَرَّان^(٢)، بينها وبين حَرَّان ستة فراسخ^(٣)، قائمة في غور عند سفح جبل، وتحيط بها الجبال من ثلاث جهات، وتتصل من الناحية الجنوبية الشرقية بنهر دِيَّمان الذي يصب في البليخ^(٤). تُنمَّد فيها عدد كبير من الأديرة يزيد على ثلاثمائة دير^(٥)، وأشاد الجغرافيون العرب بكنيستها التي بنتها ميلاني وعدوها، واحد عجائب العالم الأربع^(٦)، وأنه ليس في بلاد الروم كنيسة أعظم منها^(٧)، فهي "عجيبه بأزاج ملبسة بالفسافس"^(٨) وذكروا أن الروم تقول: ما من بناء بالمجاعة أبهى من كنيسة الرها^(٩) ومياه المدينة وزروعها وبساتينها كثيرة^(١٠)، وقد اهتم أهلها بتربية النحل^(١١) وفي جنوب حَرَّان على مقربة من شرق نهر البليخ تقع قرية "باجدًا" على

(١) تقويم البلدان ٢٧٧.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ١٠ / ٢٧٢.

(٣) الأنساب ٦ / ٢٠٣.

(٤) الخراج وصناعة الكتابة ٢١٥، التنبيه والإشراف ١١٣، كانار ٩٢، دائرة المعارف الإسلامية ١٠ / ٢٧٢.

(٥) ابن الفقيه ١٣٤، الإصطخر ٥٤، صورة الأرض ٢٠٤، الأملق الخطيرة (مخطوط مصور ٢٧)، تقويم البلدان ٢٧٧، خريدة العجائب ٤٤، بلدان الخلافة ١٢٥، كانسار ٩٢.

(٦) أحسن التقاسيم ١٤١، الأملق الخطيرة (مخطوط مصور ٢٧)، بلدان الخلافة ١٣٥، كانار ٩٢.

(٧) الإصطخر ٥٤، صورة الأرض ٢٠٤، تقويم البلدان ٢٧٧، خريدة العجائب ٤٤، كانار ٩٢.

(٨) أحسن التقاسيم ١٤١، بلدان الخلافة ١٣٥.

(٩) ابن خردادبة ١٦١، الأملق النفيسة ٨٣، ابن

الفقيه ١٣٤، تقويم البلدان ٢٧٧، كانسار ٩٢.

(١٠) الإصطخر ٥٤، صورة الأرض ٢٠٤، كانار ٩١.

(١١) فتوح البلدان ١٧٧، أحسن التقاسيم ١٤٥.

وعين الوردة ^(١)، على مسيرة يوم من الرُّها ^(٢)، يحيط بها جبل على فرسخين منها في سمت الجنوب والشرق ^(٣)، وهي أول مدينة بُنيت على الأرض بعد الطوفان ^(٤) وكانت المقام المختار لمروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين ^(٥)، وقد بنى فيها الخليفة المذكور قسراً أنفق عليه عشرة آلاف درهم ^(٦). وذكر ياقوت أن بها نهراً يسمى باسم قرية هناك يقال له جَلَب، ينبعث من قرية بينها وبين جلاب أربعة أميال، ومنتهاه إلى البليخ نهر الرقة ^(٧). وهي مدينة نزهة ^(٨)، تربتها حمراء ^(٩)، قليلة الماء والأشجار ^(١٠)، اعتنى أهلها بتربية النحل ^(١١)، ويبدو أن ثمة قناة تستمد من البليخ وتزود المدينة بالمياه، هذا بالإضافة إلى ما فيها من الآبار ^(١٢)، وذكر المتنسي أنها محاطة بسور من حجارة ^(١٣). أما "الرُّها" فهي مدينة متوسطة ^(١٤)، على الجانب الشرقي الشمالي

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٢/٣٥٤.

(٢) نهر الفُج ١/٥٥٥.

(٣) تقويم البلدان ٢٧٧، صبح الأعشى ٤/٣١٦.

(٤) الأعلام النفيسة ١٩٦، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصور ١٤)، بلدان الخلافة ١٣٤.

(٥) التنبيه والإشراف ٢٨١، كانار ٩٣ - ٩٤، دائرة المعارف الإسلامية ٢/٣٥٥.

(٦) مروج الذهب ٢/١٩٤.

(٧) معجم البلدان ٢/١٤٩، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصور ١٤).

(٨) أحسن التقاسيم ١٤١.

(٩) تقويم البلدان ٢٧٧، صبح الأعشى ٤/٣١٦.

(١٠) الإمبرور ٥٤.

(١١) فتوح البلدان ١٧٧، أحسن التقاسيم ١٤٥.

(١٢) أحسن التقاسيم ١٤١، تقويم البلدان ٢٧٧، صبح الأعشى ٤/٣١٦.

(١٣) أحسن التقاسيم ١٤١.

(١٤) الإمبرور ٥٤، صورة الأرض ٢٠٤، معجم ما

استعجم ٦٧٨.

الماء (١). ونسبة القلعة إلى دوسر عبدالنعمان بن المنذر ، الذي بناها لمّا جعله النعمان على أفواه الشام (٢).

ويستقبل الفرات من يساره أسفل الرقة بميل نهر البليخ (٣) ، مخرجه من شمال أرض حرّان حيث تجتمع إليه مياه مجموعة من السيون أعظمها عين يقال لها : الذهبانة أو الدّمانة (٤). ويجري البليخ باتجاه الجنوب حتى يصل إلى موضع بنى عليه مسلمة بن عبدالملك حصناً ، فإذا خرج من تحت الحصن سُمي بليخاً ، ويتشعب من ذلك الموضع أنهار تسقي قرى وبساتين (٥) ، ثم تصبّ في الفرات أسفل الرقة (٦) .

ومن أرض البليخ " باجروان " (٧) ، بينه وبين شط الفرات ليلة (٨) ، وموضع نزه خصب واسع (٩) .

ويمرّ البليخ أثناء جريانه بمدن جليلة سقيها منه ومن روافده ، فبالقرب من منبعه مدينة مشهورة هي " حرّان " ، كائنة في بقعة مستوية (١٠) ، بين الرّها

(١) صورة الأرض ١٩٨ .

(٢) الأتلاق الخطيرة (مخطوط مصوّر ٢٣) ، تقويم البلدان ٢٧٧ ، صبح الأعشى ١٣٨/٤ .

(٣) ابن خرداذبة ١٧٥ ، الأتلاق النفيسة ٩٠ ، معجم ما استمعجم ٢٧٨ ، معجم

البلدان ٤٩٣/١ ، بلدان الخلافة ١٣٤ ، كانار ٩٠ .

(٤) ابن خرداذبة ١٧٥ ، الأتلاق النفيسة ٩٠ ، معجم البلدان ٤٩٣/١ ، بلدان الخلافة

١٣٤ ، كانار ٩١ .

(٥) معجم البلدان ٦١/١ و ٤٩٣ ، ٢/٦٦٥ ، نهر الذهب ٦٠١/١ ، بلدان الخلافة

١٣٤ .

(٦) الأتلاق النفيسة ٩٠ .

(٧) معجم ما استمعجم ٢٢٠ و ٢٧٨ ، معجم البلدان ٣١٣/١ ، كانار ٩٤ .

(٨) معجم ما استمعجم ٢٢٠ .

(٩) الإصطبري ٥٥ صورة الأرض ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(١٠) صورة الأرض ٢٠٤ ، معجم ما استمعجم ٤٣٥ ، بلدان الخلافة ١٣٤ ، دائرة

المعارف الإسلامية ٣٥٤٧ .

بسميد الخير . وبإزائها قناتا الهنيء والمرى ، عفرتهما هشام بن عبدالمسلك ،
تأخذان من الفرات فتسقيان عدة بساتين ، ثم يكون مصبهما فيه ^(١) . وبسبب
القناتين تقوم ضاحية رقة واسط حيث بنى هشام جسراً على الفرات وقصرين كان
ينزلهما في طريقه إلى الرمافة ، واختط فيها سوقاً عظيمة عرفت بسوق هشام ^(٢)
وبقرب المدينة : تل راذان ، مرج الفيازن ، المدبير ، وحبيس وهو موضع فيمد
قبور قوم شهداء ممن شهد صفين مع علي ^(٣) . ودون المدينة بفرسخ تقوم الرقة
السوداء ^(٤) . وللمدينة بابان ^(٥) ، وفيها بعض الآثار الرومانية ^(٦) .

وعلى الشاطئ الغربي للفرات تقع أرض "صفين" ، قريبة من الرقة بينها
وبين بالس ^(٧) ، ويفصلها عن الفرات غيضة ملتفة مليئة بالحفر المائية معرضها
مرمى سهم وطولها فرسخان ، يشقها إلى النهر طريق واحد مرصوف بالحجارة ^(٨) .

وبالقرب من صفين على طريق القوافل من الرقة إلى بالس ، تقوم قلعة
"دوسر" فوق صخرة لا ترام ، مطلّة على الفرات من الجانب الشمالي في بر
الجزيرة ^(٩) . وقريباً منها في وسط الفرات أقيمت مظامن القمح التي عملت بقوة

(١) فتوح البلدان ١٨٤ ، معجم البلدان ٤١٩/٥ ، نخبة النحر ١٩١ ، دائرة المعارف
الإسلامية ١٠/١٦٠ .

(٢) فتوح البلدان ١٨٤ ، نهر الذهب ٤٧٨/١ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٠/١٦٠ ، مجلة المشرق
السنة ١٩٣٦ ص ٢٦٢ .

(٣) معجم ما استسجم ٤٥٤ ، معجم البلدان ٤٢/٢ و ٢١٦ و ٧٧/٥ و ١٠١ .

(٤) معجم البلدان ٥٩/٣ ، نهر الذهب ٤٧٨/١ - ٤٧٩ ، مجلة المشرق السنة ١٩٣٦ ص ٣٦٠ .

(٥) أحسن التقاسيم ١٤١ .

(٦) نهر الذهب ٤٨٠/١ .

(٧) الإصحاح ٥٤ صورة الأرض ٢٠٣ ، آثار البلاد ٢١٤ ، بلدان الخلافة ١٣٣ ، دائرة
المعارف الإسلامية ١٤/٢٤٣ .

(٨) مروج الذهب ٥٧٧ ، آثار البلاد ٢١٤ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٤/٢٤٣ .

(٩) معجم البلدان ١٤٢/٢ ، الأعلاق الخطيرة (مخطوط مصور ٢٣) ، تقويم البلدان

٢٧٧ ، نهر الذهب ٤٨٥/١ ، بلدان الخلافة ١٣٣ ، دائرة المعارف

الإسلامية ٦/٤٦٨ .

بتحليل للأوضاع السياسية والظروف التي أثرت في حياة القبائل ومواقفها ،
 فصورّت ما أسفر عنه موت معاوية الثاني من اضطراب للأمور في الشام ، و—
 اضطراب أدى إلى نشوب موقعة مرج راهط ، التي وقعت فيها القبائل اليمنية
 بزعماء كلب إلى جانب الأمويين وناصرت فيها قبائل قيس ابن الزبير ودعت له
 بكل قوتها ، والتي أجلت عن هزيمة القيسيين واستقرارهم بالجزيرة ، مزاحمين
 لتغلب الربمية ومجاورين لواتريهم من كلب واليمينية الذين كانوا ينزلون
 غربي الفرات . الأمر الذي أدى إلى اشتداد المصبات القبلية وعودتها جذعة ،
 فحدثت نزاعات قبلية مسلحة ، شنت فيها قيس بمساعدة تغلب غارات متصلة على
 اليمينية ، وأوقعت بها في أكثر من موطن حتى ألحقها بغير الشام . وما لبثت
 أن تصدعت وحدة قيس وتغلب ، فهاج الشر بينهما وأوقعت كل منهما بالأخرى في
 أيام مذكورة ، حتى أصلح بينهما الخليفة عبد الملك بن مروان . وأنهت الفصل
 بالحديث عن ثورات الخوارج الصفرية الذين كانت كثرتهم الساحقة من بني شيبان
 الربيعيين ، وناضوا الدولة وعمالها في الجزيرة والأقاليم المجرورة ،
 واستطاعوا في كثير من الأحيان السيطرة على مناطق واسعة .

وأفردت الفصل الثاني لشمر الصراع القبلي ، فقرضت في أوله للشمر الذي
 قيل في الخصومة السياسية بين القيسيين واليمنيين عقب مرج راهط ، ونسب
 فيه شعراء قيس إلى تهديد اليمينية وعلى رأسها كلب ، أما شعراء اليمينية
 فمضوا يفخرون بالنصر الذي تحقّق لقومهم على القيسية . ثم وقعت عند شمر
 الصراع القبلي الذي قاله شعراء قيس المضربة وشعراء كلب اليمينية وشعراء
 تغلب الربمية فيما حدث بينهم من وقائع وأيام ، وفاخروا فيه بانتصارات قومهم
 وهجوا فيه أعدائهم وتوعّدوهم وندّدوا بهزائمهم .

وتحدثت في الفصل الثالث عن سائر الشمر القبلي ، فجرّدت القسم الأول منه
 لشمر المديح القبلي الذي أنشأه الأخطل التغلبي في مدح أشرف قبيلته وقبيلة
 بكر التي تتصل بتغلب برابطة الصبينة لربيعة ، واستقام لي فيه أن مدائح
 الأخطل في سادات ماتين القبيلتين اتسم بالنزعة القبلية ، إذ اصطفت
 لتقريظهم كل ما كان يشفبه زعماء القبائل ويروونه إمارة السيادة والشرف
 التي تميّز شخصياتهم وترضي عواطفهم القبلية من فضائل : النباهة وضخامة
 المكانة ، وبذل الأموال في إغاثة المكروبين ومساعدة المحتاجين ، والحفاظ

على كيان القبيلة والصبر على الملمات والفناء في الحرب والوفاء للمشييرة في حمل الديات، والاتصاف بسوءد الأصل ورجحان العقل وسماحة الخلق، وغير ذلك من معاني المديح المألوفة النابعة من صميم الحياة العربية. وقصرت القسم الثاني منه على الفخر القبلي، ورجح لي فيه أن شعراء الجزيرة تداولوا المعاني التي دارت عليها ~~هنا~~ معاصريهم من الشعراء الأمويين وسابقيهم من الشعراء الجاهليين، فهم يفخرون بالمشييرة والرمط الأذنين وبالقبيلة الجامعة والبطون التي تتحدث منها، وما يتصل بهم من مناقب ومآثر، وما عرف عنهم في حياتهم من فضائل: الفروسية والشجاعة، وإيثار حياة البادية، وقسري الضيف والاحتفاء به. وخصصت القسم الثالث منه للهجاء القبلي، وانكشف لي فيه أن الأخطال والقطامي التفلبيين ارتقيا بفن الهجاء بعض الرقي، فلم يلما به عبر القصيدة التقليدية ومن خلال الحماسة والفخر دائما، بل استقلّا به أحيانا عن غيره من الموضوعات فأفرداه في مقطوعات أو أبيات خاصة. كما أن واحداً منهما وهو الأخطال، لم يقتصر في هجائه على الإفادة من المعاني القديمة، بل تأثر بعض التأثير بمعاني الدين الجديد فوصم مهبويه بالضلال والنفاق، وجارى جريراً والفرزدق بعض المجازاة في فحشهما وإقذاعهما.

وعرضت في الفصل الرابع للشعر السياسي، فتحدثت في القسم الأول منسبه عن السياسة في شعر الأخطال التفلبي، وتبين لي فيه أن السياسة تلعب دوراً كبيراً في شعره، فقد جعل أفعاله في الأمويين من السفينانيين والمروانيين دفاعاً عن خلافتهم ونظريتهم في الحكم، وبنّا لمبادئهم، وإشادة بسياسة ولائهم. وتكلمت في القسم الثاني منه على السياسة في شعر الخوارج، وانكشف لي فيه أن أصحاب هذا الشعر لم يستطعموا أن يُبلّروا لنا معتقدهم في نظرية سياسية واضحة المعالم، لأننا لا نجد لهم شعراً مذهبياً يصور وجهة نظرهم التي تعمقتهم وتنصبوا لها، وإنما هو شعر حماسي يذهب في مجموعه في تصوير حروبهم وإصرارهم على مواصلة القتال وتمجيد أبطالهم وقوادهم والإشادة ببسالتهم في مقارعة جيوش الدولة والظهور عليها والتعديدهم بهزيمتها. ومن هنا رأينا اتصال هذا الشعر بالسياسة، لأنه قيل في إطار هذه الخصومة السياسية التي قامت بين فئتين متعارضتين أو بالأحرى بين حزبين كان لكل منهما وجهة نظره في مسألة الخلافة والحكم.

وعقدت الفصل الخامس للشعر الوجداني ، ووقفت في القسم الأول منه عند الوصف ، فخصصت بعضه لوصف الطبيعة الساكنة ، واستبان لي فيه أن شعراء الجزيرة رسموا في تضاعيف قصائدهم مشاهد للصحراء والرياح والمطر والنهر والرحلة النهرية والبحر ، وذكروا كل كبيرة وصغيرة تتصل بها ، ودققوا في ظواهرها ، ونقصوا في صفات موصوفاتها ، وحركوا صورها الساكنة . وقصرت بعضه لوصف الطبيعة المتحركة ، وتبين لي فيه أن شعراء الجزيرة بثوا في قصائدهم الطويلة صوراً للشور الوحي والذئب والفراب والحرباء وطير القطا . وأفردت بعضه لوصف الخمر ، ورجح لي فيه أن تبرز الأطلال والقوامي التغليبيين لهذا الموضوع كان - في الغالب - من خلال القصيدة المامة التي تجمع فلذات شتى ، وأنهما لم يتجاوزا في وصف الخمر بيان مظاهرها وآثارها الخارجية الحسية ، فصورا أشكال آنياتها ووصفا رائحتها وطعمها وغير ذلك مما يقع في دائرة الحواس الإنسانية ، ولم يتطرقا للحديث عن آثارها الداخلية في النفوس والعقول ، مما يؤكد أنهما تناوبا على المعاني القديمة التي تتردد في أدب الخمر عند الأعشى وغيره ، كما أنهما استخدما في وصفها الأوزان الطويلة الضخمة ، هذا بالإضافة إلى ما اتسم به وصفها عندهما من إيجاز واقتضاب وإلى ما اتصف به أسلوبهما من فخامة السبارة وجزالة اللفظ . وجردت القسم الثاني منه للرثاء ، فمضت في بعضه لمراثي السادة ، وصح لي فيه أن شعراء الجزيرة ارتقوا بها ، فلم تعد المراثية جزءاً من قصائدهم بل أفردوا لها مقطوعة خاصة ، وأسقطوا منها أسلوب التمزية البدوي ، وغمّنها بعضهم معاني جديدة أفادوها مما لبس حياة المراثيين أو حياة آبائهم من ظروف العصر الإسلامي وأحداثه ، فيما استمر معظمهم يضيفون إلى تصوير أحزانهم إشادة بآثر المراثيين ومناقبتهم وثناء على خصالهم وصفاتهم العربية من جود وسيادة وعراقة منبت . وتحدثت في بعضه عن مراثي الخوارج لإخوانهم في المذهب ولأهلهم ممن لاقوا حتفهم في صراعهم المرير مع جيوش الدولة ، وتأكد لي فيه أن هذه المراثي جديدة ، فأصحابها لا يكونون في المراثيين خلال المروءة التقليدية التي عهدناها في شعر الرثاء ، لأن قتلهم يحقق سادة حلموا بها . ولذلك شرعوا يمجّدون قتالهم ويشيدون ببطولاتهم وتضحياتهم ، مصوّرين قتلهم تقرباً إلى الله ، ورأسمين تراميهم على حياض الموت ابتغاء مرضاة الله وطعماً في الفوز

بجنتاته ، وواصفين رفضهم للحياة الدنيا ومنتهم الزائلة وبيعهم أنفسهم لربهم .

أما مصادر البحث ومراجعته فكثيرة متنوعة ، وأخص منها المصادر الجغرافية ، وفي مقدمتها كتاب (المسالك والممالك) للأصطخري ، فان فيه أدق المعلومات وأوفاهما عن بيئة الجزيرة الفراتية . وأيضاً اليه كتاب (بلدان الخلافة الشرقية) للمستشرق الانجليزى لسترنج ، فقد أفدت منه افادات واسعة في تحديد مواقع المدن والقرى . ومن المصادر التي اعتمدت عليها الكتب التاريخية ، وأهمها كتاب (أنساب الأشراف) للبلاذرى ، وبخاصة الجزء الثاني المخطوط والجزء الخامس المطبوع منه ، فان بهما معلومات وأشعاراً وافية عن الأحداث التاريخية ومواقف القبائل ، قبل موقعة مرج راهط وبعدها وإبان التسبب القبلي وأثناء ثورات الخوارج الصفرية . ومنها الكتب الأدبية ، وأشهرها كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني ، فلن به أخباراً وأشعاراً لم تذكر في المصادر الأخرى عن الصراع القبلي بين قيس وتغلب وبين كلب . بالإضافة إلى ديواني الأنطلس والقطامي التغلبيين ، فهما مصدران أساسيان في هذه الدراسة .

وبعد ، فأرجو أن أكون حققت بهذا البحث ضرورة واضحة عن شمر الجزيرة الفراتية في العصر الأموي ، وتبيان جوانبه الاجتماعية والسياسية والفنية ، كما أرجو أن يكون فيه ما ينفع الباحثين المهتمين بالتاريخ والأدب ، فإن قصرت أو أخطأت فمذري أنني اجتهدت . وإذا كان لي من فضل في إخراج هذه على هذا النحو ، فحقيق بي أن أتوجه بوافر التقدير والإجلال لـ الأستاذ الدكتور حسين عطوان ، فإنه تفضل بالإشراف عليه ، ولم يأل جهداً في قراءته والتعليق عليه وتصويبه ، فكان لملاحظاته القيمة وتوجيهاته السديدة أثر بين في تقويمه وخروجه على هذه الصورة التي ارتضيتها وارتضاها لي ، ومهما اعترفت بمسا أسداه إلي من إرشاد فأنا عاجز عن أن أوفيه حقه من الشكر والامتنان . ولا يفوتني أن أنسوه بفضل الأستاذ الدكتور عبدالعزيز السدوري ، فإنه تفضل بمراجعته الجغرافية التاريخية للجزيرة ، وأمدني

٦
١٩
بفيض من ملاحظاته الثمينة ، وزودني بفيض المصادر
التاريخية المخطوطة .

والله ولي التوفيق

عادل جابر صالح محمد

الزرقاء في :

شعبان سنة ١٣٩٩هـ

تموز سنة ١٩٧٩م

(١) البيئـة الجغرافية والسكانية (التحديد الجغرافي)

الجزيرة هي الاسم الذي أطلقه الجغرافيون العرب على الأراضي الشمالية التي يكتنفها نهرا فجلة والفرات^(١) ، وعلى بعض البلاد الواقعة إلى الغرب من الفرات وإلى الشرق من فجلة في البرّ لقربها منها واتصالها بها^(٢) وهي المروفة لدى اليونان باسم ميزوبوتاميا Mesopotamia^(٣) ، وتتصل بتخوم العراق الشمالية^(٤) من جهة الجنوب ، وتجاور الشام^(٥) من جهة الجنوب الغربي ، وتمتد إلى بلاد الروم^(٦) (تركيا) من الشمال الغربي ، وإلى أرمينية^(٧) من الشمال الشرقي .

فالفرات هو الحدّ الغربي الجنوبي للجزيرة . ويبتدئ حتماً عليه عند مدينة

(١) ابن الفقيه (البلدان ص ١٢٨) ، الإصطخرى ٥٢ ، صورة الأرض ١٨٩ ، أحسن التقاسيم ٦٣ ، معجم البلدان ١٣٤/٢ ، آثار البلاد ٣٥١ ، تقويم البلدان ٢٧٣ ، خريدة المجائب ٤٤ ، بلدان الخلافة الشرقية ١١٤ ، كانار ٢٤ ، دائرة المعارف الإسلامية ٤٥٠/٦ .

(٢) ابن الفقيه ١٢٨ ، الإصطخرى ٥٢ ، صورة الأرض ١٨٩ ، أحسن التقاسيم ٦٣ ، تقويم البلدان ٢٧٣ ، الأعلام الخطيرة (القسم الخاص بالجزيرة : مخطوط مصوّر ٣) ، صبح الأعشى ٣١٥/٤ و ٣٦٦ - ٣٢٧ ، بلدان الخلافة الشرقية ١١٥ ، كانار ٧٦ .

(٣) سليمان صائغ (تاريخ الموصل ٣١/١) ، التاريخ السياسي ٢٠٦/١ ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦٩١/١ .

(٤) أحسن التقاسيم ٦٣ .

(٥) معجم البلدان ١٣٤/٢ ، الترجمانة الكبرى ١٨٣ ، التاريخ السياسي ٢٠٦/١ .

(٦) أحسن التقاسيم ٦٣ ، التاريخ السياسي ٢٠٦/١ .

(٧) الإصطخرى ٥٢ ، صورة الأرض ١٨٩ ، التاريخ السياسي ٢٠٦/١ .

۱۳

سُمِّيَاط (١) ، ويمتدّ إلى جسر منبج (٢) ، فالرّقة (٣) ، فقرّقيسيا (٤) ، فمانّة (٥) ، وأسفل منها بشي* قليل عند انعطاف النهر جنوباً (٦) ، ينقطع الحدّ على الفرات .

١٤
ثم يتجه في خط مستقيم تقريباً إلى تكريت^(١) على نهر دجلة ، حتى ينتهي إلى
الن (٢) ، والحديثة^(٣) ، والموصل^(٤) . ويبقى على امتداده إلى الشمال ، ثم
يمطأ إلى الفرب حتى يتجاوز آسود^(٥) ، على بعد من حد أرمينية^(٦) ، حيث
ينقطع الحد على دجلة ، ثم يمتد مفرجاً إلى سمياط من حيث وقع الابتداء^(٧) .

(الأقسام الداخلية)

وقد جرى الجغرافيون الفرب على تقسيم الجزيرة إلى ثلاث كور هي :
"ديار بكر : وهي سقي دجلة من منبعه إلى منطافه العظيم في الجنوب أسفل من
(تل فافان) مع ما في شمالها من أرض تسقيها روافد دجلة الكثيرة التي تصب
في يساره غرب تل فافان . وديار مضر : إلى الجنوب الغربي ، وهي الأراضي
المحاذاة للفرات ، من (سمياط) حيث يفادر سلسل الجبال منحدرأ إلى عانة مع

(١) ابن خرداذبة (المسالك والممالك ٩٤) ، الأغلاق النفيسة ١٠٦ ، ابن الفقيه
١٢٩ ، الإصطخرى ٥٢ ، صورة الأرض ١٨٩ ، صبح الأعشى ٣١٤/٤ ، كانسار ٧٦ ،
دائرة المعارف الإسلامية ٤٣٥/٥ .

(٢) الإصطخرى ٥٢ ، صورة الأرض ١٨٩ ، تقويم البلدان ٢٨٨ ، بلدان الخلافة ١١٤ .
(٣) الإصطخرى ٥٢ ، صورة الأرض ١٨٩ ، أحسن التقاسيم ٥٤ ، معجم البلدان ١٣٠/٣ ،
تقويم البلدان ٢٨٦ ، بلدان الخلافة ١١٤ .

(٤) ابن الفقيه ١٢٨ ، الإصطخرى ٥٢ ، الطبري ٥٤/٤ ، صورة الأرض ١٨٩ ، أحسن
التقاسيم ٥٤ ، معجم البلدان ٢٣٣/٥ ، خريدة المعائب ٤٤ ، تقويم البلدان
٢٨٤ ، الترجمانة الكبرى ١٨٣ ، بلدان الخلافة ١١٤ ، تاريخ الموصل
٣١/١ .

(٥) الإصطخرى ٥٢ ، صورة الأرض ١٨٩ ، تقويم البلدان ٢٧٤ ، صبح الأعشى
٣٢٤/٤ ، بلدان الخلافة ١٤٠ .

(٦) الإصطخرى ٥٢ ، صورة الأرض ١٨٩ .

(٧) الإصطخرى ٥٢ ، صورة الأرض ١٨٩ ، تقويم
البلدان ٢٧٣ ، صبح الأعشى ٣١٤/٤ .

السهول التي يسقيها نهر البليخ رافد الفرات الآتي من (حَرَّان) وديار ربيعة :
 في شرق ديار مضر ، وتتألف من الأراضي التي في شرقي الخابور (الكبير) المنحدر
 من رأس المين ، ومن الأراضي التي في شرق الهرماس وهو النهر المنساب في
 وادي الثرثار نحو الشرق إلى دجلة ، وكذلك ممّا على ضفتي دجلة من أراضٍ تمتدّ
 بانحدار النهر من تلّ فافان إلى (تكريت) ، أي الأراضي التي في غربي دجلة
 حتى (نصيبين) والتي في شرقيّه المشتملة على السهول التي يسقيها الزابان
 الأسفل والأعلى ونهر الخابور الصغير (١) . وكانت "الموصل" على ضفة نهر
 دجلة الغربية أعظم مدن ديار ربيعة ، و "الرقّة" على ضفة نهر الفرات الشرقية
 قاعدة ديار مضر ، و "أمّ سد" في أعالي نهر دجلة أكبر مدن ديار بكر (٢).

(١) النص مقبوس عن كتاب : بلدان الخلافة الشرقية ص ١١٥ ، لما فيه من الوفاة
 بالضرر . ويستطيع القارئ أن يراجع : الأعلام النفيسة ١٠٦ ، الإصطخري
 ٥٢ ، صورة الأرض ١٨٩ ، أحسن التقاسيم ١٣٧ ، معجم ما استمع ٣٨١ و ٥٦٨ ،
 معجم البلدان ١٢٤/٢ و ٤٩٤ ، آثار البلاد ٣٥١ ، الأعلام الخطيرة
 (مخطوط مصوّر ٣) ، تقويم البلدان ٢٧٣ ، مغريدة المجائب ٤٤ ، صبح
 الأعشى ٣١٥/٤ . كانار ٧٧ ، معجم قبائل العرب ٩٤/١ ، تاريخ الموصل
 ٣١/١ ، التاريخ السياسي ٢٠٧/١ .
 وما بين الموقوفتين أي رأس المين كانت تُعرف في العصر الأموي
 أيضاً ب (عين الورد) . أنظر : تاريخ خليفة
 ابن خياط ٥٣/٢ ، أنساب الأشراف ٢٠٤/٥ ، فتوح البلدان ١٨٠ - ١٨١ ، تاريخ
 اليعقوبي ٤/٣ ، الطبري ٥٩٦/٥ ، مروج الذهب
 ٧٥- ٧٣/٢ ، التنبيه والإشراف ٤٩ و ٢٦٩ ، قيادة
 فتح العراق والجزيرة ٥١٤ ، أيام
 العرب في الإسلام ٤٢٧ .

(٢) الإصطخري ٥٣ ، صورة الأرض ٢٠٣ ، أحسن التقاسيم
 ٤٧ ، بسط الأرض ٨٨ ، بلدان الخلافة ١١٤ ، كانار
 ٧٧ ، مجلة المشرق السنوية ١٩٣٦ ص ٢٦١ ، تاريخ
 الموصل ٣١/١ .

وأعظم مدنها : الموصل " ، قائمة على الطرف الغربي لدجلة فوق نشو مرتفع من الأرض حيث تتصل عواقل النهر فتوصل لفرس مجرى كبيراً واحداً ، مُطلّة على مياه النهر وسهول نينوى القديمة (١) ، وبموقعها هذا وصلت الجزيرة بالعراق (٢) من ناحية والجزيرة بالشام (٣) من ناحية أخرى ، وقد أدرك القدماء خطورة موقعها هذا حتى قال ابن حوقل : إنها " قُرْصَة لأذربيجان وأرمينية والعراق والشام (٤) " وقال ياقوت : إنها " مَحَطّ رجال التركبان ومنها يُقصد إلى جميع البلدان فهي : باب العراق ، ومفتاح خراسان ، ومنها يقصد إلى أذربيجان (٥) " . وهي قديمة الرّسم (٦) ، وكانت قبل الفتح حصناً يضم إلى جانبه بعض البيع للنصارى ومحلّة لليهود (٧) ، فلما دخلها العرب المسلمون اختطّها مَرْثَمَة بن عَرْفَجَة البارقسي والي خراجها مصر بن الخطاب (٨) وبقي فيها المسجد الجامع (٩) . وعلا شأنها في عهد بني أمية ، فمضروها وفرشوها بالحجارة (١٠) ووصلوا بها الممـارّة؛

(١) الإصطخرى ٥٣ ، صورة الأرض ١٩٤ ، بسط الأرض ٩٠ ، معجم البلدان ٢٣٣/٥ ، تقويم البلدان ٣٨٤ ، خريدة السجائب ١٣٧ ، تاريخ الموصل ٣٧/١ ، بلدان الخلافة ١١٥ ، كانار ١١٢ .

(٢) معجم البلدان ٢٣٣/٥ ، نخبة النضر ١٩٠ .

(٣) ابن الفقيه ١٢٨ .

(٤) صورة الأرض ١٩٥ .

(٥) معجم البلدان ٢٣٣/٥ .

(٦) أحسن التقاسيم ١٣٨ ، معجم البلدان ٢٣٣/٥ ، آثار البلاد ٤٦١ ، صبح الأعشى ٣١٥/٤ .

(٧) فتوح البلدان ٣٢٢ ، ابن الفقيه ١٢٩ ، الطبري ٣٦/٤ ، نخبة النضر ١٩٠ ، تاريخ

الموصل ٥١/١ ، قادة فتح العراق والجزيرة ٣٩٢ .

(٨) فتوح البلدان ٣٢٢ ، ابن الفقيه ١٢٨ - ١٢٩ ، نخبة النضر ١٩٠ ، البدايات

والنهاية ٧٢/٧ ، قادة فتح العراق والجزيرة ٣٩٠ - ٣٩٢ .

(٩) نخبة النضر ١٩٠ ، وذكر المؤلف أن محمد بن مروان هو الذي مضرها .

(١٠) فتوح البلدان ٣٢٨ ، وذكر المؤلف أن الذي فرش الموصل بالحجارة هو

ابن تليد صاحب شرطة محمد بن مروان والي الجزيرة ، وفرشها

أيضا الأمير سعيد بن عبد الملك .

فهذا محمد بن مروان واليها لأبيه عبدالملك ينشي لها على دجلة جسر سفن يربطها بخرائب نينوى التي في الجانب الشرقي^(١)، ويبني عليها الأمير سميد ابن الخليفة عبدالملك سوراً^(٢)، ويليها العز بن يوسف بن الحكم لهشام فينظم أمورها ويبني له فيها داراً فسيحة يزخرها بأنواع التماوير وينقشها بالساج والترخام والحجارة الملونة فتسمى بالكَنقوشة، ثم يسمي في جلب مياه دجلة إلى المدينة فيأذن له هشام بحفر نهر أو قناة كبيرة ويضع تحت تصرفه مبلـغ ثمانية آلاف درهم، لكن العز يتوفى قبل إتمام المشروع، فيستعمل هشام على الموصل الوليد بن تليد العبسي فيفريغ من حفر النهر سنة ١٢١ هـ وينصب عليه ثمانية أحجار للطنن^(٣). وفي أخرة من العصر يجهد مروان الثاني في تكبير المدينة وتوسيعها^(٤) وتسويرها^(٥)، ويبني فيها الجامع الذي عرّف بعدئذ بالجامع المتيق، فتصير في عهده قاعدة إقليم الجزيرة^(٦). وصيف المدينة حاره وبرها قاص^(٧)، وماؤها عذب، إذ أن مياه دجلة التي يتزود منها أهل المدينة عرفت بطيبها ونفصها وسرعة هضمها للطعام^(٨) حتى قيل: ومن أقسام

(١) الكامل في التاريخ ٤٢٤/٥، بلدان الخلافة ١١٥، كانار ١١٧ هـ

(٢) فتوح البلدان ٣٢٨، كانار ١١٧ هـ

(٣) صورة الأرض ١٩٤، الأزدى (تاريخ الموصل ٢٦ - ٢٧ و ٣٥ - ٤٠)، الكامل

في التاريخ ١٣٢/٥ و ١٧٦ و ٢٤١ و ٤٢٤، نخبة الدرر ١٩٠، تاريخ الموصل

٦٤/١، كانار ١١٧ هـ

(٤) الأخبار الطوال ١٦٧ هـ

(٥) معجم البلدان ٢٣٣/٥ هـ

(٦) معجم البلدان ٢٣٣/٥، بلدان الخلافة ١١٦، كانار ١١٣ هـ

(٧) الإصطخرى ٥٣، صورة الأرض ١٩٤، أحسن التقاسيم ١٣٨، معجم البلدان ٢٣٣/٥ هـ

آثار البلاد ٤٦١، خريدة المعائب ٤٤، كانار ١٤١ هـ

(٨) عيون الأخبار ٧٩/٣، الإصطخرى ٥٣، صورة الأرض ١٩٤، أحسن

التقاسيم ١٣٨، معجم البلدان ٢٣٣/٥، خريدة

المعائب ١٣٧، الترجمانة الكبرى ٣١١، كانار ١١٨ هـ

بالموصل عاماً ثم تفقد قوته وجد فيها فضلاً^(١) ، ولا يزرع فيها من النباتات والشجر إلا الشبث القليل في عدوة دجلة من شرقها^(٢) . وتضاف إليها كُور كثيرة^(٣) تشتمل على قرى وبوادٍ ، وعلى مزارع وأرياف ومروج غزيرة الإنتاج والخيرات كثيرة المواشي والسائمة من الأغنام والأبقار^(٤) .

و " دجلة " شرقي البلد ، ترفدها مجموعة كبيرة من الأنهار والوديان والينابيع^(٥) ، فهي تستقبل في ضفتها الشرقية بين الموصل وتكريت ميساباء الوابسين^(٦) اللذين يصب أحدهما على نحو مائة ميل فوق الآخر^(٧) ، ويمدان دجلة بنحو النصف من مائها^(٨) ، أما الأسفل منهما فيتوسط في جريانه بريّة بين الحديثة والسّن^(٩) ثم يكون مصبه في دجلة عند مدينة السن^(١٠) ، وأما الأعلى فيمر بـ " باشزّا " على مسيرة يومين من الموصل إلى أرض " حفتون " حيث ينثني قبل أن يترك التلال ، ثم يمتدّ حتى يفيض في دجلة على فرســـــــيخ من

- (١) عيون الأخبار ٢١٩/١ ، ابن خرداذبة ١٧٠ ، معجم البلدان ٢٣٣/٥ .
- (٢) الإصطخرى ٥٣ ، صورة الأرض ١٩٤ ، أحسن التقاسيم ١٣٨ ، معجم البلدان ٢٣٣/٥ ، خريدة المعائب ٤٤ .
- (٣) معجم ما استعجم ١٢٧٨ .
- (٤) فتوح البلدان ٣٢٧ ، ابن خرداذبة ٩٤ ، ابن الفقيه ١٣١ ، الأعلام النفيسة ١٠٦ ، الخراج وصناعة الكتابة ٢٤٥ ، صورة الأرض ١٦٥ و ١٩٦ ، معجم ما استعجم ١٢٧٨ ، معجم البلدان ٢٣٣/٥ ، خريدة المعائب ٤٤ ، نخبة الدرر ١٩٠ ، كاتر ١١٨ .
- (٥) دائرة المعارف الإسلامية ١٤٩/٩ .
- (٦) بسط الأرض ٩٠ ، بلدان الخلافة ١١٩ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٠/٣٢٧ .
- (٧) بلدان الخلافة ١١٩ .
- (٨) الإصطخرى ٥٤ ، معجم البلدان ١٣٣/٣ .
- (٩) الخراج وصناعة الكتابة ٢١٤ .
- (١٠) ابن خرداذبة ١٧٥ ، الأعلام النفيسة ٩٠ ، التنبيه والإشراف ٤٧ ، معجم البلدان ١٢٤/٣ ، المسير ١٧٤/١ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٠/٣٣٣ ، كاتر ١٢٦ .

الحديثه (١). وقد أطرو ابن حوقل ما بين الزابين من مراعي ومزارع خصبة، كانت تُنتج لوفرة خيرها وتدفع مياهها، وتربى فيها الأبقار والأغنام والماعز والخيول والبغال والحمير (٢). كما تستقبل دجلة قبل انتهائها إلى الموصل نهر "الخابور" الأصغر الذي يمر بين جبل الجودي وجبل التين، ثم يصب في دجلة شمال مدينة فيسابور على نحو مائة وخمسين ميلاً فوق الموصل (٣). ومن الواضح أن دجلة على جانب كبير من الأهمية لأنها تسقي السهول الواسعة الواقعة على ضفتيها، ولأنها ظلت منفذاً لمرور التجارة من الهند وأرمينيا وأذربيجان (٤) و "الحديثة" على الضفة دجلة الشرقية، فوق مصب الزاب الأعلى بفرسخ وإلى الجنوب الشرقي من الموصل بأربعة عشر فرسخاً (٥). لم يكن فيها حين دخلها العرب غير بيعتين وأبيات للنصارى، فصرها حرمة (٦) بن هرفجة البارقي ولم يكن لها كبير شأن في عصر بني أمية حتى جدد عمارتها مروان بن محمد (٧) وقد أطرو الإسطرطوب طيب هوائها وخصب أرضها وكثرة أشجارها، فقال: "وهي مدينة نزهة جداً، ذات بساتين وأشجار وزروع" (٨). وتحدث ابن حوقل عن

(١) ابن خرداذبة ١٧٥، الأغاني النفيسة ٩٠، التنبيه والإشراف ٤٧، معجم البلدان ٣٠٨/١ و ١٧٣/٣، غريدة العجائب ١٣٨، المعبر ١٧٤، كانار ١٦٢، دائرة المعارف الإسلامية ٣٢٢/١٠.

والفرسخ ثلاثة أميال ويساوي ٥٥٤٤ متراً. أنظر: معجم البلدان ٣٦/١، المكاييل والأوزان الإسلامية ٩٤، الخراج والنظم المالية ٢٦٩.

(٢) صورة الأرض ١٩٥ و ١٩٦ و ٢٠٥، كانار ١٢٥.

(٣) التنبيه والإشراف ٤٨، معجم البلدان ٤٤٢/٢ و ٢٨٤/٤، بلدان الخلافة ١٢٢، دائرة المعارف الإسلامية ١٥٠/٩، كانار ١١٠.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ٣٣٤/٥ و ١٥٣/٩، الأقطر شاعر بني أمية ٢٩ و ٩٦.

(٥) أحسن التقاسيم ١٣٩، معجم البلدان ٣٣٠/٢، نخبة الدرر ١٩٠، تقويم البلدان ٢٨٦، كانار ١٢٢، دائرة المعارف الإسلامية ٣٤٧/٧.

(٦) فتوح البلدان ٣٦٨، ابن الفقيه ١٢٩، معجم البلدان ٣٣٠/٢، كانار ١٢٢، دائرة المعارف الإسلامية ٣٤٧/٧.

(٧) معجم البلدان ٣٣٠/٢، دائرة المعارف الإسلامية ٣٤٧/٧.

(٨) الإسطرطوب ٥٣.

مطاحن القمح التي أُقيمت إلى جانبها في وسط دجلة وعملت بقوة الماء (١).

و"السن" على الجانب الشرقي من دجلة إلى الجنوب من الحديثة بمشـرة فراسخ وشمالـي تكريت ببضع عشرة فرسخاً ، وإليها مدب الزاب الأسفل . وعلى مرحلة منها يقوم جبل بارمّا الذي يمتد إلى وسط الجزيرة . وهي مدينة صغيرة لطيفة ، عليها بقية من سور خرب أكثره ، وفيها كنائس وبيع للنصارى (٢) . وبنواحيها دير الأب شمعون للكلدان ، "وكان شمعون هذا ناسكاً كلدانيا عاش في أواخر القرن السادس حتى أواسط المائة السابعة (٣) " .

و"تكريت" على سفح جبل بارمّا ، في الجهة الغربية لدجلة ، رابكة عليه ، وهي آخر مدن الجزيرة ممّا يلي العراق ، في برّ الموصل وتُعدّ من كورها (٤) . وهي بلدة قديمة ، مُطلّة على جبل شاهق من الحجر الرملي يعلو مائة قدم فوق مستوى النهر . وعلى ظهر الجبل قلعة حصينة بناها سابور بن أردشير ، ويشمل المدينة سور حصين (٥) . وبالمدينة من البيع والأديرة والكنائس ما يقارب عهد عيسى (عم) وأيام العواريين قدماً لم تتغيّر أبنيتها وثاقّة وجلداً ، وأعظم هذه البيع وأقدمها بيعة الغضراء (٦) . والمدينة قاعدة كبيرة للمنـسـب

(١) صورة الأرض ١٩٨ .

(٢) الإصطخرى ٥٣ ، صورة الأرض ٢٠٣ ، معجم البلدان ١٦٩/٣ و ٢٦٨ ، تقويم البلدان

٢٨٨ ، كلانار ١٢٦ .

(٣) الديارات ٤٢٠ . وقد بذل شمعون هذا جهداً كبيراً في نشر المذهب اليعقوبي

(المفصل ٦/٦٣٢) .

(٤) ابن الفقيه ١٢٩ ، الإصطخرى ٥٤ ، صورة الأرض ٢٠٥ ، بسط الأرض ٩٠ ، معجم

البلدان ٣٨/٢ ، تقويم البلدان ٢٨٩ ، صبح الأعشى ٣٢٥/٤ ، دائرة المعارف

الإسلامية ٤٣٤/٥ - ٤٣٥ .

(٥) ابن الفقيه ١٢٩ ، الإصطخرى ٥٤ ، صورة الأرض ٢٠٥ ، معجم البلدان ٣٨/٢ ، تقويم

البلدان ٢٨٩ ، صبح الأعشى ٣٢٥/٤ ، دائرة المعارف الإسلامية ٤٣٤/٥ .

(٦) صورة الأرض ٢٠٦ .

اليحقوبي (١) . وبالقرب منها في وسط نجلة أقيمت مطاحن القمح التي عملت بقوة الماء (٢) .

وشرقي نهر نجلة إلى الشمال من مدينة الموصل في كورة قردو أو باقردو الغصبة الكثيرة الفلات من الحبوب القطني كالقمح والشعير ، كانت بُنيت أول قرية بالجزيرة في ذيل جبل الجودي وهي قرية "ثمانين" (٣) . وفي جانب نجلة الغربي ، في بطن الجبل المتصل بجبل الجودي ، تقع "طور عبيد" الجبلية (٤) .

وتقع "نصيبين" على جادة القوافل من الموصل إلى الشام (٥) في أرض مستوية (٦) ويشرف عليها جبل الجودي (٧) . وهي من أجل بقاء الجزيرة وأنزله بلادها وأكثرها مياهاً وغزراً وفواكه وكروماً وبساتين ومنتزهات وسعة غلات من الحبوب كالقمح والشعير ، إلى كثرة السائمة من الأغنام والأبقار (٨) .

(١) الفصل ٦/٦٣٢ . واليماقة يمتقدون بالطبيعة الواحدة والاقنوم الواحد للسيد المسيح (عم) .

(٢) صورة الأرض ١٩٨ .

(٣) الأعلام النفيسة ١٩٥ ، الإصطخرى ٥٥ ، صورة الأرض ١٩٧ و ٢٠٣ ، أحسن التقاسيم ١٣٩ ، معجم ما استعجم ٢٢٢ ، معجم البلدان ٨٤/٢ ، آثار البلاد ٣٦٩ ، تقويم البلدان ٢٧٦ ، خريدة العجائب ١٥٦ ، الترجمانة الكبرى ٣٣٠ ، بلدان الخلافة ١٣٣ ، كانار ١١١ - ١١٢ .

(٤) معجم البلدان ٤٨/٤ ، بلدان الخلافة ١٧٤ ، مجلة الشرق السنة ١٩١٣ ص ٥٦١ .

(٥) معجم البلدان ٢٨٨/٥ .

(٦) الإصطخرى ٥٢ ، صورة الأرض ١٩١ ، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصور ٣٧) ، خريدة العجائب ٤٣ ، كانار ١٠٠ .

(٧) تقويم البلدان ١٨٢ ، صبح الأعشى ٣٢٢/٤ .

(٨) اليمقوبي ١١٣ ، الإصطخرى ٥٢ ، صورة الأرض ١٩١ و ١٩٣ ، أحسن التقاسيم

١٤٠ و ١٤٥ ، الأعلام الخطيرة (مخطوط

مصور ٣٧) ، معجم البلدان ٢٨٨/٥ ، آثار

البلاد ٤٦٢ ، تقويم البلدان ٢٨٣ ، صبح الأعشى ٣٢٢/٤ ، كانار

وهي مخصصة لزورها الأبيض " النصيبى " (١). وتقوم المدينة في أعالي نهـر
الهرماس (٢)، ومخرج مائه من عيون تتدفق من شعب جبل بالوسا ويعرف الموضع
برأس الماء، وهذا الجبل أول طور عبيدين على ثلاثة فرائخ من نصيبين (٣)،
ويجرو هذا النهر بين جبلين وعلى حافته الكروم والأشجار (٤)، وتقوم على النهر
قناطر حبرية رومية قديمة (٥)، ويمتد حتى إذا وصل إلى نصيبين سار في اتجاهين:
فمنه ما يجتاز بباب سنجار فيسقي ما هناك من البساتين ويصب في الخابور، ومنه
ما يعدل إلى شرقي البلد يسقي البساتين أيضا (٦). والمدينة رُخمة وبيئة لكثرة
بساتينها ومياها (٧)، ونولها ديارات وبيع وصالات وقلائد كثيرة للنصارى
هي مقصد طلاب الخزنة ومنتجع سرورهم (٨)، ففيها كانوا يجدون الخمر المستقة
التي يقوم على تصنيعها الرهبان (٩).

- (١) بسط الأرض ٨٩، تقويم البلدان ٢٨٣، غريدة العجائب ٤٣، صبح الأعشى ٣٢٧/٤.
- (٢) بسط الأرض ٨٩، بلدان الخلافة ١٩٤، كانار ١٠٠.
- (٣) اليعقوبي ٢١١، ابن خرداذبة ١٧٥، الأغاني النفيسة ٩٠، الإصطخرى ٥٢،
صورة الأرض ١٩١، الأغاني الخطيرة (مخطوط مصور ٣٧)، تقويم البلدان ٢٨٣،
صبح الأعشى ٣٢٧/٤، نخبة الدرر ١٩١، كانار ١٠٠. وفي بلدان الخلافة
ص ١٢٧ " ويقال: إن مخرج الهرماس من عين بينها وبين نصيبين ستة فرائخ
(شمالاً) مسدودة بالحجارة والرصاص. " وقال: إن الروم بنت هذه الحسارة
عليها لثلاث تفرق هذه المدينة ".
- (٤) بسط الأرض ٨٩، الديارات ١٩١.
- (٥) اليعقوبي ١١٣، كانار ١٠٠.
- (٦) الأغاني النفيسة ٩٠، الديارات ١٩١، تقويم البلدان ٢٨٣، صبح الأعشى
٣٢٧/٤، نخبة الدرر ١٩١، كانار ١٠٠.
- (٧) معجم البلدان ٢٨٨/٥، آثار البلاد ٤٦٧.
- (٨) الإصطخرى ٥٢، صورة الأرض ١٩١، كانار ١٠١.
- (٩) شمـر الأعطـل ١٦٨/١، الخـراج ١٢٧،
الديارات ١٩١، بلدان الخلافة ١٢٩.

و"عين الوردية" في فضاء رعب من الأرض (١)، وتقع إلى الغرب من نصيبين على خمسة عشر فرسخاً (٢). شُيِّدَتْ في بقعة زاخرة بالينابيع التي يفيض جزء منها بالمياه الكبريتية (٣)؛ إذ يحدثنا الجغرافيون العرب عن ثلاثمائة وستين عيناً تتفجر من باطن أرضها الصخرية (٤) وتتدفق مياهها عذبة صافية تحكي ما تحتها على قامات (٥) وفيها غير عين بعيدة الفور لا يعرف لها قرار (٦)، وقد أقيمت عليها طواحين القمح (٧)، وتحيل المياه الوفيرة التي تفيض من هذه الينابيع أرباب المدينة إلى جنة فيحاء كثيرة المزارع والبساتين، وتسقي الأراضي الممتدة على جانبي نهر الغابور؛ إذ أن مياهها هي التي تكوّن بحراً مياه هذا النهر الذي يقع إلى قرقيسيا على الفرات (٨) و"ماردين" على نحو نصف المسافة بين عين الوردية ونصيبين في شماليهما (٩).

-
- (١) الإصطخرى ٥٣، أحسن التقاسيم ١٤٠، آثار البلاد ٣٧٣، الأعلام النبطية (مخطوط مصور ٤٢)، تقويم البلدان ٢٧٨، صبح الأعشى ٣٢٠/٤.
- (٢) معجم البلدان ١٣/٣، آثار البلاد ٣٧٣.
- (٣) بسط الأرض ٨٩، كانار ٩٨، دائرة المعارف الإسلامية ٤٦٢/٩.
- (٤) الإصطخرى ٥٣، صورة الأرض ٢٠٠، أحسن التقاسيم ١٤٠، معجم البلدان ١٣/٣، آثار البلاد ٣٧٣، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصور ٤٢)، نخبة النضر ١٩١، كانار ٩٨، دائرة المعارف الإسلامية ٤٦٢/٩.
- (٥) الإصطخرى ٥٣، صورة الأرض ٢٠٠، أحسن التقاسيم ١٤٠، معجم البلدان ١٣/٣، آثار البلاد ٣٧٣، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصور ٤٢).
- (٦) صورة الأرض ٢٠٠، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصور ٤٢)، دائرة المعارف الإسلامية ٤٦٢/٩.
- (٧) صورة الأرض ٢٠٠.
- (٨) الإصطخرى ٥٣، صورة الأرض ٢٠٠، أحسن التقاسيم ١٤٠، بسط الأرض ٨٩، معجم البلدان ١٣/٣، آثار البلاد ٣٧٣، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصور ٤٢)، كانار ٩٨، دائرة المعارف الإسلامية ٤٦٢/٩.
- (٩) معجم ما استعجم ١١٧٥، بسط الأرض ٩٠، بلدان الخلافة ١٢٥.

قلعة حصينة واسعة الأرض^(١) مرتفعة الأسوار^(٢) ، مبنية على قلة جبل شاهق^(٣) مشرف على ما يدانيه من جبال تلك البقاع والبراري ، فليس ثمة شيء يحول دون النظر إلى ذلك الفضاء الواسع الممتد إلى جهات الخابور وضايف الفرات^(٤) . والماء فيه من عيون قليلة^(٥) ، وهو ماء نقي ، وأشجاره وكرومه كثيرة^(٦) . ويقوم في شرقيها على نثر من الأرض دير نزه طيب ، جامع بين جمال الموقع وحسن المستشف ونقاوة الهواء وعذوبة الماء ، يُحدث به الجبل من سائر جهاته ما عدا الجنوبية فإنه يطل منها على رستاق ماردين^(٧) . وأسفل منها في الصحراء من جانب القبلة ، على أربعة فراسخ كما ذكر ابن حوقل وفرسخين على ما ذكر ياقوت ، تقع قرية " دُنَيْسِر " التي اشتهرت بكونها سوقاً يجتمع فيه الناس^(٨) . ماؤها من آبار عذبة ، وهو ماء نقي^(٩) . و " دارا " بين نصيبين وماردين^(١٠) ، على بضعة أميال إلى الشرق من دنيسر^(١١) .

(١) الإسطخرى ٥٢ صورة الأرض ٢٠٢ ، بسط الأرض ٩٠ ، معجم البلدان ٣٩٠/٥ ، آثار

البلاد ٢٥٦ ، كانار ٩٨ ، مجلة المشرق السنة ١٩٠٩ ص ٥٨٩ .

(٢) الإسطخرى ٥٢ ، بسط الأرض ٩٠ ، معجم البلدان ٣٩٠/٥ ، الأعلام الخطيرة (مخطوط

مصور ٣٢ ، تقويم البلدان ٢٧٨ ، صبح الأعشى ٣١٦/٤ ، كانار ٩٨ ، دائرة

المعارف الإسلامية ٤٢/٤ .

(٣) صورة الأرض ٢٠٢ ، معجم البلدان ٣٩٠/٥ ، آثار البلاد ٢٥٦ ، مجلة المشرق السنة

١٩٠٩ ص ٥٨٩ .

(٤) صورة الأرض ٢٠٢ ، معجم البلدان ٣٩٠/٥ ، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصور ١٢٠) .

(٥) صورة الأرض ٢٠٢ ، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصور ١٢٠) .

(٦) الديارات ٣٨١ .

(٧) صورة الأرض ٢٠٢ ، معجم البلدان ٤٧٨/٢ ، نخبه الدهر ١٩١ ، تاريخ الموصل

٣١/١ ، دائرة المعارف الإسلامية ٤٢/٤ .

(٨) معجم البلدان ٤٧٨/٢ .

(٩) بسط الأرض ٩٠ ، معجم البلدان ٤١٨/٢ .

(١٠) بلدان الخلافة ١٢٦ .

في لطف جبل ، قديمة (١) وهي صغيرة (٢) طيبة غصبة كثيرة الفلات والزروع والبساتين ، وتشتمل على مياه جارية (٣) . ومن أعمالها يُجلب المقلب الذي تتطّيب به الأعراب (٤) و " كَفَرْتَوْنَا " حصن بين دارا وعين الوردية (٥) ، غربي دارا بخمسة فراسخ (٦) في أرض مستوية . حطّاها من المياه والزروع والأشجار زيل (٧) .

ومخرج نهر الخابور من جبال الجزيرة الشماليّة (٨) ، وابتداء جريانه في واد يسمى الجَرْجَب ، وبعد أن تصبّ فيه مياه ينابيع عين الوردية (٩) تسطّم مياهه ، ويصبّ ابتداءً من هذا الموضع نهراً يطلق عليه اسم الخابور (١٠) . وتتصل مياه النهر الجارية باتجاه الجنوب الشرقي بنهر ماردين (١١) ، ثم يصبّ فيه أسفل من ذلك قبيل مروره بين جبل عبدالعزیز وجبال سنجار مياه نهر نصيبين (الهرماس) ، هذا إلى ما ينصبّ فيه من مياه جداول كثيرة في أيام الربيع والشتاء (١٢) . على

(١) الإصطخرى ٥٣ ، صورة الأرض ١٩٩ ، معجم البلدان ٤١٨/٢ ، تقويم البلدان ٢٨١ ، نخبة الدهر ١٩١ ، كانار ٩٦ و ٩٩ .

(٢) الإصطخرى ٥٣ ، أحسن التقاسيم ١٤٠ ، تقويم البلدان ٢٨١ .

(٣) الإصطخرى ٥٣ ، صورة الأرض ١٩٩ - ٢٠٠ ، معجم البلدان ٤١٨/٢ ، كانار ١٠٠ .

(٤) معجم البلدان ٤١٨/٢ ، كانار ١٠٢ .

(٥) فتوح البلدان ١٨٤ ، صورة الأرض ٢٠٠ ، معجم البلدان ٤٦٨/٤ .

(٦) معجم البلدان ٤٦٨/٤ ، تقويم البلدان ٢٨٤ .

(٧) الإصطخرى ٥٣ ، صورة الأرض ٢٠٠ ، تقويم البلدان ٢٨٤ .

(٨) كانار ٧٦ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٦٩/٨ ، مجلة المشرق السنة ١٥ ص ١٥٠ .

(٩) ابن خرداذبة ١٧٥ ، الأعلام النفيسة ٩٠ ، ابن الفقيه ١٣٥ ، معجم ما استعجم

٦٣٣ ، معجم البلدان ١٢/٣ ، كانار ٩٧ ، مجلة المشرق السنة ١٩٢٨ ص ٥٠٢ .

(١٠) دائرة المعارف الإسلامية ٤٦٢/٩ .

(١١) معجم البلدان ٤٣٤/٢ ، كانار ١٠١ ، دائرة المعارف

الإسلامية ١٦٩/٨ .

(١٢) الأعلام النفيسة ٩٠ ، ابن الفقيه ١٣٥ .

معجم البلدان ٤٣٤/٢ ، كانار ٩٨ و ١٠١ ، دائرة المعارف

الإسلامية ١٦٩/٨ ، مجلة المشرق السنة ١٩٢٨ ص ٥٠٢ .

أنّ منظم مياه هذا النهر تنساب من موضع " التَّكْبِير " القرية الكائنة على شىء يسير فوق ملتقى الهرماس بالخابور إلى وادي الثُّرثار (١). فتجتمع من ذلك في الخابور مياه عظيمة ترفده وتنشط من جريانه فيصير نهراً كبيراً (٢) يسير باتجاه الجنوب، ثم يغيّر اتجاهه في الجزء الأخير من مجراه صوب جنوب الجنوب الغربي (٣) حتى ينتهي إلى مصبه في الفرات أسفل من مدينة قرقيسيا (٤). وبهذا يجري النهر في سهل الجزيرة مسافة طويلة تُقدَّر بحوالي أربع مائة كيلومتر، هي طول هذا النهر من منبعه إلى مصبه (٥). وعلى ضفتي النهر أراضٍ مخصصة للزراعة كثيرة الفلات والفواكه (٦)، وبخاصة عند مجراه الأدنى. وقد ذكر الجغرافيون العرب أسماء عدة أماكن متفاوتة في أهميتها على مجراه بين جبل عبدالعزيسز وقرقيسيا (٧)، لعل أشهرها : قرية " ماكسين " (٨) على شعبة فراسخ من قرقيسيا وعلى يومين من عين الورد (٩)، وتجاورها بحيرة صغيرة عميقة لا يُستَبَر غورها تسمى المنخَرَق استدارتها مسافة جريب أو أزيد ومياها زرقاء (١٠).

(١) بلدان الخلافة ١٢٧.

(٢) الأعلام النفيسة ٩٠، ابن الفقيه ١٣٥، معجم البلدان ٤٣٤/٢.

(٣) بلدان الخلافة ١٢٧، دائرة المعارف الإسلامية ١٦٩/٨.

(٤) ابن خرداذبة ١٧٥، الأعلام النفيسة ٩٠، ابن الفقيه ١٣٥، معجم البلدان

٤٣٤/٢، بلدان الخلافة ١٢٧، دائرة المعارف الإسلامية ١٦٩/٨، مجلة المشرق

السنة ١٩٢٨ ص ٥٠٢.

(٥) نهر الذهب ٦٠١/١، مجلة المشرق السنة ١٩٢٨ ص ٥٠٢.

(٦) صورة الأرض ١٩٦.

(٧) كانار ٩٨، دائرة المعارف الإسلامية ١٦٩/٨، مجلة المشرق السنة ١٩٢٨ ص ٥٠٢.

(٨) ابن خرداذبة ٧٤، ابن الفقيه ١٣٣، أحسن التقاسيم ٥٤، معجم البلدان

٤٣/٥، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصور ٤٢)، تقويم البلدان ٢٨٣، صبح

الأعشى ٣٢١/٤، كانار ١٠١.

(٩) صبح الأعشى ٣٢١/٤.

(١٠) صورة الأرض ١٩٠ - ١٩١، نشبة النهر ١٩١، دائرة المعارف

الإسلامية ١٦٩/٨، والجريب: بما دل ٨٢٥ متراً مربعا و $\frac{٦٨٦٤}{١٠٠٠٠}$ من المتر (الخراج

والنظام المالية ٢٨٦).

بضم الأول وكسره (١) ، وبقربه مكان آخر يقال له : " الشرعبيّة " (٢) ، ويصّب الحشائش في حلة (٣) .

و " سينجار " قديمة (٤) ، تقع في وسط بريّة ديار ربيعة (٥) ، في سفح جبل عال غصب (٦) بغضره وبساتينه وكرومه التي زُرعت بالجوّ واللوز والزيتون والرمان والأشجار والسماق ، إلى سعة غلات من السمسم (٧) . ويثقفها نهر يصبّ في الثرثار ، وعيونها كثيرة (٨) . وتشتهر من بين بلدان الجزيرة بنمو أشجار النخيل في أراضيها (٩) . وبقربها " الحيال " وهو واد فيه مشاجر وضياح وكروم (١٠) .

(١) معجم ما استعجم ٣٦٠ ، معجم البلدان ١/٣٦٥ .

(٢) معجم البلدان ٣/٣٣٥ .

(٣) معجم البلدان ٢/٢٦٧ .

(٤) قدامة (الخراج ٢١٦) .

(٥) الإصحاح ٥٣ ، صورة الأرض ١٩٩ ، معجم ما استعجم ٧٦٠ ، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصوّر ٤٥) .

(٦) صورة الأرض ١٩٩ ، بسط الأرض ٩٠ ، معجم البلدان ٣/٢٦٧ ، آثار البلاد ٣٩٣ ، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصوّر ٤٥) ، تقويم البلدان ٢٨٣ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٢ / ٢٤٤ .

(٧) صورة الأرض ١٩٩ ، بسط الأرض ٩٠ ، معجم البلدان ٣/٢٦٧ ، آثار البلاد ٣٩٣ ، تقويم البلدان ٢٨٣ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٢ / ٢٤٤ ، كانار ١٠٦ .

(٨) صورة الأرض ١٩٩ ، أحسن التقاسيم ١٤٠ ، معجم البلدان ٣/٢٦٧ ، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصوّر ٤٥) ، نخبة النحر ١٩١ ، كانار ١٠٦ .

(٩) الإصحاح ٥٣ ، صورة الأرض ١٩٩ ، أحسن التقاسيم ١٤٠ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٢ / ٢٤٤ .

(١٠) صورة الأرض ١٩٩ .

وفي البرية بين سنجار وتكريت على خمسة عشر فرسخاً من دجلة تقسّم
 "الحضر" (١) ، والثرثار يشقها عند منتصف المسافة بين سنجار وملتقاه بدجلة
 قرب تكريت (٢) . وهي حصن عظيم كالمدينة (٣) ، قديم فيه آثار عجيبة (٤) والمدينة
 قائمة على تل ، مبنية بالحجارة البيض المهندمة بيوتها وسقوفها وأبوابها ،
 وتشتمل على ستين برجاً كبيراً ، وبين كل برجين تسعة أبراج صغار ، على رأس كل
 برج قصر أسفله حمام (٥) . وقريباً منها يقع المكان المعروف بـ "المفارك" (٦) .
 و "بلد" على سبعة فراسخ شمال الموصل على الجانب الغربي لدجلة (٧) ،
 تقوم مكان المدينة الفارسية شهباد (٨) . وهي مدينة صغيرة (٩) ماؤها من دجلة
 كثيرة الزروع والأشجار (١٠) ، وإلى جانبها في وسط دجلة أقيمت مطاحن القمح
 التي عملت بقوة الماء (١١) .

-
- (١) ابن الفقيه ١٢٩ ، الإصطخرى ٤٧/٢ ، معجم ما استعجم ٤٥٣ ، معجم البلدان
 ٢٦٨/٢ ، آثار البلاد ٣٥٤ ، تقويم البلدان ٢٨٤ ، تاريخ الموصل ٣٠/١ ، دائرة
 المعارف الإسلامية ٤٥٨/٧ .
- (٢) ابن الفقيه ١٢٩ ، معجم ما استعجم ٤٥٤ ، معجم البلدان ٢٦٨/٢ ، آثار البلاد
 ٣٥٤ ، بلدان الخلافة ١٢٩ ، دائرة المعارف الإسلامية ٤٥٨/٧ .
- (٣) الثيرة النبوية ٧١/١ .
- (٤) تقويم البلدان ٢٨٤ ، كانار ١٠٨ .
- (٥) ابن الفقيه ١٢٩ ، معجم البلدان ٢٦٨/٢ ، بلدان الخلافة ١٢٩ ، دائرة
 المعارف الإسلامية ٤٥٨/٧ .
- (٦) أنساب الأشراف ٣٢١/٥ .
- (٧) تقويم البلدان ٢٨٤ ، نخبة الدمر ١٩١ ، كانار ١١٧ .
- (٨) بلدان الخلافة ١٣٠ .
- (٩) ابن الفقيه ١٢٩ ، الإصطخرى ٥٣ ، تقويم
 البلدان ٢٨٤ ، الترجماننة الكبرى ٤٩٠ .
- (١٠) الإصطخرى ٥٣ ، صورة الأرض ١٩٩ ، كانار ١١٧ .
- (١١) صورة الأرض ١٨٦ .

وعلى مرحلة واحدة غربي بلد فيما بينها وبين نجار تقوم قرية
 "تل أعفر" (١) على جبل منفرد ، في وسط واد فيه نهر جار . وهي حصينة تنمها
 قلعة ، ولها روض (٢) ، وأرضها طيبة تنمو بها أشجار النخيل (٣) .
 و "برقعيد" على طريق القوافل المتجه من الموصل إلى نصيبين ، بينها
 وبين الموصل مسافة تتراوح بين سبعة عشر وتسعة عشر فرسًا ، وبينها وبين
 نصيبين عشرة فراسخ (٤) ، تقدمت وازدهرت نظراً لأهمية موقعها (٥) . شرب أهلها
 من آبار عذبة فيها (٦) ، وتزرع أرضها بالحنطة والشعير (٧) . وهي مسورة ولها
 ثلاثة أبواب (٨) .

وعلى خمسة فراسخ إلى الغرب من برقعيد بينها وبين نصيبين ، تقوم قرية
 صغيرة في البرية يطلق عليها "أذرمة" (٩) ، كثيرة الفلات (١٠) ، وماؤها من
 آبار (١١) ، وعند ياقوت أن بها نهراً يشقها (١٢) وعليه قنطرة معقودة بالصخر
 والجص . ويشتمل عليها سوران أحدهما دون الآخر ، ومن خارج

-
- (١) معجم البلدان ٣٩/٢ ، تقويم البلدان ٧٨٤ ، صبح الأعشى ٣٧٣/٤ ، بلدان
 الخلافة ١٣٠ .
- (٢) معجم البلدان ٣٩/٢ ، تقويم البلدان ٧٨٤ ، صبح الأعشى ٣٧٣/٤ ، كانار
 ١٠٧ .
- (٣) معجم البلدان ٣٩/٢ ، كانار ١٠٧ .
- (٤) معجم البلدان ٣٨٧/١ ، آثار البلاد ٣٠٦ ، كانار ١٠٤ ، دائرة المعارف
 الإسلامية ٥٥٤/٣ .
- (٥) دائرة المعارف الإسلامية ٥٥٤/٣ .
- (٦) صورة الأرض ١٩٩ ، معجم البلدان ٣٨٧/١ ، كانار ١٠٤ .
- (٧) صورة الأرض ١٩٩ ، كانار ١٠٤ .
- (٨) بلدان الخلافة ١٣٠ ، كانار ١٠٤ .
- (٩) فتوح البلدان ١٨٤ ، أحسن التقاسيم ١٤٠ ، معجم البلدان ١٣٢/١ .
- (١٠) صورة الأرض ١٩٩ ، كانار ١٠٤ .
- (١١) أحسن التقاسيم ١٤٠ .
- (١٢) معجم البلدان ١٣٢/١ .

السور خندق يحيط بالمدينة (١)

ديـر مـضـر :

وأجلّ مدنها " الرّقة " ، وهي قديمة (٢) ، تقع على الشاطئ الشرقي للفرات قبيل اتصاله بنهر البليخ (٣) ، وإنما سُميت كذلك لأنّ الماء ينسبط عليها عند المدّ وكل أرض هذه حالها تسمى رقة (٤) . وهي في أرض مستوية خصبة كثيرة البساتين (٥) والزروع مثل القمح ، ولولى جانبها في وسط الفرات أقيمت مطاحن القمح التي عملت بقوة الماء (٦) . كما زُرعت فيها أشجار الزيتون بكثرة لافتة ، ويبدو أنّ أهلها عَرَفُوا نوعاً من معاصر الزيتون البدائية ، فاستخرجوا الزيت من ثمار الزيتون ، وأفادوا من بعض الزيت غير الصافي في صناعة الصابون ، فقد ذاع أنّ صناعة الصابون الجيد تقدّمت في الرقة (٧) . وبظاهر المدينة بين نهريّ البليخ والفرات يقوم للسريان دير كبير مشهور هو دير زكا (٨) . ودون المدينة نهر سيده يخرج عن يمين الفرات ويحود فيصبّ فيه (٩) ، أجراه الأمير سعيد بن عبد الملك المُلقَّب

(١) بلدان الخلافة ١٣١ .

(٢) ابن الفقيه ١٣٢ ، ابن خرداذبة ١٣٣ ، الإصطخرى ٥٣ ، أحسن التقاسيم ١٤١ ، بسط الأرض ٨٨ ، معجم البلدان ٥٩/٣ .

(٣) الإصطخرى ٥٣ ، معجم البلدان ٥٩/٣ ، تقويم البلدان ٢٧٧ ، بلدان الخلافة ١٣٢ ، كانار ٩٠ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٥٧/١٠ .

(٤) معجم ما استعجم ٦٦٦ ، الأعلام الخطيرة (مخطوط مضمّن ٢١) ، بلدان الخلافة ١٣٢ ، كانار ٩٠ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٦٠/١٠ .

(٥) الإصطخرى ٥٣ ، أحسن التقاسيم ١٤١ ، معجم البلدان ٥٩/٣ ، بلدان الخلافة ١٣٣ ، كانار ٩١ .

(٦) صورة الأرض ١٩٨ .

(٧) صورة الأرض ١٩٩ ، أحسن التقاسيم ١٤١ ، وانظر : الخراج ٤١ .

(٨) الديارات ٢١٨ ، معجم البلدان ٥١٢/٢ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٥٧/١٠ ، وهذا الدير سيّد على

الأرجح في المائة الخامسة للميلاد ، ومن مشاهير رهبانه : مار يوحنا بن قورسوس الرقيّ ٥٣٨ م وهو مسدود عند السريان من أفضلا للقديسين ، وما رقياً قس ٦٩٣ م وكان ذا شأن لصيت بفضيلته

وعلمه (الديارات ٣٨٤ - ٣٨٥) .

(٩) معجم البلدان ٣٢١/٥ ، بلدان الخلافة ١٣٧ ، كانار ٩٦ .

بسميد الخير . وبإزائها قناتا الهني والمرى ، حفرهما هشام بن عبد الملك ،
تأخذان من الفرات فتسقيان عدة بساتين ، ثم يكون مصبهما فيه ^(١) . وبين
القناتين تقوم ضاحية رقة واسط حيث بني هشام جسراً على الفرات وقصرين كان
ينزلهما في طريقه إلى الرمافة ، واختط فيها سوقاً عظيمة عُرفت بسوق هشام ^(٢)
وبقرب المدينة : تل راذان ، مرج الضيائن ، المدبير ، وحبيس وهو موضع فيمد
قبور قوم شهداء ممن شهد صفين مع علي ^(٣) . ودون المدينة بفرسخ تقوم الرقة
السوداء ^(٤) . وللمدينة بابان ^(٥) ، وفيها بعض الآثار الرومانية ^(٦) .

وعلى الشاطئ الغربي للفرات تقع أرض "صفين" ، قريبة من الرقة بينها
وبين بالس ^(٧) ، ويفصلها عن الفرات غيضة ملتفة مليئة بالحفر المائية معرضها
مرمى سهم وطولها فرسخان ، يشقها إلى النهر طريق واحد مرصوف بالحجارة ^(٨) .

وبالقرب من صفين على طريق القوافل من الرقة إلى بالس ، تقوم قلعة
"دوسر" فوق صخرة لا ترام ، مطلّة على الفرات من الجانب الشمالي في بر
الجزيرة ^(٩) . وقريباً منها في وسط الفرات أقيمت معائن القمح التي عملت بقوة

(١) فتوح البلدان ١٨٤ ، معجم البلدان ٤١٩/٥ ، نغمة الدهر ١١١ ، دائرة المعارف
الإسلامية ١٠/١٦٠ .

(٢) فتوح البلدان ١٨٤ ، نهر الذهب ٤٧٨/١ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٠/١٦٠ ، مجلة المشرق
السنة ١٩٣٦ ص ٢٦٤ .

(٣) معجم ما استعجم ٤٥٤ ، معجم البلدان ٤٢/٢ و ٢١٦ و ٧٧/٥ و ١٠١ .

(٤) معجم البلدان ٥٩/٣ ، نهر الذهب ٤٧٨/١ - ٤٧٩ ، مجلة المشرق السنة ١٩٣٦ ص ٢٦٠ .

(٥) أحسن التقاسيم ١٤١ .

(٦) نهر الذهب ٤٨٠/١ .

(٧) الإصطخرى ٥٤ ، صورة الأرض ٢٠٣ ، آثار البلاد ٢١٤ ، بلدان الخلافة ١٣٣ ، دائرة
المعارف الإسلامية ١٤/٢٤٣ .

(٨) مروج الذهب ٥٧٧ ، آثار البلاد ٢١٤ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٤/٢٤٣ .

(٩) معجم البلدان ١٤٢/٢ ، الأغاني الخطيرة (مخطوط مصور ٢٣) ، تقويم البلدان

٢٧٧ ، نهر الذهب ٤٨٥/١ ، بلدان الخلافة ١٣٣ ، دائرة المعارف

الإسلامية ٦/٤٦٨ .

الماء^(١). ونسبة القلعة إلى دوسر عبدالنعمان بن المنذر ، الذي بناها لما جعله النعمان على أفواه الشام^(٢).

ويستقبل الفرات من يساره أسفل الرقة بميل نهر البليخ^(٣) ، مخرجه من شمال أرض حرّان حيث تجتمع إليه مياه مجموعة من العيون أعظمها عين يقال لها : الذهبانة أو الدّمانة^(٤) . ويجري البليخ باتجاه الجنوب حتى يصل إلى موضع بنى عليه مسلمة بن عبدالملك حصناً ، فإذا خرج من تحت الحصن سمي بليخاً ، ويتشعب من ذلك الموضع أنهار تسقي قرى وبساتين^(٥) ، ثم تصب في الفرات أسفل الرقة^(٦) .

ومن أرض البليخ " باجروان"^(٧) ، بينه وبين شط الفرات ليلة^(٨) ، وهو موضع نزه خصب واسع^(٩) .

ويمرّ البليخ أثناء جريانه بمدن جليلة سقيها منه ومن روافده ، فبالقرب من منبعه مدينة مشهورة هي " حرّان " ، كائنة في بقعة مستوية^(١٠) ، بين الرّما

(١) صورة الأرض ١٩٨ .

(٢) الأعلام الخطيرة (مخطوط مصور ٢٣) ، تقويم البلدان ٢٧٧ ، صبح الأعشى ١٣٨ .

(٣) ابن خرداذبة ١٧٥ ، الأعلام النفيسة ٩٠ ، معجم ما استعجم ٢٧٨ ، معجم

البلدان ٤٩٣/١ ، بلدان الخلافة ١٣٤ ، كانار ٩٠ .

(٤) ابن خرداذبة ١٧٥ ، الأعلام النفيسة ٩٠ ، معجم البلدان ٤٩٣/١ ، بلدان الخلافة

١٣٤ ، كانار ٩١ .

(٥) معجم البلدان ٦١/١ و ٤٩٣ ، ٢٦٥/٢ ، نهر الذهب ٦٠١/١ ، بلدان الخلافة

١٣٤ .

(٦) الأعلام النفيسة ٩٠ .

(٧) معجم ما استعجم ٢٢٠ و ٢٧٨ ، معجم البلدان ٢١٣/١ ، كانار ٩٤ .

(٨) معجم ما استعجم ٢٢٠ .

(٩) الإصطخرى ٥٥ صورة الأرض ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(١٠) صورة الأرض ٢٠٤ ، معجم ما استعجم ٤٣٥ ، بلدان الخلافة ١٣٤ ، دائسرة

المعارف الإسلامية ٣٥٤٧ .

وعين الوردة ^(١)، على مسيرة يوم من الرُّمَّا ^(٢)، يحيط بها جبل على فرسخين منها في سمت الجنوب والشرق ^(٣)، وهي أول مدينة بُنيت على الأرض بعد الطوفان ^(٤) وكانت المقام المختار لمروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين ^(٥)، وقد بنى فيها الخليفة المذكور قسراً أنفق عليه عشرة آلاف درهم ^(٦). وذكر ياقوت أن بها نهراً يسمى باسم قرية هناك يقال له جَلَّاب، ينبعث من قرية بينها وبين جلاب أربعة أميال، ومنتهاه إلى البليخ نهر الرقة ^(٧). وهي مدينة نزهة ^(٨)، تربتها حمراء ^(٩)، قليلة الماء والأشجار ^(١٠)، اعتنى أهلها بتربية النحل ^(١١)، ويبدو أن ثمة قناة تستمد من البليخ وتزود المدينة بالمياه، هذا بالإضافة إلى ما فيها من الآبار ^(١٢)، وذكر المقدسي أنها محاطة بسور من حجارة ^(١٣). أما «الرُّمَّا» فهي مدينة متوسطة ^(١٤)، على الجانب الشرقي الشمالي

- (١) دائرة المعارف الإسلامية ٢/٣٥٤.
- (٢) نهر الذهب ١/٥٥٥.
- (٣) تقويم البلدان ٢٧٧، صبح الأعشى ٤/٣١٩.
- (٤) الأعلام النفيسة ١٩٦، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصوّر ١٤)، بلدان الخلافة ١٣٤.
- (٥) التنبيه والإشراف ٢٨١، كانار ٩٣ - ٩٤، دائرة المعارف الإسلامية ٢/٣٥٥.
- (٦) مروج الذهب ٢/١٩٤.
- (٧) معجم البلدان ٢/١٤٩، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصوّر ١٤).
- (٨) أحسن التقاسيم ١٤١.
- (٩) تقويم البلدان ٢٧٧، صبح الأعشى ٤/٣١٩.
- (١٠) الإمبراطور ٥٤.
- (١١) فتوح البلدان ١٧٧، أحسن التقاسيم ١٤٥.
- (١٢) أحسن التقاسيم ١٤١، تقويم البلدان ٢٧٧، صبح الأعشى ٤/٣١٩.
- (١٣) أحسن التقاسيم ١٤١.
- (١٤) الإمبراطور ٥٤، صورة الأرض ٢٠٤، معجم ما استعجم ٦٧٨.

من الفرات (١)، عند تقاطع الطريق الممتد بين سُميساط إلى حَرَّان (٢)، بينها وبين حَرَّان ستة فراسخ (٣)، قائمة في غور عند سفح جبل، وتحيط بها الجبال من ثلاث جهات، وتتصل من الناحية الجنوبية الشرقية بنهر دَيَّمان الذي يصب في البليخ (٤). شُيِّد فيها عدد كبير من الأديرة يزيد على ثلاثمائة دير (٥)، وأشاد الجغرافيون العرب بكنيستها التي بنتها هيلاني وعدّوها إحدى عجائب العالم الأربع (٦)، وأنه ليس في بلاد الروم كنيسة أعظم منها (٧)، فهي "عجينة بأزاج ملبسة بالفسافس" (٨) وذكروا أن الروم تقول: ما من بناء بالعجارة أبهى من كنيسة الرها (٩) ومياه المدينة وزروعها وبساتينها كثيرة (١٠)، وقد اهتم أهلها بترقية النحل (١١) وفي جنوب حَرَّان على مقربة من شرق نهر البليخ تقع قرية "باجدّا" على

- (١) تقويم البلدان ٢٧٧.
- (٢) دائرة المعارف الإسلامية ١٠ / ٢٧٢.
- (٣) الأنساب ٦ / ٧٠٣.
- (٤) الخراج ومنحة الكتابة ٢١٥، التنبيه والإشراف ١٨٣، كانار ٩٢، دائرة المعارف الإسلامية ١٠ / ٢٧٧.
- (٥) ابن الفقيه ١٣٤، الإصطخرى ٥٤، صورة الأرض ٢٠٤، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصوّر ٢٧)، تقويم البلدان ٢٧٧، خريدة العجائب ٤٤، بلدان الخلافة ١٢٥، كانار ٩٢.
- (٦) أحسن التقاسيم ١٤١، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصوّر ٧٧)، بلدان الخلافة ١٣٥، كانار ٩٢.
- (٧) الإصطخرى ٥٤، صورة الأرض ٢٠٤، تقويم البلدان ٢٧٧، خريدة العجائب ٤٤، كانار ٩٢.
- (٨) أحسن التقاسيم ١٤١، بلدان الخلافة ١٣٥.
- (٩) ابن خردادبة ١٦١، الأعلام النفيسة ٨٣، ابن الفقيه ١٣٤، تقويم البلدان ٢٧٧، كانار ٩٢.
- (١٠) الإصطخرى ٥٤، صورة الأرض ٢٠٤، كانار ٩١.
- (١١) فتوح البلدان ١٧٧، أحسن التقاسيم ١٤٥.

الطريق إلى عين الوردية (١). وكان مسلمة بن عبد الملك أقطع موضعها رجلاً من أصحابه يقال له أسيد السلمي ، فبنوا وسورها . وفي القرية بساتين تسقيها عين تنبع من وسطها ، ويشرب منها الناس . (٢)

وقريب من باجدا يقع " حصن مسلمة " ، بينه وبين نهر البليخ ميل ونصف (٣) ، وبينه وبين حران تسعة فراسخ (٤) إلى الجنوب . وقد اتخذ مسلمة بن عبد الملك وأسكن فيه عائلته من بني أمية (٥) . " وشرب أهلها من منبع فيه ، طوله مائتا ذراعاً في عرض مثله وعمقه نحو عشرين ذراعاً معقود بالحجارة . وكان مسلمة قد أصلحه ، والماء يجري فيه من البليخ في نهر مفرد في كل سنة مرة حتى يمسأله فيكفي أهله بقية عام ، ويستقي هذا النهر بساتين حصن مسلمة . " وكان الحصن " قد بني على قدر حريب من الأرض ، وارتفاعه في الهواء أكثر من خمسين ذراعاً (٦) . وعلى نحو مائتي ميل دون الرقة تقع " قرقيسيا " (٧) ، على ضفة الفرات الشرقية عند مصب الخابور ، فهي في مثلث بينهما (٨) . وهي مدينة نزهة ، مياهها كثيرة ، وأرضها خصبة ، تشتمل على بساتين وأشجار وزروع كثيرة (٩) . ولم يكن في إقليم الجزيرة أسفل من قرقيسيا بلدة ذات شأن غير

(١) بلدان الخلافة ١٣٦ .

(٢) معجم البلدان ٣١٣/١ .

(٣) معجم البلدان ٣١٣/١ ، بلدان الخلافة ١٣٦ .

(٤) معجم البلدان ٢٦٥/٢ .

(٥) الإصطخرى ٥٤ - ٥٥ ، كانار ٩٤ .

(٦) بلدان الخلافة ١٣٦ .

(٧) المرجع نفسه ١٣٦ .

(٨) ابن خرداذبة ١٧٥ ، بسط الأرض ٨٨ ، معجم البلدان ٤ / ٣٢٨ ، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصور ٤٤) ، تقويم البلدان ٢٨٠ ، صبح

الأعشى ٣٢١/٤ ، بلدان الخلافة ١٣٦ ، كانار ٩٥ .

(٩) الإصطخرى ٥٤ ، صورة الأرض ٢٠٤ ، بلدان الخلافة

١٣٦ ، كانار ٩٥ .

"عانة" (١) ، وهي قرية صغيرة (٢) ، مركزها الجزر الواقعة في جوف نهـر الفرات (٣) . أرضها خصبة كثيرة النخيل (٤) والبساتين والكروم على جانبي النهر (٥) . اشتهرت بخمرها الطيبة (العانية) التي تفضى بها المشراء (٦) . وفيها دير ماسرجيس ، كبير كثير الرهبان ، موضعه في نهاية الحـسن ، تحيط به البساتين والكروم ، ويقصده الناس من الأماكن المجاورة طلباً للنزهة فيه (٧) .

وقرية "جسر منبج" على الفرات ، مُطلّة على الشاطئ الغربي للنهر ، نزهة كثيرة المياه والبساتين (٨) . سُمّية فيما يبدو بجسر قائم على النهر في طرفها ، اتخذ في خلافة عثمان (ر) للصّوائف ، ويقال : بل كان له رسم قديم (٩) تعبر عليه القوافل من الجزيرة إلى البلاد الشامية ، ومنها إلى الجزيرة (١٠) .

و"سُنيماط" ، على الشاطئ الغربي الشمالي للفرات ، نزهة كثيرة المياه

-
- (١) ابن خردادبة ٧٤ ، بلدان الخلافة ١٣٨ ، كانار ٩٦ .
 - (٢) الإسطخرى ٥٤ ، صورة الأرض ٢٠٦ ، آثار البلاد ٤١٨ ، تقويم البلدان ٨٦ ص ٢٨٦ ، صبح الأعشى ٣٢٣/٤ .
 - (٣) الإسطخرى ٥٤ ، صورة الأرض ٢٠٦ ، بسط الأرض ٨٦ ، آثار البلاد ٤١٨ ، تقويم البلدان ٨٦ ، صبح الأعشى ٣٢٣/٤ ، كانار ٩٦ .
 - (٤) صورة الأرض ٢٠٦ .
 - (٥) صورة الأرض ٢٠٦ ، آثار البلاد ٤١٨ ، كانار ٩٦ .
 - (٦) ممر الأخطل ١ / ١٦٨ ، الخراج ١٢٢ ، الديارات ١٩١ ، معجم ما استمع ٩١٤ ، بسط الأرض ٨٩ ، آثار البلاد ٤١٨ ، تقويم البلدان ١٨٦ ، صبح الأعشى ٣٢٣/٤ ، بلدان الخلافة ١٢٩ ، كانار ٩٦ .
 - (٧) الديارات ٢٢٨ ، الترجمانة الكبرى ٤٩٠ ، مجلة المشرق السنة ١٥ ص ٢١٣ .
 - (٨) فتوح البلدان ١٨٠ ، الإسطخرى ٥٤ ، صورة الأرض ٢٠٤ ، معجم البلدان ٧٢/٤ ، آثار البلاد ٧٤١ ، كانار ٨٢ ، مجلة المشرق السنة ١٩٣٥ ص ٢٢٢ .
 - (٩) فتوح البلدان ١٥٥ ، كانار ٨٢ .
 - (١٠) وقصة صفين ١٥١ ، الطبري ٥٦٥/٤ ، معجم البلدان ٣١١/٤ ، آثار البلاد ٢٤١ ، نهـر الذهب ٥١٦/١ ، مجلة المشرق السنة ١٩٣٥ ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

والبساتين (١) .

و"سروج" على يوم واحد إلى الغرب من حران (٢) ، وعلى طريق القوافل من حران والرها إلى جسر منبج (٣) ، حصينة يمنة سور (٤) . وهو وادئ طيب ومياهها كثيرة ، وتربتها خصبة (٥) تنمو فيها الأشجار المثمرة كالأعناب ويحمل من زبيبها لكثرة التربة والرمان والكشمري والخوخ والسفرجل (٦) ، وغسـير المثمرة كالحـنـيس (٧) .

وبين سروج وبين عين الورد الموضع المعروف بـ "تل مؤزن" ، على عشرة أميال من عين الورد (٨) ، ويشتمل على "وادي الأحرار" وعلى نهر سماه ياقوت "سابنا" (٩) .

وبالقرب من تل مؤزن على مرحلة من عين الورد بينها وبين الرقة تقع بلدة "تل بني سيار" ، وهي نزمة خصبة واسعة (١٠) .

-
- (١) الاصلخرى ٥٤ ، الخراج وصفة الكتابة ٢١٦ ، سورة الأرض ٧٠٤ .
 - (٢) صورة الأرض ٢٠٧ ، بسط الأرض ٨٨ ، معجم البلدان ٢١٦/٣ ، تقويم البلدان ٢٧٦-٢٧٧ .
 - (٣) الأعلام الخطيرة (مخطوط مصور ٣١) ، بلدان الخلافة ١٤٠ ، كادار ٩٢ .
 - (٤) صورة الأرض ٢٠٧ ، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصور ٣١) .
 - (٥) الاصلخرى ٥٥ ، صورة الأرض ٢٠٧ ، بسط الأرض ٨٨ ، تقويم البلدان ٢٧٦ - ٢٧٧ ، نهر الذهب ٥٦٣/١ .
 - (٦) الاصلخرى ٥٥ ، صورة الأرض ٢٠٧ ، بسط الأرض ٨٨ ، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصور ٣١) ، تقويم البلدان ٢٧٦ - ٢٧٧ ، كادار ٩٢ .
 - (٧) معجم ما استعجم ٧٣٧ ، والحنيس: شجر عظام يكون أبيض ، فإذا تقادم اسودّ فصار كالأبنوس ، تتخذ منه الموائد الواسعة والرحال (لسان العرب ٢٧٤/٣ ميس)
 - (٨) معجم البلدان ٤٥/٢ ، كادار ٩٣ .
 - (٩) معجم البلدان ٤٥/٢ .
 - (١٠) الاصلخرى ٥٥ ، صورة الأرض ٢٠٦ .

ديار بكر:

أما ديار بكر فهي أصغر ديار الجزيرة مساحة ، وتمتد على مجرى نجلة العلوى وأعظم مدنها وأجلها قدراً وأشهرها ذكرا "أمّسد" (١) ، على الشاطئ الغربي لدجلة ، والنهر محيط بها كالهلال من جوانبها إلا من جهة واحدة ، قائمة فوق جبل مُطال على النهر من نحو خمسين قامة (٢) . وهي بلدة قديمة حسنة البناء ، فهي مبنية بحجارة البازلت السود القوية (٣) . يشتمل عليها سور حصين من حجارة الأرحية السود الصلبة ، ويُسمّى ذلك السور ميمونا لشدة سواده (٤) ، وله خمسة أبواب : باب الماء ، وباب الجبل ، وباب الروم ، وباب التل ، وباب السّر يحتاج إليه وقت الحرب (٥) . والمدينة رحبة طيبة (٦) ، كثيرة البساتين والزرع (٧) وماؤها من عيون فيها أقيمت عليها طواحين القمح (٨) ، وذكر سترنج أن في وسط المدينة عيناً " يتفجر ماؤها من الحجر الأمّ " وهذا الماء من الفزارة بحيث يكفي لإدارة خمس أرحاء ، وهو غاية في العذوبة ، وتُسقى البساتين المجاورة من

-
- (١) معجم البلدان ١/٥٦ ، كانار ٧٩ ، دائرة المعارف الإسلامية ٣٤٩/٩ .
 (٢) صورة الأرض ٢٠١ ، معجم البلدان ١/٥٦ ، آثار البلاد ٤٩١ ، الأغلاق الخطيرة (مخطوط مصور ٦٦) ، تقويم البلدان ٢٨٦ ، بلدان الخلافة ١٤٠ ، كانار ٧٩ ، دائرة المعارف الإسلامية ٣٤٩/٩ .
 (٣) أحسن التقاسيم ١٤٠ ، معجم البلدان ١/٥٦ ، آثار البلاد ٤٩١ ، بلدان الخلافة ١٤٠ ، كانار ٨٠ ، دائرة المعارف الإسلامية ٣٤٩/٩ .
 (٤) الإصطخرى ٥٣ ، صورة الأرض ٢٠١ ، الأغلاق الخطيرة (مخطوط مصور ٦٦) ، تقويم البلدان ٢٨٦ ، صبح الأضي ٣٢٤/٤ ، بلدان الخلافة ١٤٠ ، كانار ٧٩ .
 (٥) أحسن التقاسيم ١٤٠ ، الأغلاق الخطيرة (مخطوط مصور ٦٦) ، بلدان الخلافة ١٤٠ ، كانار ٨٠ .
 (٦) أحسن التقاسيم ١٤٠ .
 (٧) الإصطخرى ٥٣ ، صورة الأرض ٢٠١ ، معجم البلدان ١/٥٦ ، آثار البلاد ٤٩١ ، تقويم البلدان ٢٨٦ .
 (٨) صورة الأرض ٢٠١ ، أحسن التقاسيم ١٤٠ ، معجم البلدان ١/٥٦ ، آثار البلاد ٤٩١ ، الأغلاق الخطيرة (مخطوط مصور ٦٦) ، تقويم البلدان ٢٨٦ .

و " مَيَّا فارقين " مدينة جليلا عاصمة الخطر متهورة (٢) ، في ذيل جبل يقع شمالها (٣) . بينها وبين الموصل على حصن كَيْفَا نحو ستة أيام (٤) ، بينها وبين آمد ثلاثة بُرْد (٥) . عليها سور من حجارة وقَصِيل وخندق عميق (٦) ، وهي قديمة (٧) وقد أطرو المنغرافيون طابها وشبهوها بنصيبين في إحداث المياه والبساتين بها ، فلها نهر صغير على شواطئ فرس منها يخرج من عين بين الغرب والشمال عنها يسقي بساتينها ويتخَرَّق دورها ، لكنّها وحلة في الشتاء (٩) ، وفي هوائها وخامة (١٠) . وبها بيعة قديمة (١١) ، وعلى فرسخين منها يقع دير برقوما (١٢) في جبل عال ، يقصده الناس وتُنذر له النذور ، ويومئذ أهل البطالة والخلاعة للشرب

-
- (١) بلدان الخلافة ١٤١ .
 (٢) صورة الأرض ٢٠٢ ، آثار البلاد ٥٦٥ ، كانار ٨٢ .
 (٣) تقويم البلدان ٢٧٩ .
 (٤) صبح الأعشى ٣٧٠/٤ .
 (٥) معجم ما استمع ١٢٨٦ . والبريد : ستة أميال (معجم البلدان ٣٥/١) .
 (٦) أحسن التقاسيم ١٤٠ ، صورة الأرض ٢٠٢ ، كانار ٨٣ والفَصِيل : حائط دون الحصن ، وفي التهذيب : حائط قصير دون سور المدينة والحصن (لسان العرب ٥٣٣/١١ فصل) .
 (٧) نخبة النحر ١٩١ ، بلدان الخلافة ١٤٣ ، كانار ٨٢ .
 (٨) أحسن التقاسيم ١٤٠ ، صورة الأرض ٢٠٢ ، تقويم البلدان ٢٧٩ ، صبح الأعشى ٣٧٠/٤ ، كانار ٨٣ ، دائرة المعارف الإسلامية ٤٢/٤ .
 (٩) أحسن التقاسيم ١٤٠ ، كانار ٨٣ .
 (١٠) صورة الأرض ٢٠٢ .
 (١١) آثار البلاد ٥٦٥ ، الأعلام الشظيرة (مخطوط مصور ٦٢) .
 (١٢) الديارات ٣٠٤ ، معجم البلدان ٥٣٤/٢ ، آثار البلاد ٣٧٢ ، مجلة المشرق السنة ١٥ ص ٢١٣ .

فيه (١) .

و " حصن كيفا " على الضفة اليمنى لدجلة (٢) ، مدفونة بين الجبال سوى جانبها المشرق على النهر (٣) . عريقة في القدم ، ذلك أن المنحدرات التي على الشاطئ الشمالي وما بها من كهوف ومقاوير ومقابر عديدة ترجع في الغالب إلى عهود سحيقة (٤) . وتشتمل المدينة على شهاب وأودية مخوفة (٥) ، وهي وخمسة الهوام وبثّة لاسيما في السيف (٦) ، خيرها كثير وماؤها من دجلة (٧) .
و " تلّ فافان " ، بقربه كما يفهم من قول الجغرافيين مدينة بهذا الاسم ، حدّها سترنج في أسفل التلّ ، على المجرى العلوي لدجلة من ضفته الشرقية ،
" على نحو خمسين ميلا شرق حصن كيفا حيث ينمطن النهر انعطافاً عظيماً نحو الجنوب (٨) " ، وحولها بساتين (٩) . ويوافي دجلة عندها رادى السّـزّرم (١٠) ؛

- (١) الديارات ٣٠٤ ، معجم البلدان ٥٣٤/٢ ، آثار البلاد ٣٧٢ . واسم الديار سرياني أطلق على ناسك من صنف الصموديين ، كان يدعى شمسون من قديسي الكنيسة السريانية ، وأسلمه من باجرمي لكنه ولد في ميا فارتين ، وفيها اختلى في عبادة الله زمناً مديداً ، ثم أقام فوق شجرة عظيمة متنسكاً حتى خفق التسعين من عمره . وترجع أنه مضى إلى ربه في أوامر المائة السادسة أو صدر المائتي السابعة . وإجلالاً له بنى المؤمنون هناك ديراً باسمه (الديارات ٤١٨) .
- (٢) دائرة المعارف الإسلامية ٤٥٤/٢ .
- (٣) صورة الأرض ٢٠٢ ، معجم البلدان ٢٦٥/٢ ، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصور ١٢٧) ، صبي الأعشى ٣١٧/٤ ، كانار ٨٤ .
- (٤) دائرة المعارف الإسلامية ٤٥٤/٢ ، وانظر : الأعلام الخطيرة (مخطوط مصور ١٢٨) .
- (٥) صورة الأرض ٢٠٢ ، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصور ١٢٧) .
- (٦) صورة الأرض ٢٠٢ ، بلدان الخلافة ١٤٥ .
- (٧) أحسن التقاسيم ١٤١ ، الأعلام الخطيرة (مخطوط مصور ١٢٧) .
- (٨) بلدان الخلافة ١٤٥ .
- (٩) أحسن التقاسيم ١٤١ ، بلدان الخلافة ١٤٥ ، كانار ٨٥ .
- (١٠) معجم البلدان ٤٤١/٢ ، بلدان الخلافة ١٤٥ ، كانار ٨٥ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٤٩/٢ .

وهو مجرى كبير تغزر مياهه بفعل انسحاب مياه نهر بدليس فيه (١).
 و"سمرت" (٢) وربما يقال لها : اسعد (٣) وسعد وسيرد (٤) قائمة في منطقة
 جبلية بالقرب من خط دجلة من جهة الشمال والشرق ، على مسيرة يوم ونصف إلى
 الشرق من ميافارقين ، وبينها وبين آمد مسيرة أربعة أيام (٥). تخرج أرضها
 بأشجار التين والرمان والكرمة (٦) ، وماؤها من آبار ويذابح فيها (٧). وفيها
 من الديارات (عمرأحويشا) ، كبير عظيم (٨) ، مشهور بين ديارات تلك البقعة (٩)
 حوله بساتين وكروم ، وهو في نهاية العمارة وحسن الموقع وكثرة الفواكه والخمور ،
 ويحمل منه الخمر إلى المدن المجاورة ، وهو مقصود يتزافد إليه الناس من كل
 ناحية للتنزه والشرب فيه . وبقربه عين عظيمة ، وإلى جانبه نهر يُعرف
 ب (نهر الروم) (١٠).

-
- (١) بلدان الخلافة ١٤٥ هـ ، كانون ٨٦ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٤٩/٩ .
 (٢) الديارات ١٩٨ .
 (٣) صبح الأعشى ٣٢٤/٤ ، دائرة المعارف الإسلامية ٤١٣/١١ .
 (٤) دائرة المعارف الإسلامية ٤١٣/١١ .
 (٥) تقويم البلدان ٢٨٨ هـ ، صبح الأعشى ٣٢٤/٤ .
 (٦) تقويم البلدان ٢٨٨ هـ ، صبح الأعشى ٣٢٤/٤ ، كانون ٨٥ .
 (٧) تقويم البلدان ٢٨٨ هـ ، صبح الأعشى ٣٢٤/٤ .
 (٨) الديارات ١٩٨ هـ ، معجم البلدان ٤٩٧/٢ ، مجلة المشرق السنة ١٥ ص ٦١٣ ، منجم
 الصمران ١٥٩/١ ، وتفسير أحويشا بالسرانية : القيس أو الرادب المحبوس
 في سبيل الله ، الذي يُقيم في صومته لا يبارحها (الديارات استعاضة ص ١٩٨) .
 (٩) الديارات ٢٨٣ هـ ، منجم الصمران ١٦٠/١ .
 (١٠) الديارات ١٩٨ هـ ، معجم البلدان ٤٩٧/٢ ، منجم الصمران
 ١٦٠/١ . أنشأ هذا الدير كما ورد في الديارات ص ٤٨٣ : " مار
 يعقوب . . في المائة الخامسة للميلاد . . انطلق
 إلى رحيل حبيبي ناسك فاشتركنا في بناء هذا
 الممر والقياس بأمره " .

وقد عُدَّ الجغرافيون العرب للجزيرة طارقاً ومسالك كثيرة ، تصار بين مدنها وقراها ، وتصلها كذلك بما يجاورها من البلدان . وحددوا المسافات بين مدنها وقراها تحديداً دقيقاً ، وغالباً ما كانوا يقدرون المسافة بـ (اليوم) وأحياناً بـ (النرسخ) وعلى قلة بـ (الميل) (١).

وأعطى المقدسي - ٣٨٠ هـ ، صورة عن شؤون هذا الأقليم حيث قال : " أمّا الهواء والرسوم فمقاربة للشام متماثلة للمرات . وبه مواضع حارة ، وبه نخيل مثل سنجار . . . وكورة آمد باردة لقربها من الميالى ، وأصح بلدانها مواء الموصل . . . والمياه واسعة أكثرهما من بجلة والفرات والخابور " (٢) وأشار ابن حوقل إلى أن الجزيرة " برارى ومفاوز " (٣) . وتحدث ياقوت - ٦٩٦ هـ عنها فقال : " صحيحة الهواء ، جيدة الريح والنبات ، واسعة الخيرات " (٤) . ولعلَّ غصب أرض الجزيرة ، وكثرة زروعها ونباتاتها وأشجارها ، ووفرة مياهها ورطوبة مناخها ، كل ذلك كان له تأثير خاص في أسماؤها ، فغالباً ما كانت تظهر فيها الدماميل ، ولقد اشتهر ذلك عن الجزيرة حتى اتصفت به (٥) .

(١) من بين الجغرافيين الذين اهتموا بذلك اهتموا لاًقتا : ابن خردادب -

٩٥ - ٩٧ هـ ، المقدسي ١٤٨ - ١٥٠ هـ ، ابن حوقل ١٩٠ . وانظر : الخراج وصناعة

الكتابة ٦١٤ - ٦١٧ .

(٢) أحسن التقاسيم ١٤٣ - ١٤٤ . وانظر : سراج الذهب ٣٣٣/١ .

(٣) سورة الأرض ٢٠٥ .

(٤) معجم البلدان ١٣٤/٢ . وانظر : خريدة المعجائب ٤٤ .

(٥) العيون ١٤/٤ ، عيون الأخبصار ٢١٩/١ ، المقد الفريد ٢٥١/٦ ،

معجم البلدان ١٣٤/٢ ، آثار البلاد ٢٥١ - ٢٥٢ هـ ، مجلة المشرق السنوية

١٩٣٨ ص ٨٢ .

(السكان)

سكن العرب الجزيرة الفراتية في العصر الجاهلي ، فيروا أن عشائر من قبائل (قضاة) اليمنية هي تزيد وعشم وعوف وبكر من تنوخ ، وصلوا إليها غازين منيرين أو لعلهم هاجروا إليها في عهد الساسانيين ، ولم يزالوا بها حتى نزاهم سابور بالخر ، فنكّل بهم وأخرجهم إلى الشام^(١) . كما وجدت فيها عناصر من : (الأفراد) الذين كانوا ينتشرون في أعياء وكور الموصل الكثيرة التي تقع شرقي دجلة وبناحية جبل الجودي وبين الزابيين^(٢) ، و (الصابئين) من أصل مدينة حرّان^(٣) ، و (النبط أو النبط أو الأنباط) من بقايا الشعوب القديمة الذين كانوا ينزلون في الرّما وحرّان ويتذلمون بلبسات عربية ولكن برطانة أعجمية وبلكنة غريبة طائفة^(٤) ، وبعض (اليهود) الذين اتخذوا لهم محلة في الموصل^(٥) .

وكانت غالبية سكانها قبل الإسلام من قبائل إياد وربيعة التزاريت^(٦) ، الذين جاؤا بعد خروجهم من بلادهم تهامة إثر الحروب التي وقعت بينهم وأدت

(١) ابن الفقيه ١٣٠ ، الطبري ٤٧/٢ ، مروج الذهب ٤٧٣/١ ، معجم البلدان ١٣٥/٢

جزيرة أقور ، تاريخ الموصل ٣٠/١ ، العرب في الشام قبل الإسلام ١٤٩ و ١٦٦ ،

التاريخ السياسي ٢٠٦/١ - ٢٠٧ .

(٢) فتوح البلدان ٢٢٧ ، أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٢/٨٨ و ٣٥٩) ، مروج الذهب

٣٧٨/١ ، صورة الأرض ١٩٥ ، نخبة النهر ١٩٠ .

(٣) صورة الأرض ٣٠٤ .

(٤) الخراج (أبو يوسف) ٤٠ ، معجم البلدان ٩٧/٤ ، عربية لسان العرب ٤١١/٧ - ٤١٦

نبطه خطط الشام ٦٠/١ ، العرب في الشام قبل الإسلام ٢٧ و ٢٨ .

(٥) فتوح البلدان ٣٦٨ .

(٦) نسب قريب ٦ ، مروج الذهب ٣٦٦/١ ،

جمهرة أنساب العرب ١٠/١ ، دائرة المعارف

الإسلامية ٣٩/١٠ ، مجلة المشرق السنة ١٥ ص ١٤٧ ، تاريخ

الموصل ٣١/١ ، التاريخ السياسي ٢٠٦/١ ، المصيبة

القبلية ٣٣٢ و ٣٣٧ .

إلى تفريق شملهم وهجرتهم نحو الشمال ، باحثين عن أرض يجدون فيها شيئاً من استقرار ، حتى انتهوا إلى الجزيرة في فترات زمنية متعاقبة قبل الإسلام . وقد أغرامهم غصب أرضها ووفرة مياهها بالاستقرار فيها (١) .

أما إيراد ، فقد استقرّ منها في الجزيرة بنو (الطامح) بن ثمار ، وكانت منازلهم في تكريت والموصل ونواحيهما (٢) .

ومن ربيعة نزل الجزيرة بنو (يقدّم) وبنو (يذكّر) من عنزة بن أسد ، وكانت ديارهم بأرض الموصل (٣) .

ومن ربيعة نزلها بنو تغلب (٤) ، وكانت تغلب مثل سائر قبائل ربيعة تسكن في تهامة ، ولما تشعبت القبائل نزلت الحجاز ونجد والبحرين ، وبعد انتهائها من الحرب الضروس التي شبت بينها وبين أخيها بكر بن وائل سنة ٥٢٥ م ، زحفت نحو الشمال حتى بلغت الجزيرة (٥) . وقد استفرقت هجرتها زمناً ، فكانت بطيئة

(١) معجم ما استعجم ٨٥ - ٨٦ ، معجم البلدان ٣٤٠/٢ ، خائق و ٤٩٤ ديار ربيعة ، المفصل ٤٩٠/٤ و ٥٩٤/٦ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٦٦/٣ - ١٦٨ و ٣٢٤/٥ و ٣٢٧ - ٣٢٨ / ١٠ ، بروكلمان ٢٠٤/١ ، تاريخ الموصل ٣١/١ ، التاريخ السياسي ٢٠٦/١ ، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول ٢٦ و ٢٨ .

(٢) جمهرة أنساب العرب ٣٢٧/٢ .

(٣) الطبري ٤٥/٤ و ٥٥ ، معجم ما استعجم ٧٦ ، الكامل في التاريخ ٥٢٣/٣ ، البداية والنهاية ٧٢/٧ ، معجم قبائل العرب ٥٢/١٠ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٦٦/٣ ، المفصل ٥٩٤/٦ و ٥٩٥ ، قادة فتح العراق والجزيرة ٣٩٢ .

(٤) جمهرة النسب ٦/١ ، أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٢٦٣/٢) ، الطبري ٢٢٤/٦ ، جمهرة أنساب العرب ٢٨٤/٢ و ٢٩٢ - ٢٩٤ ، الكامل في التاريخ ٣٩٧/٤ ، ابن خلدون ٣٢٦/٣ .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية ٤٠/١٠ .

(٦) المفصل ٤٩٠/٤ ، دائرة المعارف الإسلامية ٤٤/٤ و ٣٢٦/٥ .

وعلى مراحل ولم تنته إلا في العهد الإسلامي (١) . ومن عثائرهما في الجزيرة:
 الأوس بن تغلب (٢) ، وغنم بن تغلب (٣) الذي تحدّثت من صلبه بطون : زيد أو
 زيد الله أو زيد اللات (٤) ، وتعلبة وجشم ومالك (٥) . ومن جشم خرجت بطون:
 معاوية ، وكعب (٦) ، وقُدْوَكس (٧) . ومن مالك خرجت بطون : أسامة (٨) ، وعوف (٩) ،
 وكنانة (١٠) . وكانت هذه البطون تنزل في : الموصل (١١) ، و تك (١٢) ،
 والمعارك (١٣) ، ولبس (١٤) ، والثرار (١٥) ، والشرعية (١٦) ، وبرقصيد (١٧) ، والفدين (١٨)

- (١) دائرة المعارف الإسلامية ٥/٣٩٦ .
- (٢) أنساب الأشراف ٥/٣٩٠ .
- (٣) المعارف ٤٣ هـ أنساب الأشراف ٥/٣٩٠ ، العقد الفريد ١/٣٩٩-٣٦٠ هـ جمهرة أنساب العرب ٢/٣٠٦ ، نهاية الأرب ١٨٦ هـ ، دائرة المعارف الإسلامية ٥/٣٧٤ .
- (٤) شمر الأنطال ٢/٥٨٩ و ٥٩٠ و ٧٠٥ و ٧٤٧ .
- (٥) جمهرة النسب ١/٢٧٧ و ٢٧٩ هـ ، المعارف ٤٣ هـ أنساب الأشراف ٥/٣١٨ ، الإشتقاق ٣/٣٣٦ هـ العقد الفريد ١/٢٥٩ هـ جمهرة أنساب العرب ٤/٣٠٦-٣٠٤ هـ نهاية الأرب ١٦٦ و ١٩٤ و ٣٧٧ هـ ، مجلة المشرق السنة ٢٣ ص ٧٥ .
- (٦) جمهرة النسب ١/٢٧٧-٢٧٨ هـ أنساب الأشراف ٥/٣١٥ و ٣٢٤ و ٣٢٦ هـ جمهرة أنساب العرب ٢/٣٠٥ .
- (٧) جمهرة النسب ١/٢٧٩ هـ الإشتقاق ٢/٣٣٨ .
- (٨) العقد الفريد ١/٣٦٠ .
- (٩) جمهرة النسب ١/٣٣٠ .
- (١٠) جمهرة النسب ١/٢٧٩ و ٢٣٠ هـ ، المعارف ٤٣ هـ أنساب الأشراف ٥/٣١٨ .
- (١١) صورة الأرض ١٩٥ هـ قادة فتح العراق والجزيرة ٣٩٧ هـ .
- (١٢) الطبري ٤/٢٥٠ هـ البداية والنهاية ٧/٧٧ .
- (١٣) أنساب الأشراف ٥/٣٢١ هـ الكامل في التاريخ ٤/٣١٤ .
- (١٤) أنساب الأشراف ٥/٣٢٧ هـ معجم البلدان ٢/٥٣٠ هـ ، فوق تذكيرت بين بلدوا المقر من أرض الموصل (أنساب الأشراف ٥/٣٢٧ هـ معجم البلدان ٥/٩٠ .
- (١٥) معجم البلدان ٢/٧٥ .
- (١٦) أنساب الأشراف ٥/٣٢٧ هـ الكامل في التاريخ ٤/٣١٤ .
- (١٧) صورة الأرض ١٩٩ هـ .
- (١٨) أنساب الأشراف ٥/٣٢١ هـ الكامل في التاريخ ٤/٣١٣ .

وماكسين^(١)، والشكير^(٢) . وعاشت جماعة منها في مضارب على الضفة اليمنى لنهر الفرات في : البشر^(٣)، والرحوب^(٤)، وسلوطة^(٥)، والزميل^(٦)، ومخاض^(٧) .

وإلى جانب هذه البطون من تنلب عاشت طوائف من قبائل قضاة اليمينية هي : (قَعْم) من ولد تَيْم بن أسد بن وبرة^(٨)، و (خُمَيْن) و (قَبِيلَة أَوْعْبِيلَة) و (فَتَيْسَة) من أبناء النمر بن وبرة^(٩)، وبنو أبان، وبنو نهد^(١٠)، و (الدَّيْل) و (عَوْف) و (أَشْرَس) بنو زيد بن عامر بن عبيلة^(١١) . ويبدو أن هذه الطوائف من قضاة كانت قليلة مستغفلة لا حول لها، ممّا جعلها تلتحق بقبيلة تنلب القوية الكبيسة التي انضم إليها أيضا بعض قبائل ربيعة، مثل : (اللبو) بنو عبد القيس ابن أفسى بن نعيم بن جديلة الذين اتخذوا الموصل داراً لهم^(١٢)، و (خُفَيْلَة) من بني عمرو بن قاسط بن هذب بن أفسى^(١٣)، و (أوس مناة) و (عبد مناة)

(١) أنساب الأشراف ٣١٧/٥، معجم ما استمع ١١٧٥ .

(٢) أنساب الأشراف ٣٢١/٥ .

(٣) الشعر والشعراء ٤٨٥/١، طبقات فتول الشعراء ٤٧٩/١، الصواعق ٨٧، مجمع الأمثال ٤٨/٢، معجم البلدان ٤٢٦/١ . والبشر: جبل يمتد من عرش إلى الفرات من جهة البادية (معجم البلدان ٤٢٦/١) .

(٤) أنساب الأشراف ٣٢١/٥، معجم البلدان ٣٧٧/٢، الكامل في التاريخ ٣٢٠/٤ والرحوب: ما لبني نهم بن زبكر قريب من البشر، كما يفهم من المصادر السابقة .

(٥) معجم البلدان ٢٤٢/٢ . وسلوطة: قريب من البشر، كما يفهم من المصدر السابق .

(٦) معجم البلدان ١٥١/٢ والزميل: عند البشر، كما يفهم من المصدر السابق .

(٧) معجم البلدان ٦٧/٥ . ومخاض: متصل بالبشر، كما يفهم من المصدر السابق .

(٨) جمهرة أنساب العرب ٤٥٣/٢ .

(٩) جمهرة أنساب العرب ٤٥٤/٢ و ٤٨٦ . وانظر: معجم ما استمع ٣٠ .

(١٠) معجم ما استمع ٣١ .

(١١) معجم ما استمع ٣٠ .

(١٢) المعارف ٤٢، جمهرة أنساب العرب ٢٩٥/٢ .

(١٣) المعارف ٤٢، معجم ما استمع ٨٥ - ٨٦ .

و (قاسط) ^(١) بن أبناء النمر بن قاسط بن منب بن أفضى ^(٢)، وكانت منازلهم بأرض الموصل وما يليها ^(٣)، وفي تكريت ^(٤)، وعند المنخفض المائي الواقع إلى الغرب منها والمسروف بـ "لُهِيمُ البُدن" ^(٥)، وفي عين الوردة ^(٦) حيث الينابيع العظيمة. ونزل الجزيرة من قبائل ربيعة بنو شيبان من بكر بن وائل، وهم: تَيْمُّم أو تيم الله أو تيم اللات ^(٧)، وكُثَلْبَة ^(٨)، ومُرَّة بن نَمَل ^(٩)، وأبو ربيعة ابن نَمَل ^(١٠)، وعسرو بن مَحَلَم بن نَمَل ^(١١)، وربيعه بن محلم بن نَمَل ^(١٢). وكانت منازلهم بأرض الموصل وراذان وبين الزابيين وفي سفح جبل ساءتيما ^(١٣).

- (١) جهمرة أنساب العرب ٢/٣٠٠، نهاية الأرب ٨٩.
- (٢) جهمرة أنساب العرب ٢/٤٨٣، نهاية الأرب ٧٢ و٤٣٢، معجم قبائل العرب ٣/١١٩٤.
- (٣) المعارف ١١٤، الاستيعاب ٢/١٧٦، سير أعلام النبلاء ٢/١٠ و ١٢.
- (٤) الطبري ٤/٣٥، البداية والنهاية ٧/٧٦.
- (٥) معجم البلدان ٥/٢٨.
- (٦) المفضل ٤/٤٨٨، معجم قبائل العرب ٣/١١٩٧.
- (٧) المعارف ٤٣، أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٢/٢٦٦ و ٣/٦٠، الطبري ٦/٢١٩ و ٢٢٤ و ٢٢٥، جهمرة أنساب العرب ٢/٢٧١، الكامل في التاريخ ٤/٣٦٧، ابن خلدون ٣/٢٦٦، نهاية الأرب ٣/٣٠٩.
- (٨) جهمرة النسب ١/٢٠٧، جهمرة أنساب العرب ٢/٢٧١، نهاية الأرب ٣/٣٠٩.
- (٩) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٢/٨٨)، جهمرة أنساب العرب ٢/٢١١ و ٢٢٧ و ٢٣٠، نهاية الأرب ٤١٨.
- (١٠) أنساب الأشراف ٥/٣١٨، جهمرة أنساب العرب ٢/٣٢١ و ٤٣٠.
- (١١) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٢/٢٦٥)، الطبري ٦/٢١٩، التنبية والإشراف ٧٨٢، جهمرة أنساب العرب ٢/٢٦١ - ٣٧٢، الباب ٣/١٧١، نهاية الأرب ٣/٣٧٢ - ٣٧٣.
- (١٢) جهمرة أنساب العرب ٢/٣٢٧.
- (١٣) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٢/٨٨ و ٨٩ و ٢٦٦، الطبري ٦/٢٢٤ و ٢٢٥، صورة الأرض ٥/٢٠٥، الكامل في التاريخ ٤/٣٩٧ و ٣٩٨، ابن خلدون ٣/٣٢٦).

وشاركته بعض القبائل القيسية في فتوح الشام ، فلما هدأت حركة الفُتوح استقرّ بعضها في الشام وزحف بعضها شرقاً فمير الفرات وجاور قبيلة تنلب في الجزيرة^(١) ، فاستقرّ بنو (قُرّاص أو قُرّاص) وبنو (قتيبة) من قبيلة باهلة ابن أعصر^(٢) بنواحي سنجار والبليخ والمديبر ودوسر^(٣) ، كما استقرّ بنو (بُهَكة) من قبيلة غنيّ بن أعصر^(٤) في تلّ بني سيار^(٥) . وقدم الجزيرة مشارفاً في فتحها عشائر من قبائل : (كندة) ، و (عبد القيس) ^(٦) ، و (الأزد) ^(٧) ، و (قريش) ^(٨) ، و (الخزرج) ، و (مضر) ، و (عمدان) ^(٩) ، وبعض بني تميم^(١٠) ، وقد اتخذت هذه العشائر من الموصل ونواحيها ومن الحديثة وسنجار مساكن لها ^(١١) .

وذكر البلاذري أنه لما ولي معاوية الشام والجزيرة لعثمان ، أمره أن ينزل العرب بنواضع نائية عن المدن والقرى ، فأنزل في ديار مضر بني تميم بالرابية كما أنزل أخلاطاً من قيس وأسد وغيرهم بالمازحين والمديبر القريبين من الرقة ، وفعل ذلك في جميع نواحي ديار مضر ورتب ربيعة في ديارها على ذلك ^(١٢) .

- (١) شعر عمرو بن أحمـر ١٥ ، العصبية القبلية ٣٣٧ ، الخلافة الأموية ١٤١ و ١٥٦ ، دائرة المعارف الإسلامية ١٠ / ٣٩٠ .
- (٢) المعارف ٣٧١ ، جمهرة أنساب العرب ١ / ٧٤٥ .
- (٣) شعر عمرو بن أحمـر ٨٢ و ١٥٣ .
- (٤) جمهرة أنساب العرب ١ / ٤٧ .
- (٥) الإسطرئ ٥٤ ، صورة الأرض ٢٠٦ .
- (٦) فتوح البلدان ٣٢٧ و ٣٢٨ ، الإصابة ٢ / ٤٧٤ ، قادة فتح العراق والجزيرة ٣٩٢ .
- (٧) صورة الأرض ١٩٥ ، قادة فتح العراق والجزيرة ٣٩٢ ، تاريخ الموصل ١ / ٥١ .
- (٨) صورة الأرض ١٩٥ ، تاريخ الموصل ١ / ٥٢ .
- (٩) تاريخ الموصل ١ / ٥١ - ٥٢ .
- (١٠) تاريخ الموصل ١ / ٥١ .
- (١١) فتوح البلدان ١٨٢ و ٣٢٧ - ٣٢٨ ، تاريخ الموصل ١ / ٤٤٠ .
- ٥٩ ، قادة فتح العراق والجزيرة ٣٩٠ و ٣٩٢ ، دائرة المعارف الإسلامية ٧ / ٣٤٧ .
- (١٢) فتوح البلدان ١٨٢ . وانظر : ابن الفقيه ١٣٣ ، معجم البلدان ٥ / ٤٠٠ - ٧٣٣ .

وفي خلافة عليّ ازداد سكان المدن التي كان يسيطر عليها معاوية من الجزيرة ، إثر هجرة بعض العرب من الكوفة مفارقين لعلّهم ، مثل : بني عمرو بن أسد بن خزيمة الذين نزلوا الرقة ^(١) ، وبني الأرقم بن النعمان من كندة الذين سكنوا الرها ^(٢) ، وبني شمر من بجيله الذين لجأوا إلى قرقيسيا ^(٣) .

وحين تغلبت اليمينية على القيسية بالشام في مرج راحط سنة أربع وستين للهجرة ، خرجت القبائل القيسية من الشام وتوجّهت شرقاً حتى عبرت الفرات وانضمت إلى من سبقها من قيس بجوار تغلب ^(٤) . فتحصنت بقرقيسيا وتراها بطون من عامر ابن صعصعة ، مثل : (نُفَيْل) ، و (العَرِيش) و (قُشَيْر) و (عُقَيْل) ، وبعض بني (نمير) ، و (دلال) ^(٥) . ونزلت على نهر البليخ وناحية الفرات وبعض الخابور بطون من سليم بن منصور ، مثل : (ذَكْوَان) ، و (رَعْل) و (قُنْفُذ) ^(٦) .

واستصفى الأمويون لأنفسهم أراضي وضياعاً بالجزيرة ، وهدموا مذكاً خالصاً

(١) ورقة صفين ١٢ و ١٤٦ ، تاريخ اليعقوبي ١٧٦/٢ .

(٢) ورقة صفين ١٢ ، جمهرة أنساب العرب ٤٦٦/٢ ، الإجابة ٧٥٨/١ - ٧٥٩ .

(٣) ورقة صفين ٦٠ ، الأخبار الطوال ١٦١ .

(٤) أنساب الأشراف ٣٠١/٥ و ٣١٣ ، الطبري ٥٤١/٥ و ٣٤/٦ ، الكامل في التاريخ

١٥١/٤ ، ابن خلدون ٥٦/٣ و ٨١ ، العصبية القبلية ٢٠٠ .

(٥) جمهرة النسب ٣٤/١ و ١٢٩ ، أنساب الأشراف ٢٩٨/٥ و ٣١٤ و ٣١٥ و ٣١٦ و ٣٢٦

٣٢٧ ، الإشتقاق ٢٩٧/٢ ، مروج الذهب ٦٨/٢ و ٧٣ ، جمهرة أنساب العرب ٢٧٧/١

و ٢٨٢/٢ و ٢٨٦ و ٤٦٩ و ٤٨٢ ، أمالي ابن العديم ٧٣/٢ ، الكامل في التاريخ

٣٠٩/٤ و ٣١٠ و ٣٣٧ ، الإنباه ٨٧ ، نهاية الأرب ٢٤٦ و ٤٠٧ و ٤٣٣ ، معجم

قبائل العرب ٩٨٩/٢ ، الخلافة الأموية ١٥٧ .

(٦) جمهرة النسب ٧/١ و ١٦٠ و ١٦١ و ١٦٢ و ١٦٣ ، أنساب الأشراف

٣٢٧/٥ و ٣١٤ ، الإشتقاق ٣٠٧/٢ - ٣٠٨ ، المقدم

الفريد ٣٥٣/٣ ، جمهرة أنساب العرب ٢٦٢/١ و ٢٦٤

و ٤١٨/٢ ، الكامل في التاريخ ٣٠٩/٢ و ٣١٠ و ٣١٥ ، الإنباه

٨٥ ، الإجابة ٢٦٦/١ .

لهم ولأهل بيوتهم وخاصتهم ، منذ عهد أول خلفائهم معاوية بن أبي سفيان (١) فمن ذلك أن مسلمة بن عبد الملك أنزل أهل بيته وطائفة من بني أمية في الحصن المعروف ب (حصن مسلمة) (٢) ، وأقطع (باجدا) القريبة من الحصن المذكور رجلاً من أصحابه يقال له : أسيد السلمي (٣) . ونزل عبد الواحد بن الحارث ابن الحكم ابن عم عبد الملك في المرح المعروف باسمه (٤) . وكانت قرية (كفر جديا) من قرى الزمنا ، وقيل من قرى حران ، ملكاً لولد صفام بن عبد الملك (٥) .

وذكر ابن سعد وخليفة بن خياط أسماء الصداية والتابعين الذين نزلوا الجزيرة ، فقد سكن الجزيرة سبعة من الصداية منهم أربعة من مضر ، واثنان من اليمن . ونزلها من التابعين تسعة وأربعون منهم أربعة عشر من مضر وأحد عشر من مواليها ، وخمسة من اليمن وأربعة من مواليها ، وواحد من عبس القيس ، وواحد من أبناء الأكاسرة (٦) .

وكانت الجزيرة منذ الفتح حتى سنة ستين من جند حمص ، وكان جند حمص يشمل حمص وقنسرين والجزيرة . وفي سنة ستين فصلت قنسرين عن حمص ، وأصبحت جنداً مستقلاً ، وكان يشمل قنسرين والجزيرة (٧) . وفي سنة ثلاث وسبعين فصلت الجزيرة عن قنسرين وأصبحت جنداً مستقلاً (٨) .

(١) تاريخ اليعقوبي ٢٢٢/٢ .

(٢) صورة الأرض ٢٠٦ ، جمهرة أنساب العرب ١٠٣/١ .

(٣) معجم البلدان ٣٩٣/١ باجدا .

(٤) معجم البلدان ١٠٢/٥ مرح عبد الواحد .

(٥) معجم البلدان ٤٦٩/٤ كفر جديا .

(٦) الطبقات الكبرى ٤٧٦/٧ - ٤٨٧ ، كتاب الطبقات ٣١٨ - ٣٢١ . وانظر : تهذيب

التهذيب ٢١٢/١ ، ٤٠٦ ، ٤٥٩ ، ٥١٦ و ٢٥/٢ ، ٥٢ ، ٨٠ ، ١٨٤ ، ٢٦٨ ، ٢٨١ ،

(٧) ٤٤٨ ، ٤٥٠ . فتوح البلدان ١٣٨ ، الطبري ٢٨٩/٤ ، معجم البلدان ١٠٣/١ أجناد الشام .

(٨) فتوح البلدان ١٣٨ ، معجم البلدان ١٠٣/١ أجناد الشام .

(٢) الأحداث التاريخية ومواقف القبائل

(مصرح راسط)

كان معاوية بن أبي سفيان قد عهد بالخلافة لابنه يزيد من بعده ، فلما توفي معاوية أخذت البيعة ليزيد ، والناس بين راض وساخط ، وكانت قيس بخاصة غير راضية لأنها أيقنت أنه سينحاز إلى أخواله من كلب^(١) . وقد أظهرت الأحداث أن يزيد اعتمد على النصر اليمني ، وقرب إليه أخواله الكلبيين . ومثل ذلك بعده ابنه معاوية^(٢) ، وكان مريضاً في مدة ولايته التي لم تزد على أربعين يوماً^(٣) ، ولما أحسّ بدنو أجله ، خطب في الناس ، وقال : اختاروا لأمركم من أحببتكم^(٤) ، وتوفي من غير عهد . فاضطربت الأمور في الأمصار وكان الضعفاء بن قيس الفهري سأل أهل دمشق أن يقيم لهم أمرهم ويصلح بينهم حتى يجمع الناس على خليفة^(٥) ، وكان حسان بن مالك بن بحدل الكلبي على فلسطين والأردن ، والنعمان بن بشير الأنصاري على حمص ، وسعيد بن مالك بن يزيد الكلبي على قيسرين ، وعبيد الله بن زياد على العراق ، وكان عبد الله بن الزبير عازداً بالحرم في مكة من أيام يزيد^(٦) . فوثب كل جند على عاملهم ، وثب زفر بن الحارث على سعيد بن مالك فأخرجه من قيسرين ، ووثب نائل بن قيس الجذامي على روي بن زنباع عامل حسان في فلسطين فأخرجه منها ، وثار أهل البصرة على عبيد الله بن زياد فأخرجوه أيضاً^(٧) ، وتقلب على الحجاز عبد الله بن الزبير^(٨) ، فأخرج بني أمية وفيهم مروان بن الحكم

(١) نقائض جرير والأخطال ٥٠ ، وأم يزيد هي : ميسون بنت مالك بن بحدل الكلبي .

(٢) اليعقوبي ٢/٤٠ ، الطبري ٥/٥٣١ ، مروج الذهب ٢/٥٧ ، التنبيه والإشراف ٢٦٥ ، البداية

والنهاية ٣٣٧/٨ .

(٣) مروج الذهب ٢/٥٧ ، التنبيه والإشراف ٢٦٥ ، البداية والنهاية ٣٣٧/٨ ، وانظر : نقائض

جرير والأخطال ٥ .

(٤) الطبري ٥/٥٣١ ، البداية والنهاية ٣٣٧/٨ ، وانظر : نقائض جرير والأخطال ٦ .

(٥) الطبري ٥/٥٣٠ ، البداية والنهاية ٣٣٩/٨ .

(٦) اليعقوبي ٢/٤٠ ، الطبري ٥/٥٣١ ، وانظر : نقائض جرير والأخطال ٦ .

(٧) نقائض جرير والأخطال ٦ ، أنساب الأشراف ٥/١٣٧ و ١٤١ و ١٤٣ ، الطبري ٥/٥٣١ ، البداية

والنهاية ٣٣٩/٨ .

(٨) أنساب الأشراف ٥/١٤٣ ، التنبيه والإشراف ٢٦٦ ، البداية والنهاية ٣٣٧/٨ .

من المدينة إلى الشام (١) .

٥٣

وكانت العناية لابن الزبير قوية ، فقال أكثر الناس إنه (٢) ، فهو ابن الزبير بن الصّوّام حواري رسول الله ، وابن بنت أبي بكر ، فضلاً عن نصره لأهلهم المؤمنين عثمان وكمال سنده ، فبويج له في مصر والسراي (٣) وغرامان (٤) والجزيرة (الفراتية) وشمس (٦) وقنسرين (٧) وفلسطين (٨) . وسمى الضعفاء حاكم دمشق في استمالة الناس إليه سرّاً (٩) . ولم تبز ناحية إلا ما لى إلى ابن الزبير خلا الأردن (١٠) ، فإن عاملها حسان امتنع من الدعاء لابن الزبير والدخول في طاعته وأراد عقد الأمر لابن أخته خالد بن يزيد وهو غلام يومئذ (١١) .

وبات الناس فريقين : بحدلياً يتزعمه حسان بالأردن ، يهوى هوى بني أمية

(١) نقائش جرير والأخطال ١٠ ، أنساب الأشراف ١٣٧/٥ و ١٤١ ، اليعقوبي ٢/٢ ، الطبري ٥٣٠/٥

— ٥٣١ ، التنبيه والإشراف ٢٦٣ ، تهذيب ابن عساكر ٧/٧ ، البداية والنهاية ٣٣٩/٨ .

(٢) اليعقوبي ٢/٣ ، وانظر : نقائش جرير والأخطال ١٠ .

(٣) أنساب الأشراف ١٢٨/٥ ، اليعقوبي ٢/٣ ، الطبري ٥٣٠/٥ ، التنبيه والإشراف ٢٦٦ .

(٤) اليعقوبي ٢/٣ ، التنبيه والإشراف ٢٦٦ .

(٥) الطبري ٥٣٠/٥ ، التنبيه والإشراف ٢٦٦ .

(٦) أنساب الأشراف ١٢٨/٥ ، التنبيه والإشراف ٢٦٦ ، البداية والنهاية ٣٣٩/٨ .

(٧) أنساب الأشراف ١٣٧/٥ ، اليعقوبي ٢/٣ ، الطبري ٥٣١/٥ ، التنبيه والإشراف ٢٦٦ ،

البداية والنهاية ٣٣٩/٨ ، سير أعلام النبلاء ١٦٢ ، وانظر : نقائش جرير والأخطال ٦ .

(٨) أنساب الأشراف ١٢٨/٥ ، اليعقوبي ٢/٣ ، الطبري ٥٣١/٥ ، التنبيه والإشراف ٢٦٦ ،

البداية والنهاية ٣٣٩/٨ ، وانظر : نقائش جرير والأخطال ٦ .

(٩) أنساب الأشراف ١٢٨/٥ و ١٣٦ ، اليعقوبي ٢/٣ ، الطبري ٥٣١/٥ ، التنبيه والإشراف ٢٦٦ ،

تهذيب ابن عساكر ٧/٧ ، سير أعلام النبلاء ١٦٢ .

(١٠) أنساب الأشراف ١٢٨/٥ ، اليعقوبي ٢/٣ ، الطبري —————

٥٣٠/٥ ، التنبيه والإشراف ٢٦٦ .

(١١) أنساب الأشراف ١٢٨/٥ ، الطبري ٥٣١/٥ ، التنبيه —————

والإشراف ٢٦٦ ، البداية والنهاية ٣٣٩/٨ .

ويدعو إليهم ، وزبيرياً يمثلُه الضحاك بن قيس بدمشق، يهوى هوى ابن الزبير ويمتدحه من إظهار ذلك أن بني أمية كانوا بنضرتة ^(١)، حتى قال عبدالرحمن بن العذم: وما الناس إلا بعدليّ على الهوى وإلا زبيريّ عصى فتزبيرا ^(٢)

وظل الضحاك في دمشق ، يظهر الولاء لبني أمية "ويدعّ إلى هذا النبي من قيس أن ابن الزبير أولى بالأمر ، ثم كتب بأن يبايع لابن الزبير" ^(٣) ، "وكم مروان أن يكون رسول الضحاك بالبيعة " ، فثناه ابنه عبدالملك وعمر بن سعيد (الأشقر) ^(٤) وعبيد الله بن زياد ^(٥) . وبلغ ذلك عسان بالأردن ، فكتب إلى الضحاك كتاباً يدعو فيه إلى طاعة بني أمية وينال من ابن الزبير ويثنيه عن مبايعته ، ويأمره أن يقرأ كتابه على الناس ، فلما تفاقل الضحاك من قراءته قام أحد الكلبيين فقرأه ، وقام بعض بني أمية وأنصارهم من كلب وشّان فصدّقوا مقالة عسان واطمنوا على ابن الزبير ، فتمدّى لهم بعض أنصار ابن الزبير ، وهاج الناس واضطربوا ^(٦) . واضطر الضحاك أن يتظاهر بالولاء لبني أمية ، فأرسل " يحثّز إليهم ويذكر بلائهم عنده وأنه لم يرد شيئاً كرموه " ، وقال : أكتبوا إلى عسان .. فليقدم علينا ولينزل الجابية ونسير جميعاً حتى نلتقي فنستخلص رجلاً منكم " ^(٧) .

(١) أنساب الأشراف ١٣٧/٥ ، الطبري ٥٢١/٥ ، تهذيب ابن عساكر ٧/٧ ، البداية والنهاية ٨/٣٩٩ ، سير أعلام النبلاء ٨/١٦٣ .

(٢) أنساب الأشراف ١٣٦/٥ .

(٣) نقاش جرير والأقطال ٦ ، الطبري ٥٢١/٥ ، تهذيب ابن عساكر ٥/٧ ، سير أعلام النبلاء ٨/١٦٦ ، البداية والنهاية ٨/٣٣٩ .

(٤) نقاش جرير والأقطال ٦ ، أنساب الأشراف ١٤١/٥ ، تهذيب ابن عساكر ٨/٧ .

(٥) أنساب الأشراف ١٤١/٥ ، الأخبار الطوال ٧٨٥ ، الطبري ٥٢٠/٥ و ٥٢٣ ، تهذيب ابن عساكر ٨/٧ .

(٦) الطبري ٥٢٢/٥ ، البداية والنهاية ٨/٣٣٦ ، وانظر : نقاش جرير والأقطال ١٥ ، تهذيب ابن عساكر ٧/٧ .

(٧) نقاش جرير والأقطال ١٥ ، وانظر : أنساب الأشراف ١٣٦/٥ ، الطبري ٥٢٢/٥ ، تهذيب

ابن عساكر ٧/٧ ، سير أعلام النبلاء ٨/١٦٣ . والجابية : قرية من أعمال دمشق ، ثم من عمل العبدور من ناحية الجولان (معجم البلدان ١١/٢ جابية) .

وتتفق المصادر ^(١) على أن أهل الجابية لم يكونوا صفاءً واحداً بل كانوا ذوا أهواء مختلفة وميول متباينة ، فهناك من يهودى أن تكون الخلافة لخالد ابن يزيد ممثل البيت السفياي ويتزعم هذا الفريق الكلبيون برئاسة حسان ، وهناك من يهودى أن تكون لمروان بن الحكم ^(٢) . ويوج لمروان في رجب سنة ٦٤ هـ ^(٣) ، بعد تنافس داوود استمر أربعين يوماً ^(٤) . ويلاحظ في تقديم مروان التأكيد على السن والحكمة والخبرة ^(٥) ، وتشير المصادر كذلك إلى تقدير الأمويين لخدمات مروان لبني أمية وإلى جهاده في نصرتهم ^(٦) .

وسار مروان ببني أمية وأشياعهم من قبائل اليمن ^(٧) قاصداً الضحاك وحشوده من أنصار الزبيريين في مرج راط ^(٨) . ولما التقى الجمعان بالمرج في أواخر عام ٦٤ هـ ^(٩) ، اقتتلوا قتالاً شديداً وتكاثرت القبائل اليمنية على أهل السرح ^(١٠) فهزموهم . وأسفرت المعركة عن قتل الضحاك في جمع غفير من القيسية يقارب تسعة

(١) أنظر مثلاً : أنساب الأشراف، ١٣٤/٥ ، الطبري، ٥٣٥/٥ .

(٢) أنساب الأشراف، ١٢٨/٥ و ١٣٤ ، الطبري، ٥٣٥/٥ .

(٣) أنساب الأشراف، ١٢٩/٥ و ١٣٥ و ١٤١ و ١٤٤ ، اليعقوبي، ٢/٢٧ ، الطبري، ٥٣٤/٥ و ٥٣٧/٥ ، التنبية

والإشراف، ٢٦٦ هـ وانظر : نقاش جرير والأخطال ١٥ و ١٦ ، تهذيب ابن عساكر ٨/٧ .

(٤) نقاش جرير والأخطال ١٥ .

(٥) نقاش جرير والأخطال ١٦ ، أنساب الأشراف، ١٢٩/٥ و ١٣٥ و ١٤١ ، اليعقوبي، ٣/٢٧ ، الطبري

٥٣٦/٥ و ٥٣٧/٥ ، التنبية والإشراف، ٢٦٦ هـ البداية والنهاية، ٢٢٩/٨ ، النظم الإسلامية، ٤٠/١ .

(٦) أنساب الأشراف، ١٣٥/٥ ، اليعقوبي، ٢/٢٧ ، الطبري، ٥٣٦/٥ ، النظم الإسلامية، ٤١/١ .

(٧) نقاش جرير والأخطال ١٥ - ١٧ .

(٨) أنساب الأشراف، ١٣٥/٥ ، اليعقوبي، ٣/٢٧ ، مروج الذهب، ٦٧/٢ .

(٩) أنساب الأشراف، ١٣٥/٥ ، الطبري، ٥٣٣/٥ ، تهذيب ابن عساكر، ٧/٢ ، سير أعلام النبلاء، ١٦٤/٢ .

(١٠) مروج الذهب، ٦٧/٢ ، تهذيب ابن عساكر، ٧/٢٠٩ ، وفي بعض الروايات أن مروان خدعهم

بمؤامرة عبدة الله بن زياد ، أظهر أنه وانضم ثم انقض عليهم وهم في غفلة

(خليفة بن خياط، ١/٢٦٦ هـ ، التنبية والإشراف، ٢٦٧ هـ ، تهذيب ابن عساكر، ٧/٩ هـ

سير أعلام النبلاء، ١٦٤/٢ .

آلاف، بينهم ثمانون من الأشراف^(١)، وخرج أهل المرح مندحرين فتلاحقوا بأجنابهم من أرض الشام^(٢).

وكان زُفر بن العارث الكلابي أمير قنشرين ممن شارك في القتال يومئذ إلى جانب الضحافة ولما أحس بأن انهزام قومه بات وميكاً ولّى هارباً، فانهى إلى قرقيسيا فتطلب عليها وتحصن فيها، فاجتمعت إليه قيس وأرأسوه عليهم^(٣).

وهكذا نرى أن اضطراب الأمور في الشام بعد موت مساوية الثاني، جعل القبائل اليمنية بزعامة كلب تقف إلى جانب الأمويين، لأنها كانت تخشى أن يصير الأمر إلى ابن الزبير فتفقد بلاد الشام مركزها السياسي الذي أصبح لها منذ استقرار الحكم الأموي فيها. وكان مؤتمر الجابية دليلاً على رغبتهم في حفظ الخلافة في بني أمية، وهذا ما عبر عنه في ذلك المؤتمر زعيم الكلبيين يومذاك حسان بن مالك، فحين انتهى المجتمعون إلى وجوب مبايعة مروان واستنابة خالد مرثد الكلبيين، قال حسان: "رأيتي لأبيكم تبع، وإنما كرهت أن تعدل الخلافة إلى ابن الزبير"^(٤). أما قبائل قيس فسمعت إلى موازنة ابن الزبير والدعوة له بكل قوتها، لأنها كانت تخشى من عودة مجد الكلبيين إلى سابق عهده في ظلال بني أمية.

(١) نقاش جرير والأخطل ١٧، أنساب الأشراف ١٣٦/٥ و ١٤١، اليمقوبي ٧/٣، الطبري

٥٣٣/٥ و ٥٣٨، مروج الذهب ٦٧/٢، التنبيه والإشراف ٢٦٧، تهذيب ابن عساكر

٥/٧ و ٩، الكامل في التاريخ ١٥٠/٤، سير أعلام النبلاء ١٦٤/٣.

(٢) نقاش جرير والأخطل ١٧، أنساب الأشراف ١٣٦/٥، اليمقوبي ٣/٣،

الطبري ٥٣٩/٥، مروج الذهب ٦٨/٢.

(٣) أنساب الأشراف ١٤١/٥، اليمقوبي ٣/٣،

الطبري ٥٣٩/٥ - ٥٤٠، مروج الذهب ٦٧/٢ - ٦٨.

الكامل في التاريخ ١٥١/٤ و ٣٣٧.

(٤) أنساب الأشراف ١٣٩/٥.

(الصراع القبلي)

الصراع بين قيس وتغلب وبين كلب :

سبقت الإشارة إلى امتناع زفر بقرقيسيا* والتفاف القيسية حوله في أعقاب الهزيمة التي حاقّت بهم في موقعة مرج راهط ، ولما استقرّ بهم المقام في قرقيسيا* تعاقدوا على الأخذ بثأر قتالهم من قبيلة كلب . وكانت منازل كلب البادية تتأخض منازل بطون قيس التي نزلت الجزيرة ، وجلبها من بني سليم وبني عامر ، فأخذت القيسية بزعماء زفر تنظّم غارات متصلة على كلب البادية النازلة غربي الفرات في تدمير وبادية السماوة (١) .

وانحاز عمير بن الحباب السلمي إلى زفر بن الحارث الكلابي في غاراته على كلب البادية . وكان عمير قد أظهر الولاء لعبد الملك وفي نفسه ما فيها من الحقد على بني أمية وكتب منذ موقعة المرج ، فلما كانت رقعة الخازر بين جيش عبدة الله بن زياد وبين جيش المختار بقيادة إبراهيم بن مالك الأشتر سنة ٦٧ هـ ، انهزم عمير وهو على مسيرة ابن زياد انتقاماً لقتلى قومه في المرج . وإثر ذلك اضطر عمير أن يلحق بزفر في قرقيسيا* معقل القيسية يومئذ ، خوفاً من بطش عبد الملك ، ثم ملّ المقام بقرقيسيا* فطلب الأمان من عبد الملك فأمنه ، لكنه ما لبث أن رجع به في السجن ، واحتال عمير ففرّ من سجنه وعاد إلى الجزيرة ، فنزل على نهر البليخ وموّت إليه بطون سليم وغيرها من القيسيين فكان يخزوا بهم مواطن كلب واليمنية (٢) .

كذلك ماركة قيساً في الإشارة على قبائل كلب واليمنية بنو تغلب بدافع النصبية القبلية ، فهم جميعاً من نزار ، ويبدو أن العصبية النزارية كانت قوية في نفوس التغلبيين آنذاك ، ممّا جعلهم يحالفون قيساً في قتالها للكلب تحت إمرة زفر وعمير . ففضبت كلب لذلك غضباً شديداً ، وحاولت أن تذال من التغلبيين في بعض غاراتها عليهم ، يدلّ على ذلك قول الأخطل :

نُبئت كلباً تمنّي أن تحاربنا وطال ما حاربونا ثم ما ظفروا (٣)

(١) أنساب الأشراف ٣٠٨/٥ هـ وانظر : نقاش جريز والأخطل ٢٦ هـ الخلافة الأموية ١٤٦ .

(٢) أنساب الأشراف ٢٤٨/٥ - ٢٤٩ و ٣٠٨ و ٣١٣ - ٣١٤ هـ الكامل في التاريخ ٣٠٩/٤ هـ وانظر : نقاش جريز والأخطل ٢٦ هـ الطبري ٩٠/٦ هـ الخلافة الأموية ١٤٦ .

(٣) أنساب الأشراف ٣٠٩/٥ و ٣١٣ هـ الكامل في التاريخ ٣٠٩/٤ هـ الخلافة الأموية ١٥٦ .

ولما رأت كلب المَدْر ما لقيته كلب البوادي من زفر وعمير، أثمرت عليها
حميد بن خريش بن بحدل الكلبي، فسار بها من الشام للإشارة لخلي قيس، وتوجه
أول الأمر إلى جماعة من بني نمير كانت تنزل قرب تدمر، وكان بينها وبين كلب
عهد، فأرسل إليهم حميد: "إنا قد نقضنا عهدكم، فالتقوا بمأمنكم من الأرض،
ثم سار إليهم فقتلهم" (١). فلما بلغ زفر قتل حميد الكلبي للنميريين بسط
غاراته على كل من أدرك من كلب واستحل الدماء، وأخذ في واد يقال لــــه
وادي الجيوس، وقد انتشرت به كلب للصيد، فلم يدرك به أحداً إلا قتله حتى زاد
عدد قتلاهم يومئذ على خمسمائة (٢). ثم سار حميد يريد بني تنلب لمطاهرتهم عمير
ابن الحباب وقيساً على كلب، فبلغه أن عميراً أغار على قوم من كلب، فمضى في
طلبه لأنه لم يدركه، وأدرك قوماً من قيس ممن كانوا مع عمير فأوقع بهم وقطع
آذانهم ونظامها في خيط ومضى بها إلى الشام (٣).

واتصلت الغارات والوقائع بين النيتين بعدئذ، فأوقع بهم زفر فــــي
"المُصْبَح" وقتل منهم ثمانية عشر رجلاً (٤)، وأغار عليهم كذلك في يوم "حفير"،
ويوم "القرن" وفيه قتل من كلب أكثر من ألف رجل. وأوقع بهم عمير في يوم
"المُؤِير" فقتل منهم مقتلة عظيمة وطارد زعيمهم حميداً، وأغار عليهم في يوم
"الهيل" ويوم "كآبة" (٥) ويوم "كثمان" (٦)، وأصابهم كذلك بـ "البــــو" و
و"السماء" (٧). وأغار عليهم زفر وعمير بـ "الإكليل" فقتلهم قتلاً ذريعاً (٨).

(١) أنساب الأشراف: ٣٠٨/٥ - ٣٠٩، الأغاني ١٢٠/٢٠، وانظر: نقائص جرير والأخطال ٢٦.

الخلافة الأموية ١٤٨.

(٢) الأغاني ١٢١/٢٠، الخلافة الأموية ١٤٩ - ١٥٠.

(٣) أنساب الأشراف: ٣٠٩/٥، وانظر: نقائص جرير والأخطال ٢٦.

(٤) الأغاني ١٢٠ / ٢٠، الخلافة الأموية ١٤٨.

(٥) الأغاني ١٢١/٢٠، الخلافة الأموية ١٥٠.

(٦) الأغاني ١٢٠ / ٢٠، الخلافة الأموية ١٥٠.

(٧) الأغاني ١٢٢ / ٢٠، الخلافة الأموية ١٥٠.

(٨) الأغاني ١٢٢ / ٢٠ - ١٢٣، الخلافة الأموية ١٥٠.

ولما رأته كلب الحاج القيسيّة عليها بالفارقات تعلّمت طوائف منها عن ديارهسا المتاخمة لمنازل قيس في الجزيرة ونزلت بظور الشام (١).

ثم انتقل النزاع بين هاتين القبيلتين إلى موطن آخر ، فإن وقائع حميد بقيس في الجزيرة أغضبت بعض زعماء القيسيّة في العراق ، فلما قدم عبد الملك ابن مروان لقتال مصعب بن الزبير دخل عليه عبد الله بن مسعدة الفزاري ، وقال من حميد في مجلسه وأظهر ألمه لما حلّ ببني سليم وعامر . وأخفق هذا حميدا ، فقال : " والله لأوقعن بفزارة وقعة تشغل ابن مسعدة عن الضرب لعامر وسليم " (٢) فتجهّز وشرح حتى أتى فزارة ببادية الحجاز ، ومعه كتاب افتعله على لسان عبد الملك بتوليته صدقاتهم ، ويقال : إن خالد بن يزيد قد مهّد له . فلما اجتمعت إليه ، قال : يا بني فزارة ، هذا كتاب أمير المؤمنين وعهده ، وقد كان ضرب خبا ، فجعل يدعو الرجل منهم فيدخل الخبا ثم يخرج من موخره فيقتل . فكان عدد من قتل من بني بدر الفزاريّين وخدمهم خمسين رجلاً سور من قتل من غيرهم . وقد أشارت هذه الحادثة فزارة العراق ، فطلب أشرفها وعلى رأسهم أسما ابن خارجة من عبد الملك أثداء وجوده بالنشيلة بمد قتله مدحبا أن يقيدهم من حميد ، فأبى وقال : " كنتم في فتنة ، والفتنة كالبهلية لا تؤد فيها ، ولكني .. أدركت قتل منكم بدية من أعطية قضاة وحمير .. فقبل القوم " ، ولما قبضوا الديات ابتاعوا خيلاً وسلاحاً وأغاروا بين السنة ٧٢ هـ و ٧٥ هـ على " بني عبد ود وبني عليم من كلب ، وهم على ما يقال له : بنات قين .. فقتلوا منهم مائة وثمانين ، ويقال : نيفاً وخمسين ، ويقال : نيفاً وثمانين . وكان قائدا القوم سعيد بن عيينة .. وحلحلة بن قيس .. من فزارة " (٣).

وبلغ عبد الملك أن كلباً تستعد لتتأر من فزارة ، فعذرهما ومدّهما بالقود منها إن هي قتلت من فزارة رجلاً ، فكفت . وكتب عبد الملك إلى عامله على الحجاز الحاج ابن يوسف يأمره بأن يحمل إليه سعيداً وحلحلة الفزاريّين ، فيمضيهما إليه ،

(١) الأثافي ١٨٣/٢٠ و ١٦٦ ، الخلافة الأموية ١٥٠ .

(٢) أنساب الأشراف ٣٠٩/٥ ، الخلافة الأموية ١٥٣ .

(٣) أنساب الأشراف ٣١٠/٥ ، الخلافة الأموية ١٥٣ .

(٤) أنساب الأشراف ٣١٠/٥ ، الخلافة الأموية ١٥٤ - ١٥٥ .

فدفعهما عبد الملك إلى غرماثهما الكلبيتين ليقيدوا منهما ، فقتلوهما (١) . بين
يدى الخليفة جزاءً وفاقا على إسمالهما نيران الفتنة من جديد ، بعد أن أطفأها
الخليفة بالصلح وتأدية الديات .

الصراع بين قيس وتغلب :

تقدّم أن تغلب نصرت قيساً على كلب ، يدفعها إلى ذلك الرابطة التّزاريّة
التي تجمع بين تغلب وقيس . ويبدو أنّ قيساً لم تحسن جوار تغلب ، إذ كان أصحاب
عمير يجبرون جوارى تغلب على إيوائهم ويسفّرون شهرتهم ، فبدأت الصّلات تفسد
بينهما (٢) . وعلى إثر إحدى غارات عمير على كلب ، نكفأ راجعاً فنزل في حجة
بني سليم بشني من أثناء الفرات ويقال على الخابور في جوار منازل تغلب .
ويظهر أنّ نزوله في هذا المكان لم يلق ترحيباً من بني تغلب ، وما لبث النزاع
أن هاج بينهما بسبب أعز لتغلب أعزها بعض بني الحريش (٣) .
ولما رأى التغلبيون أن عميراً لا ينهر بني الحريش ولا يكفّهم (٤) ، شكّدوا
على بني الحريش ومنهم قوم من إخوتهم بني قشير " فقتلوا منهم ، واستاقسوا
ذوداً لامرأة من بني الحريش يقال لها أم الهيثم " (٥) . ولما بلغ ذلك قيساً ،
أغاروا على بني تغلب بناحية الخابور ، فقتلوا منهم ثلاثة واستاقوا خمسة
وثلاثين بغيراً (٦) .

وآل ذلك التغلبيين ، فحاولوا الاستعانة بزرع وذكروا له القرابة والجوار ،
وسألوه أن يردّ النّم عليهم ويُجلي قيساً عن الخابور ، فقال : " أمّا النّم
فنردها عليكم .. وتدى لكم القتلى " ، وأبى إجماع عمير ومن معه عن الخابور ،

(١) أنساب الأشراف ٣١١/٥ ، الخلافة الأموية ١٥٥ .

(٢) أنساب الأشراف ٣١٤/٥ ، الكامل في التاريخ ٣٠٩/٤ ، الخلافة الأموية ١٥٧ .

(٣) أنساب الأشراف ٣١٤/٥ ، الأغاني ١٢٦/٢٠ ، الكامل في التاريخ ٣١٠/٤ ، الخلافة
الأموية ١٥٧ .

(٤) أنساب الأشراف ٣١٥/٥ ، الأغاني ١٢٦/٢٠ ، الكامل في التاريخ ٣١٠/٤ ، الخلافة

الأموية ١٥٧ .

(٥) أنساب الأشراف ٣١٥/٥ ، الكامل في التاريخ ٣١٠/٤ ، الخلافة الأموية ١٥٧ .

(٦) الأغاني ١٢٧/٢٠ ، الخلافة الأموية ١٥٧ .

وأبواهم أن يرضوا إلاّ برحيل قيس عن ديارهم . وانصرفوا إلى منازلهم مضطربين ، فأغاروا على القيسية في بعض قرأها القريبة من قرقيسيا ، فلقبهم عميروهمزمهم . ثم تَوَسَّطَ زفر فأصلح بينهما (١) .

لكن عميراً أثار الشرّ ثانية حين وقّد على مصعب بن الزبير ، وأخبره أنه حمل قُضاعة على ترك ديارها في البادية إلى غور الشام ، وأنه لم يبق في الجزيرة إلّا حيّ من ربيعة أكثرهم نصارى ، وسأله أن يوليه على صدقاتهم . فطلب إليه مصعب أن يأتي زفر فإن هو أراد ولّاه ، ولما قدم عمير على زفر وكلمه في الأمر ، شكّ ذلك على زفر ، وولى جماعة من عنده وسألهم أن يلطفوا بهم ، فامتنع التغلبيون عن دفع الصدقات (٢) .

واخذ عمير رفضهم ذريعة للإيقاع بهم ، ففزاهم بـ " ماكسين " وعليهم شعيت ابن مُلَيْل التغلبي . وكانت الواقعة عند قنطرة هناك فتزاحفوا ، فقتل عمير رئيسهم (٣) . وكان عمير يحرق أصحابه على إبادة تغلب ، ويهيب بقومه ألاّ يستبقوا منهم أحداً . وأجار رجل من بني قنير كلّ امرأة حامل ، فكانت تأتية النساء شادة على بطونها جفئات من تحت أثوابهن تشبّهاً بالحوامل ، فلما اجتمعن له بقر بطونهن (٤) . وبلغ مجمون قتلى تغلب في ذلك اليوم خمسمائة قتييل (٥) فألم ذلك زفر وأصابه ولام عميراً على صنيعه (٦) ، لأنه كان يكره استفحال السداوة بين الأثوين ربيعة ومضر ، وعدّهما كلب يتربص بهما ، وهو أولى بأن تُشهر في وجهه سيف قيس .

(١) الأغاني ١٢٧/٢٠ ، الخلافة الأموية ١٥٧ .

(٢) الأغاني ١٢٧/٢٠ ، الخلافة الأموية ١٥٨ .

(٣) أنساب الأشراف ٣١٦/٥ - ٣١٧ ، الأغاني ١٢٨/٢٠ ، معجم

ما استعجم ١١٢٥ ، الكامل في التاريخ ٣١٠/٤ - ٣١١ ،

الخلافة الأموية ١٥٨ .

(٤) الأغاني ١٢٨/٢٠ ، الخلافة الأموية ١٥٨ .

(٥) أنساب الأشراف ٣١٦/٥ - ٣١٧ ، معجم ما استعجم ١١٢٥ ، الكامل

في التاريخ ٣١٠/٤ - ٣١١ ، الخلافة الأموية ١٥٨ .

(٦) الأغاني ١٢٨ / ٢٠ ، الخلافة الأموية ١٥٩ .

وكانت موقعة ماكين نذيراً باحتدام الشرّ بينهما ، فإن تغلب استمدّت
إخوانها من ربيعة في الجزيرة وال عراق ، فاجتمع إليها النمر وشيبان ، وأمّرت
عليها حنظلة بن قيس بن هُوَبر التغلبي . ولما رأى عمير كثرة عدوه استنجد
تميماً وبني أسد ، فلم يأتهم أحد ، فاضطر عمير أن يلقي الربعيين بمن معه
من قيس على الثرثار ، فدارت الدائرة على عمير وأصحابه ، وبُقرت بطون ثلاثين
امرأة من نساء بني سليم ^(١) . ثم إن قيساً تجمّعت واستعدّت واستمدّت وعليها
عمير ، فأناها زفر من قرقيسيا ، وأوقست بتغلب ومن معها في يوم "الثرثار الثاني"
وقد أظهرت سليم يومئذ بسالة نادرة ، وانحاز بنو عامر ^(٢) تاركين عميراً وقومه
يجالدون عدوهم بمفردهم .

واتصّلت الوقائع بعدئذ ، وكانت الغلبة في أكثرها لقيس ، ومنها "الفُدين"
وفي هذه القرية هَمَّ عمير ببني تغلب فقتلهم . والتقى عمير بتغلب والنمر وعليهما
ابن هوبر بـ "الدُّكير" فهزمهما ^(٣) . والتقت تغلب وقيس بعد يوم النكسـ
بـ "المعارك" بين الحضر والعقيق من أرض الموصل ، واشتدّ قتالهم فانهزمت تغلب ،
وطاردت قيس فلولها حتى أوصلتهم الحضر ^(٤) . والتقوا أيضاً بـ "لبَّو" فوق تكريت
من أرض الموصل عند دبرها فتناصفوا ^(٥) . وكانت بينهم وقعة بـ "بلد" تكافلوا
فيها أيضاً ^(٦) . وظفرت تغلب وحلفاؤها وعليهم ابن هوبر بقيس في يوم
"الشَّرْعِيَّة" ^(٧) . ثم إن تغلب تجمّعت وعليها ابن هوبر فأغار على "البليغ"
حيث ينزل عمير والقيسية ، فانهزمت تغلب ، وبُقر القيسيون بطون نساء من تغلب
كما فعلوا في يوم الثرثار ^(٨) .

(١) أنساب الأشراف ٣١٨/٥ - ٣١٩/٥ الأثافي ٦٧/١١ - ٦٨/٦ الكامل في التاريخ ٣١١/٤ ، الخلافة
الأموية ١٥٩ .

(٢) أنساب الأشراف ٣٢٠/٥ ، الكامل في التاريخ ٣١٢/٤ ، الخلافة الأموية ١٥٩ .

(٣) أنساب الأشراف ٣٢١/٥ ، الكامل في التاريخ ٣١٣/٤ ، الخلافة الأموية ١٥٩ .

(٤) أنساب الأشراف ٣٢١/٥ ، الكامل في التاريخ ٣١٤/٤ ، الخلافة الأموية ١٥٩ .

(٥) أنساب الأشراف ٣٢٢/٥ ، الكامل في التاريخ ٣١٤/٤ ، الخلافة الأموية ١٦٠ .

(٦) أنساب الأشراف ٣٢٢/٥ ، الخلافة الأموية ١٦٠ .

(٧) أنساب الأشراف ٣٢٢/٥ ، الكامل في التاريخ ٣١٤/٤ ، الخلافة الأموية ١٦٠ .

(٨) أنساب الأشراف ٣٢٢/٥ - ٣٢٣/٥ ، الكامل في التاريخ ٣١٥/٤ ، الخلافة الأموية ١٦٠ .

ولما رأت تغلب الحاج عمير عليها جمعت عازرتها وباديتها وسارت سنة ٧٠ هـ إلى الحشاك وعليها ابن موبز ، ودلكت اليها القيسية وعليها عمير وزفر ، فاتصل القتال بين الحيين ثلاثة أيام ، وفي اليوم الثالث تعاقد التغلبيون على الثبات ولما رأى عمير جدتهم سأل قيسا أن تنصرف عن قتالهم فأبت ، وغضب عمير ونزل يقاتل راجلاً^(١) ، وانهزم زفر بعامر فلحق بقرقيسياً مدعيّاً أنه بلشه قسدوم عبد الملك إليه . ودارت الدائرة على أصناف عمير واستحرّ القتل في بني سليم وغني . وأجلت الموقعة عن مقتل عمير وهزيمة قيس . وقد غمير مقتل عمير نفوس التغلبيين فرحاً وبعثوا برأسه إلى عبد الملك تمبيراً عن ولائهم له^(٢) .

وقد أوجع مقتل عمير القيسية ووجدت نفسها ملزمة بالثأر له ، فأخذت بزعامه زفر تذلل بتغلب أتى وجدتها ، وأخذ زفر ينظم غارات متصلة على بطون تغلب في أديانها ، فوجه يزيد بن حمران إلى بني فدوكس فقتل يزيد رجالهم واستباح أموالهم ، ووجه زفر ابنه الهذيل إلى بني كصب بن زمير فقتلهم الهذيل قتلاً ذريعاً ، ووجه مسلم بن ربيعة أخا بني عقيل إلى قوم من بني تغلب ممتمين فأكثر مسلم فيهم القتل . ثم صم زفر على الانتقام منهم يوم اجتمعوا بالمقيس من أرض الموصل ، فلما أحست تغلب ارتحلت تريد عبور نجلة ، ولما صارت بـ "الكحيل" لحقهم زفر في القيسية ففترق منهم بشراً عظيماً ، وأتى فلهم لبوء ، فوجه زفر إليهم الهذيل فأوقع بهم ، وأسر زفر منهم مائتين فقتلهم صبراً ، وبقر بطون كثير من نسائهم^(٣) .

وعلى نحو ما أطفأ عبد الملك نيران الفتنة التي شبت بين قيس وتغلب وبين كلب ، تدخل هذه المرة أيضاً ليضع عدداً لهذا الصراع بين قيس وتغلب ، وكان ذلك في سنة ٧٣ هـ بعد انتهاء فتنة ابن الزبير واجتماع الناس عليه ، فقد دعا إلى دمشق رؤساء القبيلتين لإصلاح ذات بينهما^(٤) ، ولكن الأخطال شاعر تغلب يؤمّجج

(١) أنساب الأشراف ٣٣٣/٥ ، الكامل في التاريخ ٣١٥/٤ - ٣١٦ ، الخلافة الأموية ١٦٠ .

(٢) أنساب الأشراف ٣٢٤/٥ - ٣٢٥ ، الكامل في التاريخ ٣١٥/٤ - ٣١٦ ، الخلافة الأموية ١٦٠ .

(٣) أنساب الأشراف ٣٢٦/٥ - ٣٢٧ ، الأغاني ٥٨/١١ ، الكامل في التاريخ ٣١٨/٤ .

الخلافة الأموية ١٦٠ - ١٦١ .

(٤) الأغاني ٦٠/١١ ، الخلافة الأموية ١٦١ .

نار العداوة بين الحيين بهجائه قيساً وتذكيره الجحاف السلمي في مجلس الخليفة
 بمن قتل من رجال قومه على يد تغلب وتحداه أن يثأر لهم . وقيل زعيم قيس
 التحدي ، فخرج جازاً مطرته غضبا ولطاب لبص كتاب الديوان حتى كتب له عهدا
 على لسان عبد الملك بتوليته صدقات بكر وتغلب في الجزيرة . ثم أغار بأصحابه
 من قيس على من بـ " البشر " من بني تغلب وهم آمنون ، فقتل منهم مقتلة
 عظيمة ، وأسر الأختل فيمن أسروا وأتته أسرهم عبداً فأطلقه ، وقتل ابن الأخطل
 وبقر رجال الجحاف بطون التغلبية (١) . وأسفرت الموقعة عن قتل عدد كبير من
 تغلب ، فأشار الشمر ذو التغلبي على ذويهم بأحراقهم لئلا يُصيروا بهم إذا دفنوه
 لكثرتهم (٢) . ولحق الجحاف ببلاد الروم خوفاً من بطش الخليفة فمكث فيها زمناً ،
 ثم كلمت القيسية عبد الملك في أن يؤمنه فأمنه ولكنه ضمه ديات قتلاه بالبشر
 عقوبة له ، وأمر الخليفة ابنه الوليد باحتمال الدماء التي كانت قبل ذلك بين
 الحيين . ثم وفد الجحاف على الحجاج بالعراق فسأله ما حمل لأنه من هـوازن
 القيسية ، فأمر له - بعد مُطالبة - بمائة ألف درهم (٣) .

وهكذا نَحَسَّ أن بذور هذه الفتن القبلية التي شَبَّتْ بين قيس وتغلب وبين
 كلب من ناحية وبين قيس وتغلب من ناحية أخرى ، بدأت منذ هاجرت قيس إلى الشام
 والجزيرة وزاحمت هاتين القبيلتين في مواطنهما . ولقد كان النزاع يحمل طابعا
 اقتصاديا غالبا في بداية الأمر ، مرده الخصومات على منابت الكلا وموارد المياه
 وأماكن الرعي والمنافسة على امتلاك الأراضي الخصبة واستغلالها . وسرعان ما
 ازداد النزاع حدة وضراوة واتخذ طابعا جديدا في هذا العصر ، هو الطابع
 السياسي الذي تَمَعَّضَتْ عنه مواقف بعض هذه القبائل بعد موت معاوية الثاني وظفر
 الأمويين بالخلافة بعد موقعة سرج راهط ، فمن السروغ أن القبائل القيسية كانت

(١) أنساب الأشراف ٣٢٦/٥ ، الأغاني ٦٠/١١ ، الكامل في التاريخ ٣١٩/٤ - ٣٢١ ، الخلافة
 الأموية ١٦١ .

(٢) أنساب الأشراف ٣٢٩/٥ ، الكامل في التاريخ ٣٢٠/٤ ، الخلافة الأموية ١٦١ .

(٣) أنساب الأشراف ٣٣٠/٥ ، الأغاني ٦٠/١١ ، الكامل في التاريخ ٣٢١/٤ ، الخلافة
 الأموية ١٦٢ .

تناصر ابن الزبير وتقدم في صفوف الممارضين لبني أمية ، في حين كانت قبيلة كلب وغيرها من القبائل اليمنية تُشكل قوة الدولة العباسية (١).

وإذا كان تضارب المصالح الاقتصادية والسياسية هو أهم الأسباب التي فجرت النزاع بين القبائل القيسية والربيعية واليمينية بالجزيرة الفراتية ، فإن التعصب القبلي كان السبب المباشر لما ثار من الفتن . وقد وجدت القبائل نفسها - في أتون هذه الأحداث - مضطرة للتداعي إلى العشيرة ، لأنها بعصبيتها ترى " سلامتها وتصور بقائها وتذود عن كيانها ، ومن طريقها تلتصق لنفسها أسباب العيش " (٢) . وعلى الرغم من أن تعاليم الإسلام حثت على مبارزة النزعات الجاهلية واستطاعت القضاء على كثير منها إلا أن بعضها " ظل قائماً في مصر الأموي ، لأن نفوس العرب لم تكن قد تخلصت بعد من رواسب الماضي القريب " وقد تجلت العصبية في بلاد الجزيرة في صور كثيرة ، منها شدة التماسك بين بطون القبيلة الواحدة حتى حينما تتنازع منازلهم وتتباعد مواطنهم (٣) ولهذا رأينا قيس العراق من أبناء فزارة ينتصرون لقيس الجزيرة ، في حين رأينا ربيعة من أبناء العراق ينتصرون لربيعة الجزيرة أيام الفتنة ، وكانت كل قبيلة تمدد أختها بالرجال والسلاح . كذلك ظهرت آثار العصبية في تلك الوقائع الدامية والخارات المتصلة السابقة الذكر . وقد اتسمت تلك الوقائع بطابع المنفعة والوحشية حتى صارت غايتها الإثنا والإبادة ، فالأسرى يُقتل ، والحوامل من النساء تُبقر بطونها . فهاجت الأحقاد والضغائن بين تلك القبائل ، وبسات النداء بطلب الثأر شريعة القوم .

فأنت ترى أن الصراع أصبح له دوافع أخطر شأنها من التزاحم في المنازل والتنازع على المراعي وعيون الماء والتصادم في الأهواء والميول السياسية ، فإن التداعي إلى المشيرة زاد من عنف الصراع وتسوته . ومن هنا تجد أن تفسير الصراع بين القبائل في الجزيرة بإثارة إلى التنازع على أسباب العيش والتضارب

(١) انظر: العصر الإسلامي ١٥٠هـ التطور والتجديد ٣٣ و ١٦٧هـ تاريخ النقائض في الشعر العربي

١٩٦ و ٢١٨ و ٢١٩هـ الخلافة الأموية ١٤٤-١٤٥ .

(٢) العصبية القبلية ١٠٨ .

(٣) المربع السابق ٢٨٨ هـ وانظر : ٣٢ و ١١٨ و ١٢٠ .

(٤) المرجع السابق ٢٨٢ .

في الولاء لا يكفيان ، لأن الدافع الرئيس إلى أكثر الفتن هناك إنما كان مسرده
اشتداد الروح القبلية والصية الجاهلية .

(ثورات الخوارج)

كان علي بن ابي طالب (ر) يدرك أن فتر خلافة مع معاوية بن أبي سفيان بأسلوب
التحكيم ستكون له آثاره الخطيرة على المجتمع الاسلامي ، فيه ظهرت على الساحة
الإسلامية لأول مرة تلك الجماعة التي تسمت بـ "الخوارج" . ورأت أن من الإنصاف
عدم قصر الخلافة على قبيلة أو جماعة معينة ، بل هي حق يتساوى فيه كل المسلمين
عرباً وغير عرب ، والإمام الحق هو الذي تجتمع عليه الأمة بالانتخاب لأنه أفضلها
تقوى وورعاً وزهداً وتحملاً للمسؤولية . ونتج عن ذلك أنهم نادوا بكل زعيم من
زعمائهم "أميراً للمؤمنين" .

فهم يخالفون نظرية الشيعة في الوصاية ونظرية السنة بجواز الانتخاب الذي
يقرب من التقيين ، ولهذا رأوا أن الخروج على خلفاء بني أمية واجب لاعتقادهم
بأن هؤلاء "جائرون" (١) لم تنتخبهم الأمة وإنما فرضوا عليها فرضاً ، إذ كان
كل خليفة يمين من يخلفه في منصبه . فمن واجب الأمة كافة أن تخرج على هؤلاء
الظلمة ، فإذا لم تفعل اعتبرته شريكاً لأثمتها في جورهم وظلمهم وتسلطهم ، وكان
الخروج عليها وجهاً لها حقاً تفرضه المصلحة العامة .

ومع أن الخوارج يتفقون في وجوب معالجة المسألة التي خرجوا من أجلها وهي
الخلافة ، إلا أنهم يختلفون حول أفضل الطرق التي يمكن اتباعها لمعالجة تلك
المسألة . ولذلك تشعبت جماعتهم إلى فرق أربع ، هي : الأزارقة والأباضية
والتجدات والصفرية . وكانت الأخيرة أكثر فرقهم اعتدالاً وتوسطاً في جهادها
لجماعة المسلمين ، فهي لا تأخذ بمذهب "الاستمرار" الذي ينادى بجعل بلاد
الاسلام دار حرب يحل فيها قتل كل من يمرض لهم ممن لا يرى رأيهم ، ولا ترى قتل
الأطفال وتكفيرهم وتخليدكم في النار مع آبائهم المثالفين ، وتمتدح أن التقية
جائزة في ديار الكفر ، وأن القعود عن الجهاد ممن يوافقها في الاعتقاد جائز

(١) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٨٦/٢) ، الطبري ٦/٢١٧-٢١٨ ، الكامل في التاريخ ٤/٣٩٣ ،

الخلافة الأموية ٢٢٧ .

وكان مسرح نشاط هذه الطائفة من الخوارج في العصر الأموي بلاد الجزيرة، إذ قامت بفتن خطيرة عكّرت الأمن والسلام في هذا الجزء من الدولة، وانتهت في كثير من الأحيان بخلبتها على مناطق واسعة إلى حين .

وأولى هذه الفتن تلك الفتنة التي نسبت إلى شبيب بن يزيد بن نعيم الشيباني، واندلعت سنة ٧٦ هـ^(٢) في خلافة عبدالملك، ولم يكن هو البادئ بها ولكنه كان أبرز قوائها . وإنما كان المُدبّر لهذه الفتنة رأس الصفرية آنذاك صالح بن مُسَرِّق أحد بني امرؤ القيس بن زيد مناة بن تميم^(٣) . الذي خرج بأرض دارا^(٤) ونصيبين على رأس مائة وعشرين^(٥)، كان من بينهم : شبيب وأخوه مُصاد والمُحَلَّل بن وائل اليشكري والفضل بن عامر من بني نُهَل بن شيبان وثور ابن البطين وسويد وشونب والصقر بن حاتم من بني تَيْم بن شيبان وإبراهيم بن حنبر أبو الصَّيَّير من بني مُحَلَّم^(٦) .

وعرضت لهم أثناء خروجهم دواب لعامل الجزيرة محمد بن مروان فأخذوها وحملوا رجالتهم عليها فأصبحوا فرسانا^(٧)، ففزع منهم أهل دارا ونصيبين

(١) الملل والنحل ١٣٧/١، وانظر: الخوارج في الإسلام ٩٤، ملخص تاريخ الخوارج ٦٤ .

(٢) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٨٦/٢) الطبري ٢١٦/٦، الكامل في التاريخ ٤/٣٩٣، ابن

خلدون ٣٧٤/٢، الخلافة الأموية ٢٩٠ .

(٣) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٨٦/٢) الطبري ٢١٦/٦، الكامل في التاريخ ٤/٣٩١،

البداية والنهاية ١١/٩، ابن خلدون ٢٢٤/٣، الخلافة الأموية ٢٩٠ .

(٤) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٨٦/٢) الطبري ٢١٩/٦، الكامل في التاريخ ٤/٣٩٣،

الخلافة الأموية ٢٩٠ .

(٥) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٨٦/٢) الطبري ٢٢٠/٦، الكامل في التاريخ ٤/٣٩٤،

البداية والنهاية ١١/٩، الخلافة الأموية ٢٩٠ .

(٦) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٨٦/٢) الطبري ٢١٩/٦، الكامل في التاريخ

٤/٣٩٤-٣٩٣، البداية والنهاية ١١/٩، ابن خلدون ٢٢٤/٣ .

(٧) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٨٦/٢) الطبري ٢٢٠/٦، الكامل في التاريخ

٤/٣٩٤، البداية والنهاية ١١/٩، ابن خلدون ٢٢٤/٣، الخلافة الأموية ٢٩١ .

وسنجرار وتحصنوا (١) . ولما بلغ منهم خبرهم سرح إليهم عدى بن عدى الكنسدي في ألف فارس ، فلما التقوا هزمهم الخوارج (٢) ، ثم عقد محمد لثالد بن جسر السلمي والشارح بن جصونة على ثلاثة آلاف ، فلاحقا بالخوارج في آبد فقتل منهم ثلاثين ومضت البقية هاربة ليلاً حتى قطعت أرض الجزيرة (٣) ودخلت أرض العسرة فوجه إليها والي العراق يومئذ بشر بن مروان الشارح بن عميرة على رأس جيش من ثلاثة آلاف ، فلما التقوا على تخوم الموصل دارت الدائرة على الخوارج فقتل زعيمهم صالح بن مسرج ودخلوا حصناً قريباً فبايعوا شبيباً بن يزيد بن نعيم وخرجوا ليلاً فدفعوا جيش الشارح وهم غارون فهزمهم (٤) .

ثم ارتفع شبيب بأصحابه إلى أرض الموصل وراذان فانضمت إليه طائفة من بني تميم بن شيبان ، ومضى يتنقل بين أرض السواد والديلم (٥) ، والحجاج والي العراق - بعد بشر - يسرح إليه البيهقي فيهمزها (٦) . ثم سار شبيب يريد الكوفة وخرج الحجاج من البصرة يريد ما وطع شبيب أن يلقاه قبل وصوله الكوفة ، فأقحم الحجاج غيلة فدخلها قبله وتحصن في قصر الإمارة . ودخلها شبيب بجيشه القليل

(١) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٨٦/٢) الطبري ٢٢٠/٦ - ٢٢١/٦ الكامل في التاريخ ٣٩٤/٤ البداية والنهاية ١٢/٩ الخلافة الأموية ٢٩١ .

(٢) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٨٦/٢) الطبري ٢٢٠/٦ - ٢٢١/٦ الكامل في التاريخ ٣٩٤/٤ البداية والنهاية ١٢/٩ ابن خلدون ٣٢٤/٣ الخلافة الأموية ٢٩١ .

(٣) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٨٦/٢) الطبري ٢٢٠/٦ - ٢٢١/٦ الكامل في التاريخ ٣٩٥/٤ ابن خلدون ٣٢٤/٣ الخلافة الأموية ٢٩١ .

(٤) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٨٧/٢) الطبري ٢٢٢/٦ - ٢٢٣/٦ البداية والنهاية ١٣/٩ ابن خلدون ٣٢٤/٣ الخلافة الأموية ٢٩١ .

(٥) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٨٩/٢) اليعقوبي ٢٠/٣ - ٢١/٣ الطبري ٢٢٦/٦ - ٢٢٧/٦ الكامل في التاريخ ٢٩٧/٤ - ٢٩٩/٤ ابن خلدون ٣٢٦/٣ الخلافة الأموية ٢٩٢ .

(٦) اليعقوبي ٢٠/٣ - ٢١/٣ الطبري ٢٢٦/٦ و ٢٢٧/٦ البداية والنهاية ١٣/٩ - ١٤/٩ الخلافة الأموية ٢٩٢ .

العدد وأُمّه جهيزه وزوجته غزالة ليلاً وتقدّم إلى القصر فضربه بعمود ثم اتجه نحو المسجد الجامع ، وكانت زوجته نذرت أن تدخل المسجد فتصلي ركعتين تقرأ فيهما البقرة وآل عمران ^(١) . ثم خرج الحاج في عسكره يقاتله في أرض الكوفة ، ولما عجز عن قتاله بحث إلى عبد الملك يستمدّه ، فوجه إليه عبد الملك جيشاً عليه سفيان ابن الأبرّد الكلبي ، فتكاثروا على النوارج فقتلوه ^(٢) ، ونجا شبيب في فرسان من أصحابه ، فوجه الحاج في أثره سفيان ، فلحقه بالأفواز وظل يتعقبه حتى غرق في نجيل وتفرّق عنه أصحابه ^(٣) .

وعلى رأس المائة الهجرية في أيام عمر بن عبد العزيز خرج ثوب اليشكري واسمه بساطم في مائتي رجل ^(٤) ، ولما كان عمر رجلاً زاهداً لا يحب سفك الدماء فقد أرسل يطلب اليهم أن يأتوه ليناطرهم ^(٥) ، فبعثوا برجلين أوض لهما عسر أن الخروج على جماعة المسلمين ليرل ما يسوّغه ، وسألهما أن يبلنا ذلك إلى متى زملائهم . ولم يمر وقت حتى توفي عمر ، فسرح إليهم الجيوش حتى قتلتهم ^(٦) .

(١) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٩٥/٢) ، اليعقوبي ٢٠/٣ - ٢١/٦ ، الطبري ٢٤٠/٦ - ٢٤١/٦ البداية

والنهاية ١٤/٩ ، ابن خلدون ٣٢٨/٣ - ٣٣٤/٣ ، الخلافة الأموية ٢٩٣ .

(٢) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٩٥/٢) ، اليعقوبي ٢٠/٣ - ٢١/٦ ، الطبري ٢٥٨/٦ ، البداية

والنهاية ١٥/٩ ، ابن خلدون ٣٢٨/٣ - ٣٣٤/٣ ، الخلافة الأموية ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(٣) اليعقوبي ٢٠/٣ - ٢١/٦ ، الطبري ٢٧٩/٦ - ٢٨٠/٦ ، ابن خلدون ٣٣٧/٣ - ٣٣٨/٣ ، الخلافة الأموية

٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٤) اليعقوبي ٥١/٣ ، الطبري ٥٥٥/٦ ، مروج الذهب ١٤٨/٢ ، ابن خلدون

٢٤٥/٢ - ٢٤٧ .

(٥) اليعقوبي ٥١/٣ ، الطبري ٥٥٦/٦ ، الأزد (تاريخ المـ

٦) ، مروج الذهب ١٤٨/٢ ، ابن خلدون ٣٤٥/٣ - ٣٤٧ .

(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز ١٢٧ - ١٣٠ ، اليعقوبي ٥١/٣ ، الطبري

٥٧٥/٦ - ٥٧٧ ، العيون والحدائق ٤٣/٣ - ٤٧ ، مروج

الذهب ١٤٩/٢ - ١٥٠ ، ابن خلدون ٣٤٨/٣ .

وضعف، أمر الخوارج إلى أيام هشام بن عبد الملك، وفيها خرج بهلول بن بشر الشيباني (١) الملقب كُفارة (٢) سنة عشرين ومائة (٣) في ولاية خالد بن عبد الله القسري على السراق (٤). وكان سبب خروجه أنه أراد الحج، فلما كان ببعض قرى السواد أرسل غلامه ليجتاح له غلاً ثائلاً بنصره، فرتها بهلول إلى البائع فامتنع عن قبولها، فاستمد بهلول عليه عامل القرية وكان من أهل الشام فلم يمسده، وقال: خارجي غيبث، والله لشيء خير منك ومن قومك. فتركه ومضى لحجه وجعل يخبر من لقي من إخوانه، فلقي بمكة من كان على مثل رأيه، فدعاهم إلى الخروج. ولما قضا حجتهم اجتمعوا في قرية من قرى الموصل وأمروا عليهم بهلولاً وخرجوا (٥)، فلما انتهوا إلى القرية التي ابتاع بها الغلام الخمر قال بهلول: نبداً بهذا السامل فنقتله، فقال أصحابه: بل نحارب غالدا الذي "يهدم المساجد ويبني البيخ والدنانير ويولّي المجوس على المسلمين وينكح أهل الذمة المسلمات" (٦). ثم اجتمع رأيهم على قتل عامل القرية، فساروا إليه فقتلوه (٧). وأتى خالد خبرهم فوجه لحربهم جنداً، كانوا أقبلوا من الشام ونزلوا العيرة وعليهم أحد بني القين، فلما التقوا انهزم أهل الشام (٨). وبلغت الهزيمة خالداً فستنح اليهم جيشا عليه حوثب بن يزيد بن رويم الشيباني، لقيهم فيما بين الموصل والكوفة، فشدّ عليهم بهلول وأصحابه فهزمهم (٩).

(١) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٢/٢٦٤)، الطبري ١٣٠/٧، العيون والحداث ١٠٩/٣،

ابن خلدون ٣٤٨/٣.

(٢) الطبري ١٣٠/٧، العيون والحداث ١٠٩/٣.

(٣) العيون والحداث ١٠٩/٣، ابن خلدون ٣٤٨/٣.

(٤) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٢/٢٦٤)، الطبري ١٣٠/٧، العيون والحداث ١١٠/٣.

(٥) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٢/٢٦٤)، الطبري ١٣٠/٧، العيون والحداث ١١٠/٣،

الكامل في التاريخ ٢١٠/٥، ابن خلدون ٣٤٨/٣.

(٦) الطبري ١٣١/٧، العيون والحداث ١١٠/٣، الكامل في التاريخ ٢١٠/٥.

(٧) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٢/٢٦٤)، الطبري ١٣١/٧، العيون والحداث ١١٠/٣،

الكامل في التاريخ ٢١٠/٥، ابن خلدون ٣٤٨/٣.

(٨) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٢/٢٦٤)، الطبري ١٣٢/٧، العيون والحداث ١١٠/٣،

الكامل في التاريخ ٢١٠/٥، ابن خلدون ٣٤٨/٣.

(٩) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٢/٢٦٤)، الطبري ١٣٢/٧، العيون والحداث ١١٠/٣، الكامل

في التاريخ ٢١١/٥، ابن خلدون ٣٤٨/٣.

ثم ارتحل بهلول بأصحابه يريد الموصل ، وهناك انضم إليه قوم من أهلها^(١) ،
فهابه عاملها واستمد هشاما . فرأت الخوارج أن تسير إلى الشام فتعارب هشاما
الذي يسلط خالدا وأمثاله ، فخافهم عمال هشام ورجعوا إليهم جندا من العراق
والجزيرة والشام التقوا بهم بـ (الكُحَيْل) عند دير هناك ، ودارت الدائرة على
الخوارج فقتل بهلول وتولى أمر الخوارج جماعة بن عبد الله الشيباني ، فانحاز
بأصحابه وترك القتال^(٢) .

واغتذمت الخوارج الفتنة التي نشأت بعد مقتل الوليد بن يزيد واشتغال
مروان بن محمد بتهدة الأوضاع في الشام ، فخرج سعيد بن بهذل الشيباني فسي
مائتين من أهل الجزيرة فيهم الضحاك بن قيس الشيباني بأرض (كفتوتوا)^(٣) . ثم
مضى سعيد إلى العراق لما بلغه أن الاختلاف بها بين القيسية واليمينية ، وقبل أن
يصلها مرض ، ولما أعين بدنو أجله استغلف الضحاك ومات^(٤) .

وكانت فتنة الضحاك التي اندلعت بعد موت سعيد في أسرة من العصر الأموي
عندما تصدعت الحكومة المركزية تصدعا لا يرجى رأيه في عهد آخر خلفاء بني أمية
من أشد فتن الخوارج وأخطرها ، فقد أقبل الضحاك من شهرزور في ثلاثة أو أربعة
آلاف وعبر إلى المدائن ، فكتب إليه القعدة الذين بالكوفة فسره ذلك^(٥) وسار
إليها فدخلها وولى عليها ملحان بن معروف الشيباني^(٦) .

-
- (١) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٢/٢٦٤) الطبري ١٣٦/٧ هـ الميون والحدائق ١١٠/٣ .
(٢) أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٢/٢٦٥) الطبري ١٣٦/٧ هـ الميون والحدائق ١١٠/٣ .
١١١ هـ الكامل في التاريخ ٢١١/٥ هـ ابن خلدون ٣/٣٤٩ .
(٣) الطبري ٣١٦/٧ هـ تاريخ الموصل ٦٠ هـ الكامل في التاريخ ٣٣٥/٥ هـ البداية والنهاية
٢٥/١٠ هـ ابن خلدون ٣/٣٥٠ .
(٤) الطبري ٣١٦/٧ - ٣١٧ هـ تاريخ الموصل ٦٧ هـ الكامل في التاريخ ٣٣٤/٥ - ٣٣٥ هـ
البداية والنهاية ٢٥/١٠ هـ ابن خلدون ٣/٣٥٠ هـ وانظر : أنساب الأشراف
(مخطوط مصور ٢/٣٥٩) .
(٥) تاريخ خليفة بن خياط ٥٦٨/٢ هـ أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٢/٣٦٠) الطبري ٣١٦/٧ - ٣١٨ هـ
(٦) تاريخ خليفة بن خياط ٥٧٠/٢ هـ أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٢/٣٦٤ - ٣٦٥) هـ
الطبري ٣٢٠/٧ هـ الميون والحدائق ١٥٧/٣ هـ تاريخ الموصل ٦٧ هـ الكامل في التاريخ ٣٣٦/٥ .

ثم اتجه الضحاك إلى واسط لما بلغه أن الاختلاف فيها بين القيسية واليمنية
بزعمه القنبر بن سعيد الحرشي وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز^(١)، فاجتمعا على
حربه لكونهما غشاً في النيل معه، فخرج إليه ابن عمر لصالحه وبإيعه هو وسليمان
ابن هشام وأبان بن معاوية بن هشام وداود بن سليمان بن عبد الملك، وخرّضه على
قتال مروان بن محمد^(٢). فاتجه الضحاك يريد مروان، فاجتاز أرض العراق وسهل
له أهل الموصل دخول مدينتهم فاستولى عليها وعلى نوريها^(٣). وكان مروان مشغولاً
بعمار حمص، فكتب إلى ابنه عبد الله يأمره بالتوجه إلى نصيبين حتى يمنع الضحاك
من توطئة الجزيرة^(٤).

وسار الضحاك إلى نصيبين ومعه مائة ألف من الخوارج أو يزيدون، فحاصر
عبد الله بن مروان^(٥)، وبثّ غيوله في أرض الجزيرة فنجّ أهلها إلى مروان^(٦).
فسار إليه مروان فالتقيا بنواحي كفر توثا وجرز بينهما قتال شديد انتهى بقتل

- (١) تاريخ خليفة بن خياط ٥٧٠/٧-٥٧١، أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٢/٣٦٤) الطبري ٢/٣١٦
- تاريخ الموصل ٦٧، الكامل في التاريخ ٥/٣٣٥، ابن خلدون ٣/٣٥١-٣٥٠.
(٢) تاريخ خليفة بن خياط ٥٧١/٧، أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٢/٣٦١-٣٦٥) الطبري ٢/٣١٨
- ٣٢٧، العيون والحدائق ٣/١٥٢، تاريخ الموصل ٦٨، التنبيه والأعراف ٢/٢٨٢، الكامل
في التاريخ ٥/٣٣٦-٣٣٥، البداية والنهاية ١٠/٢٨٨، ابن خلدون ٣/٣٥١-٣٥٠، وكان
رجال بني أمية، وهم: سليمان وأبان وداود لعقوا بعبد الله بن عمر لما هزمهم
مروان بن محمد بقنسرين (الكامل في التاريخ ٥/٣٣٣، ابن خلدون ٣/٢٤٦).
(٣) تاريخ خليفة بن خياط ٥٧٢/٢، الطبري ٢/٣٤٥، العيون والحدائق ٣/١٥٩، تاريخ
الموصل ٦٩، الكامل في التاريخ ٥/٢٤٩، البداية والنهاية ١٠/٢٨٨، ابن خلدون ٣/٣٥١.
(٤) تاريخ خليفة بن خياط ٥٧٣/٢، أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٢/٣٦٥) الطبري ٢/٣٤٥،
العيون والحدائق ٣/١٥٩، تاريخ الموصل ٦٩، الكامل في التاريخ ٥/٣٢٩، البداية
والنهاية ١٠/٢٨٨.
(٥) تاريخ خليفة بن خياط ٥٧٣/٢، أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٢/٣٦٥) الطبري ٢/٣٤٦،
العيون والحدائق ٣/١٥٩، تاريخ الموصل ٦٩، الكامل في التاريخ ٥/٣٢٩، البداية
والنهاية ١٠/٢٨٨، ابن خلدون ٣/٣٥٢.
(٦) تاريخ خليفة بن خياط ٥٧٣/٢، أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٢/٣٦٥) الطبري ٢/٣٤٦،
تاريخ الموصل ٦٩ - ٧٠.

الضحاك (١) ، فقام بحرب مروان بعده أحد قواده وهو اللقيصري ، وقد أبلى فيه قتال مروان بلاء حسدا ، حتى إنه دخل عسكر مروان لـنـهـم تكاثروا عليه فيقتلوه (٢) وولت الخوارج أمرها شيبان بن عبدالعزیز المكنى بأبي الدلفاء الديباني (٣) ، وتبرئ بينهم بعد تولي شيبان قتال يسير ، ثم انحاز الخوارج فساروا إلى الزابيين من أرض الموصل فخذقوا عليهم . وتبعهم مروان ، فأتى القتال بينهم تسعة أشهر وهم محاصرون ، مروان يحاصرهم من جهة الشام وابن ضبارة يحاصرهم من جهة العراق حتى ضاق عليهم الأمر (٤) ثم تذاثر عليهم عمال مروان فهزموهم وفرقسوا جمعهم . وارتحل شيبان بمن بقي معه ، فسرح مروان وراءه عامر بن ضبارة المصروي (٥) .

- (١) تاريخ خليفة بن خياط ٥٧٣/٢-٥٧٤ أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٣٦٦/٢-٣٦٧) ، الطبري ٣٤٦/٧ ، العيون والحداث ١٥٩/٢-١٦٠ ، تاريخ الموصل ٢٠-٢١ ، الكامل في التاريخ ٣٤٦/٥ البداية والنهاية ٢٨/١٠ ابن خلدون ٣٥٢/٣ .
- (٢) تاريخ خليفة بن خياط ٥٧٤/٢ أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٣٦٧/٢) ، اليعقوبي ٨٠/٢ ، الطبري ٣٤٧/٧ ، العيون والحداث ١٦٠/٢ ، تاريخ الموصل ٢١-٢٢ ، الكامل في التاريخ ٣٥٠/٥ البداية والنهاية ٢٨/١٠ ابن خلدون ٣٥٢/٣-٣٥٣ .
- (٣) تاريخ خليفة بن خياط ٥٧٥/٢ أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٣٦٧/٢) ، اليعقوبي ٨٠/٢ ، الطبري ٣٤٧/٧ ، العيون والحداث ١٦٠/٢ ، تاريخ الموصل ٢٢ ، الكامل في التاريخ ٣٥٠/٨ البداية والنهاية ٢٩/١٠ ابن خلدون ٣٥٤/٣ .
- (٤) تاريخ خليفة بن خياط ٥٧٥/٢ أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٣٦٨/٢) ، الطبري ٣٤٩/٧ ، العيون والحداث ١٦٠/٢-١٦١ ، تاريخ الموصل ٧٢-٧٤ ، الكامل في التاريخ ٣٥٢/٥ البداية والنهاية ٢٩/١٠ ابن خلدون ٣٥٤/٣-٣٥٥ .
- (٥) اليعقوبي ٨٠/٢ ، الطبري ٣٥٠/٧ ، العيون والحداث ١٦٦/٢ ، تاريخ الموصل ٧٥ ، الكامل في التاريخ ٣٥٦/٥ البداية والنهاية ٢٩/١٠ ابن خلدون ٣٥٥/٢ .

فأتى شيبان أنزبيجان فالمدائن فالأنهواز ففارس ثم انتهى إلى جزيرة ابن كلوان
وخرج منها إلى عمان فقتله الجلندي (١) .

ويُتضح من هذا العرض الموجز أن الخوارج الذين ثاروا بالجزيرة الفراتية
أو فيما جاورها من الأمصار إنما كانوا من القبائل الربيعة ، وأن كثرتهم
من بني شيبان البكريين .

(١) تاريخ خليفة بن خياط ٥٧٥/٢ ، أنساب الأشراف (مخطوط مصور ٣٦١/٢ - ٣٧٠) ،
الطبري ٣٥١/٧ - ٣٥٣ ، المعيون والعدائ ١٦٣/٣ ، تاريخ الموصلي
٧٦ ، الكامل في التاريخ ٣٥٥/٥ ، ابن خلدون ٣٥٥/٣ .

١ - الفصل الثاني

شِعْر الصَّراع القَلْبِي

١ - شِعْر الصَّراع بَيْنَ قَلْبٍ وَتَعْلَبٍ وَبَيْنَ كَلْبٍ

٢ - شِعْر الصَّراع بَيْنَ قَلْبٍ وَتَعْلَبٍ

عادت المصيبة القبلية جذعة في عصر بني أمية ، على الرغم من أن تعاليم الإسلام السمحة حضت على إيمانها وبعثت الناس إلى نبذها وعدم الانقياد لما تجرّه من أحقاد وضائن وما تثيره من خصومات ومنازعات بين القبائل . ومن المؤسف أن نداء المصيبة كان يصادف قبولاً وهوى في نفوس القوم استجابة للحميصة الباهلية ، حتى الشراء الذين كان يفترض فيهم أن يكونوا دعاة سلم ووثام بين قبائلهم كانوا يلّبون داعي المصيبة .

وإن شعراء الجزيرة الفراتية الذين ظهرت في أشعارهم النزعة القبلية بوضوح ، ينتمون إما إلى قيس المضربة وإما إلى تغلب الربيعية وإما إلى كلب اليمينية . وفي طليعة الشعراء الذين كانوا ينطقون بلسان قيس : زُفر بن الحارث الكلابي^(١) ونُفيع بن صقار المحاربي^(٢) وعُمير بن الحُبَاب السلمي^(٣) وعلي بن القدير الشنوي^(٤) والجحاف بن حكيم السلمي^(٥) ،

(١) انظر ترجمته : طبقات فحول الشعراء ٤٧٩/١ ، المحبر ٢٥٥ ، أنساب الأشراف ٢٩٨/٥ ، الاشتقاق ٢٩٧/٢ ، الموءتلف والمختلف ١٨٩ ، جمهرة أنساب العرب ٢٨٦/٢ ، تهذيب ابن عساكر ٣٧٦/٥ ، خزنة الأئب ٣٧٢/٢ .

(٢) انظر نسبه : شعر الأخطال ٦٦٨/٢ .

(٣) أنظر ترجمته : جمهرة النسب ١٦٣/١ ، تاريخ خليفة بن خياط ٣٣٧/١ ، المحبر ٢٥٥ و ٤٩٢ ، أنساب الأشراف ٢٤٩/٥ و ٣١٣ ، الأخبار الطوال ٢٩٣ ، الطبري ٩٠/٦ ، معجم الشعراء ٧٤ ، جمهرة أنساب العرب ٢٦٤/١ ، الكامل في التاريخ ٣٠٩/٤ ، تاريخ ابن عساكر المخطوط ٣٣٨/١٣ .

(٤) أنظر ترجمته : معجم الشعراء ١٣١ ، جمهرة أنساب العرب ٢٤٧/١ ، تاريخ ابن عساكر المخطوط ٢٧٨/١٢ .

(٥) أنظر ترجمته : جمهرة النسب ١٦٥/١ ، أنساب الأشراف ٣٧٨/٥ ، طبقات فحول الشعراء ٤٧٩/١ ، الاشتقاق ٣٠٨/٢ ، الأغاني ٥٧/١١ ، الموءتلف والمختلف ١٠٢ ، جمهرة أنساب العرب ٢٦٤/١ ، الأصابة ٢٦٦/١ .

ومن أبرز شعراء تغلب: الأخطل (١) والقطامي (٢) وأعشى تغلب (٣)، أما اليمانية فقد برز من شعرائهم الذين حبلوا لواء المصيبة: عمرو بن مخلد الكلبي (٤). وقد ظهرت المصيبة بأجلى صورها في تلك الوقائع الدامية والفارات المتطلة التي نشأت بين قيس وتغلب من جهة وبين كلب من جهة أخرى، كما نشأت بين قيس وتغلب بعد ذلك. وهي غارات جرّت وراءها ظاهرة اجتماعية خطيرة عانى منها القوم كثيرا. وهي الأخذ بالثأر. وكان عرب الجزيرة لم يتفبروا في ظروفهم الجديدة عما كانوا عليه في الجاهلية، فلا الإسلام ولا النصرانية استطاعا أن يحولا بينهم وبين الأخذ بالثأر (٥). وبسبب المطالبة بالثأر حدثت أكثر الوقائع القبلية التي شهدتها بلاد الجزيرة.

- (١) أنظر ترجمته: جمهرة النسب ٢٢٩/١، طبقات فحول الشعراء ٤٨١/١، الشعر والشعراء ٤٨٣/١، الاشتقاق ١٠٦/١ و ٣٣٨/٢، العقد الفريد ٣٦٠/٣، الأغاني ١٦٩/٧ و ١٧٠ و ١٧٣ و ١٧٦، الموفتلف والمختلف ٧١، جمهرة أنساب العرب ٣٠٥/٢، خزائن الأئب ٤٥٩/١ و ٤٦١، تاريخ ابن عساکر المخطوط ٧٢/١٤ - ٧٧.
- (٢) أنظر ترجمته: ديوان القطامي ٤٤، طبقات فحول الشعراء ٥٣٤/٢ - ٥٣٥، الشعراء والشعراء ٧٣٣/٢، أئب الكاتب ٥٦، الاشتقاق ٣٣٩/٢، الأغاني ٢٠/١١٨ - ١١٩، معجم الشعراء ٧٣، الممددة ٢٨٢/١، جمهرة أنساب العرب ٣٠٥/٢، تاريخ ابن عساکر المخطوط ٧٤٤/١٣، الصبر ١٢١/١، خزائن الأئب ٣٧٠/٢، كشف الطنون ٨٠٦، شعراء النصرانية في الإسلام ١٩٢، مجلة المشرق السنة ٣ ص ٢٤، بروكلمان ٣٦/١.
- (٣) أنظر ترجمته: جمهرة النسب ٢٢٩/١، المماني الكبير ٣٣٧/٢، الأغاني ١٠/٩٨ - ٩٩، الموفتلف والمختلف ٢٠، معجم الشعراء ٦٩، جمهرة أنساب العرب ٣٠٧/٢، أمالي ابن الشجرى ١٠٨/١، الحماسة البصرية ٩٨/١ و ١٨٥/٢ و ٣٠١، نهاية الأرب ١٦٩.
- (٤) أنظر ترجمته: معجم الشعراء ٦٨، شرح الساسة للتبريزي ٩٧/٢، تاريخ ابن عساکر المخطوط ٣٠٢/١٣.
- (٥) تاريخ الدولة العربية ص ٢٠٢.

أما الفارات التي وقعت بين القيسيين والتغلبيين وبين الكلبيين فقد سبقها معركة لسانية هجرت بين شعراء الفريقيين اثر معركة مرج راهط التي أجلت عن هزيمة القيسية وانتصار اليمنية . وقد ذهب شعراء قيس وعلى رأسهم زفر إلى تهديد كلب وأخواتها من القبائل اليمنية ، أما شعراء كلب وأحلافهم وفي طليعتهم عمرو بن مفلحة فمضوا يفخرون بالنصر الذي تحقق لقومهم على القيسية .

وقد بدأت هذه المعركة اللسانية بمد خروج قيس من الشام واستقرارها في أرض الجزيرة ، وشمورها بأن اليمنية قد نكلت بها في مرج راهط . فامتلات نفوسها بالحقد والكراهية وتحصنت بقرقيسيا وأمرت عليهما زفر بن الحارث ، وعقدت العزم على أن تنتقم لنفسها من كلب وأخواتها من القبائل اليمنية . فقام شعراؤها يندبون من قتل منهم في ميدان المعركة، ويتوعدون أعداءهم بلقاء قريب يحون فيه ما لحقهم من عار الهزيمة ويدركون أوتارهم . على نحو ما يتضح في قول زفر بن الحارث (١) :

أريني سلاحي لا أبأ لك إنني أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أتاني عن مروان بالفيب أنه مقيد دمي أو قاطع لي لسانيا
ففي العيس منجاة وفي الأرض مهرب إذا نحن رفقنا لهن الثانيا (٢)

(١) الطبرى ٥ / ٥٤١ - ٥٤٢ . وانظر : نقائض جرير والاحطل ٢٤-٢٥ : الهوشيات ، ٦٦ ، حماسة البحتري ١٩ و ٤١ ، تاريخ خليفة بن خياط ٣٢٦/١ ، أنساب الأشراف ٥ / ١٤١ - ١٤٢ ، المقد الفريد ٤ / ٣٩٧ ، مروج الذهب ٢ / ٦٧ - ٦٨ ، التنبيه والإشراف ٣٦٨ ، المؤتلف والمختلف ٩٩ و ١٨٩ ، شرح ديبوان الحماسة ١ / ٨٠ - ٨١ ، الكامل في التاريخ ٤ / ١٥٢ ، شرح نهج البلاغة ٢ / ٩٤ ، الحماسة البصرية ١ / ٢٦ ، نهاية الأرب ٣ / ٣٥٢ .

(٢) العيس : الإبل تضرب إلى الصفرة أو البيض مع شقرة يسيرة ، واحدها أعيس وعيساء . والثاني : الأزيمة ، جمع المثني .

- فلا تحسبوني إن تَفَيَّبت غسا فلا ولا تفرحوا إن جئتم بلقائيا
 فقد نبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا (١)
 أتنهب كلب لم تنلها رماحنا وتترك قتلى راهط هي ما هيا
 لعمري لقد أبقت وقيمة راهط لخصان صمعا بيئنا متنائيا (٢)
 أبعد ابن عمرو وابن ممن تباها ومقتل همّام أمّني الامانيا (٣)
 فلم تترك مني نبوة قبل هذه فرارى وتركى صاحبي ورائيا (٤)
 عمية أعدو بالقران فلا أرى من الناس إلا من علي ولا ليا (٥)
 أيزه يوم واحد إن أساته بصلح أيامي وحسن بلايا
 فلا صلح حتى تنخط الخيل بالقتل وتثار من نسان كلب نسايا (٦)
 ألا ليت شمري هل تصيب غارتي تنوخا وحيي طيء من شفايا

عذا ما كان يحسه زفر وقومه من قيس حين انتهوا إلى أرض الجزيرة ، فقد كانت

(١) الدمن : أرواث البهائم والأبمار المتلبدة ، جمع الدمنة . والحزازات : جمع الحزازة ، وهي الوجع في القلب من غيظ وندوة . ضربه مثلا للذي تظهر مودته وقلبه نفل بالعداوة . وضرب الشجرة التي تنبت في الأوساخ والأقذار فتحي* خضرة ناضرة ومنبتها خبيث قدر ، أي كما أن ظاهر هذا المرعى حسن وداخله ردي* فكذلك نحن .

(٢) حسان : هو حسان بن مالك بن بعدل الكلبي .

(٣) ابن عمرو : هو زياد بن عمرو بن معاوية العقيلي . ابن ممن : هو ثور ابن ممن بن يزيد بن الأحنس السلمي . وهمام : هو همام بن قبيصة النيمري (نقائص جرير والأخطال ١٨ - ١٩ ، وانظر : شرح ديوان الحماسة ٩٨/٢) .

(٤) النبوة : الزلية ، ويعني فراره . وصاحبا : شابان من بني سليم فرامه بعد هزيمة المرج ، فلما لحقتهم خيل مروان بن الحكم تركهما زفر حين قصر فرسهما ، ونجا بنفسه حتى أتى قرقيسيا* (الطبري ٥٤١/٥ ، الكامل في التاريخ ١٥٢/٤) .

(٥) القران : الحبل يُقَلَّد البمير ويقاد به .

(٦) النخطة : دا* يصيب الخيل والإبل في صدورهما لا تكاد تسلم منه ، والنخيط :

صوت منه توجع .

نفوسهم تمتلي* بحقد دفين ونقمة عارمة على من حاربهم في مرج راهط من القبائل
اليمانية . ولذلك بكى زفر قتلى قومه ، وتوعد أعداءه ، وأعلن إصراره على
الثأر ، واعتذر عن فراره .

فأجابه عمرو بن مخالة الكلبي (١) :

- (٢) بكى زفر القيسي من شُكِّ قومه بـبيرة عيين ما يجفُّ سُجُومها
(٣) يُبكي على قتلى أصيبت براهط تجاوبه هام القفسار وبومها
(٤) أبحنا حمى للحَيِّ قيس براهط وولت شلالا واستبَّيَّح حريمها
يُبكيهم حَرَّان تجرى دموعه يَرْجِي نزارا أن تَثُوب حلومها
فمت كمدا أو عش ذليلا مُهْضما بحسرة نفس لا تنام همومها
(٥) إذا خطرت حولي قُضاعة بالقنا تَخْبِطُ فُحْلَ الْمُصْطَبَات قُرومها
خبطت بهم من كادني من قبيلة فمن ذا إذا عَزَّ الخطوب يرومها

فعمرو بن المخالة الكلبي يشمت باندحار قيس وتشتت شملها في موقعة مرج راهط ،
ويفخر بشجاعة قومه وشدة بأسهم وقتلهم رجال قيس وفرسانها .

(١) الطبري ٥٤٣/٥ . وانظر : التنبيه والإشراف ٢٦٧ ، الكامل في التاريخ ١٥٣/٤ .

(٢) سجومها : سيلان دموعها .

(٣) الحام : جمع هامة وهي طائر ، وقيل : هي البومة . وكانت العرب تزعم أن
روح القتيل الذي لم يدرك بثأره تصير هامة فتزقو عند قبره (لسان
العرب ٦٢٤/١٢ هوم) .

(٤) شلالا : يقال : نصب القوم شلالا أي انشَلُّوا مطرودين ، والشلال : القيسوم
المتفرقون .

(٥) الخبط : ضرب البعير الشي* بخفيده . المصعب : الفحل الذي يودع مسن
الركوب والعمل للفحلة . والقرم : من الرجال : السيد العظيم .

وصور زفر عند القتال الذي جرى في مرج راهط تصويراً شهد فيه بشجاعة أعدائه اليمنيين ، واعترف بأنهم أهل صبر عند اللقاء . قال (١) :

وكنّا حَسْبنا كل بيضاء شحمة ليالي لآتينَا جُذام وحميرا
فلما قرعنا النّبع بالنّبع بعضه ببعض ، أبت عيدانه أن تكسّر (٢)
ولما لقينا عصبة تغلبية يقودون جُرداً للمنيّة ضُمر (٣)
سقيناهم كأساً سقونا بمثلها ولكنهم كانوا على الموت أمبر (٤)

فزفر يقرّ بأن قومه كانوا يجهلون قوة أعدائهم من القبائل اليمنية ، ولذلك استهانوا بها وظنوا أنهم سيقهرونها وينتصرون عليها ، فلما التقوا بها في مرج راهط ثبتت لهم وصبرت على قتالهم .

وفاخر عمرو بن مخلاة الكلبي بما تحقق لقومه من نصر على القيسية ، وشمت بما لحقها من قتل وأسر وتشريد ، وأشاد بما قدمه قومه من بلاء وبسالة وإيقاع برجال قيس . قال (٥) :

(١) شرح ديوان الحماسة ٧٩/١ - ٨٠ ، الحماسة البصرية ٥٢/١ ، التذكرة السمديّة ٧٨ : وانظر : أنساب الأشراف ٣٢٥/٥ .

(٢) قرعنا : ضربنا . النبع : شجر صلب ينبت في الجبال ويعمل من عيدانه القسي . والضمير في عيدانه عائد إلى النبع . ضرب ذلك مثلاً لتكافؤ الفريقين جلادة وصبرا .

(٣) تغلبية : نسبة إلى تغلب ، وهي تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف ابن قضاعة ، وليست تغلب بنت وائل ههنا (جمهرة أنساب العرب ٢ / ٤٥٠ مشرّح ديوان الحماسة ٨٠ / ١) . جردا : أي خيلا جردا ، وهي القصيرة الشعر . والضر : الضامرة .

(٤) أصبرا : أي أصبر منا .

(٥) نقائض جرير والأطل ١٧ - ١٩ . وانظر : أنساب الأشراف ١٤٨/٥ ، معجم الشعراء ٦٨ ، الحماسة الشجرية ١٧٢/١ ، شرح ديوان الحماسة ٩٨/٢ ، تاريخ ابن عساكر المخطوط ١٣ / ٣٠٢ .

- ويوم تُرى الرايات فيه كأنها
 خلا أربع بعد اللقاء وأربع
 أجابت رماح القوم بشرا وثابتا
 وتجلّى حُبَيْشاً مُلْهِبٌ ذو عِلَالَةٍ
 طَعْنًا زيادا في استه وهو مدبر
 وقد شهد الصفين عمرو بن محرز
 وأدركهما ما بأبيض صارم
 هو الأبيض القرم الطويل نجاده
 فمن يك قد لاقى من المرح غبطة
 فلن ينصب القيسي للناس راية
 ولما زحفنا بالصفوف فأقبلوا
 وقلنا: سلوا الأقوام عنا وعندكم
 والأبيات تعدّ أكل وصف لموقعة المرح ولما حان بالقيسية من ضروب التقتيل ولحق
 بهم من ألوان الهوان والذل ، فأكثر زعمائهم من مثل : بشر بن يزيد المـرى
 وثابت بن خويلد البجلي ، وحزم بن عمرو النميري ، وزياد بن عمرو بن معاوية

- (١) عافت الطير : استدارت وحاست حول الماء . والواقع : الساقط . جمل الرايات
 بعضها جائل وبعضها ساقط ، لأن المنهزمين تسقط أعلامهم .
 (٢) الناقع : الثابت .
 (٣) يقول : أصابت رماحنا هؤلاء ، ففجعت بهم عشائهم ، لأن كل واحد منهم كان
 رئيس عشيرته . (أنظر : شرح ديوان الحماسة ٩٨/٢) .
 (٤) ملهـب : فرس ملهـب أي سريع الجري . والعلالة : الثوب الذي يجلل به الفرس .
 (٥) الأبيض الصارم : السيف القاطع . والمشايخ : المقوّم لأصحابه المتابع لهم .
 (٦) القرم : السيد العظيم . الفاني : المسن . واليافع : الشاب .
 (٧) الغبطة : السرور . وأراد بخاص وجادع : ما لحق قيسا من هوان وذلك
 لانكسارهم .
 (٨) حمّ : قدر .
 (٩) نماغ : نقاتل ونجالد .

المقيلي ، وثور بن ممن بن يزيد بن الأحنس السلمي ، وعمرو بن محيّر ز
الأشجعي ، وهام بن قبيصة النميري^(١) ، لاقوا حتفهم بالسيوف القضاعية
التي سجلت عليهم انتصارا باهرا ووصتهم بالخزى والمار .

فردّ عليه زفر بأبيات نقض فيها أبياته السابقة ، وبين أن القبائل
اليمنية - على إسلامها - ليست جديرة بالسلطان لأنه حق لمضر ولذروة
شرفها قريش ، وعيّرهُ الانقياد للأمويين ، لأن قومه لا خيار لهم غسّير
الولاء والطاعة لهم أو لقريش إغوتهم . قال^(٢) :

فخرت ابن مغللة الحمار بمشهد علاك به في المرج من لا تدافع
علاك به قوم كأنك وسطهم إذا الحرب شبت ثملب متظالع^(٣)
فإن نك نازعنا قريشا فانهم أغونا ومولانا الذين نذاع
فأى قبيلينا وأمسك ما يكن له الملك تتبمه وهدك ضارع^(٤)
وما لبثت قيس أن شنت الفارات على من كان يجاورها من بطون كليب
البادية ، واتصلت الوقائع بين الحيين وكانت منازل تغلب شديدة القرب
من ديار القيسية ، وقد نجح زفر بن الحارث في أن يضمها إلى جانبه ،
فشاركت تغلب قيسا في غاراتها على اليمنية من كلب ، يدفعها إلى ذلك
عامل المصيبة لأنها وقيسا تتحدران من جذم واحد ، فهي من ربيعة وقيس
من مضر وكلا الحيين من نزار بن عدنان .

ويبدو أن وقوف التغلبيين بجانب قيس ومشاركتهم لها في حربها للكلب
لم يكن سببهما المصيبة القبلية وانتسابهما لنزار وحسب ، بل كان
سببهما أيضا تقارب منازل كلب وتغلب وتضارب مصالحهما الاقتصادية
وتنافسهما في الكلا والماء ، فعادت كل منهما الأخرى واشتبكتا فسي
حروب مستمرة . يدل على ذلك قول الأخطل^(٥) :

(١) هؤلاء الزعماء من قيس هم الذين حرّضوا الضحاك بن قيس الفهري على
صرف الرايات إلى مرج راهط وإعلان البيعة لابن الزبير (شرح ديوان
الحماسة ٩٨/٢ ، تاريخ ابن عساكر المخطوط ٣٠٢/١٣) .

(٢) نقائض جرير والأخطل ١٩٠/١٩ وانظر : أنساب الأشراف ١٤٨/٥ .

(٣) شبت : اشتعلت . ومتظالع : يمرج ويغمر في مشيه .

(٤) ضارع : ذليل .

(٥) شعر الأخطل ٦٣/١ .

- لا يَدْعُكَ كَلْبِي بِذِمَّتِهِ إِنْ الْقَضَاعِيَّ إِنْ جَاوَرْتَهُ غَسُولُ (١)
 كَمْ قَدْ هَجَمْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ مَسْؤَمَةٍ شَقَّتْ فَوَارِسُهَا الْبَيْزُ الْبَهَالِيلُ (٢)
 نَسِي النِّسَاءَ فَمَا تَنُكَ بِمِرْدَفَةٍ قَدْ أَتَهَجَّتْ عَنْ مَعَارِيهَا الشَّرَابِيلُ (٣)

فالذليبيون لا يحفظون حقوق جيرانهم ولا يحترمون عهودهم ، ولهذا كان
 فرسان تغلب ينثرون عليهم ، فيقتلون الرجال ويسبون النساء ويمسودون
 إلى ديارهم بالفنائم والأسلاب .

لا غرابة إذاً في مناصرة تغلب لقيس ، وموازرتها لها على أعدائها
 من كلب . وقد غمر تحالف ابني نزار نفوس التغلبيين بالفرح والسيور
 ولاقى الترحيب ، حتى قام الأخطل شاعر القبيلة يتغنى بهذا الاتحاد
 ويباركه ويمدح من سموا إلى إقراره . قال في الثناء على زفر القيسي (٤) :

إِنِّي أَطْنُ نَزَارًا سَوْفَ يَجْمَعُهَا بَعْدَ التَّفَرُّقِ حَرْبٌ شَبَّهَا زَفَرُ
 صَلَّتْ الْحَبِيبُ رَشِيدًا لَمْ تَعْرِفْهُ إِذَا تَكَشَّفَ عَنْ عَرْنِينِهِ الْقَسْرُ (٥)
 زفر شجاع ذو بأس ، مشرق الوجه ، رشيد ، جمع بين نزار بعد تفرقها ،
 ووسَّد كلمتها .

(١) الفول بفتح الفين : ما أهلك الناس ، والفول بضم النين : السَّحْلَة .

(٢) المسومة : المعلمة في الحرب لشهرتها . والبهلول من الرجال — :

المزير الكريم الصامع لكل خير .

(٣) مردفة : أو أردفها من سبأها خلفه . أنهجت : شققت ومزقت حست .

المعاري : مبادئ العظام حيث تُرى من اللحم . والسرابيل : جمع

السربال وهو القميص والدرع .

(٤) شعر الأخطل ١ / ٣٣٧ .

(٥) العرنين : تحت مجتمع العاجيين ، وهو أول الأنثى حيث يكون فيه

الشَّهِيم . والقتر : الفبرار

وأشار إلى ذلك أعشى تغلب في قوله (١) :

ما ضرَّ غازي نزار أن يفارقه كلب وجرم إذا أبناؤه اتفقوا (٢)

قالت قضاة اذ لم يفرق بين كلب وجرم ما يعلم ما برؤوا ولا صدقوا
فالأعشى يمتاز بتماسك ابني نزار واتفاقهم ، لأن ذلك يدفع عنهما الخطر
الذي يتهدهما من قبائل اليمن . ويهون من شأن اليمنية ويستغفبما
يمكن أن تفعله ، لأنه لا ضرر يلحق النزاريين حين تجتمع كلمتهم
وتتضافر جهودهم . ويذكر بقضاة التي انتعت خلاف أصلها ، فمالت إلى
اليمن طالمة لنفسها (٣)

ثم أخذت قيس وحليفاتها تغلب تهاجمان كلبا واليمانية في ديارها
غربي الفرات . وقد أفادت قيس كثيرا من انضمام تغلب إليها في شن
هجمات على عدوها المشترك ، ذلك أن التغلبيين كانوا على معرفة
أكيدة بالدروب والمسالك التي توصل إلى منازل كلب وتوعدى إلى نجاح
الغارة ، لأنهم كانوا أول من نزل تلك البلاد من قبائل العرب (٤) ولأنه

(١) البيان والتبيين ١/٢١٥ .

(٢) جرم : هو جرم بن ريان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة

(جمهرة أنساب العرب ٢/٤٥١) .

(٣) اختلف في نسب قضاعة ، فجعلها بعضهم معدية النجار (السيرة النبوية

١٠/١ ، نسب قريش ٥ ، المعارف ٢٩٦ ، المعاني الكبير ٣/٥٢٤ ، جمهرة

أنساب العرب ١/٨٦ و ٢/٤٤٠) ، ومنهم من رأى أنها قحطانية

فجعلها في مالك بن حمير (جمهرة أنساب العرب ١/٨٦ و ٢/٤٤٠ ، لسان

العرب ٨/٣٧٦ ، نهاية الأرب ٤٤) ، وقد انتسبت قضاعة إلى حمير

فقال : قضاعة بن مالك بن حمير (السيرة النبوية ١٠/١ ، نسب

قريش ٥ ، المعارف ٢٩) . وإذا عرفنا أن امرأة مالك بن حمير

واسمها عكبرة ، خلف عليها معد فولدت قضاعة على فراشه (نسب

قريش ٥) استطعنا أن نفهم السر في هذا الاختلاف ، وأن للرأيين

نصيبا من الصحة .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ١٠/٤٠ .

كان لهم مع كلب حروب سابقة خبروا من خلالها أكثر مواطن تلك الأرض أمناً ، حتى كانوا للقيسيين أدلاءً * أمناً * لا مشاركين في القتال وحسب^(١) .

واتصلت غارات القيسيين والتغلبيين على كلب ، وأوقعوا بها فسي أكثر من موطن ويوم مذكور . فمن ذلك يوم غُوَيْر^(٢) ، وفيه قتلوا من كلب مقتلة عظيمة وطاردوا زعيمها حميد بن بحدل^(٣) ، وسبوا النساء وأذلوا كلباً . وقد واكب الشعر أحداث ذلك اليوم المشهود ، فمن ذلك ما قاله عمير بن الحباب السلمي^(٤) :

وَرَدَنَ عَلَى الْفُوَيْرِ غَوِيرِ كَلْبٍ كَأَنَّ عِيُونَهَا قُلُوبَ انْتِزَاجٍ^(٥)
أَقْرَّ الْعَيْنَ مَصْرَعِ عَبْسِدٍ وَدٍّ وَمَا لَأَقْتَسَرَاةِ بَنِي الْجَلَاخِ^(٦)

(١) أنظر : شعر الأخطل ١ / ٣٣٧ .

(٢) الفوير : ما * لـ كلب بأرض السماوة بين العراق والشام (معجم البلدان ٤ / ٢٢٠) .

(٣) حميد بن بحدل : هو حميد بن حريث بن بحدل بن أنيف بن دلجسة ابن قنافة بن عدى زهير بن جناب بن هبل بن عبد الله بن كنانة ابن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب ، خال يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، وكان زعيم قضاة بالشام (المحبر ٢٥٥ ، أنساب الأشراف ٥ / ٣٠٨ ، الاشتقاق ٢ / ٥٤١ ، جهمرة أنساب العرب ٢ / ٤٥٦ - ٤٥٧ ، شرح الحماسة ٢ / ٤٢) .

(٤) الأغاني ٢٠ / ١٢٥ .

(٥) الضمير في وردن عائد على الخيل . قلب : جمع قليب وهي البثر . وبثر نزوح : نفذ ماؤه ، شبه به عيون الخيل الفائرة لطول السفر .

(٦) عبد ود : هو عبد ود بن عوف بن كنانة بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور بن كلب . والجلاخ : هو الجلاخ بن عوف بن بكر بن كعب بن عوف بن عامر بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة ابن ثور بن كلب (جهمرة أنساب العرب ٢ / ٤٥٨ - ٤٥٩) .

وقائمة تُنادى : يا لكلب وكلب بئس فتیان الصباح
أشار عمير في هذه الأبيات إلى تلك الفارة التي قتل فيها بنوعبـ
ود وبنو الجلاح الكلبيون ، والتي استصرخت فيها الكلبيات رجالهن
ليدفعوا المفيرين ويذبّوا عن المحارم .
وقال — عمير (١) :

وكلب تركنا جمهم بين هارب حذار المنايا أو قتيل مجدل
وأفلتنا لما التقينا بعاقد على سابع عند الجرام ابن بحدل (٢)
وأقسم لو لاقيته لملوثه بأبيض قطاع الضربة مقص (٣)
ذكر الهزيمة التي لحقت بالكلبيين ، وتركهم بين فار ومصرع . أما
زعيمهم ابن بحدل فقد آثر النجاء ، ولولا فراره لفكتك به قيس .
وقال عمير يبيّن هوان الكلبيين وانحارم وظهوره عليهم (٤) :
وكلبا تركناهم فلولا أدلة أدّونا عليهم مثل راغية البكر (٥)
وسجل عمير مطاردته لابن بحدل في قوله يستحث فرسه على اللحاق
به ، من الرجس (٦) :
أقدم صرام إنّه ابن بحدل لا تدرك الخيل وأنت تذال (٧)
أن لا يمرّ مثل مرّ الأجدل (٨)

(١) الأغاني ١٢٥/٢٠ .

(٢) أفلتنا : لعله يريد أفلت منا بحذف حرف الجر . عاقد : الرمل المتمدد
وليس علما لمكان لأنه لم يرد في معاجم البلدان . السابح : الفرسان الذي
يسبح في جريه أي يسرع . الجرام : الجري . وابن بحدل : أراد به
حميد بن حريث بن بحدل .

(٣) أراد بالأبيض : السيف اللامع الشديد القطع .

(٤) الأغاني ١٢٥ / ٢٠ .

(٥) الرغاء : صوت ذوات الخف . والبكر : ولد الناقة .

(٦) الأغاني ١٢٢/٢٠ .

(٧) الصرام : اسم من أسماء الحرب والداهية ، وأراد : فرسه . والدالان :
مشي يقارب فيه الخطو ويبقي فيه كأنه مثقل من حمل .

(٨) الأجدل : الصقر .

وأشار إلى ذلك في قوله (١) :

- (٢) وأفلتنا ركضاً حميدُ بن بحدل على سابع غَوَج اللِّبان مثابر
(٣) إذا انتقصت من مأواه الخيل خلفه تَرامى به فوق الرماح الشَّواجر
(٤) لدن غدوة حتى نزلنا عشيّة تمر كيمريخ الفلام المخاطر
(٥) ونحن جلبنا الخيل قُباً شَوازبا يفاق الهوادي داميّات الدوائر

(١) الأغاني ١٢٢/٢٠ و ١٢٥ .

(٢) غوج اللبان : واسع الصدر ، وأراد الفرس .

(٣) الشَّاو : الطلق والشوط . والرماح الشواجر : المتشابكة المتداخلة .

(٤) مريخ الفلام : قضيب يجعل الصبي في أعلاه ثمرة وطينة تثقله ثم يرمي به بغير ريث (أنظر : ديوان أوس بن حجر ٦١) .

(٥) الخيل القب : الضوامر . وكذلك الشوازب ، جمع شازب ويجمع على

على شُزْب أيضا . الهوادي : الأعناق . والدوائر : جـ

في (اللسان ٢٩٧/٤ دور) أن في الفرس دوائر كثيرة : فدائرة

القائع والناطج وغيرهما . وقال أبو عبيدة : دوائر الخيل

ثمانية عشرة دائرة ، يكره منها الحقيقة ، وهي التي تكون في عرض

زوره ، ودائرة القالع وهي التي تكون تحت اللسان ،

ودائرة الناحس وهي التي تكون تحت الجاعرتين إلى الفائلتين

ودائرة اللطاة في وسط الجبهة ، وليس

تكرهه إذا كانت واحدة ، فإن كان

هناك دائرتان ، قالوا : فرس تطيح ،

وهي مكروسة وما سوى هذه الدوائر

غسير مكروهة .

تُسأل عن جنبي زبيدة بعدما قَضَتْ وَتَرَأْ من عبد ودّ وعامر (١)
فمير لم يشف غليله، احتوا * عسكر عدوه ، فراح يطارد زعيمهم الفار الذي
ترك جنده من كلب لرجال عمير يمعنون فيهم قتلا وأسرا .

وقال أبو الفرج يصف غزو قيس لـ كلب : " أغار عمير بن العباب
على كلب ، فلقي جمعا لهم بالإكليل في ستمائة أو سبعمائة فقتل منهم
فأكثر ، فقالت هند الجلاحية تعرض كلبا ... فاجتمعوا فقتلهم عمير
وأصاب فيهم . ثم أغار فلقي جمعا منهم بالجوف فقتلهم ، ثم أغار
عليهم بالساووه فقتل منهم مقتلة عظيمة . فقال عمير (٢) " يناقض
هندا ويردّ عليها :

ألا يا هند هند بني الجلاح	سُقيت الفيث من قَلَلِ السحاب
أَلَمَّا تُخبري عَنَّا بِأَنَّا	نَرُدُّ الكِبشَ أعْضَبَ في تَبَابٍ (٣)
ألا يا هند لو عاينت يوما	لقومك ، لامتنت من الشراب
غداة ندوسهم بالخيـل حتى	أباد القتل حي بني جنـاب (٤)
ولو عطفتم موائمة حميدا	لغودر شلوه جَزْر الذئباب (٥)

- (١) زبيدة : لعلها امرأة الشاعر . عبد ود وعامر : من كلب .
وعامر : هو عامر بن عوف بن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد اللات
ابن ربيعة بن ثور بن كلب (جمهرة أنساب العرب ٢/٤٥٨) .
(٢) الأغاني ٢٠/١٢٢ ، وانظر : تاريخ ابن عساكر المخطوط ١٣/٣٣٨ .
(٣) الكبش الأعْضَب : المكسور القرن . والتباب : الخسران والهلاك .
(٤) جناب : هو جناب بن هبل بن عبد الله بن كنانة بن بكر بن عوف ابن
عذرة بن زيد اللات بن ربيعة بن ثور بن كلب (جمهرة أنساب العرب
٢/٤٥٦) .
(٥) الشلُو والشلَا : الجلد والجسد من كل شيء . وجزر الذئباب : أرا بطعما
للذئباب .

فهو يسخر من هند الجلاحية التي ظلت تحرض قومها الكلبيين في شعرها
ليثأروا لقتلهم الذين أصابهم عمير وجنده في يوم الإكليل، لأشها
لو شهدت حرب عمير وأصحابه وشدة جلائهم لعدوهم لئالها ما ترى من ضروب
الإبادة التي تلحق بقومها .

ولما رأت كلب المدر ما لقيته كلب البوادي من عمير ، أمّرت عليها
حميد بن حريث بن بحدل الكلبى ^(١) ، فسار بها من الشام للإغارة على
قيس . وتوجه أول الأمر إلى جماعة من بني نمير كانت تنزل قسرب
تدمر فقتلهم ^(٢) ، ثم سار فأوقع بقوم من قيس ومثل بهم ^(٣) . وبببدو
أن عمل حميد هذا أصاب القيسيين بالفرح الشديد فتخاذلوا . وألم زفر
ابن الحارث أن يرى قومه لا يجدون في طلب ثأرهم ، فقال يعنفهم
على ضعفهم تعنيفاً يستنهضهم به ويحرضهم على إدراك أوتارهم ^(٤) :

يا قيس عيلان قيس الذل إنكم في الحرب ستان أنتم والعصافير
ملاً ثأرتم وأنتم ممشر أنثف قتلى بتدمر جافقها الغنازير
لا تفرّبن رُميل الهيل ما صدحت حماسة ، إنكم قوم عواوير ^(٥)
لا ينفلت مطر منكم بوثر كسم فمجلوا الثأر إلا أنكم خور ^(٦)
وأثارت أبيات زفر هذه حماسة فرسانه وأيقظت همهم ، فأغار بهم عمير
على كلب يوم بمان " فأخذ الأموال وقتل الرجال " . وبلغ ذلك ابن
بحدل " فجمع له ثم خرج يعارضه حتى إذا دنا منهم ، بحث المين يأخذ

(١) أنساب الأشراف ٣٠٨/٥ ، الأغاني ١٢٠ / ٢٠ .

(٢) أنساب الأشراف ٣٠٨/٥ - ٣٠٩ ، الأغاني ١٢٠ / ٢٠ .

(٣) أنساب الأشراف ٣٠٩/٥ .

(٤) حماسة البحترى ٣٠ .

(٥) الهيل : الرمل الذي لا يثبت مكانه حتى ينهال فيسقط (معجم البلدان

٤٢٢/٥) . وعواوير : جبناء ، جمع عوّار (اللسان ١١٦/٤ عور) .

(٦) خور : ضعفاء ، جمع خوار .

أثر القوم ، فأتاه العين فأخبره أن عميرا .. خلف عسكره وخرج هو
في طلب قوم .. فقال حميد لأصحابه : تهيتوا للبيات .. فبيتهم ، فقتل
فيهم فأوجع . وانقلب عمير حين أصبح إلى عسكره ، حتى إذا أشرف على
عسكره رأى ما أنكره من كثرة السواد . فقال لأصحابه : إني لأرى شيئا
ما أعرفه : فلما رآهم ابن بحدل ، قال لأصحابه : احملوا عليهم ،
فقتل من الفريقين جمع . فقال ابن مخلدة :

فقد طار في الآفاق أن ابن بحدل حميداشفى كلبا فقرت عيونها
... ثم سار عمير .. فأغار عليهم ، فقتل منهم مقتلة واستاق الفنائم
وسبى . فلما سمعت كلب بإيقاعه تحملت من منازلها هاربة منه .. " (١)
ولحقت بنفور الشام . فقال عمير في ذلك (٢) :

بشر بني القين بطن الشرج يشبع أولاد الضباع المشرح (٣)
ما زال إمرأى لهم وتسجي وعقبني للكور بعد الشرج (٤)
حتى اتقوني بالظهور الفلج هل أجزي يوما بيوم المرج (٥)
ويوم نمان ويوم هرج (٦)

(١) الأغاني ١١٣/٢٠ .

(٢) الأغاني ١٢٤/٢٠ ، وانظر : الحيوان ٥٥٥/٦ .

(٣) القين : هو النعمان بن جسر بن شيع الله بن أسد بن وبرة ابن

تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة (جمهرة أنساب العرب

٤٥٤/٢ ، نهاية الأرب ٧١ ، وانظر : الاشتقاق ٥٤٢/٢ ، المصنع ٣٤٠ .

(٤) مريت الفرس : إذا استخرجت ما عنده من الجرى بسوط أو غيره .

تسجت الناقة في سيرها تنسج وهي فسوج : أسرع نقل قوائمها .

العقب : الجرى يجيء بعد الجرى الأول ، تقول : لهذا الفرس عقب

حسن أي له جرى بعد جرى ، والتماقب والاعتقاب : التبادل

الكور : رحل الناقة بأداته . والسرj : رحل الدابة .

(٥) الفلج : البمير ذو السنامين . ويوم المرج : يوم مرج راحط ، الذي

ألحقت فيه اليمانية بقيس هزيمة نكراء .

(٦) يوم نمان : اليوم الذي أوقع فيهم

حميد بن حريث برجال عمير .

فجنوب عكا فالسواحل إنها أرض تذوب بها اللقاح وتهزل (١)
أرض المذلة حيث عفت أمكس وأبوكم ، أو حيث مزع بحدل (٢)

ولم يكن تحمّل الكلبين أو طرائف منهم إلى غور الشام ليضع خاتمة
لصراعهم مع قيس ؛ لأن القيسيين ما زالوا يشعرون بأنهم لم يأخذوا بعد
بثأر قتلهم في موقعة مرج راسط ، ولأنهم كانوا يأنفون من أن يقيدهم
السلطان من أعدائهم . فهم أقوياء قادرون على خوض غمار الحروب ومحار
أعدائهم ، وليس من عادتهم أن يضعفوا أو يكتفوا بلعن خصومهم وسبهم . يتضح
ذلك في قول عمير لبني عبد ودّ الكلبين (٣) :

بني عبد ودّ لا تطالب نارنا من الناس بالسلطان إن ثبتت الحرب
ولكن بيض الهند تسمر نارنا إذا ما خبت نار الأعادي فما تخبو (٤)
أبادتكم فرسان قيس فما لكم عديد إذا عذّ الحصى لا ولا عثب
بأيديهم بيض رفاق كأنها إذا ما انتضوها في أكفهم القهب (٥)
فسبّوهم إن أنتم لم تطالبوا بئاركم قد ينفع الطالب الثب
وما امتنع الأقوام عنا بنأيهم سوا علينا النأي في الحرب والقرب

ثم انتقل الصراع إلى مواطن أخرى ، ذلك أن حميد بن حريث الكلبي
تجهّز وأتى بادية الحجاز ، ففدّر ببني فزارة القيسيين ، وقتل من بني بسدر

- (١) اللقاح ، بكسر اللام : الإبل ، الواحدة لقوح وهي الحلوب .
(٢) عفت : تكففت ، يقال : الأعفت : الكثير التكفّف إذا جلس ، وقيد به —
الأعفت والقفيت : الأحمق . ومزع : فرق أمره . وأرجع أن الشاعر يشير
بقوله : " أو حيث مزع بحدل " إلى ثورة ناتل بن قيس الجذامي على روح
ابن زنياع عامل حسان بن مالك بن بحدل على فلسطين ، وطرده منها أيام
الفتنة بعد موت معاوية الثاني بن يزيد .

(٣) الأغاني ١٢٥/٢٠ - ١٢٦ .

- (٤) بيض الهند : السيوف ، نسبوها إلى الهند لشهرتها .
(٥) البيض الرقاق : السيوف ، اللامعة . وانتضى السيف : سلّه .

الفزاريين خمسين رجلا سوى من قتل من غيرهم . وقد أثارته هذه الحادثة
فزاراة العراق ، فطلبوا من عبد الملك أن يقيدهم من حميد ، فامتنع وفرزلهم
الديات من أعطيات قضاة وحمير ، فأخذوا القوم . وفي ذلك قال عمرو بن
مخالة الكلبي يعثر بني ذبيان بقبول ديات قتالهم ويزري بهم ، لأن من
يأخذ الدية ويؤثرها على الطلب بثأره يمدّ ضيفا (١) :

غذوها يا بني ذبيان عَفْلا على الأضياء واعتقدوا الخزاما (٢)

مواعد من بني مروان دينا ندافكم بها عاما فاما
لكن الفزاريين ابتاعوا بالديات خيلا وسلاحا ، وأغاروا على بني عبدة
ودّ وبني عليم الكلبيين وهم على ما يقال له : " بنات قين (٣) " فقتلوه .
وقاد فزاراة يومئذ سميد بن عيثة وحلحلة بن قيس ، فطلبهما عبد الملك ولما
مثلا بين يديه دفع بهما إلى غرماهما فقتلوهما . وفي ذلك يقول علي ابن
الفدير الخنوي (٤) :

وحلحلة القليل مع ابن بدر وأهل دمشق أنجية عزيز (٥)

فبعد اليوم أيام طوال وبعد خمود فتنتكم فتون

خليفة أمة قسرت عليه تخمط فاستخف بمن يدي (٦)

فعلني يحتج على الخليفة عبد الملك ، لأنه دفع القيسيين إلى كلب ليقتلوهما ،
ويتهدد الخليفة بالإطاحة به .

ونوه زفر بن الحارث بإدراك الفزاريين لثأرهم من حميد وقومه فسي
يوم بنات قين . فقال (٧) :

(١) أنساب الأشراف ٥/٣١٠ هـ تاريخ ابن عساكر المخطوط ٣٠٦/١٣ .

(٢) المعقل : الدية . والخزم : شجر مثل شجر الدوم ، وله أفنان وبُسْر
صغار ، يسود إذا أبيض ، مُرّ عَفْص لا يأكله الناس ، ولكن الضربان
حريصة عليه تنتابه .

(٣) بنات قين : اسم موضع بالشام ، في بادية كلب بن وبرة بالسماء ، وهي

عيون عدة في معجم البلدان ١/٤٩٥ .

(٤) أنساب الأشراف ٥/٣١٢ .

(٥) انتجى القوم : تَسَارَّوا ، والنَّجِي : المتناجون ، والجمع أنجيصة .

وعزين : متفرقون .

(٦) خَمِط الرجل وتَخَمَّط : غضب وتكبَّر وثار .

(٧) الأغاني ٢٠/١٢٦ .

(٩٦)

أَقْرَ الميُونَ أَنْ رَهطَ ابْنُ بَحْدَلٍ أَذِيقُوا هَوَانًا بِالَّذِي كَانَ قَدَّمَا
 صَبَحْنَاهُمَا الْبَيْضَ الرِّقَاقَ طِبَاتُهَا بِجَانِبِ خَبْتٍ وَالْوَشِيجَ الْمُقَوَّمَا (١)
 وَجَرْدًا مَلَّتْهَا الْفَزَاةُ فَكَلَّهَا تَرَى قَلَقًا تَحْتَ الرَّجَالَةِ أَهْضَا (٢)
 بِكُلِّ فَتَى لَمْ تَأْبِرِ النَّخْلَ أَمُّهُ وَلَمْ يُدْعَ يَوْمًا لِلْقَرَائِرِ مَعَكُمْ (٣)
 فَزَفَرُ بِشِيرٍ إِلَى أَنْ الدَّمَاءُ الَّتِي سَفَكَهَا حَمِيدٌ وَأَصْحَابُهُ فِي غَارَتِهِمْ عَلَى بَنِي
 فَزَارَةَ وَهُمْ غَارُونَ ، قَدْ أُقِيدَ لَهَا يَوْمَ دَحَمَتِ خِيُولَ فَزَارَةِ الْكَلْبِيِّينَ فَبَنِي
 بَنَاتٍ قَيْنَ فَقَتَلْتَهُمْ قَتْلًا ذَرِيمًا .

وَأَصْبَحَ عَمِيرُ بَعْدَ طَفَرِهِ رَاضِي النَّفْسِ ، فَقَدْ أَصَابَ كَلْبًا بِمِثْلِ مَا أَصَابَتْ
 بِهِ قَوْمَهُ فِي مَوْقِعَةِ مَرْجٍ رَاهِطٍ الَّتِي ظَلَّتْ ذَكَرَاهَا أَلِيمَةً قَاسِيَةً عَلَى نَفْسِهِ ،
 وَبَسِيبِهَا نَهَضَ بِكُلِّ غَارَاتِهِ عَلَى كَلْبٍ ، فَكَانَ يَرَوِي رَمَحَهُ وَيَتْرَكُهُمْ صَرَعًا
 مُجَدِّلِينَ أَوْ هَارِبِينَ فَارِّينَ . يَقُولُ (٤) :

شَفِيتُ الْقَلِيلَ مِنْ قَضَاعَةِ عَنُوءٍ فَظَلَّ لَهَا يَوْمٌ أَغْرُ مُجَبَّلٍ
 جَزِينَاهُمْ بِالْمَرْجِ يَوْمًا مُشْهَرًا فَلَاقُوا صَبَاحًا ذَا وَبَالٍ وَقَتَلُوا
 فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا هَارِبٌ مِنْ سَيُوفِنَا وَإِلَّا قَتِيلٌ مِنْ مَكْرٍ مُجَدَّلٍ

وَلَمْ يَكُنْ رِجَالٌ تَغْلِبُ خَارِجَ هَذَا الصَّرَاحِ الْمَرِيرِ ، بَلْ كَانُوا يَشَارِكُ بَنُونَ

بَنِي الْبَيْضِ الرِّقَاقَ طِبَاتُهَا بِجَانِبِ خَبْتٍ وَالْوَشِيجَ الْمُقَوَّمَا وَجَرْدًا مَلَّتْهَا الْفَزَاةُ فَكَلَّهَا تَرَى قَلَقًا تَحْتَ الرَّجَالَةِ أَهْضَا

(١) الْبَيْضُ الرِّقَاقُ: السُّيُوفُ الْعَادَةُ اللَّامِعَةُ . الطِّبَاتُ: جَمْعُ طَبَّةٍ ، وَهِيَ حِدَّةُ
 النَّصْلِ خَبْتٌ: مَا لِكَلْبٍ (مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ ٢/٣٤٣) . الْوَشِيجُ: الرِّمَاحُ ،
 وَاحِدَتُهَا وَشِيجَةٌ . وَالْمُقَوَّمَا: أَيُّ الرِّمَاحِ الْمُسْتَقِيمَةِ .

(٢) الْجَرْدَا: الْفَرَسُ الْقَصِيرُ الشَّعْرَ .

(٣) أَبَرَّ النَّخْلَ: أَصْلَحَهُ . الْفَرَائِرُ: جَمْعُ الْقَرَارَةِ وَهِيَ الْخَوَالِقُ أَيُّ الْكَيْسِ .
 وَمَعَكُمْ: مِنْ عَمَّكَ الْمَتَاعُ: أَيُّ شِدَّةٍ بِحَبْلِ .

(٤) الْأَغَانِي ٢٠/١٢٦ .

قيسا في قتالها لكلب ويمهدون لها كل سبيل للايقاع بعدوها (١). فهذا
 الأخطال شاعر القبيلة يوضح موقف قومه بني تغلب، وهو يمدح زقربن الحارث
 قائد المحاربين من أبناء القبيلتين قيس وتغلب. يقول من قصيدة (٢):
 / قد أنذروا حية في رأس هضبتة وقد أتنهم به الأخبار والنذر (٣)
 باتوا نيلنا الحلقى الانماط ليلتهم وليله سامر فيها وما شمرؤا (٤)
 هناك قالوا: أنام الله حيته وما يكاد ينام الحية الذكر (٥)
 وكذبوا رسلا أكفأ وانتقضت بالقوم أوزارهم في الأمر فانتشروا (٦)
 حتى انتشروا حيا ذل الخيل معلمة وكوكب الموت يمشى دونه التبصر (٧)

(١) الكامل في التاريخ ٣٠٩/٤

(٢) شعر الأخطال ٥١٦/٢ - ٥١٧

(٣) أراد بالحية: زقربن الحارث، ورجل حية أي شجاع شديد.

(٤) الأنماط: جمع نمط وهو الفراش الوثير. وفيها: أي في هضبتة.

(٥) الحية الذكر: الشديد المنكر الخبيث، وفلان حية ذكر: أي شجاع

شديد.

(٦) الأوزار: جمع وزر وهو الحمل الثقيل والذنب، وأوزارهم: أراد بها

الشاعر ما صنموا بقيس يوم مرج راهط. وانتشارهم: تفرقهم وعن بذلك

طمأنينتهم وقلة تبصرهم وحذرهم.

(٧) المعلمة: التي لها علامة لشهرتها. كوكب الموت ههنا: الكتيبة فيها

بريق السلاح وتوقده. ويمشى: يمشى: أي

يمشى منه البصر لهوله.

في عارض من كلاب يبرقون إذا صاب الأعداء منهم وابسل قُشِرُوا (١)
 حتى حَدُّونا إلى البلقاء* فلهم والذل مجر كلب حيثما انجَحَرُوا (٢)
 يمشون تحتبطون الخيل تصرعهم زُرُقُ الأَسنة والخطية السُّمَر (٣)

فزفر ساهر متيقظ ، يرتقب من الكلبين غفلتهم ثم يفجأ*هم برجاله كأنهم
 صواعق الموت ، فيفزع الكلبون ويدب التفرك والتخاذل في صفوفهم . ولم
 يزل على ذلك حتى أخرجهم من بلادهم ، وتبع جموعهم إلى البلقاء* مهزومين .
 واستمع إلى الأخطل وهو يصف غارة أخرى على كلب (٤) :

سارى بهم أرضهم ليلاً فصَبَّحهم بوقعة لم يُقَدِّم قبلها النُّذُر (٥)
 فهِلَّ على آلة قد بيَّنت لهم أمراً علانية غير الذي ائتمروا (٦)

(١) العارض : الحاب المستتر في الأفق ، ويراد به مهنا الجيش العظيم .
 كلاب : قبيلة زفر من قيس . يبرقون : يتهددون ويتوعدون . الوابل : المطر
 الشديد الضخم القطر ، استماره لما يكون من الجيش نحو أعدائه من
 الضرب والطمع . وقشروا : أطابهم الشوم فهلكوا ، والضمير فيـه
 للأعداء .

(٢) حدونا : سقنا . البلقاء* : كورة من عمل دمشق ، يحدثها من الشمال نهر
 الزرقاء* وتمتد جنوباً إلى عمان ، ومدينتها عمان ، وهي مشهورة بالعنطة
 والأغنام (أنظر : معجم البلدان ٤٨٩/١ البلقاء*) . والفل : المنهزمون .
 (٣) الخطية : نسبة إلى الخط في عمان ، ويشمل قرى القطيف والفقيير وقطر ،
 وكانت تجلب إليها الرماح من الهند فتقوم فيها وتباع على الصرب
 (معجم البلدان ٣٢٨/٢) .

(٤) شعر الأخطل ٣٣٧/١ - ٣٣٨ .

(٥) سارى بهم : تقدم بفرسانه إلى أعدائه . والنذر : جمع نذير وهو المحذر .

(٦) الآلة : الحالة والشدة .

حتى رآوه صباحا في مَلَمَّة شَها * يَبْرُق في حافاتِها البَصَر (١)
 في عارض من كلاب يبرقون إذا نال الأعادي منهم فَيُلْقِ هَبَرُوا (٢)
 سَمَى بأوتار أقوام فأدرَكها لولا أياديهِ ما امتنوا ولا انتصروا (٣)

فقد خرج زقر بفرسانه ليلا وبلغ أعداءه في صبيحة اليوم التالي ، فباغتهم
 وكان همه أن يدرك أوتار قبيلته ، فظفر بمراده ولولاه ما كان نصره لإظفر .
 وهذا القطامي ثاني شعراء تغلب المرموقين ، يؤكّد في قصيدته
 المينية الذائعة أن قومه بني تغلب لم يألوا جهدا في مساعدة قيس في
 حربها القبلية مع كلب . يقول (٤) :

ولو يُستخبر العلماء عنا ومن شهد الملاحم والوفاعا
 بتغلب في الحروب ، ألم يكونوا أشدّ قبائل العرب امتناعا
 وأما الحي من كلب فأنّا نُجِلِّهم السواحل والتلاع (٥)
 فالقطامي يشير بوضوح إلى أن قبيلة تغلب نصرت قيسا على كلب .

(٦) شعر الصراح بين قيس وتغلب

وظلت تغلب تؤازر قيسا في قتالها لكلب وقبائل اليمن حتى كان انكفا *
 عمير بن الحباب برجاله من القيسية من إحدى غاراتهم على اليمنية ،

(١) الملمة: الكتيبة الضخمة المجتمعة . الشها : الكتيبة لما فيها من

بياض السلاح والحديد . ويبرق البصر : أي يشعّ فزعا حتى لا يطرف .

(٢) الفيلق : الجيش العظيم . ومبروا : ضربوا وقطعوا .

(٣) الأوتار : جمع وتر وهو الثأر . وامتنوا : اعتدوا بما فعلوا .

(٤) ديوان القطامي ٣٦-٣٥ .

(٥) التلاع : جمع التلعة ، وهي ما ارتفع من الأرض .

ونزولهم على الثابور في جوار منازل تغلب . وهناك بدأت الصلات تفسد بين
الحيين ، لأن جنود عمير من بني سليم وأخلاق قيس كانوا لا ينقطعون عن التحرش
بجيرانهم ، فهم يسخرون شوخهم ويجبرون جواريتهم على إيوائهم . وما للبث
الشر أن هاج بينهما بسبب أعز لبني تغلب استاقها بعض بني الحريش القيسيين ،
فدبحوها وأكلوها وعمير لا يمنهم . فسخط التغلبيون وشكوا أمرهم إلى زعيمهم ،
فأظهر عمير أن ذلك من مكرّة الجند . واستأمت تغلب لهذا الموقف وحقدت على
عمير وصحبه وعقدت العزم على أخذ حقها من بني الحريش ، فشدت عليهم وقتلت
منهم واستاقت ذؤدا لامرأة من بني الحريش يقال لها أم الهيثم . وحاول
القيسيون منهم لكنهم لم يقدرُوا ، وقاد تغلب يومئذ سُقيث بن مُليث —
التغلب (١) :

وما كان هيناً على تغلب أن تعادى قيساً وتعاربها ، لأن ذلك آذن بتصدع
ما بينهم من حلف ، ولذلك أسف التغلبيون لتلك الحرب التي وقعت بينهم
وبين قيس وألموا لها . وعبر عن ذلك الأخطل لما بلغه خبرها وهو براذان من
أرض الموصل . فقال — (٢) :

أتاني ودوني الزابيان كلاهما ودجلة أنباء أمر من الصبر (٣)

(١) أنساب الأشراف ٣١٤/٥ - ٣١٥ ، الأغاني ١٢٦/٢٠ - ١٢٧ ، الكامل في التاريخ
٣٠٩/٤ - ٣١٠ . الحريش : هو معاوية بن كعب بن ربيعة بن عامر ابن
صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس
عيلان (جمهرة أنساب العرب ٤٨٢/٢ ، وانظر : جمهرة النسب ١٣٩/١ الذود :
القطيع من الإبل ما بين الثلاث إلى العشر ، ولا يكون إلا من الإناث دون
الذكور . وسقيث بن مليث : من بني صباح بن مالك بن بكر بن حبيب
(جمهرة أنساب العرب ٣٠٦/٢) .

(٢) شعر الأخطل ٧٠/١ .

(٣) الصبر : عمارة شجر مُرّ ، وهو —

بكر الباء ، والتسكين للتخفيف .

- أَتَانِي بَأْنِ ابْنِي نَزَارٍ تَنَاجِيَا وَتَغْلِبُ أَوَّلِي بِالْوَفَا * وَبِالْفَدْرِ (١)
ولما تبين للأخطل حقيقة ما جرى ، وأن بني الحريش هم من القيسيين
الذين تحرشوا بَقَوْمِهِ وَأَذَوْهُمْ ، قال يهجو الحريشيين ويفتخر بفرسان تغلب
الذين حاولوا وضع حدٍّ لعدوان قيس عليهم (٢) :
- وَإِنْ تَسْأَلُونَا بِالْحَرِيشِ فَإِنَّا مُنِينَا بَنُوكَ مِنْهُمْ وَفَجْـوَر (٣)
غَدَاةَ تَحَامَتْنَا الْحَرِيشُ كَأَنَّهَا كَلَابُ بَدَتْ أُنْيَابُهَا لِهَرِيرِ (٤)
وَجَاءُوا بِجَمْعٍ نَاصِرٍ أُمِّهِمْ فَمَا رَجَمُوا مِنْ ذَوْنِهَا بِبِمِيرِ (٥)
إِذَا ذَكَرْتَ أُنْيَابَهَا أُمِّهِمْ رَغَتْ جَيْشَلُ مَخْطُومَةٍ بِضَفِيرِ (٥)
وَقَالَ أَعَشَى تَغْلِبُ يَذْكُرُ غَارَةَ شَعِيثَ وَبَنِي تَغْلِبَ عَلَى الْقَيْسِيِّينَ ، وَيَسْجُنِلُ
الْهَزِيمَةَ الَّتِي لَحَقَتْ بِأَعْدَائِهِمْ وَالنَّصْرَ الَّذِي حَالَفَهُمْ (٦) :
- وَإِنَّا يَوْمَ سَارِ بَنَا شَعِيثَ قَرِينَاهُمْ وَأَيُّ قَرِيٍّ قَرِينُنَا (٧)
نَمَصَّنَا الْخَيْلَ وَالرَّايَاتِ حَتَّى قَضَيْنَا مِنْ هَوَازِنَ مَا قَضَيْنَا (٨)

(١) إِبْنُ نَزَارٍ : زُبَيْعَةُ وَمُضَرٌّ ، وَأَرَادَ تَغْلِبَ وَقَيْسَ . تَنَاجِيَا : هَهُنَا : تَوَاعَدَا
لِلْقِتَالِ .

(٢) شِعْرُ الْأَخْطَلِ ٦٧/١ .

(٣) نُوكٌ : حَمَقٌ ، مُصَدَّرٌ نُوكٌ .

(٤) الْهَرِيرُ : النَّبَاحُ .

(٥) أُنْيَابٌ : جَمْعُ نَابٍ وَهِيَ الْفَاقَةُ الْمَسْنُونَةُ ، زَسَمُوهَا بِذَلِكَ حِينَ طَالَ نَابُهَا
وَعَظُمَ . الرِّغَاءُ : صَوْتُ ذَوَاتِ الْخَفِّ ، اسْتِمَارُهُ لِلضَّبْعِ . وَجَيْشَلُ وَجَيْشَلَةٌ :
الضَّبْعُ . مَخْطُومَةٌ : مَزْمُومَةٌ ، وَالْخَطَامُ : الزَّمَامُ وَكُلُّ مَا وَضِعَ فِي أَنْفِ
الْبَعِيرِ لِيَقَادَ بِهِ . وَالضَّفِيرُ : مِنَ الضَّفْرِ ، وَهُوَ مَا شُدَّ بِهِ الْبَعِيرُ
مِنَ الشَّعْرِ الْمَضْفُورِ . يَقُولُ : إِذَا ذَكَرْتَ أُمِّهِمْ إِبْلَاهَا فَكَأَنَّهَا ضَبَعَ
مَزْمُومَةً بِضَفِيرِ .

(٦) الْأَبْيَاتُ فِي أَنْسَابِ الْأَشْرَافِ ٣١٥/٥ ، مَنْسُوبَةٌ إِلَى عَمْرِو بْنِ الْأَهْتَمِ التَّغْلَبِيِّ ،
وَأَسْمُهُ كَمَا هُوَ وَارِدٌ فِي : مَعْجَمِ الشُّعْرَاءِ ٦٩ ، الْمَعْنَانِيُّ الْكَبِيرُ ٣٣٧/٢ : عَمْرُو بْنُ
الْأَهْتَمِ وَلَيْسَ الْأَهْتَمُ ، وَهُوَ الْمَلَقْبُ بِأَعَشَى تَغْلِبَ .

(٧) قَرِينَاهُمْ : مِنْ قَرَى الضَّيْفَ بِمَعْنَى إِطْعَامِهِ ، وَأَرَادَ أَطْعَمْنَاهُمْ لِسَيُوفِنَا .

(٨) نَصَّ الدَّابَّةَ : زَجَرَهَا وَحَثَّهَا عَلَى السَّيْرِ .

وما أبقي من قيس شريدا وما غادرن للجشمي دينا (١)
وفي هذا المعنى ، قال القطامي يفخر بشجاعة شميث ورجاله وظهرهم
على عدوهم ، ويصف اشتداد القتال بينهم (٢) :
وإنا يوم نازلهم شديث كليث الفاب أصحرا فاستفارا (٣)
ظللنا ما من الحيين إلا يرى الصبر التجل والفسارا
بضرب تنفس الأبطال منسه وتمتكر اللحي منه امتكسارا (٤)
على أن رجال قيس البارزين ما كانوا لينسوا مؤازرة تغلب لهم ،
وأيقنوا أن استفحال الخلاف بينهم وبين تغلب سيضر بمصالحهم ويجرهم
إلى حروب وأيام مستمرة . فأظهروا سطهم ونقمتهم على موقفهم
وصبه ، وغمر نفوسهم الأسى والألم . وأشار إلى ذلك زعيم قيس غير منازع
يومئذ زفر بن الحارث حين راجع عميرا ولامه على مما فعلته لتغلب وإساءته
لها ، في هذه الأبيات (٥) :

ألا من مبلغ عني عميرا مقالة عاتب وعليك زاري
أترك حي ذى كلع وكلب وتكر حد ناك في نزار (٦)
كمجتنيح على إحدى يديه فخائته بودي وانكسار (٧)
بتغلب تبتغي الأرباح جهلا وقبلك أفسدوا ربح التجار

- (١) الجشمي : نسبة إلى جشم ، وهو جشم بن بكر بن جبيب بن عمرو بن غنم
ابن تغلب . والدين : أراد به الأعز التي استلبها رجال عمير
الحرشيون من تغلب .
(٢) ديوان القطامي ١٣٥ .
(٣) أصحر : أفضى وبرز . واستفار : أغار .
(٤) تمتكر : تختضب بالدماء . شبه حمرة الدم بالحكة وهي الصباغ الشديد
الحمرة ، يقال : ثوب ممكور وممتكر أي مصبوغ بالديكرة .
(٥) نقائض جرير والأخطال ٢٧ ، وانظر : أنساب الأشراف ٣٢٠/٥ ، الأغاني
١٢٨/٢٠ ، الكامل في التاريخ ٣١٢/٤ .
(٦) ذو الكلاع : هو سميفع بن ناكور بن عمرو بن يعفر بن يزيد (جهمرة
أنساب العرب ٤٣٤/٢) .
(٧) مجتنح : معتمد ومتكى . والوهن : الضعف .

ثم هاج الشرب بينهم حين غزاهم واستمير بناكسين وعليهم شعيث بن مليل
فالتقوا عند قنطرة القرية واشتد القتال بينهم . وكان عمير يهيب بأصحابه
أن يبيدوهم ، فلاقت دعوته استجابة من أصحابه ، فاستحز القتلى في بني تغلبه
وبقر بنو قشير القيسيون بطون التغلبيات . وأجلت الموقعة عن مقتل رئيسهم
شعيث ، ووقع في الأسر القطامي الشاعر وأخذت إبله ، وعاد عمير وأصحابه
بكثير من النعم والسلب . وقد واكب الشعر هذه الموقعة وسجل أحداثها ،
فقد مضى شعراء قيس يصورون غزوهم لأعدائهم ويفخرون بايقاعهم بهم وقتلهم
لعدد من فرسانهم وبقرهم لبطون نساءهم ، مظهرين غير قليل من التشفي
بما لحقهم من ذل وهوان . فمن ذلك ما قاله نفيح بن صفار المحاربي مشيراً
إلى غارة قومه من قيس على بني تغلب ومباغتتهم لهم في صبيحة ذلك اليوم (١)
وبشاطي الخابور صبحناكم بالمرهفات البيض يفريين الذرى (٢)
وقوله يذكر لقاءهم قريباً من حمة تلك القرية (٣) :

ألم تسأل بني جشم بن بكر غداة أتاهم عنا النذير
بحمة ماكسين إذا التقينا وقد طال التوعد والزئير
وقوله في مقتل شعيث ، مناقضا أعشى تغلب الذي افتخر بايقاع شعيث
ببني الحريش (٤) :

وإننا يوم لاقينا شعيثاً قريناه فأى قرى قريننا
وقوله ممرضا ببني تغلب ، وذاكرا فرارهم عن رئيسهم حتى صرعه سيف
قيس عند قنطرة القرية ، تاركة نساءه يسفن الدموع حزنا عليه (٥) :

(١) أنساب الأشراف ٣١٥/٥ و ٣١٧ .

(٢) المرهفات البيض : السيوف التي رقت حواشيها . يفريين : يقطعن .
والذرى : جمع ذروة ، وهي من كل شيء أعلاه ، وأراد بها ههنا الرؤوس

(٣) لمعجم ما استمع ١١٧٥ .

(٤) أنساب الأشراف ٣١٥/٥ .

(٥) أنساب الأشراف ٣١٥/٥ و ٣١٧ ، وانظر :

معجم ما استمع ١١٧٥ .

- وأيام القناطر قد تركتم رئيسكم لنا غليقا رهيننا (١)
 تركنا الباقيات على شعيت سواجم عبرة ما ينقضينا (٢)
 وقوله في هوان تغلب وانكسار شوكتها بعد قتل عدد من فرسانها البارزين
 مظهرها غير قليل من التشفي بهم (٣) :
 ما بعد قتل شعيت في سراتكم وبعد قتل أبي أفي وشمرور (٤)
 وقوله في بقر بطون التغلبيات ، وكان بعض بني قشير يومئذ أجبار
 كل امرأة حامل ، فكانت تأتيه النساء مائة على بطونها جفنت من تحت
 أثوابهن تشبها بالحوامل ، فلما اجتمعن له بقر بطونهن . وفي ذلك قال —
 ابن صفار المحاربي (٥) :
 بقرنا ، فيكم ألفي بقير فلم نترك لحاملة جنيئا (٦)
 وارتجز عمير بن الحباب مصورا ثبات رجاله في مقاتلة أعدائهم ، وشدة
 مجالدتهم لهم بالانطمن والضرب حتى صرعوا بعض فرسانهم . قال (٧) :
 ما قمنا يوم شعيت بالفسرل يوم انتضينا هن أمثال الشقل (٨)
-
- (١) الفلق في الرمن : ضد الفك ، وغلق الرمن في يد المرتين : استحققه ،
 وذلك إذا لم يفتك في الوقت المشروط .
 (٢) سواجم : غزيرات الدموع .
 (٣) أنساب الأشراف ٣١٥/١ و ٣١٧ .
 (٤) سراة القوم : ساداتهم . وأبو أفي وشمرور : من قتلى تغلب (شمر
 الأخطل ٧٧/١) .
 (٥) الأغاني ١٢٨/٢٠ .
 (٦) بقير : بمعنى مبقور .
 (٧) أنساب الأشراف ٣١٥/٥ و ٣١٧ ، وفيه وردت الأبيات
 الأربعة الأولى . ومجموع الشعراء ٧٤ ،
 وفيه وردت الأبيات : الأولى والثاني والخامس .
 (٨) نضا السين من غمده وانتضاه : أخرجه .

ومع يردن كعقبان الخيل من بين تمماء وطرف ذي حص (١)
إذ خرّ شعور بأطراف الأسل (٢)

أما شعراء تغلب ففاخروا ببلائهم في الدفاع عن قريتهم ، وأظهروا ألمهم
وحزنهم على قتالهم ، وأثنى بعض مأسورهم على القيسيين لما مئوا عليه
بإطلاق سراحه . ومن ذلك فخر شميث بن مليل ببلائه في التصدي للمفيري—
وباتصال قتاله لهم حتى بعد أن قطعت رجله . قال (٣):

قد علمت قيس ونحن نعلم أن الفتى يقتل وهو أجـذم (٤)

وأثار بقر القشيريين لبطون التغلبيات أبلغ الأسى وأعظم الحزن في
نفس الأخطل ، فعبر عن حزنه بهذين البيتين اللذين تمتى فيهما أن تكون
خيول تغلب داست القشيريين لتماقبهم بفدرهم وتذهب قسوتهم . قال (٥):

فليت الخيل قد وطئت قشيرا سنا بكها وقد سطع الفبار (٦)

فنجزيهم ببقيهم عليـنـسا بني لبني بما فعل الفدار

ومضى القطامي يكيل المديح لزفر بن الحارث الذي من عليه بتخليـنـة

سبيله ، وكان رجال قيس أسروه وأخذوا إبله واقتادوه إلى قرقيسيا . وهناك
أرادوا قتله فقال زفر دون ذلك ، ثم أطلق سراحه وردّ عليه ما له وأعطاه
مائة من الإبل (٧) . ولم ير القطامي مندوحة من شكر صنيع زفر والثناء

(١) الأثـم : الأسود يكون في الخيل والإبل وغيرهما . الطرف : الفرس الكريم

الأطراف ، أي الآباء والأمهات . والخصل : جمع الخصلة ، وهي الشعر المجتمع .

(٢) الأسل : الرماح .

(٣) شعر الأخطل ٧٤/١ ، أنساب الأشراف ٣١٥/١ و ٣١٢ ، الأغاني ٦٣/١١ ، الكامل

في التاريخ ٣١١/٤ .

(٤) الأجـذـم : المقطوع اليد .

(٥) الأغاني ١٢٨/٢٠ .

(٦) سنا بك : جمع سنبك ، وهو طرف الحافر وجانباه من قـدـم . سطع الفبار :

ثار ، كنى بسـه عن اشتداد القتال .

(٧) طبقات فحول الشعراء ٥٣٦/٢ ، الشعر والشعراء ٧٢٣/٢ ،

الأغاني ١٢٨/٢٠ .

عليه ، اعترافا منه بالجميل وحتى لا يتهم بالاحود ونكران الفضل الى
أسداه إليه زفر . ولذلك ارتفع بمحاطفته وسمته فروسيته العربية
فوق المداء الذي استطار شره بين قومه وبين القيسيين ، فأخذ يحبس
القوائد الطوال في مدح زعيم قيس وقومه ، وقصيدته العينية التي استهلها
مخاطبا ضباة ابنة زفر بقوله :

قفي قبل التفرق يا ضباعا ولا يك موقف منك الوداعا
أروع ما نظم في مدح زفر من قصائد وأشهرها ذكرا . ومنها قوله (١) :
ومن يكن استلام إلى نسوي فقد أكرمت يا زفر المتاعا (٢)
أكفرا بعد رد الموت عني وبمد عطائك المائة الرتاعا (٣)
فلو بيدى سواك غداة زلت بي القدمان لم أرج أطلاعا
إذن لهلك لو كانت صفارا من الأخلاق تبتدع ابتداعا
فلم أر منمين أقل منا وأكرم عندما اصطاعا (٤)
من البيض الوجوه بني نفيل أبت أخلاقهم إلا اتساعا (٥)
بني القرم الذي علمت ممد تفضل فوقها سمة وبساعا (٦)

(١) ديوان القطامي ٢٧ - ٣٨ .

- (٢) استلام إلى فلان : أتى إليه ما يلومه عليه . الثوى : الضيف المقيم .
والمتاع : مصدر متع وأمتع ، أي أعطى .
(٣) أكفرا : الهزلة للاستفهام الذي يقصد به الإنكار ، وكفرا : مصدر
لفعل محذوف تقديره أكفر ، وكفر النعمة : جحدا . والرتاع من
الإبل : التي ترتع في الخصب وتروح وتجيء كيفما شائت ، واحدا راتع .
(٤) المن : أن يفخر المنعم بإحسانه فخرا يفسده ، وذلك فعل لثام المنمين .
واصطنعوا : أي قدموا الممرور ، وأسدوه .
(٥) نفيل : هو نفيل بن عمرو بن كلاب ، جد زفر الأعلى . اتساع الخلق :
الساحة والعلم واحتمال أمر العشيبة .
(٦) القرم من الرجال : السيد العظيم . تفضل : تميز
بالفضل . والباع : السعة في المكارم وبسط الخير
للناس .

فهو يذكر اليد التي أسداها إليه زفر/بتخلية سبيله ، ومنحه مائة من الإبل .
 ويمدح بني نفيل قوم زفر ، منوها بأخلاقهم السمحة وعقولهم الراجحة وكسرم
 محتدّم وشرف أصلهم وتمييزهم بالفضل وبسطهم الخير للناس .
 ومن قصائده المشهورة التي مدح فيها زفر وأثنى على إحسانه له بفك
 إيساره وردّ ماله ، داليتة التي يقول فيها (١) :

من مبلغ زفر القيسي مدحتـه	عن القطامي قولاً غير إفناد (٢)
إني وإن كان قومي ليس بينهم	وبين قومك إلا ضربة الهادي (٣)
مثن عليك بما استبقيت معبرتي	وقد تمرّض مني مقتل بـأد
فلن أثيبك بالنمما * مثمنة	ولن أكافي * إصلاحا بإفساد
وإن هجوتك ما تمّت مكارمتي	وإن مدحت فقد أحسنت إصفادي (٤)
إذ يستريك رجال يسألون دمي	ولو أطعتم أبكيت عوادي (٥)
فقد عصيتهم والحرب مقبلة	لا بل قدحت زنادا غير صـلاد (٦)
والصيد آل نفيل خير قومهم	بـند الشتا * إذا ما ضنّ بالزاد

(١) ديوان القطامي ٨٤ - ٨٧ .

(٢) الإفناد : الكذب .

(٣) الهادي : العنق ، والجمع مواد ، سميت بذلك لأنها تتقدم على البدن ،
 فكأنها تهدى صاحبها .

(٤) مكارمتي : مجازاتي على كرم فعلك . والإصفا : مصدر أصفد ، أي أعطى
 ووصل .

(٥) يمتريك : يخشاك . والعواد : جمع عائد ، وهو الزائر يزورك عند
 مرضك ، وأراد بقوله : " عوادي " أهله وإخوانه السـدين
 يـالمون له .

(٦) قـدج بالزـند : ضرب به ليورى النار ، وزند
 مـالـد وصلاد وصلود ومصلاد : هو الذي يصوت
 عند الضرب ولا تخرج منه النار ،
 وضرب ذلك مثلاً لكرمه ونبل أخلاقه .

المانعون غداة الزرع جارهم بالمشرفية من ماض ومُنَاد (١)
 أيام قومي مكاني مَنُصِب لهم ولا يظنون إلا أنخِسي راد (٢)
 ولا كَرْدَكَ مالي بعدما كُرُبت تبدى السماتة أعدائي وحصادي

فالحرب الطاحنة التي نشبت بين الحيين قيس وتغلب ، بسبب العداء الشديد
 بينهم ، لم تمنع القطامي من الإقرار بجميل زفر ألد أعداء قومه ، حتى
 لا يظهر بمظهر اللئيم المنكر لهذه المكرمة التي حفظت عليه حياته .
 ومن مدائحه التي أنشئ فيها على زفر لرعايته له وإنقاذه من الموت
 وإطلاق سراحه ، هذه الأرجوزة (٣) :

يا زفر بن الحارث بن الأكرم قد كنت في الحرب كريم المَقْدَم (٤)
 إذ أحجم القوم ولما تحجم إنك وابنيك وصلت مَحْـرَمِي (٥)
 بعد الموالي بعدما نَبَّ فمسي وحقن الله بأيديكم دمـي (٦)
 والرمح يهتز اهتزاز المحجم من بعدما اغتَلَّ السَّنان مِـصْـمِي (٧)
 أنقذتني من بطل مَقَمِّـم والخيـل تحت العارض المَسْـوَم (٨)
 وتغلب يدمون : يا للأرقم (٨)

(١) المشرفية : السيوف ، منسوبة إلى المشارف وهي قرى من أرض اليمن ، وقيل :
 من أرض الشام ، وقيل : من أرض العرب ، تدنو من الريف . ماض : قاطع

حاد . ومُنَاد : مروج .

(٢) راد : مالك

(٣) ديوان القطامي ١٢٢ - ١٢٣

(٤) أعجم : نكس وجبن وتأخر .

(٥) الموالي : جمع العالية ، وهي القسم الأعلى من الرمح .

(٦) المِـصْـمِي : بالكسر : الآلة التي يجمع فيها دم الحِجامة عند السَّ ،

والمعجم أيضا : مشط الحِجَام .

(٧) مضم : لباس ثياب العرب ، ربما تدل على أن هذا البطل معروف مشهور

من سروات قومه وعليتهم .

(٨) الأرقم : أراد الأراقم ، وهم أبناء بكر

ابن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب .

وكان انهزام تغلب في موقعة ماكسين يندرج باحتدام النزاع بينها وبين قيس ، فإن المهزومين أرسلوا إلى إخوانهم في الجزيرة والعراق يستمدونهم ، فجاءتهم الأمداد متتابعة من النمر بن قاسط وشيبان ، وجعلت تغلب وألفافها عليها حنظلة بن زياد بن قيس بن هوبر التغلبي . واستنصر عمير بن الحباب تميمًا وبني أسد لكنهم لم ينجدوه ، فاضطر عمير أن يلقي المربعين بقومه ومن اجتمع إليه من أخلاط قيس على الثرثار . ولما تراحفوا اندحر القيسيون ، وأخذت تغلب بثأر قتلاها في ماكسين ، وبقرت بطون ثلاثين امرأة من نساء بني سليم قوم عمير (١) .

وحفظت لنا كتب التاريخ والأدب بعض شعر الشعراء من الفريقين يومئذ . فقد أخذ شعراء قيس يتوعدون خصومهم بيوم قريب يقتضون فيه من وائريهم ، وأظهرنا عمير على ما قاله في عتاب إخوانه الذين لم ينصروه على تغلب وحلفائها من ربيعة . وانبرى شعراء تغلب يبتئون في نفوس مقاتليهم الحماسة ويحرضونهم على سحق أعدائهم حتى يحولوا بينهم وبين كسب المعركة ، وسجلوا كذلك هزيمة قيس .

فما نظمه عمير في عتاب من خذلوله من المضرة ، قوله (٢) :

أيا أخويننا من تميم هُديتما ومن أسد ، هل تسمعان السناديا
ألم تعلمنا إذ جاء بكر بن وائل وتغلب ألفافا تهزّ المواليا (٣)
إلى قومكم قد تعلمون مكانهم وهم قرب أدنى حاضرين وباديا
فهو يستصرخ تميمًا وأسدًا لعلهم ينجدونه ، عاتبا عليهم عتابا شديداً لأنهم تركوه يواجه حشود أعدائه ، وأسلموا قومه لعدو لا قبل لهم بمثله . وهو لا يجد لهم عذرا في خذلان إخوانهم ومد يد العون لهم ، فهم على القرب منهم ويعلمون تماما أن إخوانهم يمانون موقفا حرجا قاسيا مرده إلى قلة الرجال .

(١) أنساب الأشراف ٣١٨/٥ - ٣١٩ ، الأغاني ٦٢/١١ ، الكامل في التاريخ ٣١١/٤ .

(٢) شعر الأخطال ٢٢/١ ، الأغاني ٦٢/١١ ، وانظر أنساب

الأشراف ٣١٨/٥ .

(٣) المواليا : جمع عالية ، وهي القسم

الأعلى من الرمح .

أما شعراء تغلب فكانوا مسرورين مستدين بقوتهم ، فكان الأخطال يحض قومه على القتال ، ذكر أياهم بمن قتلت قيس منهم ، ومهيبا بهم أن يأخذوا بثأر من صر من زعمائهم منذ نشوب القتال مع القيسيين ، ومخذرا لهم من اصرار عدوهم على ايقاع بهم في كل موطن حتى يتسنى لقيس اخراجهم من الجزيرة كما فعلت بالذليبيين من قبل ، فيستأثروا بأرضهم النسيبة وخيراتهم الكثيرة . وأشار الأخطال الى أن قومه النصارى كانوا يشبهون طلبانهم على الرايات ويعتصمون بذكر قديسيهم في الحرب تيمنا بهم وتبركا . يقول (١) :

وبها بني تغلب ضربا ناقصا انصوا إياسا واندبوا مجاشعا (٢)

كلانما كان شريفا فاجعيا حتى تسيلوا الملق الدوافعا (٣)

(١) شعر الأخطال ٧٤٤/٢ . والأبيات مختلفة في نسبتها ، فالمصادر تنسبها مرة للأخطال ومرة لليلى بنت الحمارس من بني الحارث بن بكر بن حبيب (أنظر : أنساب الأشراف ٢١٩/٥ ، الكامل في التاريخ ٣١١/٤ ، شعر الأخطال ١٣٩/١) . وقد أثبت البلاذري في أنساب الأشراف وابن الأثير في الكامل هذه الأبيات في يوم الثرثار ، لكن زكي المحاسني أوردها في (شعر الحرب ١١١) على أنها قيلت في يوم الشرعية ، متأثرا على ما يبدو بما ورد في (شعر الأخطال ١٣٩/١) برواية ابن حبيب . وعندى أنها قيلت في يوم الثرثار إلا أن لا لأن البلاذري وابن الأثير أثبتاها في هذا اليوم فحسب ، بل لأن البيت العاصر من الأرجوزة يثبت ذلك ، فقد ورد عند البلاذري وابن الأثير على هذا النحو : خلصوا لنا الثرثار والمزارعا .

(٢) وبهـ : كلمة تقال في الاستعثات والتحريض . ناقص : دائسهم . إياس ومجاشع : من قتلني تغلب ، ومجاشع : هو مجاشع بن الأبلح (الأغاني ١٢٨ / ٢٠)

(٣) الملق : الدم الطاسري . والدوافع : يريد الدم السذي يدفع به بعضه بعضا .

- لما رأونا والصليب طالما ومار سرجيس وسّا ناقا (١)
 وأبصروا راياتنا لوامعا كالطير إذ تستورد الشرائعا (٢)
 والبيض في أكفنا القواطعا خلوا لنا راذان والمزارعا (٣)
 وبلدا بعد ضناكا واسعا وحنطة طيما وكرما يانمعا (٤)
 ونعما لبا وشاء راتعا أصبح جمع الحنّ قيس شاسمعا (٥)
 كأنما كانوا غرابا واقمعا (٦)

وقال عمرو بن الأثير القنطري ينوه بظفر قومه ، ويتشفى بما أصاب قيسا من قتل ومزيمة (٧) :

تركنا أس بالثرثار قيسا وقتلنا بها عصبّا ثبيننا (٨)

- (١) سرجيس : هو ولي القبيلة الذي يرعاها ، وكانوا يحجون إلى قبره ويستظلون في الحرب بلوائه (دائرة المعارف الإسلامية ٣١٤/٥ و ١١٩/١٠ ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٤٩٩/٤ و ٥٩٢/٦ و ٦٢٢ ، ومجلة المشرق السنة ٢١٣ / ١٥ .
 (٢) تستورد : تطلب الورود . والشرائح : جمع شريطة ، وهي مورد الماء .
 (٣) البيض : السيوف .
 (٤) ضناك : عريضة (اللسان ١٠ / ٤٦٢ ضناك) . طيس : كثير . ويانع : أدرك ثمره ونضج .
 (٥) اللاب : الكثير ، واللابسة : الإبل المجتمعة السود . والراتع : الذي يرعى في الغصب والسعة ويرق ويحي في المرعى .
 (٦) أراد بالفسراب غرابا . والواقصع : الذي وقف على أرض أو شجر .
 (٧) شعر الأطلال ١ / ١٣٠ .
 (٨) عصب : جمع عصبية وهي الجماعة . وثبين : جمع ثبة وهي الجماعة المتفرقة المتناثرة .

وعبد الله وحك قد تركنا وخدرة قد كوناه الدرينا (١)
فرد عليه نفيح بن الصفار المحاربي يناقضه ، مفتخرا بشجاعة قومه
التي يصرها الناس ولا ينكرونها (٢) :

متى ما تسألوا العلماء عنا وعذكم تخبروا الخبر اليقيننا
بأيام لنا ولكم شهدتم بهن ، وفي مساعي الأولينا

ثم إن قيسا تجملت فأتاه زفر من قرقيسيا ، وسارت إلى تغلب فأوقعت
بها في يوم الثرثار الثاني . وكان بنو سليم من أشد رجال قيس قتالا لتغلب (٣)
التي بقرت بالأس بطون ثلاثين امرأة من نساءهم .
وينبذ أن شعرا تغلب تجنبوا ذكر هذا اليوم في أشعارهم أنهم هزموا
فيه وطاردتهم فرسان قيس وغادروهم صرعى في ساحة القتال . وانبرى عمير ابن
الحباب يفخر بهذا اليوم . يقول (٤) :

(١) عبد الله وخدرة : من قتلى قيس . والدرين : النبت الذي أتى عليه سنة

ثم جفت .

(٢) شعر الأخطال ١٣٠/١ .

(٣) أنساب الأشراف ٣٢٠/٥ ، الكامل في التاريخ ٣١٢/٤ .

(٤) شعر الأخطال ٧٣/١ ، الأغاني ٦٢/١١ ، وانظر : أنساب الأشراف ٣٢٠/٥ ، الكامل

في التاريخ ٣١٢/٤ .

تنبيه : يفهم من رواية ابن حبيب في (شعر الأخطال ٧٣/١) ورواية
أبي الفرج في (الأغاني ٦٢/١١) أن عمير أقال هذه الأبيات في يوم الثرثار الأول .
وهذا ما لا يصح البتة ولا يستقيم معه معنى هذه الأبيات ، لعدة أسباب : أولها ، أن
عمير أقاتل تغلب يوم الثرثار الأول بفرسان قومه وحدهم ولم ينصره أحد من إخوانه
مع أنه دعاهم إلى نصرته . وثانيها ، أن كلابا فرت من المصركة في يوم الثرثار
الثاني لا الأول كما جاء في (أنساب الأشراف ٣٢٠/٥ ، الكامل في التاريخ ٣١٢/٤) ،
وهذا ما أثبتته عمير في شعره . وثالثها ، أن ابن عمير ههنا تهزه نشوة النصر فيفخر
برجاله الذين كسبوا اللقاء مع عدوهم . ورابعها ، أن البلاذري وابن الأثير في
(أنساب الأشراف ٣٢٠/٥ ، الكامل ٣١٢/٤) أوردا هذا الشعر في يوم الثرثار
الثاني .

١١٧
 أناديهم وقد خذلت كلاب
 أقاتلهم بحى من سليم
 فدى لفوارس الثرثار نفسي
 فأما أمس قد حانت وفاتي
 أبعد فوارس الثرثار أرجو
 وحولي من ربيعة كالجبال
 وأعصر كالمصاعيب التهبال (١)
 وما جمعت من أهل ومسال
 فقد فارقت أعصر غير قتال (٢)
 ثراء المال أو عدد الرجال

فهو يشير بوضوح إلى ما ذكره المؤرخون من أن بني كلاب قوم زفر بن النثار لم يثبتوا عند اشتداد القتال ، بل انحازوا ^(٣) تاركين عميرا وقومه يجالدون تغلب بمفردهم . ولا يكاد الدارس يجد تفسيراً لفرارهم يومئذ ، لسبب بسيط وهو أن القيسيين كانوا في حكم المنتصرين . ولعل انحيازهم وتركهم ميدان القتال إنما كان قبل احتدام المعركة ، بسبب خلافة نسب بين قيس زفر وعمير ، على أسلوب القتال الذي يمكنهم من التغلبين ، أو على من يكون أسير قيس منها . فاثبتت كما يصرح عمير - أن بني سليم وأعصرهم الذين قاتلوا تغلب وأبذوا في قتالها شاة نادرة ، وبهم حقق عمير النصر على عدوه ، ولذلك تمنى أن يفديهم بنسبه وأهله .

ثم كان بين قيس وتغلب بعد ذلك عدد من الوقائع ، كانت الغلبة فيسي
أكثرها لقيس ، وهي : الفُدين ، والسَّكبر ، والمعارك ، وليبي ، وبكده ، والشرمية
والبليلج^(٤) . ولكن الظاهرة اللافتة للنظر فيها أن الشر لم يواكب أحداث
هذه الوقائع ، ولم يسجلها تسجيلًا مفصلاً دقيقًا ، وربما ضاع أكثر ما قاله
فيها شعراء الفريقين .

ويقتح الدارس على بعض أبيات قالها شعراء قيس وبعض شعراء تغلب في هذه الوقائع منها : ما قاله نفيح بن صفار المحاربي في يوم الفـ————دين :

(١) أعصر : هو أعصر بن سعد بن قيصر عيلان (حمرة أنساب العرب ١/ ٢٤٤) .

(٢) انقالی : السبق فی الذّاره .

(٣) أنساب الأشراف ٢٤٠/٥ ، الكامل في التاريخ ٣١٧/٤ .

(٤) أنساب الأشراف: ٣٢١/٥ - ٣٢٣ ، الكامل في التاريخ: ٣١٢/٤ - ٣١٥ .

حين هم عمير بن الحباب بني تغلب في هذه القرية وانقصر عليهم (١): ١١٤
 لو تُسأل الأرض الفناء بأمركم شهد الغُديين بهلككم والصُّور (٢)
 كَذَبَتْكَ شيبان الأثوة وانفَت أسيا فكم بكم سدوس ويشكر (٣)
 فهو يفخر فيها بنكايته في تغلب ، ويشمت بها لأن أعوانها من بني شيبان
 لم ينجدوها .

وقال نفيح بن صفار المصاريبي يفخر بقهر عمير بن الحباب لتغلب
 في يوم السكير (٤) :
 صَبَحْنَاكُمْ بِهِنَّ عَلَى سَكْسِيرٍ فَلَاقِيْتُمْ هُنَاكَ الْأَقُورِينَ (٥)
 وسخر عمير بتغلب لأن فرسانها فروا من ساعة القتال يوم السكير يتقدمهم
 عمير بن جندل التغلبي . قال — (٦) :

-
- (١) أنساب الأشراف ٣٢١/٥ ، وانظر : الكامل في التاريخ ٣١٣/٤ .
 (٢) الصور : قرية على شاطئ النابور بينها وبين الغديين نحو من أربعة
 فراسخ . قال ابن صفار : ٠٠٠ البيت (معجم البلدان ٤٤٤/٣ ، وانظر :
 معجم ما استعجم ٤٥٠) .
 (٣) انتفى فلان من فلان : رغب عنه ، والنفي : الطرد . سدوس : هو سدوس ابن
 شيبان بن ثعلبة بن ثعلبة بن عذابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل
 (جمهرة أنساب العرب ٣١٧/٢ ، نهاية الأرب ٢٩٩) . ويشكر : هو يشكر ابن
 وائل (جمهرة أنساب العرب ٣٠٧/٢) .
 (٤) أنساب الأشراف ٣٢١/٥ ، الكامل في التاريخ ٣١٣/٤ .
 (٥) الضمير المتصل ب (بهن) عائد على الخيل المفيرة . والأقورين : يقال :
 لقيت منه الأقورين ، بكسر الراء ، والأمريين والبرحين والأقوريات أي
 الدواهي العظام .
 (٦) أنساب الأشراف ٣٢١/٥ ، الكامل في التاريخ

وأفلتنا يوم الكبير ابن جندل على سابع غوج اللبان مثابر^{١١٥} (١)
ونحن كرنا الخيل قُباً شوازيبا دقاق الهوادي داميات الدوائر^(٧)

وكان لقاءهم بالمعارك وبالا على تغلب ، فقد انهزمت وظالت قيس تطارد
فلولها حتى أبلغتهم الحض^(٣) . فقال ابن مزار يصف مصاب تغلب بقتل عدد
كبير من رجالها ، حتى أن جثثهم كانت تملأ أرض المعارك والحضر والثرثار^(٤) :
ولقد تركنا بالمعارك منكمس والحضر والثرثار أجسادا جثا^(٥)
وكان يوم الشرعية لتغليب على قيس وفيه قال الأعطل من قصيدة هجا فيها
جريرا اليربوعي ، وافتخر على قيس بطفر قومه في ذلك اليوم^(٦) :
فسقين من عاذين كأساً منيرة وأزلن حد بني الحباب فزالا^(٧)
يفشين جيفة كاهل عرينسها وابن المهزم قد تركن مذالا^(٨)

(١) السابق : الفرس الذي يسبح في جريه ، أي يسرع . وغوج اللبان : عريض
السدر .

(٢) الخيل القب : الضوامر ، وكذلك الشوازيب ، جمع شازب ويجمع على شُزب أيضا .
الهوادي : الأثناق . والدوائر : أنظر تفسيرها في حاشية ص ٨٩ .

(٣) أنساب الأشراف ، ٢٢١/٥ ، الكامل في التاريخ ٣١٤/٤ .

(٤) أنساب الأشراف ، ٢٢٧/٥ ، الكامل في التاريخ ٣١٤/٤ .

(٥) جثا : لا حياة فيها .

(٦) شعر الأعطل ١١٣/١ - ١١٤ .

(٧) الضمير المتصل بـ (سقين) و (عادين) عائدا على الضمير .

وبنو الحباب : قوم عميسير .

(٨) كاهل وابن المهزم : من قتل قيس (شعر الأعطل ١١٤/١) ،

وهما من بني عامر (نقاش جرير والأعطل ٨٠) ،

وابن المهزم : هو عمارة أو عمارة بن المهزم السلمية

(شعر الأعطل ٧٧/١ ، الكامل في التاريخ ٣١٤/٤) . ومذالة

مهران

فقتلن من حمل السلاح وغيرهم وتركن فلهم عليك عيباً (١)
ولقد بكى الجحاف مما أوقعت بالشرعية إذ رأى الأثفالا (٢)

فالأثفال يفتر على قيس بظهور تغلب عليهم في الشرعية ، ويهجو بني الحباب
قوم عمير بانكسار شوكتهم ، ثم يندد بمن قتل من فرسانهم ، ويبين مسا
أعدت تلك الهزيمة من مرارة لزعماء القيسية ، مثل الجحاف الذي سفح
الدوخ الفزار لما رأى من هول قتال تغلب لقيس وتيتيم أطفالها .

ثم نجد تغلب في غمرة نشوتها بنصر الشرعية تفيّر على البليخ حيث
ينزل عمير والقيسية ، فتلق بها قيس هزيمة ساحقة ، إذ قتلت رجالها وبقرت
بطون نساءها . وفي ذلك " أنشد أبو الوليد الكلابي لبعضهم (٣) :
تسامت جموع بني تغلب إلينا فكنا عليهم وبالا
بقرنا النساء غداة البليخ إذا جئنا وقتلنا الرجال (٤)
وقال نغيح بن صفار المحاربي (٥) :

-
- (١) ضمير المخاطب المتصل بـ (عليك) عائد على جرير اليربوعي .
بين أن هذه الأبيات جاءت ضمن قصيدة للأثفال يناقش فيها جريراً . وكثيراً
ما نجد الأثفال يقحم سرائم القيسيين على يد قومه في نقائمه ، ويجعلها
من أدوات فخره على جرير ، ذلك لأن جريراً كان يناصر قيساً . ولذلك نجد
جريراً يتكبر على سرائم تغلب على يد القيسيين ، فيدخلها في نقائمه
ويجعلها من عناصر فخره على الأثفال .
(٢) الجحاف : هو الجحاف بن حكيم السلمي ، من فرسان قيس المشهورين .
(٣) أنساب الأشراف ٣٢٣/٥ .
(٤) عيباً : هذا البيت كان في الأصل : " إذا جئنا وقتلنا وقتلنا
الرجـالاً " وذلك من خطأ الناسخ ؛ لأن
الضمير المتصل بـ (قتل) هو ضمير الجماء .
(٥) أنساب الأشراف ٣٢٣/٥ ، الكامل في التاريخ ٣١٥/٤ .

زرق الرماح ووقع كل مهند زلزلن قلبك بالبليخ فسزالا (١)

وربما كان هذا البيت من نصيدة نظمها ابن صفار في الرد على الأخطال ومناقشته، حين سمعه يتشقى بهزيمة قيس بالشرعية في الأبيات الأربعة السابقة من لاميته التي هجا فيها جريرا، فإن بيت ابن صفار وقصيدة الأخطال من وزن واحد هو البسيط وروي واحد هو اللام. ومن ثم نجد ابن صفار يهدم عليه فخره بنصر الشرعية، ويسجل عليه اندحار قومه في البليخ.

وكان لقاوهم في العشاك قد شهد أعنف قتال حدث بينهم منذ ابتعدوا. النزاع، ذلك لأن التغلبيين أحسوا أن إلحاح قيس عليهم بالفارات وتنكيلها بهم في أكثر وقائعهم سيودي بكيان القبيلة ويهدد وجودها. ولذلك رأيناهم قد تجمعوا من بواديهم وحدوا ذرهم وتعاهدوا على الثبات. ولم يكن القيسيون - وهم يرون كثرة عدوهم - غافلين عما تدبره لهم تغلب ممن الشر، فدلغ إليهم زفر من قرقيسيا. بجمع كبير من الفرسان. واشتدت الواقعة واستمر القتال ثلاثة أيام، استحر فيها القتل في الفريقين وقويت تغلب على أعدائها، ولما رأى زفر جدتهم انكفاً بقومه عائداً إلى قرقيسيا. فانتفعت تعبئة القيسية وانفرط عقدهم، وعلتهم فرسان تغلب، بالسيوف والرماح مسمنين فيهم قتلاً وأسراً. وقد كثر القتل في بني سليم وغني، وأجلست الموقعة عن قتل عمير بن الحباب.

وكانت تغلب لما ترامى إليها اندحار القيسيين وأحست أن ظهورها عليهم بات وشيكاً ترتجز (٢) :

أما تعلمون أن تغلب تغلب

وظلت ابنة الحمارس التغلبية تنشر همزها، وتحرض قومها على الجد في القتال، قائلة (٣) :

إيهي بني تغلب إيهي إيهي نحن بذو الحرب نشأنا فيها (٤)

(١) المهند : السيف. والضمير المتصل ب (قلب) عائد على مخاطبه الأخطال.

(٢) أنساب الأشراف: ٣٧٤/٥.

(٣) أنساب الأشراف: ٣٧٥/٥٠.

(٤) إيهي : كلمة تقال للاستعثاث والتحريض.

وتد غمر نصر تغلب قلب شاعرها الأطل بفرحة عظيمة وسرور بالغ ، فملاً
شعره بذكر أحداث الحشاك وما تكللت به بطولات قومه وتضحياتهم من الفوز ،
ففاخر بهذا اليوم مفاخرة عارمة ، وظهرت في شعره روح القبيلة بقوة ، فأجاد
وصف القتال وأثنى على بسالة قومه . قال يذكر هذا اليوم (١) :

ألا من مبلغ قيساً رسولاً	فكيف وجدت طعم الشقاء
أصبنا نومة منك جهاراً	بلا مهر يُمد ولا سيقاً (٢)
فإن يكن كوكب الصمائم نحساً	به ولدت وبالقمر المحاق (٣)
فقد أحيأ سفاه بني تميم	دفين الشمر والدمن البواق (٤)
ملأنا جانب الثرثار منهم	وجهننا أميمة لانطلاق (٥)
ضربناهم على المكروه حتى	حذرناهم إلى حد الرقاق (٦)
ولأني ابن الحباب لنا حميماً	كفته كل حازية وراق (٧)

(١) شعر الأطل ٨٢٧/١

(٢) السباق : ما يسوقه الرجل من الإبل والنعيم مهراً لزوجته .
(٣) الصمائم : أم غمير بن الحباب أو بعض أمهاته ، وكانت سوداء ، وعمير
أحد بني السود الأشراف (نقائش جرير والأطل ١٠٧ ، المنبر ٣٠٦ و ٣٠٨ ،
أنساب الأشراف ٣٦٣/٥ ، شعر الأطل ٤٩/١ و ٣٥٣ . المحاق : آخر الشهر
عندما ينقضي نور القمر فيمضي ولا يرى .

(٤) السفاه : نقيض الحام أو الجهل . والدمن : جمع دمنة ، وهي هنيئاً
بمعنى القعد .

(٥) أميمة : امرأة عمير (أنساب الأشراف ٣٦٦/٥ ، شعر
الأطل ٨٠/١) .

(٦) حذر الشيء : حطه من علوه إلى سفله . وحدث الرقاق : موضع بناحية
قيس (أنساب الأشراف ٣٦٦/٥) .

(٧) الحميا ، ههنا : شدة العرب وسورتها . الحازية : الكاهنة ، وجمعها
حوازي . والراقي : الذريعون وينفث في عودته ، ومنه الرقي . يقول :
لم يحتج عمير بعد قتلنا له إلى كاهن ولا راق .

- فأخفى رأسه ببلاذ عسك . سائر خلقه بجيبي براق (١)
 تسود ثعالب الحشاك منسه . خبيثا ريحه بادي القسراق (٢)
 وإلا تذهب الأيام نرفسند . جميلة مثلها قبل الفراق (٣)
 تسود نساوهم بابني كُخان . ولولا ذاك أبني مع الرفاق (٤)
 فلا تسترسلوا لرجاء ملوح . فإن الحرب مأمدة النطاق (٥)

فالأخطال يستهل قصيدته بالتعدي من قيس التي كانت السبب فيما نجم بين القبلتين من شقاق ومنازعات أدت إلى تصدع ما كان بينهما من تألف وأيقظت في نفوس أبنائهما كل نوازع الشر والحقد الدفين ، فسجلت على نفسها غزياً بما لحقها من هزيمة في يوم الحشاك الذي أسلمت فيه نساءها الرجسالة تغلب . ونرى الأخطال يلج في مجائه لأهل عمير ويشمت بزوجه أميمة التي فقدت عميراً ، ويفت في عضد المظلومين ويكشف عن اندحارهم . وتطيب نفسه وهو يرى بنت عمير قد انفصل عنها الرأس وأضحت في الغلاة تنبث منها ريح خبيثة تمنع ثعالب الحشاك الجائعة من الاقتراب منها . ثم يتوعد قيساً بيوم آخر عيب يسرع فيه زفر فيلاقي مغير عمير وتصاب زوجه جميلة بمثل الذي أصاب أميمة . ويبين ما لحق نساء قيس من هوان حين كن يعذن برجال غني وباهلة ، ولولا ذلك لسباهن فرسان تغلب .

وفي قصيدة الأخطال الرائية التي مدح فيها خالد بن يزيد بن معاوية ، ذكر هزيمة قيس في هذا اليوم ، وأظهر غير قليل من التعدي بمقتل عمير ، فصور

(١) جبا يراق : موضع بالجزيرة قتل عنده عمير بن الحباب السلمي (مهمم)

ما استعجم ٣٦٠ ، معجم البلدان ٣٦٥/١ و ٢٨/٢ .

(٢) السراق : العظام .

(٣) جميلة : امرأة زفر بن الحارث الكلبي (شعر الأخطال ٨١/١) .

(٤) ابنا دخان : غني وباهلة ابنا أعصر . يقول : لولا غني وباهلة لسبيت نساوهم .

(٥) الشامدة : المتنمرة أو المشمرة ، وأصل الشمساذ رفساذ

الناقة ذنبها عند اللقاج ، استثماره للحرب .

بقا* جنبه ضاحية في الفلاة ، تدل عليها الضبع الريح القبيحة التي كانت تصدر عنها . ووصف كذلك امتلاء جانبي وادي الحشاك بجثث قتلى بني رعل السليبيين ، وقد انتفخت بطونهم لأنهم لم يجدوا من يدفنهم . قال (١) :

أَمْعَر قَيْسٌ لَمْ يُمَتِّعْ أَخَوَكُمْ عَمِيرٌ بِأَكْفَانٍ وَلَا بِطَهْـوَرٍ (٢)
تَدَلُّ عَلَيْهِ الضَّبَعُ رِيحَ تَضَوَّعَتْ نَبْلًا نَفْحَ كَافُورٍ وَلَا بِعَمِيرٍ (٣)
وَقَتْلَى بَنِي رِيعَلٍ كَأَنَّ بَطُونَهَا عَلَى جَلْهَةِ الْوَادِي بَطُونُ حَمِيرٍ (٤)

وعمر الأخطل زفر بن الحارث بن ناحيازه ببني عامر يوم الحشاك ، وبفراره من أرض القتال موثرا النجاة وتاركا سيوف تغلب تنال من رقاب عمير وقومسه . وافتخر عليه بخوض التغلبين للقتال غير هيا بين ولا وجلين ، فقد أبدوا من ضروب القتال والاستبسال ما طمأن نسا*هم وأزال من قلوبهن كل خوف . ونسب د بمقتل عمير وبما كان يبيته هو وقومه من قيس للتغلبيين من سوء ، وهم الذين حلوا بين قوم الأخطل أضيافا مكرمين ، ثم سؤلت لهم أنفسهم أن يستأثروا بخيرات بلاد تغلب ، فشنوا عليها غارات انتهت بهلاكهم . ولو عرفوا لتغلب ما لاقتهم به من كرم الضيافة وحسن الجوار لكان خيرا لهم . قال (٥) :

لَعَمْرُ أَبِيكَ يَا زَفَرَ بْنَ عَمْرٍو لَقَدْ نَجَّيْتُكَ جَدُّ بَنِي مَمَّازٍ (٦)
وَرَكْضُكَ غَيْرَ مَلْتَفَتٍ إِلَيْنَا كَأَنَّكَ مَمَّكَ بِجَنَاحِ بِيْـبَازِي
فَلَا وَأَبِي هَوَازِنَ مَا جَزَعْنَا وَلَا هَمَّ الظَّمَاثِنَ بِأَنْحِيسَازٍ (٧)

(١) شعر الأخطل ٦٦/١ .

(٢) الطهور : الفصل ، مهنا .

(٣) تضويعت : انتشرت وتحركت . الكافور : أغلاط تجمع من الطيب تركب من كافور الطلع . والمعير : أغلاط من الطيب تجمع بالزعفران .

(٤) بنو رعل : من بطون سليم بن منصور . جلهة الوادي : جانبه .

(٥) شعر الأخطل ٤٢١/٢ - ٤٢٣ .

(٦) الجد : الحظ . ومماز : المعروف أنه مماز بالذال ، وهو جد زفر (جمهرة أنساب العرب ٢/٢٨٦) .

(٧) هوازن : هو هوازن بن عكرمة بن خصفة ابن قيس عيلان (جمهرة أنساب العرب ١/٢٦٤) . والانحياز : الهنرب .

ظفائنا غداة غدت علينا ونيمت ساعة السيف الجراز (١)
 ولاقي ابن الحباب لنا حميّا كفته كل راقية وحازي (٢)
 وكان بنا يحلّ فلا يُعاني ويرعى كل رمل أو عزاز (٣)
 فلما أن سمنت وكنت عبدا نزلت بك يا ابن صماء النوازي (٤)
 عمدت إلى ربيمة تفتزيها بمثل القمل من أهل الحجاز (٥)
 فنعم ذوو الحباية كان قومي لقومك ، لو جزى بالخير جازي (٦)
 وأشار الأخطل إلى انهزام قيس يوم الحشاك في قصيدته الرائية التي هجا
 فيها نفي بن صفار المعاري ، ومطلمها :

ألا يا لقوم للتنائي وللهمجر وطول الليالي كيف يُزرين بالعمر
 وفيها ندد بفرار القيسيين ، وهجاءم بتركهم نساءهم وإمامهم لاحامي لهمن
 ينأشدهم بالثدي ألا يفرّوا وأعرب عن تشفيه بمقتل عمير ، فصور مصرعه
 وانكشاف جثته في بركة الشرعية القريبة من الحشاك ، واختلاف السباع عليها .
 ثم أزرى ببني عامر الذين ولّوا هاربين ، ولم يأخذوا بثأر إخوانهم قيسوم
 عمير ، بل آثروا العودة إلى ديارهم راضين بالإبل تدفع لهم ديات . قال (٧) :
 لحى الله قيسا حين فرّرت رجلاها عن النصف السوداء والكاعب البكر (٨)

- (١) الجراز ، من السيوف : القاطع النافذ .
 (٢) الحميا ، ههنا : شدة الحرب وسورتها . الراقية : التي تعوذ وتنفت في
 عوذتها . والحازي : الكاهن .
 (٣) لا يعانى : لا يضيّق عليه . والعزاز : ما غلظ من الأرض وصلب .
 (٤) نزلت : وثبت . الصماء : أم عمير أو بعض أمهاته وكانت سوداء . والنوازي :
 النوازع إلى الشر ، مفردا نازية .
 (٥) تفتزيها : أي تقصدها غازيا .
 (٦) الحباء : ما يحبو به الرجل صاحبه ويكرمه به .
 (٧) شعر الأخطل ٢ / ٦٧٠ - ٦٧٢ .
 (٨) النصف : المرأة في منتصف العمر . الكاعب : الفتاة
 نهسد ثدياها . والبكر : التي لم تفتق بكارتها .

- وظلت تنادى بالثُدَى نساؤهم
فإن يك قد قاد المقانب مرة
تظل سباع الشرعية حوله
صريما بأسيا فجداد وطمنة
بني عامر لم تتأروا بأخيكم
إذا عطفت وسط البيوت احتلبتم
طوالج بالملياء ما ملّة الخُمَر (١)
عمير ، فقد أضى بداوية قفر (٢)
ربوضا ، وما كانوا أجنوه في قبر (٣)
تمجّ على متن السنان دم الصدر (٤)
ولكن رضيتم باللقاح وبالجزر (٥)
لها لبنا محضا أمر من الصبر (٦)

واستغل الأخطل مزيمة قيس بالحشاك استغلالا واسما ، واعتمد عليها
وجملها عنصرا رئيسا في إحدى نقائضه مع جرير التي بدأها بقوله :
حيّ الظمائن إذ رحلن بكمورا برؤيتن فقد رَفمن خُدورا
وفيها عيّر جريرا بمصرع عمير ، وصور انكسار شوكته وضعف جانبه ، ورمح تغلب
تشرع من حوله وهو يدعو فرسان قومه إلى إنقاذه . ثم ذكر فرار زفر والتجاء
إلى قرقيسيا ، تاركا نساء هوازن بغير حام . قال (٧) :

- (١) الملياء : رأس الجبل . والخمر : جمع خمار ، وهو ما تغطي به المرأة رأسها .
(٢) المقانب : جمع المِقْنَب ، وهو من الخيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين ، وقيل :
زهاء ثلاثمائة . والداوية : الفلاة المستوية البعيدة الأطراف .
(٣) أجنوه : دفنوه ، والمُجَنّاة : حفرة القبر .
(٤) متن السنان : ظهره .
(٥) اللقاح : النوى الفزيرة اللبن ، مفردا لقحة . والجزر : مخفف
الجزر ، جمع جزور وهي الناقة الممعدة للذبيح ،
وسكنها للتخفيف . يقول : رضيتم بالبدية لضفكم عن
أخذ الثأر .
(٦) عطفت : حنّت على ولدها فدرّت لبنها . والصبر ،
بكسر الباء . وسكنها للتخفيف : عصارة شجر مرّ .
(٧) نقائض جرير والأخطل ١١٧ - ١١٨ .

- تركوا عميرا والرماح شوارع يدعو وقد حمي الوغى منصورا (١) ١٣
 لاقى طريفا وهو غير مكذب كضبارم يقص الرجال مصورا (٢)
 فعلا ذو ابته بأبيض صارم قد كان فيما قد مضى مخبورا (٣)
 ونجا على جرداء ذات علالة زفسر، وكان لدى الطعان فرورا (٤)
 هربا وغادر من نساء هوازن مثل المها خردا أو انس حورا (٥)
 يهتفن: أين ذوو الحنية أين هم أم من يفار فلم يجدن غيبورا (٦)

وأثار مصر حمير في نفوس القيسيين حزنا عميقا ، حتى إن امرأة من بني
 سليم قومه خرمت أنفها لما علمت بقتله وعلقت فيه برة ، وحلفت أن لا تنزعها
 حتى تدرك بثأره (٧) . فقال الأخطل يهجو بني سليم لضعفهم عن إدراك ثأرهم ،
 ويعرض بهذه المرأة التي رضيت لنفسها بأن يكون في أنفها ما يقبده ويشينه

- (١) أشعر نحوه الرمح والسيف وشرعها : أقبلها إياه وسددهما له . ومنصور :
 أبو سليم ، منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان .
 (٢) يقال : حمل عليه فما كذب وما دلل : أصدق ولم يرجع . الضبارم : الأسد .
 يقص : يكسر . والهصور : الأسد .
 (٣) الذؤابة : منبت الناصية من الرأس ، والجمع الذوائب . الأبيض : السيف .
 الصارم : القاطع . ومخبور : مجرب .
 (٤) الجرداء : الفرس القصيرة الشر ، وذلك أكرم لها . والعلالة : الثوب الذي
 يجلل به الفرس .
 (٥) المها : البقرة ، شبه النساء بها لجمال عينيها واتساعها . الخرد : جمع
 الخريدة والخريد والخرود ، وهي البكر التي تمس قط ، وقيل : هي العذبة
 والجمع خرائد وخرد وخرد . والحور : جمع الحوراء ، وهي المرأة التي
 اشتد بياض عينيها واسودت سواندها واستدارت حدقتيها مع رقعة فلي
 الجفون وبياض ما حواليتها .
 (٦) الحمينة : النخوة والنيرة .
 (٧) شعر الأخطل ٩٢/١ .

دون أن تجرّ بيمينها ، لأن قومها أضعف من أن يأخذوا بثأرهم ولأنها لم تنجني من صنيعها غير الذل الذي سيلازمها ويلزم قومها ما عاشوا . قال (١) :
 ألقوا الجرّين بني سليم إنها شانت وإن عزازها لم ينصب (٢)
 ولقد علمت بأنها إذ علقت سمة الذليل بكل أنف مضرب
 ونجد الأخطال في راعته :

خذ القطين فراحوامك أوبكروا وأزعجتهم نوى في صرفها غير
 التي مدح بها عبد الملك ، يذكر الخليفة بالهزيمة التي ألحقها تغلب
 بأعدائه القيسيين في الحثاك ، ويمتن عليه بكسرهم لشوكة قيس وقتلهم
 لمير . قال (٣) :

وقد نمرت أمير المؤمنين بنا لما أتاك ببطان الضوطة الخبر (٤)
 يحرقونك رأس ابن الحجاب وقد أضى ولل سيف في خيشومه أثر (٥)
 وأفصح عن العداء القبلي الذي تأصل بين القبيلتين ، بوصفه لمصرع عمير
 واحتزاز رأسه والقدوم به على عبد الملك وسخرية أبناء القبائل في السلم
 مما ألحقه به تغلب من هوان :

(١) شعر الأخطال ٩٢/١

(٢) البرون : جمع البرة ، وهي الحلقة من صفر أو غيره تجمل في أسد جانبي
 المنخرين . والحزاز : الأثر والوجع في القلب .

(٣) شعر الأخطال ٢٠٣/١ - ٢٠٤ .

(٤) الضوطة : هي الكورة التي منها دمشق ، استدارتها ثمانية عشر ميلاً ،
 يحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها ولا سيما من شمالها ، فإن جبالها
 عالية جدا ، ومياها خارجة من تلك الجبال وتمد في الضوطة عدة أنهر
 فتسقي بساكنيها وزروعها ، ويصب باقيها في أجمة هناك وبحيرة . والضوطة
 كلها أشجار وأنهار متصلة قل أن يكون بها مزارع للمستفلات (مجموع
 البلدان ٨٢٥/٣) . والخبر : خبر مقتل عمير .

(٥) الخيشوم من الأنف : ما فوق نُخْرَتِهِ من القصبية
 وما تحتها من خشارم رأسه .

لا يسمع الصوت مُتَّكاً مسامحه وليس ينطق حتى ينطق الحجر (١)
 أمست إلى جانب الحشاك جيفته ورأسه دونه اليحموم والصُّور (٢)
 يسأله الصُّبر من غسان إنحضروا والحزن كيف قراك الفلمة الجش (٣)
 وكان عمير يقول لقبائل الشام : إنما بنو تغلب جش لي آخذ منهم ما شئت .
 فلما مروا برأسه عليهم قالوا : كيف رأيت قري غلمتك الجش (٤) ؟
 ولم يفل الأخطل عن تذكير قيس وهو يهجوها بطنا بطنا في قصيدته :
 ألياً اسلمي يا مند مند بني بدر وإن كان حياناً عدى آخر الدهر
 بهزيمتها في الحشاك . وأشار كذلك إلى مصابها الألم الذي أحدثه قتل
 قائدها عمير وحمل رأسه إلى عبد الملك في الشام . وفاخر بقومه الذين
 سحقوا قيساً جزاءً وفاقا لظدرهم . قال (٥) :

(١) المستك : الأضم .

(٢) اليحموم : جبل طويل أسود في ديار الضباب بالشام (معجم ما استعجم
 ٤٥٠ ، معجم البلدان ٤٣٢/٥ ، لسان العرب ١٦١/١٢) . الصُّور : أرض
 (معجم ما استعجم ٤٥٠) ، وقال ياقوت : الصُّور جبل ، قال الأخطل :
 ... البيت (معجم البلدان ٤٣٤/٣) .

(٣) الصبر والحزن : قبائل من غسان بالشام ، فالصبر قبائل منها عمرو ابن
 الحارث من الأزد ، والحزن : هو معاوية بن عمرو بن عدى بن عمرو بن زبن
 ابن الأزد (شعر الأخطل ٢٠٤/١ ، الممانى الكبير ٩٥٨/٦ - ٩٥٩ ، لسان
 العرب ١٣٧/٣) . غسان : بطون شتى من الأزد ، نزلوا بماء يقال له
 غسان فنسبوا إليه (جمهرة أنساب العرب ٣٣١/٢ و ٤٦٢ و ٤٧٢) . والجش :
 القوم يخرجون بدوابهم إلى المرعى ويبيتون مكانهم ولا يأوون إلى البيوت
 (لسان العرب ١٣٨/٣) .

(٤) شعر الأخطل ٢٠٤/١ ، الممانى الكبير
 ٩٥٨/٦ - ٩٥٩ ، لسان العرب ١٣٧/٣ .

(٥) شعر الأخطل ١٩٠/١ - ١٩١ .

١٢٦

إليك أمير المؤمنين نسيرها تخب المطايا بالمرانين من بكر (١)
 برأس امرئ دلي سليما وعامرا وأورد قيسا لج ذى حلب غمر (٢)
 فأسرين خمسا ثم أصبح غدوة يخبرن أخبارا ألد من الخمر
 يخبرننا أن الأراقم فلقوا جماجم قيس بين راذان فالعصر
 جماجم قوم لم يعافوا ظلامسة ولم يعلموا أين الوفاء من الفدر (٣)

وتمجد القطامي بقتل تغلب لمير بن الحباب فقال — (٤) :
 ثبتت قيسا على الحشاك قد نزلوا منا بحي على الأضياف حشاد
 في المجد والشرف العالي ذوو أمل وفي الحياة وفي الأموال زهاد
 الضاربين عميرا في بيوتهم بالتل ، يوم عمير ظالم عاد (٥)
 ثابت له عصب من مالك رجح عند اللقاء مساريح إلى النادى (٦)
 ليست تجرح فرارا ظهورهم وفي النحور كلوم ذات أبلاد (٧)

- (١) سار البعير وسرته وسارت الدابة وسارها صاحبها ، يتمدى ولا يتعدى ، ابن بزرج : سرت الدابة إذا ركبته ، وإذا أردت بها المرعى قلت أسرتها إلى الكلاء . الخب : ضرب من السير يرواح فيه البعير بين يديه ورجليه . المطايا : الإبل . المرانين : الأشراف والسادة . وبكر : هو بكر بن حبيب بن عمر ابن غنم بن تغلب .
- (٢) برأس امرئ : أراد رأس عمير . دلي : من تدلية الدلو ، أى أوقعهما فيما أراد من تفريره . ولج ذى حلب غمر : البحر الذى كثر ماؤه وتراكبت أمواجه ، أراد أن عميرا أورد بها بحرا من المصائب .
- (٣) يعافوا : يكرموا .
- (٤) ديوان القطامي ٨٨ - ٨٩ .
- (٥) التل : تل الحشاك .
- (٦) مالك : هو مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم ابن تغلب . رجح : حلماء . والنادى : أى المنادى ، أو مجتمع القوم .
- (٧) الأبلاد : جمع بلد وهو الأثر .

لا يخدمون لهم سيفاً وقد علموا إن لا يكن لهم أيام إغساد ١٢٧
وترك انتصار التغلبيين على قيس بالحشاك أثراً بعيداً في نفوسهم ، طنوا
منه أن وجود قيس بأرضهم أو قريباً منها بات مهدداً ، ولهذا رأينا السرور
والبشر يضران نفس شاعرهم الأعشى الذي احتفى بهذه المناسبة ، ودعى
أبناء قبيلته إلى شرب نخب انتصارهم ، وحرضهم على منع القيسيين من المرور
بديارهم . قال (١) :

اشربا ما شربتما إن قيساً من قتيل وهارب وأسـير
شربة تترك الفقير غنياً حسن الطن واثقاً بالعـبـور
لا يجوزن أرضنا مضـرى بخفير ولا بخير خـفـير
وفيها وصف شراسة قتالهم لقيس ، وصور تكاثر فرسان تغلب على عمير ، وكثرة
الضحايا التي أجلت عنها الموقعة :

طعنن تغلب هوازن طحنا وألحت على بني منصـور
أتيها الشر عندهم فأناهم من قبول عليهم ودبـور
يوم تردى الكماة حول عمير حجلان النسور حول جـزور
كم ترى من قاتل وقتيل وسان في عامل مكـسـور (٢)
وسواعيد يختلين اختـلاً كالمفالي يطرن كل مطـير (٣)
ورؤوس من الرجال تدهدى وجواد بسرجه ممقـور (٤)

وكان عمير لما رأى تعاقد تغلب على الثبات في اليوم الثالث للقتال ،

(١) الوحشيات ٤١ ، الحيوان ٥٥/٦ ، معجم الشعراء ٧٠ .

(٢) عامل الرمح : القسم الأعلى منه .

(٣) سواعيد : إشباح سواعد . يختلين : يقطعن بالسيوف ، والاختـلاً

في الأصل : قطع الخلى وحشده وهو الرطب من النبات . والمفالي : جمع منالة وهو السهم الذي يقدر به مدى الأُميال والفراسخ .

(٤) تدهدى : تتـدرج . ومقـور : قطعت إحدى قوائمـه .

قد سأل قومه أن ينصرفوا عن قتالهم ، فلما أبوا أخذته الحمية فنزل عن فرسه وقاتلهم راجلا ، وهو يقول — (١) :

أنا عمير وأبو المفلس قد أحبس القوم بضئك المحبس (٢)
فتكاثر عليه فرسان تغلب ، ثم شدّ عليه جميل بن قيس فقتله (٣) .

وقد روع القيسيين مصرع سيدهم عمير وأثار في نفوسهم أسى عميقا معبر عنه شعرا واهم . فمن ذلك قول بعضهم يصور ما أطابه من حزن ، وقد تنامسى إلى أسماعه عويل زوج القتيل وبكاء النساء من حولها في مناعة أقمنها (٤) :

أرقت بأثنا الفرات وشفني نوائح أبكاها قتيل ابن موبر (٥)
ولم تظلمي إن نحت أم مفلس قتيل النصارى في نوائح حُسر (٦)

ويبدو أن حقد فرسان تغلب على عمير جعلهم يتكاثرون عليه ويضربونه من كل ناحية ، مما حال دون معرفة قاتله الحقيقي ، فكلمهم كان يدعي شرف قتله والقضاء عليه ، حتى قال الشاعر يقطع عليهم جدلهم وصخبهم (٧) :

وإن عميرا يوم لاقتة تغلب قتيل جميل لا قتيل ابن موبر

-
- (١) أنساب الأشراف ٣٧٣/٥ ، الكامل في التاريخ ٣١٦/٤ .
(٢) الفيلس : ظلام آخر الليل . والمفلس : اسم . والضئك : الضيق .
(٣) أنساب الأشراف ٣٢٤/٥ . وجميل بن قيس : من بني كعب بن زهير بن جشم ابن بكر بن حبيب (أنساب الأشراف ٣٢٤/٥ ، الكامل في التاريخ ٣١٦/٤ ، وانظر :
جمهرة النسب ٢٢٨/١ ، جمهرة أنساب العرب ٣٠٥/٢) .
(٤) أنساب الأشراف ٣٧٤/٥ ، الكامل في التاريخ ٣١٦/٤ .
(٥) ابن موبر : أراد قاتل عمير (أنساب الأشراف ٣٢٤/٥ ، الكامل في التاريخ ٣١٧/٤ .
(٦) حُسر : جمع حاسر ، وهي المرأة المكشوفة الرأس والذراعين .
(٧) أنساب الأشراف ٣٧٤/٥ ، الكامل في التاريخ ٣١٧/٤ .

واشتد الحزن بأهل عمير وهدتهم الفتيمة ، فبكوه بمثل هذه الابيـلات
التي قالتها ابنته أروى (١) :

قل للأراـمل واليتامى قد ثوى فلتبك أعينها لفقد حـباب
أودوا بن كل مغاطر بـتلاد هـ . وبنفسه بـقيا على الأـحاب (٢)
الراكبين من الأمور صدورها لا يركبون معاقد الأذنبـاب
ونرى أن ندب أروى لأبيها وتأسى عليها وتوجعها لمصابه لم يمنحها من تعداد
بعض مناقب الفقيد ومآثره ، فقد عاش حياته رحيمًا بالأراـمل واليتامى ، رازًا
بالضعفاء ، منفقًا ماله في سبل الخير ، مضحيًا بنفسه من أجل الحفاظ على
مكانة قبيلته . وانتهت في البيت الأخير للمفاخرة بقومها الذين ينهضون بجلال
الأمور ويترقعون عن حقيرها . وقد عرضت ذلك بأسلوب فيه أسي ولوعة يتناسب مع
ما يوحي به الموت من رهبة وعاطفة .

وكانت خسارة قيس بفقد عمير فاجحة ، فقد كان من ساداتها العظام النيسن
تفاخر بهم وتعتمد عليهم . وأدى مقتله إلى إضفاء قوتها وأطمح القبائل فيها .
وأحس زفر بن الحارث بالفراخ الذي أحدثه موت عمير ، فمن ينهض بعده للذود عن
حمى قيس ، ومن يتصدى لأعدائها المتربصين بها ؟ وما أكثرهم ! فالكلبيون
ساعطون على قيس لأنها أوقعت بهم وهم يتربصون فرصة ينتقمون فيها لأنفسهم ،
والتغلبيون أصبحوا يغيرون ولا ينفار عليهم . فمن يشد على عضد زفر
ومن يقوى من أزره فيما يستقبل من أيام ؟ يقول (٣) :

ألا يا كلب غيرك أرجفوني وقد ألصقت خدك بالـتراب (٤)
ألا يا كلب فانتشرى وسـحي فقد أودى عمير بن الحـباب (٥)

(١) حماسة البحترى ٢٧٥ .

(٢) التلاد : المال الموروث .

(٣) المقد الفريد ٣/٢٥٩ . وانظر : أنساب الأشراف ٥/٣٢٥ .

(٤) رجف : خفق واضطرب ، وأرجف : جعل خصمه يخفق ويضطرب .

(٥) ساج يسبح سبـحاً : جرى على وجه الأرض .

رماح بني كنانة أقصدتني رماح في أعاليها اضطراب (١) ١٣٠

وثأر رجال زفر لمميرة فأوقعوا ببني فدوكس وبني كعب بن زمير وجماعة
أخرى من تغلب ، واستاقوا أموالهم . وبهم زفر جموع تغلب بالعقيق من أرض الموصل ،
فهموا بالرحيل يريدون عبور دجلة ، فلحق بهم زفر بالكحيل حيث فتك بهم فتكسا
ذريعا ، فقتل رجالهم وبقر بطون نسائهم وغرق في دجلة أكثر من قتل بالسيف ،
وسالت دجلة بدمائهم . وظلت الممركة طوال الليل ، فلما أصبحوا أتى فلهم لبى .
فوجه زفر إليهم ابنه الهذيل وتميم بن الحباب ويزيد بن حمران ومسلم بن ربيعة
في جماعة ، وأمرهم ألا يلقوا منهم أحدا إلا قتلوه . ومضى زفر إلى رأس الأيثل
حيث وجد عسكريا من النمر وتغلب ، فقاتلهم بقية ليلتهم حتى هربت تغلب وصبرت
النمر ، وأسر زفر منهم مائتين فقتلهم صبرا . وتسمى تغلب هذه الليلة بليلة
الهرير (٢) .

وأشار زياد بن شيبان النمرى إلى عنف القتال بينهم وبين قيس في رأس الأيثل ،
وفاخر بقومه بني النمر الذين ثبتوا لقيس هناك ، وعرض ببني تغلب الذين أدرعوا
الليل وفروا . قال (٣) :

وليلة الأيثل من بلائهم
إذ قرت الجمراء عنلوانها (٤)
وحامت النمر على أكسائها (٥)

(١) أقصدتني : قتلتنى ، والإقصاد : أن تضرب الشيء أو ترميه فيموت مكانه .
وفي البيت إقواء ، فحركة الروى (الباء) هنا هي الضمة ، لأن (اضطراب) مرفوعة
على الابتداء ، والجار والمجرور (في أعاليها) خبرها مقدم ، وكان حق الروى أن
تظهر عليه حركة الكسر .

(٢) أنساب الأشراف ٥/٣٢٦-٣٢٧ ، الأغاني ٥٨/١١ ، معجم ما استعجم ٣٣٨-٣٣٩ ، الكامل في التاريخ
٣١٨/٤

(٣) معجم ما استعجم ٣٣٩ .

(٤) الجمراء : لقب تغلب (ديوان جرير ٥٦/١) .

(٥) النمر : هي النمرين قاسطه والأكساء : الأديار ، وكس : كل شيء وكسوه : موخره .

وافتخر زفر بثأره لممير في قوله (١):

- ولما أن نعى الناعي عميرا حسبت سماءهم دهيت بليـل (٢)
 وكان النجم يطلع في قتـام وخاف الذل من يمنى سهيـل (٣)
 وكنت قبيلها يا أم عمرو أرجل ليمني وأجر ذيلي (٤)
 فلو نبش المقابر عن عمير فيخبر عن بلاء أبي الهذيل (٥)
 غداة يقارع الأبطال حسنى جرى منهم دمارج الكهـيل
 قبيل ينهدون إلى قبيل تساقى الموت كيلا يمد كيـل

وتكشف هذه الأبيات عن انكسار زفر النفسي بعد مقتل عمير ، وقد جنح فيها الشاعر إلى تهويل الخطب وتمظيم الرز * . فقال — :

- ولما أن نعى الناعي عميرا حسبت سماءهم دهيت بليـل
 وكان النجم يطلع في قتـام وخاف الذل من يمنى سهيـل
 وأطلعنا كذلك على ما أذاه إليه المصاب من شديد الهم وعظيم الكرب ، فزفر
 الذو كان مترفا منما يرجل لثته ويجر ذيله بات مهموما لا يشغله إلا الثأر لممير ،
 وقد فعل بما سفك من دماء * تغلب في الكحيل .

وأشار نفيح بن صفار المحاربي إلى كثرة من لقي من بني تغلب حتفه غرقا ،
 في هذه الأبيات التي فاخر فيها بقومه وعرض بالمزومين . قال (٦) :

فإن تك قتلاكم بدجلة غرقت فما أشبهت قتلى حنين ولا بدر

(١) الأغاني ٥٨/١١ - ٥٩ ، وانظر : معجم ما استمع ٣٣٨ .

(٢) حسبت سماءهم دهيت بليـل : أظلم فهاهم كأن الليل غشيم .

(٣) قتـام : سواد . وسهيل : كوكب يرى ببلاد العرب .

(٤) اللـمة : شعر الرأس إذا جاوز شحمة الأذن . وذيل

الثوب والإزار : ما جر منه إذا أسبل .

(٥) أبو الهذيل : كنية زفر بن الحارث .

(٦) الحيوان ٩٦/٤ .

ثَوُوا إِذْ لَقُونَا بِالْكَحِيلِ كَمَا ثَوَى شَمَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْحَشْرِ (١) ١٢٢
 بِدَجَلَةٍ مَا لَمْ تَعْرِ بِنَادُونَ قَوْمَنَا وَأَوْطَانَنَا مَا بَيْنَ دَجَلَةٍ فَالْحَضَرِ
 وَلَوْ كُنْتُمْ حَيَاتٍ بَحْرٍ لَكُنْتُمْ غَدَاةَ الْكَحِيلِ إِذْ تَقُومُونَ فِي الضَّمْرِ (٢)

ولم يكن القيسيون وهم يفتكرون بأعدائهم بالكحيل يشأرون لقتالهم ففي
 الحشاك فحسب ، بل قاتلوا أيضا لأدراك أوتارهم في (الشرثار الأول) حين
 اضطروا لمواجهة تغلب ومن اجتمع إليها من إخوانها الربيعيين ، مثل شيبان
 التي كانت أمّدتهم بجمع كبير عليه سيدها المَجْشَر بن الحارث الشيباني (٣).
 وفي ذلك يقول تميم بن الحباب السلمي (٤) :

فإن تحتجز بالماء بكرين وائل بني عمنا ، فالدمردو مُتَضَمِّر
 فسوف نخيض الماء وسوف نلتقي فنقتل من أبناء عم المَجْشَر
 ويظهر من قول الشاعر أن قوم المَجْشَر أبلوا في قتال القيسيين يوم (الشرثار
 الأول) ، حتى إنهم شيقوا عليهم قريبا من النهر وكادوا يفرقونهم . ولذلك
 هدد تميم بن الحباب الشيبانيين بأن قومه سيعبرون دجلة إلىهم ليقتلوا من
 أبناء عم المَجْشَر .

وفاخر تميم بن الحباب بأدراكه لوتره ، وأثنى على بني عامر السذنين
 أعانوه وساندوه . يقول (٥) :

(١) الثَّوَاءُ : طول المقام . وشَمَامٌ : جبل معروفه بالعالية له رأسان (لسان
 العرب ٣٢٧/١٤ شم ، خزنة الأدب ٥٣/٢) ، ولم يذكره البكري ولا ياقوت
 (٢) الحية : ههنا : الدامية . والضمر : الماء الكثير .
 (٣) المَجْشَر : هو المَجْشَر بن الحرث بن عامر بن مرة بن عبد الله بن أبي ربيعة
 ابن نمل بن شيبان ، وكان من سادات شيبان بالجزيرة (الأغاني ٦٢/١١ ،
 وانظر : أنساب الأشراف ٣١٨/٥ ، شعر الأخطل ٧٢/١ ، الكامل في التاريخ
 ٣١١/٤)

(٤) الأغاني ٦٢/١١ ، شعر الأخطل ٧٢/١ .

(٥) معجم البلدان ٩/٥ .

جَزَى الله خَيْرًا قَوْمًا مِنْ عَشِيرَةِ بَنِي عَامِرٍ لَمَّا اسْتَهْلَوْا بَحْرًا
 هُمْ خَيْرٌ مِنْ تَحْتَ السَّمَاءِ إِذَا بَدَتْ خِدَامُ النِّسَاءِ مَسَّتَهُ لَمْ يَتَغَيَّرْ
 هُمْ بَرَدُوا حَرَّ الصَّدُورِ وَأَدْرَكُوا بَوْتَرَنَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مَدِيرٌ
 ثُمَّ وَصَفَ مَطَارِدَةَ رَجَالَهُ لِفُلُولٍ تَغْلِبُ الَّتِي لَحَقَتْ بِرَبِّتِي وَقَتْلَهُمْ لَهَا ، وَأَشَارَ إِلَى
 بِقَرِ رَجَالِهِ لِبَطُونِ الْحَبَالِيِّ مِنْ نِسَاءِ زُهَيْرٍ وَمَالِكِ التَّنَلْبِيِّينَ :
 وَمَرَّوْا عَلَى لَبِّي كَأَن عَيُونَهُمْ مِنْ الْوَجْدِ بِالْأَثَارِ حُمُرُ الصَّنَوْبَرِ
 فَبَيْتُنَا لَهُمْ ضَيْفًا عَلَيْنَا قِرَاهِمُ وَكَانَ الْقِرَى لِلطَّارِقِ السُّنْبُورِ
 نُحَقِّقُ قِرَاهِمُ آخِرَ اللَّيْلِ بِالْقَنَا وَبَيْضُ خِفَافِ ذَاتِ لَوْنٍ مُشَهَّرِ (٣)
 بِقَرْنَا الْحَبَالِيِّ مِنْ زُهَيْرٍ وَمَالِكِ لِنِيَّاسٍ قَوْمٍ مِنْ رَجَاءِ التَّجْبَرِ
 وَتأمل قوله : " بوتر لنا بين الفريقين مدبر " وقوله : " لنياس قوم من رجاء *
 التجبر " تجد فيه إصراراً على ترسيخ هذا العداوة القبلي ومدّة بدما * جديدة
 تزيد الصراع حدة وضراوة .

وما كانت نفوس القيسيين لتبرأ من الأحران التي أثارها مقتل عمير ، على
 الرغم من هذا التنكيل الذو الحقته ببطون تغلب بعد العداوة ، فقد ظلت تفسر
 بأن خسارتها في عمير لا يساويها قتل المئات من بني تغلب . وفي ذلك قال زفر (٤) :
 قَتَلْنَا مِنْ بَنِي جِشْمٍ جُمُوعًا فَمَا عَدَلْتَ جُمُوعَهُمْ عَمِيرًا (٥)
 وقال (٦) :

- (١) حنجر : موضع بالجزيرة (معجم البلدان ٣/٣١٠) .
 (٢) الخدمة : السِّير الفليظ المحكم مثل الحلقة يُشدُّ في رِسخ البعير ، ثم يشدُّ إليها
 سرائح نملها ، والجمع خَدَمٌ وخِدَامٌ ، وفرس مُخَدَّمٌ وأُخْدَمٌ : تحجيلة مستدير فوق
 أشاعره (لسان العرب ١٢/١٦٧ - ١٦٨ خدَم) . والنساء : عرق يخرج من الوراثة
 فيستبطن الفخذين ثم يمر بالمرقوب حتى يبلغ الجافر (لسان العرب ٢٢١/٣ نساء) .
 (٣) قوله : " نحق قراهم " بالقنا وببيض خفاف " أي أطمعناهم رماحنا وسيوفنا .
 (٤) أنساب الأشراف ٥/٣٣٧ .
 (٥) جشم : هو جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب .
 (٦) أنساب الأشراف ٥/٣٣٧ . وانظر : الكامل في التاريخ ٤/٣١٨ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجغرافية التاريخية

- ١- البيئة الجغرافية والسكانية
- ٢- الأحداث التاريخية وموقف القبائل

تسمى هذه الدراسة إلى جلاء جانب من جوانب الإنتاج الأدبي خلال عصر بنسني أمية ، في بيئة لم يدرس تاريخها الأدبي حتى الآن وهي الجزيرة الفراتية ، التي عرفت بهذا الاسم ميراً لها عن مواطن عدة أطلق عليها اسم الجزيرة ، وكانت في أخرة من العصر الأموي مقراً لحكومة آخر خلفاء البيت مرواني : مروان ابن محمد .

وهي بيئة تجلّت فيها الخصومة السياسية بين القيسيّة أنصار الزبيريين وبين اليمنية أنصار الأمويين ، واشتدّت فيها العصبيّة القبليّة التي تجلّت في النزاعات القبليّة المملّحة بين قيس وتغلب وبين كلب ثم بين قيس وتغلب ، وكثرت فيها حركات الخوارج الصّفرية كثرة جعلتها تعرف عند مؤرخي الألب بأنها موطن هذه الجماعة الإسلاميّة وقاعدة انطلاقها إلى أقاليم الدولة المجاورة فسي ثورتها على السلطة وممثليها . وهذه أحداث نظم فيها شعراء الجزيرة شعراً وفيرا ، انتهى إلينا كثير منه : بعضه مجموع في دواوين ، وآخر غير قليل لم يُقيض له من ينظر فيه فيض أشعته ، إذ هو مفرّق في الكتب التاريخيّة والأدبيّة . ولأهمية هذا التراث الشعري ، وبعد أن تبين لي أنه يمكن أن يدرس دراسة أدبيّة - تفيد من معطيات البيئة الجغرافيّة والأحداث التاريخيّة ، لتبرز القيمة التاريخيّة والاجتماعيّة لشعر المنطقة ، وتبين قدرته في معالجة الأحداث والتعبير عنها ، وتكشف عن النواحي الجماليّة فيه ، وتقوم على استقصاء الأشعار والأخبار في مصادرها والتوثيق لها واستغلال النتائج منها - مضيت في جمعه ، حتى إذا أحسست أنني ظفرت بأكثر المواد من المصادر والمطابع المتوفرة ، عكفت على دراسة ما جمعته منها ، وعلى فحصه ومراجعته وتبويبها ومعاودة النظر فيه ، حتى تمثّلته تمثلاً أداني إلى قسمته بين خمسة فصول .

أما الفصل الأول - فخصته للجغرافيّة التاريخيّة للجزيرة ، وعرضت في القسم الأول منه لوصفها ، فرسمت حدودها ، وبيّنت أقسامها الداخليّة الثلاثة مصوراً ما في كل قسم منها من مدن وقرى وأنهار ، وتحدّثت عن سكانها من القبائل العربيّة والمناصر الأخرى ، ذاكرة كل ما عثرت به من الروايات التي تتعلق بهجرة القبائل العربيّة إلى الجزيرة . وألّمت في القسم الثاني

ألا يا عين جودى بانسكاب وبكى عاصما وابن العباب
 فإن تك تغلب قتلت عميرا ورطبا من غني في الحراب
 فقد أفنى بني جشم بن بكر ونمرهم فوارس من كلاب^(١)
 قتلنا منهم مائتين مبرا وما عدلوا عمير بن العباب
 فقتلنا ندمهم كراما وقتلناهم تعد مع الكلاب
 ورثاء زفر لسمير يصدر عن نفس حزينة هذتها الفجيمة ، وينم عن ولاء زفر لقومه .
 فلا غرو أن ينطق رثاؤه لسمير بمشاعر الأسى العميق ، وأن نجده يخطب عينييه
 طالبا إليهما ذرف المبرات على الهاالكين ، وفي البيت الأخير : " فقتلنا ندمهم
 كراما ... " نرى أن الحق قد بلغ من نفس زفر مبلغا عظيما ، إذ يعد قتل قومه
 من قيس كراما ، أما قتل أعدائه فموتهم وموت الكلاب واحد .

وأشار نفيح بن صفار المحاربي إلى ما ألحقته حرب قيس بتغلب من ذل ودوان
 يقول^(٢) :

ألم تر حربنا تركت حبيبنا مخالفا المذلة والصنار^(٣)
 وقد كانوا أولى عز فأضحوا وليس بهم من الذل انتصار

وكان يوم البشر بعد الكحيل ، وهو يوم الجفاف بن حكيم السلمي وممسه
 القيسية على بني تغلب . وسببه أن الأطلال التغلبي أساء إلى الجفاف في مجلس
 عبد الملك ، وكان الخليفة - على ما يبدو - أدرك بثاقب بصره أن اتصال النزاع
 بين قيس وتغلب بعد القضاء على فتنة ابن الزبير واجتداع الناس عليه لم يعد
 في مصلحة الدولة ، فاستقدم إلى دمشق رؤساء القبيلتين ليصلح بينهما^(٤)

(١) النمر : أراد النمر بن قاسط ، لأن النسابين لم يذكروا لجشم التغلبي
 ولدا باسم نمر ، ولأن النمر بن قاسط ساندت تغلب في حربها لقيس يوم
 الكحيل . وكلاب : قوم زفر بن الحارث .

(٢) أنساب الأشراف ٣٢٧/٥ .

(٣) حبيب : هو حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب .

(٤) أنساب الأشراف ٣٢٩/٥ ، الأغاني ٦٠ / ١١ ، الكامل في التاريخ ٣١٩/٤ - ٣٢٢ .

وكان للأخطال بتأثير خضوعه للمصيبة القبلية موقن خطير في مجلس الخليفة ، فقد دعا من جديد إلى تأجيج نار المصيبة وإثارة الفتنة بتحديثه لزعماء قيس وتذكيره بإيادهم بمن قتلت قنبل من رجالهم البارزين ، فنكأ الجراح التي أوشكت أن تندمل وأثار الحزازات التي في الصدور ، وهو يقول (١) :

ألا سائل الجفاف : هل هو ثائر يقتلى أصيبت من سليم وعامر ؟
أجفاف : إن نضكك يوماً فتصطدم عليك أواذي البعور الزواجر (٢)
تكن مثلاً قذاً الحباب الذي جرى به البحر أو جاري الرياح الصرار (٣)

هكذا وقف الأخطال يدمو إلى الشئ والفتنة ، وهو يهتف من أمر الجفاف حتى جعلته مثل " أقذاً الحباب " ويمظم من شأن تغلب حتى جعلها بئراً هائجا تتلاطم أمواجه .

ولم يكن الجفاف وهو فارس قيس المنيوار ليغفر للأخطال إساءته وتحديته السافر ، فقال وما يعلم من الفضب (٤) :

نعم سوف نبيكهم بكل مهند ونبيكي عميرا بالرماح الخواطر (٥)
وخرج مضطرباً ، وقبل أن ينادر القصر لطف لبعض كتاب الديوان حتى كتب له عهداً على لسان الخليفة ، بتوليته صدقات بكر وتغلب في الجزيرة (٦) . ثم جمع من أصحابه القيسيين ألف فارس (٧) ، وسار بهم حتى أتى الرصافة غربي الفسرات .

(١) شعر الأخطال ٥٢٨/٢ - ٥٢٩ .

(٢) نضكك : نضريك وندفك . والأواذي : جمع آذى وهو الموج .

(٣) الأقذا : جمع قذى ، وهو ما يقع في الماء من تبين أو وسخ أو ذباب الحباب نفاغات الماء وفقاً قيعه التي تملوه . والصرار : جمع صرصر وهي الرياح الشديدة .

(٤) الأغاني ٦١/١١ ، الكامل في التاريخ ٣٢٠/٤ .

(٥) المهند : السيف . والخواطر : الرقيقة المهتزة .

(٦) أنساب الأشراف ٣٢٩/٥ ، الأغاني ٥٩/١١ ، الكامل

في التاريخ ٣٢٠/٤ .

(٧) الأغاني ٥٩/١١ .

فكشف لهم أمره وأنه لم يأت واليا للصدقات وإنما جاء ليفسل العار الذي ألحقه الأخطل بقيس، وأنه آلى ألا ينسل رأسه حتى يوقع ببني تغلب، فرجموا غير ثلاثمائة (١)، مار بهم حتى بلغوا صِهْن في قبلة الرصافة ليلاً (٢). ثم صبحوا عاجزة الرحوب وهي في قبلة صهين، والبشر، فأغاروا على بني تغلب فقتلواهم وبقروا بطون الحوامل من النساء وقتلوا من لم تكن حاملاً. وأسروا الأخطل وكان يدرج عبادة وسخه، فأتى أنه عبد من عبيد تغلب فأطلقوه (٣) فرمى بنفسه في جب من جبابهم مخافة أن يراه من يمر به من قيس فيقتل (٤)، وقتل ابنه يومئذ (٥). وأجلت إغارة القيسيين على البشر عن قتل عسدد كثير من تغلب، فأغار الشمر ذو أحد وجوه بني الوحيد من تغلب على ذويهم بإحراقهم خشية أن يمر الناس كثرتهم، فيكون ذلك عاراً يلزمهم ما عاصوا (٦). وأصر الجحاف أنه خرج على ميثاق الخليفة فلحق بأرض الروم، وتبعه عبيدة بن همام التغلبي دون الدرب (٧)، فكر عليه الجحاف فهزمه وهزم أصحابه وقتلهم (٨). ومكث الجحاف في بلاد الروم زمناً، ولما سكن غضب عبد الملك كلمته القيسية في أن يوءمه فلان وتلكاً، فخوف من شره على المسلمين إن طال مقامه بأرض الروم. فأمنه غير أنه ألزمه دفع ديات قتلاه

(١) أنساب الأشراف ٣٢٩/٥، الأغاني ٥٩/١١، الكامل في التاريخ ٣٢٠/٤.

(٢) الأغاني ٥٩/١١.

(٣) أنساب الأشراف ٣٢٩/٥، الأغاني ٥٩/١١ - ٦٠، الكامل في التاريخ ٣٢٠/٤.

٣٢١. والبشر: جبل يمتد من عرض إلى الفرات، سمي بالبشر بن هلال

ابن عقبة رجل من النمر بن قاسط، وكان خفيرا لفارس، قتله خالد

ابن الوليد في طريقه إلى الشام (معجم البلدان ٤٦٦/١).

(٤) أنساب الأشراف ٣٢٩/٥، الكامل في التاريخ ٣٢١/٤.

(٥) الأغاني ٥٩/١١.

(٦) أنساب الأشراف ٣٢٩/٥، شعر الأخطل ٨١/١.

(٧) الدرب: ما بين طرسوس وبلاد الروم، سمي بذلك لأنسبه

مضيق كالدرج (معجم البلدان ٤٤٧/٢).

(٨) الأغاني ٦٠/١١.

بالبشر ، فلجأ إلى الحجاج بالعراق فأذاها له (١) .

وصور الجعاف بن حكيم السلمي في شعره كل ما اتصل بهذا اليوم من أحداث . ففي قصيدته الدالية أبدى إعجابه بشجاعة صاحبه الذين رافقوه فسي غارته على بني تظلب في البشر . ووصف سيره بهم من الرمافة قاصدين تظلب ، وما كان يثامر نفسه من التخوف والترقب لما يخبئه له القدر من إخفاقات أو نجاح في غارته . وأشار إلى بلوغه بأصغابه صهيلاً القريبة من البشرليلا وهم في غاية التحفز . ثم صور إيقاعهم بحي بني القدوكس رهط الأخطل ، وهم آمنون عند الصباح . قال (٢) :

لله دَرَّ غصابة نَبَّهَتْهُمْ	يوم الرمافة مثلهم لم يوجد
ركب الرجال الناثرون كأنما	أبصارهم قطع الحديد الموقد
متقلدين صفائحاً هندية	بتركن من ضربوا كأن لم يولد (٣)
نفرت قلوبهم من قبور أحدثت	بطريقها جُدُّه، كأن لم تعهد (٤)
لا تنفروا ، إنَّ القبور وأهلها	كانوا الأجنة غير أن لم أشهد
مَرَّوا على صُهيَّا بليسداس	رَقَد الدُّثور وليلهم لم يرقد (٥)
فصبحن عاجنة الرُّحوب بضارة	شموا ترفل في الحديد الموجد (٦)
فتركن حي بني القدوكس عصابة	نَقَدُوا ، وأَيُّ عدونا لم ينفد ؟

(١) أنساب الأشراف ٢٢٩/٥ - ٢٣١ ، الأغاني ٦٠/١١ ، الكامل في التاريخ ٣٢٢ - ٣٢١/٤ .

(٢) الأبيات الخمسة الأولى وردت في (المؤتلف والمختلف ١٠٢) والأبيات الثلاثة التالية وردت في (معجم البلدان ٣٧/٣) ، ورجعت أنها من قصيدة واحدة للارتباط الوثيق الذي يجمع بينها في المماني وتدرج الأحداث ، مع اتفاقها في الوزن الواحد وهو الكامل والروي الواحد . وهو السدال .

(٣) الصفائح الهندية : السيوف من عمل الهند .

(٤) القلوب : الناقة السريعة .

(٥) داس : شديد الظلمة . والدثور : الخامل النوم .

(٦) غارة شموا : فاشية متفرقة .

وكان ردّ الجحاف على إهانة الأخطل له ولزعما قيس في مجلس الخليفة قاسيا سريعا مفاجئا ، ففاخر في قصيدته الميمية بفتكه وهو والقيسية بأهل البشر وثأرهم " بقتلى أُصِبت من سليم وعامر " الذين حَصَّ الأخطل على إدرالهم أوتارهم ، ووصف ما أصاب بني زهير ومالك التغلبيين من هوان ومذلّة لوقوع نسائهم في أيدي القيسيين ، واشتفى بأحراق التغلبيين لقتالهم ، وأشار إلى مطاردة عبدة بن همام وصحبه من بني تغلب له حين أراد اللحاق ببلاذ الروم ، وأخذ على التغلبيين ضعفهم لأنهم لا يقدرّون على حماية أنفسهم ببلّ يحميهم السلطان والدولة ، وهدد الأخطل أن لا يعود إلى إغصاب قيس لأنهم لا تنام على ضمير . قال — (١) :

أبا مالك هل لمتني إذ حَصَّتْني	على القتل ، أم هل لأمّني لك لائم ^(٢)
أبا مالك إني أطمئت في التي	حضت عليها فعل حرّان حازم ^(٣)
ألم أفنكم قتلا وأجدع أنوفكم	بفتيان قيس والسيوف الصوارم
بكل فتى ينمى عميرا بسيفه	إذا اعتصمت أيمانهم بالقوائم
يكرّ عليهم سابحا ذا عُلالة	بأبيض طلائع ثنايا المَخارم ^(٤)
لدن ذرّ قرن الشمس حتى تَلَبَّست	ظلاما ، وركض المنضيات الصلاد ^(٥)
نكحت بسيفي من زهير ومالك	نكاح اغتصاب لا نكاح الدرامم
إذا شئت غنّنتني مع الشرب منهم	موشمة الأطراف ربا المصامم ^(٦)

(١) أنظر : شعر الأخطل ٣٦/١ - ٣٧ ، أنساب الأشراف ٤٢٩/٥ - ٤٣٠ ، الأغاني ٦٠/١١ ،

الموتى تلف والمخلف ١٠٢ ، الكامل في التاريخ ٤/٣٢١ .

(٢) أبو مالك : كنية الأخطل .

(٣) حرّان : شديد ثابت .

(٤) السابح : الفرس الذي يسبح في جريه أي يسرع . العلالة : جلال الفرس .

والمخارم : جمع مخرم وهو الطريق في الجبل .

(٥) ذر قرن الشمس : بزغ أول شعاع لها عند الفجر . المنضيات : الجياد

المهزولة من السير والأعيان . والصلاد : الصلبة الحوافر جمع صلدم .

(٦) الوشم : ما تجعله المرأة على ذراعها بالابرة ثم تحشوه بالتؤور وهو

دخان الشمع . والمصامم : جمع المعصم وهو موضع السوار من اليد .

- لقد أوقدت نار السمّ الذي بأروم عظام اللحي مَعَرَّزِمَاتِ اللهازم (١)
 تُحَرِّ بِأ وصال من القوم بينها وبين الرجال الموقديها محارم (٢)
 فإن تطردوني تطردوني وقد جرى بي الوُرد يوما في دما الأراقم (٣)
 فإن تدعني أخرى أجبك بمثلها وإني لطبّ بالوغى جدّ عالم (٤)
 فلا تحمدوا إلا الإمام وترككم ثُمّون بالغابور نُسَمَ المصائم (٥)
 إذا المُضغَب القيسيّ أمسى بأرضكم أبا مالك ، فاحذر فليس بنائم

وقال نفيع بن صفار المحاربي يعيّر الأخطل الذي رضي لنفسه أن يكون عبداً حتى يخلّي المغيرون سبيله ، لما وقع بأيديهم وعليه عباءة دنسة (٦) :
 لم تنج إلا بالتقبّد نفسه لما تيقن أنهم قوم عبداً
 وتشابهت بريق العباء عليهم فنجا ، ولو عرفوا عباءته هوى
 ونقض نفيع بن صفار المحاربي قصيدة الأخطل الرائية التي هجا فيها قبائل قيس عيلان ، ومطالها :
 ألا يا أسلمي يا هند^{هند} بني بدر وإن كان حياناً عدى آخر الدهر
 بقصيدة مطالها :

ألا حيّ هنداً بالنبيّ إلى البشر وكيف تُحيّيها على الثأى والهجر
 وابن صفار المحاربي يمجو فيها الأخطل بما كان منه يوم البشر ، فيميّزه بفراره وغذائه لقومه حين اختياً في جب من جبابهم بعد أن موّه على أسرهِ باتّعائه أنه عبد . ويصف بطش القيسيين ببني تغلب ، حتى غادر من نجا منهم منزله واعتصم

- (١) الممرنزم : الفليط المجتمع . واللهازم : أصول الحنكين .
 (٢) تحش : توقد .
 (٣) الطرد : الإبعاد ، وطردته إذا نفيته . الورد : فرسه ، وفرس ورد : بين الكسيت والأشقر .
 (٤) طب : عالم .
 (٥) الامام : الخليفة . نسم : جمع أَسْم وهو من السسم أي الوضرس ، وقد يكون كناية عن العيسوب السني يتلّخ بها الإنسان .
 (٦) الأغاني ١١ / ٦٠ .

بشعاب الجبال ، تاركا نساءه وأطفاله يواجهون السبي والموت ، غير ملتفت إلى نداء الضيف ومناشدة الباكي له بألا يفر . وينتهي إلى التأكيد بأن قتل قيس في حربها مع تغلب لا تكاد تذكر بالقياس إلى قتل تغلب في تلك الحرب يقول: (١) :

أبا مالك لو أدركتك رماحنا	لخر البواقي من نواجذ الخضر (٢)
وإن ندما لك الذين خذلهم	أبا مالك عند المؤاساة والصبر
ثووا إذ لقونا بالرحوب كما ثوت	ثمود إلى القيامة بالحجر
إذا أكره الخطي فيهم تجأوا	شريحين: من لحم الخنازير والغنم (٣)
نعمت فلم تعكف وما كان يشتكى	بسمك فيما قبل ذلك من وقس (٤)
ظللنا نفرى بالسيوف رؤوسهم	ولا حي يفرى بالسيوف كما نفرى (٥)
إلى أن ترؤحنا نسوة نساءهم	وما خمسوا فينا بناب ولا طفر (٦)
ولولم تفتنا في الجبال فلولهم	لكانت عليهم مثل راغية البكر (٧)
فإن تك أبقتك الحوادث بعدهم	وألبست ثوب الأمن من حيث لا تدري
فما كنت فيما بيننا غير تغلب	إذا خاف ضمته الشماف إلى الففر (٨)

(١) نقائض جرير والأخطال ٣٩ - ٤٠ .

(٢) النواجذ : الأضراس ، وقيل أقصاما ، وقيل هي التي تلى الأتياب .

(٣) الخطي : نسبة إلى الخط في عُمان ، ويشمل قرى : القطيف والعقير وقطره ،

وكانت تجلب إليها الرماح من الهند فتقوم فيها وتباع على المـرب

(معجم البلدان ٢/ ٣٧٨) . تجأوا : خبثت نفوسهم من الوجع مما تكره

فشارت للقي ، والتجشوا : تنفس المدة خند الامتلاء . والشريجان : لوان

مختلفان من كل شيء .

(٤) الوقر : ثقل السمع .

(٥) نفرى : نقطع . أفرى : إذا قطع في فساد ، وفرى : إذا قطع في صلاح .

(٦) الخمس والخدر واحد .

(٧) الرغاء : صوت ذوات الغنم . والبكر : ولد الناقة .

(٨) الشماف : رؤوس الجبال وأطرافها . والففر : ولد

الأروية أي الوعل ، والجمع أغفار .

تَفَرَّ إذا ما كان يوم كريبه ^(١) إلى خَمَر الشَّجَرَاء والجبل الوعر ^(٢)
 وتُسَلَّم أبكار النساء وعوثهما ^(٣) ومن سبايا مُحوجات إلى النصر ^(٤)
 يُنادين حَيِّي تغلب ابنة وائل ولا حيي إلا الهام في البلد القفر ^(٥)
 وقد علمت أفناء بكر وتغلب أبا مالك في الحرب أن يئسها تجرى ^(٦)
 قتلتهم عميرا لا تعدون غيره وكم قد قتلنا من عمير ومن عمرو

وإذا رأينا في نظرة ابن صفار لموت عمير في البيت الأخير شيئا من عدم الاكتراث
 فذلك إيماة قصد منها الشاعر إلى التثفيف من وقع مصابه في عمير ، فراح يفتح
 نفسه بالتجالد على الخطب مهما كان عظيما .

ووصف لنا نفيح اشتداد الحزن بتغلب يومئذ ، حتى إنها أقامت عددا من
 المآتم ، ندبت فيها قتلاها الذين أحرقتهم بمشورة الشرذوي التغلبي ، خوفا من أن
 يصرف الناس كثرتهم فيلزمها عارهم أبد الدهر . قال ————— (٥) :

ويل يرجع الموتى حنين مآتم يُبكيك قتلى تغلب وانتحائبها
 وكيف ، وقد أوقدت النار فوقهم فحرقهم سعارها والتهابها
 إذا ما حَبَّتْ أذكيتموها بسيّد تُشَبُّبه حتى يلوح شهابها
 وإذا نظرت في بيته الأخير : " إذا ما حبت ... " رأيت تمكّن روح العداء القبلي
 في نفوس القوم ، مما جعل الشاعر ينسب فيهم سهام الهجاء اللاذع الذي يفتّت
 قلوبهم حجرة وكندا على الهالكين .
 وقال ————— أيضا (٦) :

لقد رفعت نار الشرذوي لقومه شئارا وبخزيا طار كل مطار

-
- (١) الخمر : ما واراك من الشجر والجبال ونحوها . والوعر : الخشن .
 (٢) أبكار : جمع بكر ، وهي التي لم تُفْتَضَّ . والعوذ : جمع عاذ ، وهي التي
 معها ولد يحوذ بها .
 (٣) الهام : أراد ما كان أهل الجاهلية يقولونه من أن الرجل إذا مات
 خرجت من رأسه هامة .
 (٤) أفناء : أغلاط ، واحدها فئو .
 (٥) شعر الأخطال ٢٧/١ .
 (٦) أنساب الأشراف ٣٣٠/٥ .

وتوعد الأخطل الجحاف بيوم يلقي فيه مصير عمير ، وأن هربه في البلاد لن يفيدته كثيرا ، لأن فرسان تغلب سيصلون إليه مهما أومن في تخفيه . قال — (١) :
 شفى النفس قتلى من سليم وعامر بيوم بدت فيه نحوس الكواكب
 ولأقى عمير حتفه في رماحنا وما أنت يا جحاف منها بهارب
 أتجزنا في بسطة الأرض كلها فتلك وبيت الله إحدى العجائب
 وذكر الجحاف - بعد أن رجع من بلاد الروم بعفو عبد الملك عنه - رحيله
 إلى العراق ونزوله على واليها القيسي الحجاج بن يوسف ، ليطلب إليه حمل
 ديات قتلى البشر لأنه من موازن القيسية . قال — (٢) :

دخلت إلى الحجاج أطلب رِفْدَه على ثقة بالله والزمَن قد غَلِي (٣)
 تَمَلُّ دِمَاءَ بَيْن قَيْسٍ وَتَغْلِب تَمَلُّهَا وَالْقَلْبُ مِنْ ثِقَلِهَا فَرَّقَ (٤)
 فَأَحْفَى سَوْءَ الْي ثُمَّ أَقْبَلَ ضَاكِكَا عَلَيَّ وَأَعْطَانِي الْأَوْفْنَ السَّوْرَقَ (٥)
 تَدَارَكَ جَعَا فَا وَقَدْ حَلَّقَتْ بِهِ مَعَ النِّجْمِ فَتَخَاءَ الْجَنَاحُ وَقَدْ شَرَّقَ (٦)
 فَأَنْهَضَهُ مِنْ بَعْدَمَا بَانَ رِيثُهُ وَأَخْرَجَهُ مِنْ بَحْرِهِ بَعْدَمَا غَرَّقَ

والجحاف يشير هنا إلى الهموم والأحزان التي كانت تثقل عليه ، بعد أن ألزمه عبد الملك دفع الديات . ويبين كما ورد عند البلاذري وأبي الفرج وابن الأثير (٧) أن الحجاج امتنع عن قضاء حاجته أول الأمر ، إنما لثقل الحاجة وإما لأن الحجاج أراد أن يمازحه .

(١) شعر الأخطل ٥٠٩/٢ .

(٢) شعر الأخطل ٣٨/١ ، وانظر : أنساب الأشراف ٣٣١/٥ .

(٣) الرغد : المطاء .

(٤) فرق : فزع ، يريد أنه خشي ألا يستطيع حملها .

(٥) أحفى سوء الي : منعني ما سألت . السورق : المال من دراهم وإبل ، والسورق

الدرهم ، قال ابن سيده : وربما سميت الفضة ورقا .

(٦) الفتخاء : العقاب اللينة الجناح ، لأنها إذا انحطت كسرت جناحيها .

وشرق : غصص .

(٧) أنساب الأشراف ٣٣٠/٥ - ٣٣١ ، الأغاني ٦٠/٦١ - ٦١ ، الكامل

في التاريخ ٣٢٢/٤ .

وتدأشى الخطل الخوض فيما نزل بقومه من القتل الذريح والهزيمة الذكرا •
 التي عانى منها شو وقومه في البشر على يد الجحاف وصحبه من قيس ، سور هذه
 الأبيات التي صاح فيها الخطل من وقعة البشر ووردت ضمن قصيدة ردّ فيها على
 جرير • وفيها عاتب بني مروان ولأمهم على إطمئنانهم إلى قيس ومصالحتهم لها
 وتساهلهم معها ، واشتد في عتابه ولومه حتى أخذ يتهددهم • قال (١) :
 لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة إلى الله منها المشتكى والمُعول (٢)
 فسائل بني مروان ما بال ذمّة وحبل ضعيف لا يزال يُوصّل (٣)
 بتزوة لى بعدما مرّ مصّاب بأشمت لا يفلى ولا هو يُضلل (٤)
 أتاك به الجحاف ثم أمرته بجيرانكم وسط البيوت تُقشّل (٥)

(١) شعر الخطل ٣٧/١ - ٣٤ •

(٢) المعول : الإتكال والمعتمد •

(٣) الذمّة : العهد •

(٤) النزوة : الوثبة • اللى : ههنا : الجحاف • مصعب : هو مصعب بن الزبير
 يريد أن وقعة الجحاف بالبشر كانت بعد قتل مصعب واجتماع الناس على
 عبد الملك وانقضاء الفتنة • الأشمت : المغبر الرأس الملبّد الشعر، وأراد به
 النابي بن زياد بن طبيان أحد بني تيم اللات بن ثعلبة بن عكابة ، وكان
 مصعب قتله قبل لقائه بعبد الملك في دير الجاثليق ، فلما كان يوم الدير
 وأشرف القتال على نهايته بين جيش مصعب وجيش عبد الملك ، أتى عبيد الله
 ابن زياد أخو النابي إلى مصعب وهو مشغن بالجراح فاحتزّ رأسه
 (شعر الخطل ٣٢/١) • ويفلى : يبحث فيه عن القمل •

(٥) الضمير في (به) يعود على مصعب ، فقد احتز عبيد الله
 أخو النابي رأس مصعب وأتى به عبد الملك •
 والخطل يمين بذلك على عبد الملك • فيقول :
 أتاك به الجحاف ، وحذف همزة الاستفهام ،
 والمراد بها النفسي •

لقد كان للجيران ما لو دعوتهم به عاقل الأروى أنتكم تنزل (١)
 فلا تُفبّرنا قريش بملكها يكن عن قريش مُستماز ومزحل (٢)
 ونقرر أناسا عرة يكرمونها ونعيا كراما أو نموت فنقتل (٣)
 وإن تحملوا عنهم فما من حمة وإن ثقلت إلام القوم أثقل (٤)
 وهو يقر أنه بات مدركا للشر الذي جرّه على قومه بتحديثه للجحاف، فتألم من
 هول المصيبة، واعتقد أن لاعاصم لبني تغلب من قيس إلا التجاؤمهم إلى الله
 واستعانتهم به. ثم لأم بني مروان على تركهم جيرانهم يقتلون وهم ينظرون،
 وأشار إلى ما قدّمه أقاربه من البكرين من خدمة إليهم. بقتلهم لمصعب بن الزبير.
 وهدد بالخروج على سلطان الدولة والرد على القيسيين والانتقام منهم انتقاما
 يعمد إلى التغلبين كرامتهم. وبين أن حمل الدولة ممثلة في الحجاج لديات
 القتلى من قومه ليس بشيء لأن دماءهم أثنى.

ولعله قد تبين لنا، أن هزيمة قيس في موقعة مرج راسط كانت الممرارة
 الأولى للوقائع الحربية التي نشبت بين قيس وتغلب وبين كلب ثم بين قيس
 وتغلب في عهد الخليفة غياث الملك بن مروان، وأن التمصب القبلي والثأر للكرامة
 كان من أبرز دوافع تلك الوقائع، التي عادت بالوبال على القبائل المتحاربة

-
- (١) العاقل: الممتنع في الجبال العالية. والأروى: جمع الأروى، وهو الوعل لا يرى إلا في رؤوس الجبال. يقول: لقد كان لهم من الذممة
 والجوار ما لو دعوتهم به الوعل العاقل في رؤوس الجبال لأنتكم.
 (٢) المستماز: المتنحى. والمزحل: المذهب والمتنحى.
 (٣) نقرر أناسا: نوقع بهم شرا، والقر: أن تمر الانسان بما يكسره.
 وأراد: أن نقتل فنموت، فقلب.
 (٤) الحمالة: الدية والغرامة والكفالة.

وبخاصة على بني كلب اليمنيين وبني ثعلب الربيعيين الذين لاقوا من الهزيمة على يد القيسيين أكثر مما ظفروا به من نصر .

واتضح أيضاً أن معلوماً تنافس هذه الوقائع ، إنما رواها البلاذري وأبو الفرج أما ابن الأثير فقال بما كان يميل رواية البلاذري . وقد جاء في مقدمة مصادرنا الثانوية ديوانا شعر الأخطل والقطامي التغلبيين ، بالإضافة إلى بعض الدواوين والكتب الأدبية الأخرى التي تميز الروايات التاريخية . على أن هناك مصدراً آخر لا يمكن الاستغناء عنه في دراسة هذه الوقائع ، وهو كتب النسب من مثل : (جمهرة النسب) لابن الكلبي و (المُتَبَرِّ) لابن حبيب و (الاشتقاق) لابن دريد و (جمهرة أنساب العرب) لابن حزم و (الأنساب) للسمازي ، فهي تتضمن مادة مفيدة تساعد على توضيح العلاقات القبلية للأفراد الذين شاركوا في هذه الوقائع . وعلى الرغم من وفرة المعلومات في هذه المصادر عن الوقائع ، فقد ظهر أنها ذات طبيعة مريبة ونادرة ما تتبع تسلسلاً زمنياً ، ولكن بمقارنة الروايات المختلفة بعضها ببعض وتتبع الإشارات الخفية التي تحتويها أمكن أن نبني تسلسلاً لهذه الوقائع .

واستبان أن هذه الوقائع تشابه حروب العرب في الجاهلية (١) من عدة وجوه : الأول — ، أنها سميت بالأيام لأنها كانت غارات طارئة ، تقع الفارة منها في يوم واحد وتنتهي بانتهائه ، ومع أن بعض هذه الغارات اتصل فيها القتال أياً ما ، إلا أنها كانت تتوقف عند حلول الظلام إذا لم تُحسم نهائياً لتستجر في الصباح التالي . والثاني ، أن هذه الأيام عُرفت بأسماء المواضع التي حدثت عندها كالمياه مثل (عُوَيْر) و (بَنَات قَيْن) و (الثَّرثار) و (البليج) والقرى مثل (ماكسين) و (القُدَيْن) و (بَلَد) و (الشَّكِير) ، والوديان مثل (الحَشَاك) ، والجبال مثل (البِشْر) . والثالث ، أنها تمثلت فيها السروح الجاهلية من قتل للمحاربين وتمثيل بجثثهم و بقر لبطون العوائل من النساء وتشريد للأطفال — .

وانكشف أن الشعر الذي أذكته هذه الوقائع يندرج تسلسلاً تاريخياً ما ما لأحداث الجزيرة الفراتية في القرن الأول الهجري ، بما يحويه من أسماء الأماكن التي كانت ميداناً لهذه الأيام ، وبما يتضمنه من تسجيل لأسماء القبائل التي

(١) أنظر : أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي ٧٥ - ٧٦ .

شاركت في هذه الوقائع وبيان مناقبها ومآثرها ورجالتها المشهورين وما أَلَمَّ بحياتهم من مواقف كريمة مجيدة أو وضعية ذليلة . وذلك أمر طبيعي ، فكل شاعر حرر على أن يحشد في جانب قومه فضائلهم وأيامهم ومواقفهم ، ويضع بجوارها مثالب أعدائهم وهزائمهم ومنازيتهم وغير ذلك مما تقتضيه مواقف التحدي والمفاخرة .

وظهر أن الوقائع ألهمت عواطف الشعراء ودفعتهم إلى القول في مجالين :
 الأول — أثناء المعركة ، والثاني فيما بعدما . وهم في المجال الثاني أكثر إبداعا وإسهابا ، وفي الأول أكثر إثارة وحماسة . ففي أثناء المعركة كان الشعراء واقعين تحت تأثير القتال المتمثل بمشاهد مريسة من الموت ، فالسيوف تبدو وتختفي في هجمات الرجال ، والرماح تغوص في مقاتلتهم . وتأثرا بهذا الموقف الحربي الصاخب والموت يتربص بهم ويقومهم ، اندفعوا إلى القول مبتزين إثارة عزيمتهم وعزيمة المقاتلين من قومهم ، فاستنهضوا الهمم وحضوا على الاستبسال والاقدام ودعموا للثبات ومنالبة العدو حفاظا على شرف القبيلة وطمعا في نيل النصر ، بأبيات مرتجلة جلّها من الرجز تتسق مع جو الحرب الرديب لثغة إيقاعها وسهولة تناولها ، ويطافى عليها الأسلوب الخطابية ، وتغلو من الصور الفنية الموحية والمعناني المبتكرة . أما فيما بعد المعركة فاختلف موقف الشعراء كثيرا عن موقفهم أثناءها ، فالهدوء الذي افتقدوه إبان القتال عاد إليهم ، وذكريات بلائهم في قتال الأعداء أخذوا يستعيدونها بسهولة . وبذلك تجلّت قدرتهم الشعرية من عدة جوانب ، أبرزها :
 إطالتهم القصيدة ، وتنويعهم في أغراضها ، وإظهارهم مقدرتهم الفنية فيها ، فأبرزوا انتصارات قومهم في الممارك وأضفوا عليها سمات البطولة ، ونوهموا بشجاعة محاربيهم وصمودهم في حومة الوغى وهم يجالدون عدوهم . كما أنهم صوروا شزائم أعدائهم فوصفهم بالجبن وأزروا بهم وهونوا من شأنهم ، وتوعدوهم بالقتل والتنكيل وهددوهم بالثأر لذوي قرباهم وأبناء قبائلهم من الذين سقطوا صرعى بأيديهم .

وعلى هذا يمكننا القول : إن الموضوعات التي طرقها الشعراء وأوحت بها إليهم الحرب المريرة ، هي :

١ - الفخر والهجاء : وهما الموضوعان الفالبان اللذان طرقهما الشعراء عند

تعرضهم لأيام قبائلهم ، وقد اتسع لهم مجال القول نيهما لاتساع معانيهما ————
 واتفاقهما مع طبيعة الحياة القبلية التي تستلزم وجود أصوات تنطق بآثرهما
 وتعبر عن أمانيتها وتطفئ على غيرها من أصوات القبائل المهادية . وقد وردا في
 الغالب مختلطتين ، بحيث تجد الأبيات المتجاورة جامعة بين الفنين دون فصل أو
 تنسيق . ففي الفخر حرص الشعراء على الإشادة ببلاء رجالهم وإظهارهم أبطالاً لا
 يتميزون بالصبر والثبات في الممارك ويبذلون دماءهم من أجل النصر ، وعلسى
 إبراز قبائلهم منتصرة متحدية سطوة الأعداء ومنزلة فيهم صنوف الأذى والمهانة .
 وبجانب ذلك رسموا صورا معاكسة هجوا فيها أعداءهم ، لا يرى الناظر فيها سوى
 ملامح الجبن والاندثار والزراية ، فهم بين قتلى يتناهشهم الوحش والطيور وأسرى
 ترتسم في عيونهم مذلة الهزيمة وفارين تطاردهم غيل المنتصرين . ورغبة منهم
 في التهوين من شأن أعدائهم وثلم كبريائهم رموهم بشرفهم ، فصوروا هيئته
 نسائهم عقب المعركة وهم سبايا تتلقفهن الأيدي ويردفن خلف الفرسان ، وهو أمر
 استحلّى العربي الموت دونه . ولم يقتصر هجاءهم على أعدائهم ، فقد تناولوا
 بالهجاء قبائلهم وحلفاءها لفرارهم من المعترك ومهادنتهم الأعداء ولتخاذلهم
 وامتناعهم عن نصره أخوانهم عند استعمار الحرب . وعموما فإن هجاءهم نزيه في
 معظمه . بعيد عن مواطن الفحش والتدني والتشهير ، يجافي ما استمرأه بعض
 شعراء العصر من أمثال جرير والفرزدق ، فأقصى ما توخوه من هجاء خصومهم
 وتوبيخ قومهم ، وصم المتخاذلين من الجانبين بعدم الذب عن المحارم وبالفرار
 عند اللقاء وما إلى ذلك من ممان .

٢ - الممدوح : وقد طرقة الشعراء عند تعرضهم لأيام لإنصاف سمات
 البطولة على رجال قومهم الذين صمدوا في حومة الوغى وهم يجالدون عدوهم
 طمانا وضرابا ، أو على من نصرهم عند احتياجهم إلى النصر وفاء لهم . ولربما
 مدحوا الأبطال الذين خلدوا أنفسهم بمكرمات تركت من الأثر ما يطفئ على البطولة
 الحربية ، أو الأعداء الذين أطلقوا سراحهم بعد أن وقعوا أسرى في أيديهم
 اعترافا بجميل صنيمهم ، وهم في مدحهم لهم يكبرون البطولة إذ يمشيــــــــــــدون
 بأعدائهم حين تهزم بطولتهم وكأنهم أفراد من قبائلهم .

٣ - الرثاء : لم يقتصر الشعراء في هذا الباب على نذب قتلاهم

بالتأسي عليهم والتوجع لمصابهم ، فقد ذكروا فضائل المراثيين فخصوصهم بكل مظاهر المدح ولكن بأسلوب فيه أسي ولوعة يتفق مع ما يوحى به الموت من رهبة وعاطفة ، وتوعدوا بأخذ ثأرهم من الأعداء . كما أنهم نظروا أحيانا إلى الموت نظرات فيها استهانة واستخفاف ، فهوّنوا من مصابهم وهم يتوجّمون على فسراق أعزائهم باظهار تجلّدهم وإقناع أنفسهم أن الموت سبيل لا بد لكل حي من سلوكه ، فلا بد إذن من الصبر على الخطب مهما كان جللا . ومنهم من تناسى كبرياء الرجولة ولم يجد بأسا من البكاء على أحبائه الذين فقدهم في الممـسـاركـه فرأيناه ينوح عليهم في محاولة منه للتخفيف من وقع المصـاب .

٤ - الوعيد والتهديد : وقد طرقة الشعراء متوعدين أعدائهم بالقتل والتنكيل ، ومهددين لهم بالثأر لأبنائهم قبائلهم . وتبرز في توعد الشعراء لأعدائهم وتهديدهم لهم صور من التحدى والانتقام بالفة القسوة ، فيها نداء لتتبع الخصوم من أجل إبادتهم وإفنائهم وقتل الأجنة في أرحام نسايتهم .

٥ - المتنـاب : وقد اتخذ المتناب في شعر الوقائع صورا متعددة ، أخصها عتاب الشعراء أقاربهم لتخاذلهم عن نصرة إخوانهم في المعترك ، وعتابهم لهم لعدم الامتثال لنصيحتهم بالابتماد عن مواطن الخطر والتروى .

أما أسلوب شعر الوقائع فقد تميز بالاعتماد على الجزالة ، لأن تصوير الوقائع والمواقف الحربية بما تتطلبه من التحمس وإثارة المزائم والحث على الثبات وإبراز الانتصارات والحق من قدر الأعداء وتهديدهم بالثأر وتوعدهم بالقتل ، لا يتلاءم معها إلا الألفاظ الفخمة والتراكيب المتينة للتأثير في السامع وبخاصة في مجالات الفخر والهـجاء والتهديد . وضع أن الشعراء توخّوا في شعرهم أن يكون جزلا في ألفاظه وتراكيبه إلا أنه مع ذلك بدا - في مجمله - واضحا لأن أكثره قيل في سواقف القتال فكان يأتي على السجّة ، وإذا ما بدت في شعرهم بعض الألفاظ القريبة علينا فإن هذا لا يعني أنهم تعمدوا الفريـسـب من اللفظ بل إن ذلك راجع إلى اختلاط الذوق اللغوي بيننا وبينهم بسبب التباين الزمني . وبالإضافة إلى تميز أسلوب شعر الوقائع بهاتين الصفتين (الجزالة والوضوح) فقد اعتمد على السهولة في المعاني أكثر من اعتماده على الخيال الموحى ، إذ كان هم الشعراء منصبا على إبراز الفكرة باستخدامهم الألفاظ في معانيها الحقيقية ، وانصرفهم عن الأسلوب المجازي الذي يسلك بالفكرة طريقا يمتزج فيه الخيال بالواقع ليبرزها بصورة مبهرة بالفة التأثير .

الفصل الثالث

سائر الشّعير القبلي

١- المَدْحُ القَبَلِي

٢- الفَخْرُ القَبَلِي

٣- الهجاء القَبَلِي

(١) المدح القبلي

كان المديح في العصر الجاهلي واحدا من الفنون الشعرية البارزة ، وكان ذا ألوان متعددة ، فمنه مدح الشعراء لزعماء قبائلهم ، وهو مدح كان باعثه النزعة الالتزامية القبلية التي يضطلع بها الشعراء اعترافا منهم بفضل ساداتهم وما قدّموا من خدمات ومكرّمات لقبائلهم . فمضوا يخلعون عليهم صفات السيادة والشرف التي تدور حول : كرم الأمل ، ورفعة الخلق ، ورجاحة العقل ، وفسوط الشجاعة ، وكثرة العطاء ، وحمل الديار ، وافتكاك الأثرى ، والصبر على الشدائد^(١) وغير ذلك من الصفات التي تؤلف بمجموعها شخصية الرجل الفاضل السحب للأئثار . وظلت الشخصية الإسلامية تكبر هذه الفضائل ، لأنها تصلح لأن تكون مبادئ لتربية الإنسان في كل زمان ومكان^(٢) .

(٣)
واستمرّ المداحون في عهد بني أمية يحافظون على هذه المصاني التقليدية ، فاذا قرأنا مدائح الأخطال التقلبي المبرّور في أشعار قبيلته وقبيلة بكر التي يربطها بتنلب رابطة العصبية لريمية تمثلت لنا هذه المصاني بوضوح^(٤) ، فهو يشيد بصفاتهم السميدة من : الصلاح والحلم وسداد الرأي ، وتديبر شؤونه القبيلة وحل مشاكلها ، والحفاظ على كيانتها وتماسك أفرادها ، وإطعام ضفائها ، وإدراك ثأرها ، والقضحية بأنفسهم من أجلها ، ودفع المكروه عنها بعمل ديانتها وابتغاء الخيل والسلاح لها لرد كيد الطامعين فيها . يقول في مديح همام بن منكر^(٥) التقلبي :

(١) فن المديح ١٩ و ٢٦ و ٥١ ، المديح ١٦ ، العصر الجاهلي ٢١٠ .

(٢) فن المديح ١١١ .

(٣) المديح ٢٥ ، فن المديح ٥١ - ٥٧ .

(٤) الأخطال عر بن أمية ١٨٣-١٨٤ ، الأخطال في سيرته ونفسيته وشعره ٢١٩ ، التطور والتجديد في الشعر الأموي ٢٢٦-٢٢٧ .

(٥) شعر الأخطال ٦١٥/٢-٦٢١ . وهمام : هو همام بن المطرف بن منكر بن مخلد بن عبد شمس بن عمرو بن عامر بن مالك بن جشم بن بكر التقلبي . ومع أنّ المصادر لا تذكر عيّنًا عن همام هذا ، فبوسعنا أن نستنتج من شعر القطامي فيه أنّه كان من مسلمي تغلب الذين دخلوا في الإسلام بعد فتح الجزيرة . ودليلنا على ذلك أنّ بني مروان كانوا يعقدون له الرأي على الجند الإسلامي في غزو بلاد الروم من جهة الجزيرة . (هيوان لقطامي ١٣٧ ، ١٣٠-١٣١) .

رَأَيْتُ قُرُومَ ابْنِي يَزَارُ كُلِّهِمَا
يَرُونَ لَهُمَا عَلَيْهِمْ فَضِيلَةً
وَأَكْمَلُهَا عَقْلاً لَدَى كُلِّ مَوْطِنٍ
فَتَى النَّاسِ دَسَامٌ وَمَوْضِعُ بَيْتِهِ
خَلُو كَانَ دَسَامٌ مِنَ الْيَمَنِ أَصِیْحَتْ
نَمَتُهُ الذَّرَى مِنْ مَالِكٍ وَتَعَفَّافَتْ
أَجَادَتْ بِهِ سَادَاتُهَا فَتَرَفَّعَتْ
سَبَوُّهُ لِنَايَاتِ الْحِفَاظِ إِذَا جَرَى
وَدَفَاعُ ضَمِيمٍ لَا يَسَامُ دَنِيَّةً
وَأَخَذَ أَقْصَى الْحَقِّ لَا مَتَهَضَّ
أَغْرُ أَرِيبٍ لَيْسَ يُنْقَضُ عَنْهُ
جَوَادٌ إِذَا مَا أَمْعَلَ النَّاسَ مُمْرِغٌ

إِذَا خَافَتْ عِنْدَ الْإِمَامِ فُحُولُهَا (١)
إِذَا مَا قُرُومِ النَّاسِ عُدَّتْ فُحُولُهَا
إِذَا وَزَنْتَ فِيمَا يَشْكُ عَقُولُهَا
بِرَابِیَةِ يَمْلُو الرُّوَابِيَّ طُولُهَا (٢)
سَجُوداً لَهُ جَنَّ الْبِلَادِ وَغُولُهَا
عَلَيْهِ الرُّوَابِيَّ فَرَعَهَا وَأَسْوَلُهَا (٣)
لَأَخْلَاقِهِ أَمْجَانُهَا وَحَقِيلُهَا (٤)
وَوَقَابُ أَعْنَاقِ الْمَثْنِينَ حَمُولُهَا (٥)
وَقَطَّاعُ أَقْرَانِ الْأُمُورِ وَصُولُهَا (٦)
أَخُوهُ، وَلَا هَمَّ الْقَنَاةَ رَنْيَلُهَا (٧)
وَلَا شَاهِداً مَقْبُونَةً يَسْتَقِيلُهَا (٨)
كَرِيمٌ لِيَجْرِعَاتِ الشِّتَاءِ قَتُولُهَا (٩)

- (١) القُرُوم: جمع قُرْم، وهو السيد المعظم مخطرت: أرادت تفاخرت سرفها وقدرها .
والإمام: الخليفة .
- (٢) موضع بيته برابية: أي هو في مكان مرتفع لتراه الأضياف وتري ناره فتقصدها .
- (٣) نمته: نسبته ورفقته . تمعافت: مالت وحدثت . والروابي: أراد الأشراف .
- (٤) ترغبت: اتسعت . والحقيل: المدد والجمع الكبير .
- (٥) النايات: جمع غايه وهي الأمد . الحفظ: ما وجب عليه أن يحفظه من الذنب
عن المحارم والمنع لها عند الدروب . الأعناق: جمع عنق وهو الجماعة .
وأراد بأعناق المثنين: جماعات الإبل الكثيرة . وحمولها: أي هو حمول لما
يُحْمَلُ .
- (٦) الدنية: الخلعة الدنية المذمومة ، وهي الخسف والذل ههنا . والأقتران:
جمع قرن وهو الحبل .
- (٧) المتهضم: المظالم الذي يهضم حقه . والهش: الرخو اللين الضعيف .
- (٨) الأثر: الأبيض الوجه . الأريب: الداهية البصير بالأمور . المفبرنة:
أراد غلة يُظلم فيها ويُفبن . ويستقيلها: يطلب رنعها .
- (٩) ممن: ذو نعمة كثير الخير .

إذا نائبات الدهر شقت عليهم
عروفاً لإصاف المرازى* ماله
وكرار خلف المرمقين جواده
يُهين وراء الحي نفساً كريمة
ويعلم أن المرء ليس بخالد
فإن عاش همام لنا فهو رحمة
وإن مات لم تستبدل الأرض مثله

كفاهم إذاها واشتخت ثقلها (١)
إذا عَجَّ منحوت الصفاة بخيلها (٢)
حفاظاً، إذا لم يحم أنشوخيلها (٣)
لكبة موت ليس يؤدى قتلها (٤)
وأن منايا الناس يسعى دليلها
من الله لم تنفس علينا فضولها
لاخذر نصيب أو لأمر يمولها (٥)

واضح أن مديح الأخطال لهما م اتسم بالسمة القبليّة . فالمدح سيد عظيم في قلوبهم
جهد في الحفاظ على كيان قبيلته ودرء الأخطار عنها ، إذ كفاهم نواب الزمان
وأرزاءه بما كان يتحتمل من إنفاق سخبيّ لأسواله في سبيل ما يصلحها ويرد عنها
كل ضيم . هذا إلى تميزه بالفضل والعقل وكرم المحتد وتبيل الخلق وجمال الوجه
وهذه معان مألوفة تعافى عليها العناصر القديمة ويهيمن عليها التقليد .

وقريب من هذا ما قاله الأخطال في مدح سيد آخر من سادات قبيلته ، وهو —
جدار بن عبّاد (٦) :

- (١) شقت : أصبحت شاقة .
(٢) عروفاً : صبور . المرازى : الدائب ، جمع المروءة . ميج : رفع صوته وصاح .
وبخيلها : أي ، بخيل النفس . يقول : هذا الرجل يسطي إذا ضج من التواء البخيل الذي
يعطي اليسير بعد الإلحاف ، ويكون ما يؤخذ منه بمنزلة ما يُنحت من الصخر .
(٣) المرمق : الذي غشيته السانح . الحفاظ والمحافظة : الذب عن المحارم والمنع لها .
يقول : إذا فرّ الرجال عن نسائهم وأسلموهن للسدوء قاتل عنهم وحمام .
(٤) الكبة : بالفتح : الحملة في الحرب والدفعة في القتال .
(٥) يمولها : يفتحها ويثقلها ، عال أمر القوم عوْلاً :
امتدّ وتفاقم .
(٦) شعر الأخطال ٢٧٧/١ - ٢٧٩ .

- لسمرابي لئن قوم أضاءوا
 حمانا حين أعورنا وخفنا
 وأوقد نار مكرمة ومجد
 وأطعم أشهر الشهباء حتى
 فلذ درت بكفك فاحتلبها
 وأمسك عنك بالطرفين حتى
 لنعم أغو الحفاظ لنا جدار^(١)
 وأطعم حين يتبع القطار^(٢)
 ولم تود مع الجشبي نار^(٣)
 تخرج عن مذابته الحسار^(٤)
 ولا تكدر فيهما غرار^(٥)
 تبين أين يصرفك السفار^(٦)

فقد شغس الأخطال مهنا سيادة جدار تشفيها أفاد فيه من فهمه للمعاني المعروفة التي يمدح بها سيد القبيلة ، من : مدة البأس وقوة الحمية في الحرب ، وكثرة المعطاء في السلم . فالمدوح يحمي كيان القبيلة ويحفظ حقيقتها ويذبّ عن معارمها ، كما أنه يبرّ بضعفائها ويرحم فقرائها فيطعمهم في سني القحط والجذب

ولم يكن مديح الأبطال لأشراف قبيلة بكر الربيعة يخرج كثيراً عن معاني مديحه لسادة قبيلة تغلب ، ومن ذلك قوله في معلقة بن هبيرة الشيباني^(٧) :

(١) مفعولاً أضاءوا محذوف ، وتقديره : الحفاظ ، أي الذب عن المعارم والمنع لها عند الحروب . وجدار : المدوح .

(٢) أعورنا : بدا فينا موضع خلل ، والصورة في الحروب خلل يتخوف منه الطمن والقتل . والقطار : رائحة الطبخ والشواء .

(٣) الجشبي : نسبة إلى جشم بن بكر من تغلب .

(٤) الشهباء : السنة الشديدة القحط والجذب . تخرج : انشقر ، وظهر . والحسار : نبات ينبت في القيمان والجكد وله سنبيل ، وهو من دق المريق ، وقفه : خير من رطبه ، وهو يستقل عن الأرض شيئاً قليلاً يشبه الزباد إلا أنه أضخم منه ورقاً .

(٥) الغرار : نهاب اللبن لعدث أو علة بحد دنو الدرة . يقول : إذا درت المكارم بيدك فأمكنك ، فالزمها ولا تقصّر فتقارّفتنقطع ، كما تخار الناقة فينقطع لبنها ، والمعنى :

اغتنم فرصة فعل الخير ما سنحت .

(٦) المسار : أراد الفارة . يقول : أمسك طرفي هذه المكرمة حتى

يكون من أمرك ما أراد الله .

(٧) شعر الأبطال ١٥٧/١ - ١٦٠ .

دَحَ الْمُتَشَرُّ لَا تَسْأَلُ بِمَصْرَعِهِ وَاسْأَلُ بِمَصْقَلَةِ الْبِكْرَى مَا قَعَلَا (١)
 بِمُتْلِفٍ وَمُفِيدٍ لَا يَحْمِلُ رُتُولَا تَهْلِكُهُ النَّفْسُ فِيهَا فَاتُهُ عَذَلَا
 جَزَلُ الْعَطَاءِ وَأَقْوَامُ إِذَا سُئِلُوا يُعْطُونَ نَزْرًا كَمَا تَسْتَوَكِفُ الرُّشَلَا (٢)
 وَفَارِسٍ غَيْرِ وَقَافٍ بَرَايَتِهِ يَوْمَ الْآرِثَةِ حَتَّى يُعْمَلَ الْأَسْلَا (٣)
 ضَعْمُ تَعْلُقِ أَشْنَائِ الدِّيَاتِ بِهِ إِذَا الْمَثُونُ أُمِرَّتْ فَوْقَهُ حَمَلَا (٤)
 وَلَوْ تَكَلَّفَهَا رَغْوُ مَقَاصِلَتِهِ أَوْ ضَيِّقُ الْبَاغِ عَنْ أَمْثَالِهَا سَفَلَا (٥)
 وَقَدْ فَكَّكَتْ عَنِ الْأَسْرِ وَثَاقَهُمْ وَلَيْسَ يَرْجُونَ تَلْجَاءَ وَلَا نَخْلَا (٦)

- (١) المَصْرَعُ: المَجْهولُ الذِي لَمْ يُجَرَّبِ الْأُمُورَ، بَيْنَ الضَّمَارَةِ، وَأَرَادَ بِالْمَصْرَعِ: الْقَمَقَاقَ ابْنَ سَمُورَةَ الذُّهْلِيَّ، وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا وَخُلُقًا وَأَجْوَدَهُمْ كَفًّا. وَكَانَ يَوْمًا جَالِسًا عِنْدَ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ جَلْبِيسِينَ آخَرِينَ، فَوُضِعَ بَيْنَ يَدَيْهِ جَامٌ مُلَوَّنٌ بِفُضَّةٍ مَمْلُوءٌ دَنَانِيرَ، فَصَبَّ الدَّنَانِيرَ فِي حِجْرِ الذِّئْبِ عَنْ يَمِينِهِ وَطَرَحَ الْجَامَ فِي حِجْرِ الذِّئْبِ عَنْ يَسَارِهِ. (شُعْرُ الْأَخْطَلِ ١٥٧/١).
- (٢) النَّزْرُ: الْقَلِيلُ الْقَافِدُ. تَسْتَوَكِفُ: تَسْتَقْطِرُ. وَالرُّشَلَا: الْمَاءُ الْقَلِيلُ يَتَعَلَّبُ مِنَ الصَّخْرِ، يَقْطُرُ قَلِيلًا قَلِيلًا وَلَا يَتَّصِلُ قَطْرُهُ.
- (٣) الْأَسْلُ: الرَّمْحُ.
- (٤) الْأَشْنَاءُ: جَمْعُ شَنْقٍ، وَهُوَ أَنْ يَزِيدَ الرَّجُلُ عَلَى الْمِائَةِ خَمْسًا أَوْ سِتًّا فِي الْحِمَالَةِ لِيَعْلَمَ بِهَا وَفَاوَهُ. أُمِرَّتْ: شُدَّتْ بِالْمِرَارِ وَهُوَ الْحَبْلُ. وَحَمَلٌ: ضَمْنٌ أَدَامًا حَمَلٌ وَكَفَلٌ. يَقُولُ: إِذَا اسْتَوْثِقَ مِنْهُ بِأَنْ يَحْمَلَ السِّتِينَ مِنَ الْإِبِلِ دِيَاتَ حَمَلِهَا وَأَدَاَهَا.
- (٥) سَلَّ: أَرَادَ أَنَّ الْحَمْلَ يَثْقُلُ عَلَى ظَهْرِهِ فَلَا يَطِيقُهُ فَيَسْمَلُ مِنْهُ. وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ سَمَلٌ كُنَايَةٌ عَنِ الْبَخْلِ لِأَنَّ الذِّئْبَ لَا يَرِيدُ إِجَابَةَ مَنْ يَسْأَلُهُ يَسْمَلُ وَيَتَفَنَّنَحُ.
- (٦) الْأَسْرَى: أَرَادَ بِهِمْ أَصْحَابَ الْخُرَيْتِ بْنِ رَاشِدِ النَّصَارَى وَهُمْ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْبَيْتِ ابْنِ الْحَارِثِ بْنِ سَامَةَ بْنِ لَوْحَى، ارْتَدَّوْا أَيَّامَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَحَارَبَهُمْ وَقَتَلَهُمْ وَسَجَّى نِسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ، فَابْتَاعَهُمْ مَصْقَلَةُ الشَّيْبَانِ نَسِيٍّ وَأَعْتَقَهُهُمْ وَلَمْ يَسْتَطِعْ نَسْعَ سَدَادِ الْأَمْوَالِ، فَطَالَبَهُ عَلَى فَهْرَبٍ إِلَى مَعَاوِيَةَ فِي الشَّامِ فَأَمْضَى عَلَى عَقْدِهِ إِيَّاهُمْ. (جُمْهُرَةُ أَنْسَابِ الْعَرَبِ ١٧٣/١، شَرْحُ نَهْجِ الْبَلَاغَةِ ٣٢٩/١). وَنَخْلَا: مَلَجْنَا يُخْتَبَأُ فِيهِ.

وقد تَنَقَّذْتَهُمْ مِنْ قَعَرٍ مُظْلِمَةٍ إذا الجبان رأى أمثالها زَحَلًا (١)
 فَمُفْدَاؤُهُمْ إِذْ يَبْكُونَ كُلَّهُمْ ولا يرون لهم جأها ولا ثقلاً (٢)
 ما فِي مَعْدَفَتِي يَغْنِي رِبَاعَتَهُ إذا يَهُمُّ بِأَمْرِ صَالِحٍ عَسَلًا (٣)
 الرَوَابُّ الْمَائَةُ الْجُرْجُورُ سَائِقُهَا تَنْزُورًا بَيْعٌ مُتَنِيَّةٌ إِذَا انْتَقَلَا (٤)
 إِنْ رَبِيعَةٌ لَنْ تَنْفِكَ صَالِحَتَهُ ما أَخْرَأَ اللَّهُ عَنْ حُوبَاءِ ذِكِّ الْجَلَا (٥)
 أَغْرَلَا يَحْسِبُ الدُّنْيَا تُخَلِّسُهُ ولا يقول لشيءٍ فات ما فَعَلَا

أظهر الشاعر في هذه الأبيات ما كان يتحلى به ممدوحه من كرم فياض، يصدر عن
 نفس طيبة لا تغفل صاحبها ولا تلومه على كثرة ما يبذل . ونوّه بشجاعته في ميدان
 الوغى ، وما يكون مندفعاً . إذ من تقدم نحو العدو حتى يطعنه برمحه . وأثنى على
 قيامه ببعض أعمال البر ما أكسبه شهرة واسعة وذكرًا دائماً ، كحمله الدائم
 لديات القبيلة ، وثافتدائه لأشرف بني ناجية النصارى من علي بن أبي طالب .
 ثم أشار إلى أن صلاح الربيعيّين مرهون بوجوده بينهم .
 ومما يلفت النظر أن الشاعر اهتم في بعض هذه الممانى المدحية ، مثل:
 الكرم ، وتحمل الديات ، بإبراز تفوق الممدوح على غيره في هاتين الفضيلتين ،
 فعلاً . مصقلة جزل وعطاء ، غيره نزر ، ومصقلة أهل لحمل الديات يزيد فيها ولا
 ينقصها أما غيره فلا يكاد يطبقها إذا عُرِضَ عليه .

ورقعة الأقطاف على الممانى ذاتها حين مدح سيدها آخر من سادات بكر وهو عكرمة

- (١) تَنَقَّذْتَهُمْ : أنقذتهم . وزَحَلٌ : تَنَحَّى وَتَأَخَّرَ .
 (٢) قوله : لا يرون لهم جأها ولا ثقلاً أي لا يرون ثقل حوائجهم على أناس لأنه يستخف .
 (٣) الرباعة : الأمر والشأن ، وقيل : هي الحاملة التي تدفع مُنْجَمَةً ، وقيل : هي القبيلة أو
 القيام بأمرها ، ويقال : هو على رباعة قومه أي هو سيدهم ، ويقال : ما في بني
 فلان من يضبط رباعته غير فلان أو أمره وشأنه الذي هو عليه .
 (٤) الجرجور : الكاملة وقيل الكريمة العظام الأجواف . تنزور : تنزوا :
 تشب . يرابيع متنيه : عظم لحمها . وانتقلا :
 سار سيرا سريعاً .
 (٥) الحوباء : النفس .

ابن ربيعي الفيّاض ، كاتب الأمير بشر بن مروان والي العراق لأخيه عبدالملك . وما يُستحسن للأخطال في عكرمة وتَجَلَّى فيه النّزعة القبليّة قوله يمدحه بحمله لديات قبيلة الشاعر ، وكان الأخطال قدم الكوفة بحمالات حملها ليحقق بها دما * قومه ، نأتى عكرمة وسأله حمل الديات فأعماه ووفاه (١) . فقال الأخطال يمدحه بهذه المكرمة ، مثنيا على وفائه لقومه ، ومُنوّثا بجوده وشجاعته (٢) :

إِنَّ ابْنَ رَبِيعٍ كَفَانِي سَبَبُـهُ	ضَمَنَ الْعَدُوَّ وَنَبُوَّةَ الْبُغْـثِ	(٣)
وَإِذَا عَدَلْتُ بِهِ رَجَالًا لَمْ تَجِدْ	فِيضَ الْفِرَاتِ كَرَامِشِ الْأَوْشِ	(٤)
وَإِذَا تَبَوَّعَ لِلْحِمَالَةِ لَمْ يَكُنْ	عِنْدَهَا بِمُنْبَهَرٍ وَلَا سَقَمِ	(٥)
ضَخَمَ سُرَادِقُهُ يَحَارِضُ سَيْبُـهُ	نَفْعَاتِ كُلِّ صَبَا وَكُلِّ شَمَالِ	(٦)
وَإِذَا الْحَثُونُ تَوَّءُ وَكَلَّتْ أَعْنَاقُهَا	فَاحْمِلْ هُنَاكَ عَلَيَّ فَتَى حَمَّالِ	(٧)
لَيْسَتْ عَطِيَّتُهُ إِذَا مَا جِئْتَكِـهُ	نَزْرًا ، وَلَيْسَ سِجَالُهُ كَسَجَالِ	(٨)
فَهُوَ الْجَوَادُ لِمَنْ تَعَرَّضَ سَيْبُـهُ	وَابْنُ الْجَوَادِ وَحَامِلُ الْأَثَالِ	(٩)
وَمُسَوِّمٌ خِرْقُ الْحَتُوفِ تَقْوُدُهُ	لِلطَّمَنِ يَوْمَ كَرِيهَةِ وَقْتَالِ	(١٠)

(١) الأثاني ١٨٧/٧ ، شعر الأخطال ١٤٠/١ .

(٢) شعر الأخطال ١٤٠/١ - ١٤٤ .

(٣) السيب : العطاء * الكثير . النبوة : الجفوة . والبخال : جمع باخل .

(٤) عدلت : قارنت ووازنت . الراشح : الذي يسيل سيلا ضعيفا . والأوشال : جمع وشل .

وهو الماء القليل يتحلب من جبل أو صخر ، يقطر منه قليلا قليلا لا يتصل قطره .

(٥) تبوَّع للحمالة : مد باعه اليها . والمنبهر : المجهد المنقطع النفس .

(٦) السرادق : ستر الدار يمد حول سحنها . والشمال : الريح التي تهب من ناحية القطب .

(٧) تَوَّءُ وكَلَّتْ : من واكل وتقول : واكلت فلانا مواكلة اذا اتكلت عليه واتكل هو عليك . وأعناقها : جماعاتها .

(٨) النزر : القليل التافه . والسجال : جمع سجل وهو الدلو العظيمة فيها ماء .

(٩) تعرَّضَ السيب والسيب : تصد له وطأه .

(١٠) المسوم : المعلم نفسه بعلامة في الحرب ، وتلك العلامة تكون من عهن أو غيره ، يعقدها

في رأسه أو في صدره أو في ناحية فرسه . الخرق : الرايات . والحتوف : جمع

خَتَف ، وهو الموت .

أَقْصَدْتُ قَاتِلَهَا بِعَامِلٍ صَعْدَةٍ وَنَزَلْتُ عِنْدَ تَوَاكُلِ الْأَبْطَالِ (١)
 وَالْخَيْلُ عَابِسَةٌ كَأَنَّ فُرُوجَهَا وَنَحْوُهَا يَنْضَحْنَ بِالْجِرْيَالِ (٢)
 وَالْقَوْمُ تَخْتَلِفُ الْأُسْتُ بَيْنَهُمْ يَسْكُبُونَ بَيْنَ سَوَافِلِ وَعَوَالِي (٣)
 وَلَقَدْ تَرَدَّدَ الْخَيْلُ عَنْ أَهْوَائِهَا وَتَلَفَّ حَدَّ رِجَالِهَا بِرِجَالِ (٤)

فتقريظ الأخطال لمكرمة لا يحمل معاني جديدة ، بل ان التقليد مائل فيسه ، فهو ينوه بعصالة الصربية المجيدة ، من : جود وسخاء ، وحمل للديات ، واقدام وبسالة . الا أن أشد ما يلفت في عرعر الشاعر لهذه المعاني الثلاثة التي قلدها بها ممدوحه ، أنا نراه معنيا بالتعريض بمن لم تتمثل فيهم مثل هذه الصفات ورجه المدح في ذلك إبراز عظمة الممدوح وإظهار تفوقه على الآخرين ، فكرم عكرمة مفرط كفيض الفرات وكرم غيره قليل كراشح الأوشال ، وعكرمة يتصدى لحمل الديات - وإن ثقلت - في تهلك وبشر أما غيره فينوء بثقلها ويتعاس عنها ، وعكرمة يتقدم الى ميدان الوغى ضارباً وطاعناً لأبطال الأعداء بسيفه ورمحه وراداً لهم عن غايتهم في حين يتخاذل غيره عن اقتحام ساحة الحرب جبيناً وفرقاً .

ولعل في هذا ما يلفتنا الى أن مديح الأخطال التغلبي لأشراف قبيلته وقبيلة بكر التي تتمثل بتغلب برباطة العصبة لربيعة يتسم بالنزعة القبلية . فقد اختار مجموعة الفضائل التي كان يشغف بها زعماء القبائل ، ويرونها من شوائد السيادة والمروءة التي تميز شخصياتهم وتضفي عواطفهم القبلية ، من : نباهتهم

(١) أقصدت قاتلها : قتلته في مكانه . العامل : صدر الرمح دون السنان .

الصعدة : القناة المستوية . وتواكل الأبطال : اتكأ بعضهم على بعض .

(٢) فروجها : ما بين قوائمها . ينضحن : يتصبب منها المرق . والجريال : الخمر

الشديدة العمرة ، شبه الدماء بها .

(٣) السوافل : جمع سافلة ، وهي القسم الأسفل من الرمح . والموالي : جمع عالية ،

وهي القسم الأعلى من الرمح .

(٤) يقول : ترد فرسان العدو عما يرغبون ، وتدفع غارتهم ، وتقاوم شدة

أبطالهم ببأس أبطالك .

وضخامة مذانهم ، واهلاكهم أموالهم في العذب على المحتاجين وإغاثة المكروبين ،
وحفاظهم على حقيقتهم وصبرهم على الملهمات وغنائهم في الحرب ونكايتهم في العدو ،
ووفائهم لقومهم في حمل الديار وافتكاك الأسرى . هذا إلى اتصافهم بشرف الأصل
ورجاحة العقول وسماحة الخلق .

وهكذا نرى الأخطال في هذه المدائح مكرراً للمعاني التي تعاقب عليها الشعراء
الجاهليون والإسلاميون ، ومخرجاً لها إخراجاً أعرابياً ضخماً باعتباره الأوزان الطويلة
وباصطناعه الأساليب المتينة وينثره في تضاعفها بعض الصور والتشبيهات البدوية ،
مما يجعلها أكثر محافظة واتصالاً بالقديم (١) .

(١) انظر : الأخطال في سمرته ونفسيته وشمسه ٢١٩ ، الأخطال شاعر بني أمية

١٨٢ و ١٨٤ ، التطور والتجديد في الشعر الأموي ١٦٠ .

(٢) الفخر القبلي

قام الفخر في العصر الجاهلي في الغالب على الاعتزاز بالقبائل استجابة للنظام القبلي في حياة البادية ، وعلى التنفي بالفضائل الاجتماعية التي أقرتها الحياة العربية القديمة كالفرسية وإيثار حياة البادية وقرى الضيف^(١) . وقد استمر شعراء الجزيرة الفراتية في العصر الأموي يمتزجون في قصائدهم بقبائلهم وتبيل أصلها وعراقة نسبها ، ويكشفون عن إيمانهم بجنسها وفضلها على سائر القبائل ، وينافحون بمكارمها ومعامدها .

ومن هنا لا يكاد الدارس يجد اختلافاً بين هذا اللون من الفخر وبين الفخر الموروث عن العصر الجاهلي ، فكلاهما كان قوامه المفاخرة بالأحساب والأنساب والتعني بالمآثر والمناقب ، لأنه كان يصدر عن منبع نفسي واحد هو الروح القبليّة التي رسخت جذورها في نفوس القوم ولم يستطع الإسلام - مع محاربته الشديدة لها - أن يستأصل شأفتها . فظل للكثير من المثل والقيم القديمة مكانتها في نفوس العرب الذين استبدت بهم طبائع البداوة^(٢) .

وبرز شعر الفخر القبلي بجلاله عند ثلاثة من شعراء الجزيرة : اثنان من قبيلة تغلب الرّبيّة وهما الأخطل والقطامي ، وقد هيأ لهما ذلك أن قبيلتهما عرفت بكرم أصلها وحسبها وأن تاريخها حافل منذ الجاهلية بضروب البطولات والفرسية ، فلا غرو أن يستملي شاعرهما بنسبها ويفاغرا بمآثرها^(٣) . وأما الثالث فهو عمرو بن أحمر من قبيلة باهلة القيسية ، التي تركت بعض عثراتها موطنها في نجد واستقرت في الجزيرة مع حركة الفتوح . ويظهر أن الحياة الجديدة التي عاشها ابن أحمر مع قومه في أرياف الجزيرة وما تقوم عليه من استقرار ، لم تكن لتروق نفسه التي تحمّقتها حياة البادية في عراة نجد^(٤) . فاندفع في

(١) تاريخ النقائض ٤٠ و ٤١ ، الفخر والحماة ٩ - ١٠ .

(٢) انظر : المصيبة القبليّة ٥٣٩ .

(٣) المصيبة القبليّة ٥٤٢ ، الفخر والحماة ١١ .

(٤) الأخطل في سيرته ونفسيته وشعره ١٤٠ و ١٣٣ ، نقائض جرير

والأخطل (عبدالمجيد المحتسب) ٨٩ - ٩٠ .

(٥) انظر : مقدمة شعر عمرو بن أحمر ١٥ - ١٦ .

قصائده يمتدّ بحياة قومه الأولى في البيئة الصحراوية وما كانت تقوم عليه من حرية وانطلاق ، وما كان يُميّزها من بؤس وكرم .

وكانت قصائد هؤلاء الشعراء في الفخر تدور على المماني التي دارت عليها قصائد معاصريهم من الشعراء الأمويين وسابقيهم من الشعراء الجالبيين ، فهم يمتزّون بالعشيرة والرهط الأدنين وبالقبيلة الجامعة والبطون التي تتحدّر منها^(١) ، وبمكارمها ومحامدها كالفرسية والشجاعة وإيثار حياة البافية على حياة الحاضرة وقرى الضيف والاحتفاء بد^(٢) .

فأما فخر الشاعر بالبطن أو الرهط الذي ينتمي إليه ، فغالبا ما يكون الدافع إليه ما ينشأ بين بطون القبيلة الواحدة المتجاورة في المكان من منافسات ومشاحنات ، يضطر منها شاعر البطن أن يقوم بما يفرضه عليه واجب الانتماء من المدافعة والردّ على ما يدّعيه البطن الآخر^(٣) . ومن ذلك ما قاله القطامي وهو يفخر بقومه بني مالك على بني زهير ، وكلاهما من تغلب^(٤) :

أبني زهير لامرؤ ذي عِزّة	يتنفس الصُّعداء حين يرانا
وحسبتنا فَنَحْ الكتيبة غدوة	فَيُفَيِّقُونَ وَنَرْجِعُ السَّرْعَانَا ^(٥)
ونحلّ كل حمى نُخْبِرُ أَنَّهُ	مُنَجَّجُ البروق، وما يُحَلِّحَانَا
وإذا تَسَسَّعَتِ الحروب فمالك	منها المطاعن والأشدّ سِنَانَا ^(٦)
ونطيق آمرنا ونجعل أمرنا	لذوي جلا دتنا وحزم قِوَانَا

(١) انظر : العصبية القبلية ٥٥٢ و ٥٦٣ .

(٢) انظر : العصبية القبلية ٥٤٥ و ٥٤٧ ، الفخر والحماسة ٤٥ .

(٣) العصبية القبلية ٥٦٣ .

(٤) ديوان القطامي ٦٣ - ٦٤ .

(٥) نزح : نرمي ، قال ابن منظور : نَزَحَ فِي الْقَوْسِ يَنْزِعُ نَزْعاً :

مَدَّ بِالْوَتَرِ ، وَقِيلَ : جَنَّبَ الْوَتَرَ بِالسَّهْمِ ، وَالنَّزْعَةُ : الرَّمَاةُ ،

وَاحَدُهُمْ نَازِعٌ . (لسان العرب ٨/٣٥١ نزح) . وَيُفَيِّقُونَ : يَفْرَوْنَ .

(٦) تَسَمَّيْتُ : اضْطَرَبْتُ .

يَنْتَابُ الْمُتَأَمِّلُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ إِحْسَاسٌ قَوِيٌّ بِأَن يُزَاعَا كَلَامِيًّا كَانَ قَدْ نَشَبَ بَيْنَ بَنِي زَهِيرٍ وَبَنِي مَالِكٍ ، مِمَّا حَمَلَ الشَّاعِرُ عَلَى الْفَخْرِ بِقَوْمِهِ وَخِصَالِهِمُ الْحَمِيدَةِ مِنَ الشَّجَاعَةِ وَالْقُوَّةِ ، وَالذُّودِ عَنِ الْحَمَى ، وَشِدَّةِ التَّمَسُّكِ ، وَالْخُضُوعِ وَالْإِنْقِيَادِ لِسَادَتِهِمْ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ .

وربما يكون الدافع إلى هذا الفخر ما يأخذ الشاعر من حمية وأنفة وغضب حين يشعر بأنه أُمِينٌ واستُذِلَّ ، فتراه يهيج وينتفضخ غضباً ، ثم يُنْفِثُ عَنْ ذَلِكَ بِمَا تُسَعِّفُهُ بِهِ قَرِيحَتِهِ مِنَ الشَّعْرِ الْفَخْرِيِّ يَرُدُّ بِهِ مَا وَجَّهَ إِلَيْهِ مِنْ إِهَانَةٍ وَيُعِيدُ عَلَيْهِ كِرَامَتَهُ وَاعْتِبَارَهُ . فهاهو ذا الأخطل يقدم البصرة "وقد عمل ديات عن قومه ، فأُتِيَ بَنِي سَدُوسٍ وَفِيهِمْ سُؤِيدُ بْنُ مَنْجُوفٍ وَرَجُلٌ مِنْ بَنِي أُسْدٍ بْنِ هَمَامٍ ، فَسَأَلَهُمْ ، فَقَالَ لَهُ الْأَسْعَدِيُّ : ... لَا لَعَمْرُ اللَّهِ لَا تَرُدُّكَ ، وَإِنَّهُ مِنَّا لِلْمُهَوَّانِ لِأَهْلِ" (١) . فنهض الأخطل يُضَرِّضُ بِالْأَسْعَدِيِّ وَيَفْخَرُ بِقَوْمِهِ الْأَرَاقِمِ الَّذِينَ سَأَلُوهُ الْعَمَلَ عَلَى قِضَاءِ دِيَاتِ حَمَلُوهَا ، فوصفهم بِالْفِرَّةِ وَالْمُنْعَةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالظَّفَرِ فِي مِيدَانِ الْوَعْيِ . قَالَ (٢) :

مَتَى آتَى الْأَرَاقِمَ لَا يَضْرُنِي نَبِيبُ الْأَسْعَدِيِّ وَمَا يَقُولُ (٣)
رَوَابٍ مِنْ بَنِي جُشَمٍ بِنَ كَرٍ تَصَدَّعَ عَنْ مَنَاكِههَا السَّيُولُ (٤)

(١) أنساب الأشراف، ١٧١/٥، الموشح ١٣٤ - ١٣٥ . وسدوس : هو سدوس بن شيبان ابن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل (جمهرة أنساب العرب ٣١٧/٢ ، نهاية الأرب ٣٠٩) . وسويد : هو سويد بن منجوف بن ثور بن عُفَيْرِ بْنِ زَهِيرٍ بْنِ كَعْبٍ بْنِ سَدُوسٍ (جمهرة النسب ٢١٣/١ ، جمهرة أنساب العرب ٣١٨/٢) .

(٢) شعر الأخطل، ٢٧٤/١ - ٢٧٦ .

(٣) النَبِيبُ : نَبِيبُ التَّيْسِ ، يُقَالُ : نَبِيبُ التَّيْسِ يَنْبُتُ نَبَاتًا وَنَبِيبًا وَنُبَابًا ، وَنَبَذَ : صَاحَ عِنْدَ الْهِيَاجِ .

(٥) أَرَادَ بِقَوْلِهِ : رَوَابٍ ، أَرَأَيْتُمْ كَالرَّوَابِيبِ
الْبَامَخَةِ لَا تَعْلُوهُمَا السَّيُولُ . وَتَصَدَّعَ : تَتَفَرَّقُ وَتَتَفَرَّقُ .

وشهباء المنافر قارعتنا	مُلممة يلود بها الفُلُول (١)
مُسومة كأنَّ مُحافِظيها	تُصدعُ بينهم كأسُ شَمُولِ (٢)
رَكودٍ لم تكد عنا رَحاهَا	ولا مَرَجَى حُمَيَّاهَا تَزُولِ (٣)
فَدافَها بارِذُ اللّهِ عَنَّا	شبابُ الحُدَى مِنَّا والكُهُولِ
وروقُ المِشرَفَةِ في حديد	لَهَنَ ورائَهُ خَلَقَتَهُ صَلي (٤)

ولم يكن شعراء تغلب وهم يفخرون بمشائرها ليففلوا عن الفخر ببطلون قبيلتهم
بكر الخي يجمعهم بها المصيبة الربمية ، ومن هنا وجدنا القطامي وهو يفخر
بأمجاد تغلب ويباهي برفعتها سائر القبائل تنسحب أنيال فخره على شيبان البكرية،

(١) الشهباء : الكتيبة البيضاء لما فيها من بياض السلاح والحديد . المنافر :
جمع المنفر وهو خلق يجعلها الرجل أسفل البيضة ، تسبق على العنق فتقيده ،
وربما كان المنفر مثل القلنسوة غير أنها أوسع ، يلقيها الرجل على رأسه فتبلغ
الدرع ثم تلبس البيضة فوقها ، فذلك المنفر يرفل على الماتقين . قارعتنا :
ضاربتنا بالسيوف . ملممة : مجتمعة مستديرة . والفلول : جمع فل وهو ما
تفرق من المقاتلين وهرب . والفلول تلوذ بها مما يصيبها من الحرب .

(٢) المسومة : المصلحة في الحرب لشهرتها . المنافلون : القادة الذين
يحافظون عليها . تصدع : تفرق وتوزع ، فكأنهم سكارى مما هم فيه من
الكرب في الحرب . والشمول : الخمر الباردة السريعة الأثر بالرأس .

(٣) الركود : الدائمة الثابتة . رحاها : حومتها . مراحاها : مثبتتها الذي
تقيم به ، ومرجى الحرب : المعركة . وحماها : شدتها وحدتها .

(٤) المشرقية : السيوف ، منسوبة إلى المشارف وهي قري
من أرض اليمام وقيل من أرض الشام وقيل من أرض العرب
تسكن من الريف . والحلقية : الدروع ، يميني :
إذا وقع ضرب السيوف على الدروع يسمع لها عليل .

التي سارت بعدما رجالها صفحة مشرقة في تاريخ العرب بما أشرزته من نصر يوم
التحمت مع الفرس في وقعة ذي قار المشهورة . قال (١) :

وتغلب حيي ووشى المجد وائلاً مراسلها حشد ، مرافدا غزر (٢)
وكنا إذا نابت من الدهر نوبة كفتها الهوادي من بني جشم الزهر (٣)
ولو ثوب الداعي بشيبان زعزعت رماح وجاشت من جوانبها القدر (٤)
لجيمية خرساء أو ثعلبية يحشن حنياء المساعة الزهر (٥)
هم يوم ذي قار أناخوا وجالدوا كئائب كسرى بعدما وقد الجمر
وظلت بنات الحنينا جسدا تطلي اليهم ، وقد طابت بأيديهم الخمر (٦)

وكشف الأطلال عن مدة التماسك والتعاقد بين بكر وتغلب ، فقد دانت عصبيتها
في ربيعة تدفع أبناء القبيلتين إلى التناصر والتآزر في الأوقات التي تستدعي
ذلك ، كأن تواجه إحدى القبيلتين غارا يتهددها . وقد رأينا كيف وقفت بطلون بكر
في الجزيرة إلى جانب تغلب في حربها مع قيس ، فلا غرو أن نسمع الأطلال يفاغـر

(١) ديوان القطامي ١٧٤ - ١٧٥ .

(٢) الرشد : السلاء . وأراد بقوله : مراسلها حشد مرافدا غزر ، أي أنهم

شجعان كرماء .

(٣) الهوادي : الأوائل الذين يتقدمون غيرهم ، جمع الهادية : وهي من كل شيء

أوله وما تقدم منه . والزهر : البيض الوجه ، كناية عن الشرف .

(٤) ثوب الداعي تشويبا إذا دعا مرة بعد أخرى ، ومنه تشويب المؤذن أربعاً وم

للصلاة ، وأصله أن الرجل إذا جاء مسترخياً لون بشوبه ليرى ويشتهر . وزعزعت :

تحركت واضطربت .

(٥) لجيمية : نسبة إلى لبيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل (جمهرة أنساب

العرب ٣٠٩/٢) . ثعلبية : نسبة إلى ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي

ابن بكر (جمهرة أنساب العرب ٣٩٤/٢) ، وأراد كتيبة من بني لبيم

وبني ثعلبة البكرين . حنياء : شدتها . المساعة : الذين يوقدون الحرب

ويؤزثونها . والزهر : جمع الأزهر وهو الرجل الأبيض المشرق الوجه .

(٦) الحمن : لقب ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر (جمهرة أنساب العرب

٣١٤/٢) .

إذا ، لم يقف شعر الفخر عند شعرا* تطلب عند الفخر بالمصيبة الضيقة
التي تجمع بين أفراد البطن الواحد أو بين أفراد القبيلة الواحدة في بطونها
المتعددة ، بل كان الشاعر يسمو بشعوره المصبي على هذه الرابطة الضيقة ،
فيفاخر بالقبيلة الجامعة (١) . ومن هنا وجدنا الأخطل يمتد بمآثر ربيعة وقدرتها
على التكافل والتضامن في مواجهة الأخطار ، وحماية الجار ، وإطعام الضيف في
الجذب ، وشدة البلاء يوم اللقاء . قال (٢) :

أعاذل ، نعم قوم الحرب قومي	إذا نزل الملهمات الكبار (٣)
ربيعة حين تختلف الصوالي	وما بي إن مدحتهم ابتهار (٤)
فذلنا الناس أن الجار فينا	يجبره وأى جار يستجار ؟
وأنا نطعم الأضياف قدماً	إذا العذراء أخرجها القطار (٥)
وأنا الضاربون إذا التقينا	كباش القوم قد علمت نيزار (٦)
ندافع في الكريهة عن بنينا	ونعلم أن جبن القوم عار (٧)
بضرب لا كفاء له وطعن	كأفواه المزداد له شرار (٨)

وهو فخر يبدو قوياً ، ينهج فيه الأخطل نهج عمرو بن كلثوم التنبلي في معلقته
المشهورة ، بحيث نراه لا يتخسر رُسعاً في نشر مناقب تطلب والمباهاة بمآثرهم التي
عرفت عنهم منذ الجاهلية .

(١) انظر : المصيبة القبلية ٥٥٢ .

(٢) شعر الأخطل ٤٧٣/٢ - ٤٧٥ .

(٣) الملهمات : جمع الملمة وهي النازلة الشديدة من شدائد الدهر ونوازل الدنيا .

(٤) تختلف : تمتدج وتشابك . الصوالي : جمع العالية وهي سنان الرمح . والابتهار :

ادعاء الشيء كذباً .

(٥) القطار : رائحة الشواء والطبخ .

(٦) كباش القوم : جمع كبش وهو سيد القوم ورئيسهم وناميهم .

(٧) الكريهة : الشدة في الحرب .

(٨) المزداد : جمع المزايدة وهي التلويس (القربلة)

التي يحمل فيها المــ ، تكون من جليدين تُفأَم بثالـ بينهما

لتتسح ، سميت بذلك لمكان الريادة .

وارتفع القطامي بشعوره العصبي كثيراً وهو يفخر بالمصيبة الربيعية محسني رأيناه يفاخر بالجذم الذي يضم ربيعة وغيرها من قبائل الهمال المدناية وهو نزار ، فأما د بقيس عيلان ويخندف (١) . قال (٢) :

ربيعه آباي الألي اقتسموا القلي	إذا عُدَّ باق من زمان وسال (٣)
وتطلب بعرو طم سَيْلاً بأبعر	فلم يستطع تيارهن المجاذف (٤)
وبكر وعبد القيس إختنا مساً	كفتنا لكيزمنهم والحنائف (٥)
وعيلان منا يوم كل كريهة	وتحلب غزراً يوم تدعى الخناذف (٥)
ومن خندف الداعي الرسول إلى الهدى	ومنا الإمام والنجوم المواكف (٦)
أخوه الذر لا تملك الجفن نفسه	وترفض عندا المحفظات الكتائف (٧)
فدعنا الزمام القائد المتهديهم	ومن غيرنا المولى التببيع المحالف (٨)
إذا اصطق رأما نأحللنا بباذخ	بركنيته تسعدا التوالي الزعانف (٩)

(١) انظر: العصبية القبلية ٣٨٥ و ٥٥٢ .

(٢) ديوان القطامي ٥٤ - ٥٦ .

(٣) السالف : المتقدم .

(٤) لكيز : هو لكيز بن أفصى بن عبد القيس بن أفصى بن دعي بن جديلة بن أسد ابن ربيعة بن نزار (جمهرة أنساب العرب ٢/٢٩٥) . والحنائف : أراد بني حنيفة البكريين .

(٥) غزر : مصدر غزُرَ بمعنى كثر ، يقال : غزرت الفاقة والشاة أي كثر لبنها ، ويقال : أغزر القوم أي غزرت إبلهم وشاءهم وكثرت ألبانها .

(٦) المواكف : السقيمة بمكانها الملازمة له .

(٧) الحصر : الرقة . ترفض : تتفرق وتذهب . المحفظات : المغضبات . والكتائف : الأثقاد ، واحدها كتيفة وهي السخيمة والحقد والعدوة . يقول : أخوه هو الذي إذا رآك مظلوماً رَقَّ لك ونهب حقدته .

(٨) التببيع : التابع .

(٩) رأسانا : أي ربيعة ومضر . الباذخ والشامخ : الجبل العالي . والزعانف : ما تغرق من أسافل القميص ، يشبه به أرذال الناس .

وقد بقيت لفنائل البادية التي عهدناها في المجتمع القبلي الجاهلي منزلتها في نفوس الكثيرين من أبناء قبيلة تغلب، ممن كانوا ينتجعون بوادي الجزيرة ويبرءون حياتها. ومن هنا وجدنا شعراءهم يفتخرون بالفنائل المتصلة بحياة الصвраء كالاعتداد بالفروسية وتفضيل حياة البادية على حياة العضر وإغاثة الملهوف وقرى الضيف، على الرغم من ترددهم على الحواضر ومنازلاتهم لأهلها (١) صنيع الأفعال الذي يميل لفضيلة الفروسية المكان الأول في فخره بقومه. قال (٢):

إِنَّا لَنَدُّ تَادُ الْجِيَادِ عَلَى الْوَجَى	نحو العدى بمساعر أبطال (٣)
فِي كُلِّ ذِي لَجَبٍ كَأَنَّ زُهْشَاءَهُ	ليل تمرر أو رعان جبال (٤)
تَدْمُ يَتَلَّ بِهَ الْفَضَاءُ مَعْضَلًا	كالطود أرعن مجفل الأثقال (٥)
مَابِينَ أَوَّلِهِ وَآخِرَ جَمْعِهِ	يوم يسار و ليلة البقال (٦)
مَجْرَ تَطَلَّ الْبُلُقُ فِي حَافَاتِهِ	ينشدن بعد تلمس وسوء الو (٧)

(١) انظر: العصبية القبلية ٥٤٥.

(٢) شعر الأخطال ٦٩٤/٢ - ٦٩٦.

(٣) الوجى: التمب والحفى. والمساعر: جمع مسعرو وهو الفارس الذي يوقد نار الحرب.

(٤) اللجَب: الصوت والصياح والجلبة، وأراد بذى لجب جيشا عظيما يسمع له جلبة وصياح. الزها: العدد والمقدار. تعرض: أبدى عرضه وطبق الأرض. ورعان:

جمع رعن وهو أنف الجبل. شبه الجيش بالليل إذا انبسط وامتد على وجه الأرض، وبالجبال المستطيلة.

(٥) الدم: العدد الكثير. المعطل: الضيق. الطود: الجبل العظيم. المجفل: الأثقال: الكثير الأثقال، يلقي بعضها على بعض. وبقيش أرعن: مضطرب لكثرة له فلول يشبه رعن الجبل.

(٦) البقال: صاحب البقال، وأراد صاحب البريد. وليلة البقال: أراد الليلة التي يسوق فيها البقال دابته، فإن المسافات التي يتنقلها خلال ذلك تضيق عن استيعاب هذا الجيش.

(٧) المعبر: الجيش العظيم المجتبع. البلق: الخيل فيها سواد وبياض والمعجلة إلى الفخذين. وقوله: "ينشدن بعد تلمس وسوء الو" وصف للخيال بالشدّة، كأنها بصهيلها تلمس العدو وتسال عنه وتطالبه.

فقد كانوا يسبرون إلى أعدائهم وهم يمتطون صهوات جيادهم المحبلة في جموعهم
الكثيرة كأنهم جيش جزار ، يطبق الأرض ويضيق عنه الفضاء على سبته .
ثم وصف هذه الجياد التي كانت تبلفهم إلى أعدائهم ، فقال : — : إنها
طويلة مشرفة الأثران ، سريعة العدو ، غائرة الصيون لكثرة أسفارها وجولانها في
ميادين الوغى ، ضامرة قوية ، كريمة أعدت للحرب ، ولم يبخل عليها بطعام أو
شراب :

ونسير بالثفر المخوف فيجابه سلاهب جرد المتون طوال (١)
غوص كأن شكيمته مملكت بقنا ردينة أو جذوع أوأوال (٢)
نقتاد كل طيرة رأد الضحى وعنان كل مجلجل صهال (٣)
من كل أنهم كالفراب سواده طرف وأحمر كالأديم نسال (٤)
يسقى الربيع بضان غير مضرّد مخز العشار وقارس الأشوال (٥)

(١) الفجاج : جمع فج وهو الطريق الواسع الواضح بين جبلين . السلاهب : جمع سلهب
وهو الفرس الطويل الجسم . الجرد : جمع أجرد وهو الخفيف الشعر . والمتون : جمع
المتن وهو الظهر .

(٢) غوص : جمع أغوص وهو الفائز المينين من طول السفر . المكيم : جمع الشكيمة
وهي حديدة اللجام المعترضة في فم الفرس . ردينة : اسم امرأة كانت تقوّم
الرماح هي وزوجها الشهير بقط مجر (لسان العرب ١٢٨/١٣ ردن) . وأوال :
جزيرة يحيط بها البحر بناحية البحرين ، فيها نخل كثير ، شبه الخيل في
صورها بالرماح أو بجذوع النخل .

(٣) الطمرة : الفرس الطويلة القوائم الخفيفة . رأد الضحى : ارتفاع حين يعلو
النهار ، أو المجد أن يمضي من النهار خمس . والمجلجل : الجواد البعيد
الصوت .

(٤) الأنهم : الأسود . الطرف : الكريم من الخيل . الأديم : الجلد المدبوغ الأحمر .
ونسال : سريع الجري .

(٥) قوله : الربيع ، أي في أيام الربيع . المضرّد : الذي يسقى دونا لري . المحض : الخالص
من اللبن . العشار : جمع عشار وهي الناقة مضى على حملها عشرة أشهر ولما تضح . القارس :
التامض من ألبان الإبل خاصة . والأشوال : جمع شول وهي الناقة قل لبنها بمد
... نتاجها بسبعة أشهر . يقول : نعدّخيلنا للحرب فلا نبخل عليها باللبن .

وإذا ما حان وقت الفارة بأن كرمها وظهرت قوتها وساعدها ضموها، فتراها تنصب في عدوها كأنها السهم في سرعتة وخفته . وإذا ما طال جريها فإن أدنى ما يكون من سرعتها أنها تمشي مشية الأسد أو الكلب في سرعتها وخفتها، فتخالها لا تظأ الأرض كأنها تمشي على الشوك، وتحسبها وهي تخرج من عيار النرب عقباناً طارت في يوم غيم ومطر :

- (١) ودنا المَغارُ لها فهنَّ شَوَازِبُ خَلَلِ المَطيِّ كأنهنَّ مَفالـ
(٢) يَمشِينَ بِظَالِ الوَجِيفِ عَلَى الوَجَا نحو العِدو كمشية الرِّثِيَالِ
(٣) أوكال لِكَلَابٍ عَلَى الهِرَاسِ يَطْأُ نَهْ أومشيهنَّ يَطْأُنْ شوكَ السِيَالِ
(٤) يخرجن من قطع العجاج كأنهنَّ عقبان يوم تَفِيْمٌ وِلَالِـ

وخرجت من معترك الحرب بعد أن غادرت الأعداء قتلى، ظلت جماعات الطير تحجل بين جثثهم حتى ملأت حواصلها من عيونهم وأطايب أشلائهم، وجعلت حيثهم وأنعامهم وأموالهم نهباً مُقسماً بين الفرسان :

- (٥) ومكّر معترك تركن حُما تَسْهُه للطيير بين سَوَافِلِ وَعَوَالِي
(٦) صرعى تظل الطير تحجل بينها يَنْقُرْنَ أَعْيُنَهَا مع الأَوَالِ
(٧) كم من أناس قد عَوَيْنَ نَهَا بَهُم وَأَفَانِ من نَمٍ وَهَيَّ حَلَا لـ

(١) المغار: أراد الفارة في الحرب . الشوازب : جمع الشارب وهو الضامر . خلل المطي : بين المطي . والمفالي : جمع المفالة وهي السهم . شبه الخيل في الفارة بالسهم فسي الضمور والسرعة .

(٢) الوجيف : السير السريع . الوجا : التعب والحفى . والرثيال : الأسد .

(٣) الهراس : شوك كأنه حسك ، الواحدة هراسة ، وقيل : شبر كبير الشوك . والسيال : شجر له شوك أبيض وهو من العضاة .

(٤) العجاج : الضار الثائر في الحرب . والطلال : جمع طل وهو المطر الخفيف الضعيف .

(٥) السوافل : جمع السافلة وهي القسم الأسفل من الرمح . والعوالي : جمع العالية وهي القسم الأعلى من الرمح .

(٦) تعجل : تمشي مُتربِّطة متبخترة . والأوال : جمع وصل وهو المضو على حدة .

(٧) النهاب : الفنيمة المنتهية . أفان النسم : جعلتها فيئاً أي غنيمة . والحي الحلال : النزول ، وفيهم كثرة .

شُمت النواصي عادة من فعلها سفكُ الدماء وقسمةُ الأموال (١)
فتركَنُ قدْقُضَيْن من حمَمٍ لوعى وطراً وجُلُنَ هناك كلَّ مجال (٢)

ويُتَّحَن أن الأخطال يفخر فخراً حماسياً عارماً، يصوِّر فيه فروسية قومه الذين خلُقوا للنزال ومحَقُّ الأعداء واحتياز الأسلاب. مظهرها شدة عنايتهم بخيلهم التي يستطونها إلى أعدائهم إذ يخصونها بأفضل الفداء، واصفاً لها بالصفات التي تبرز فيها الصفة البهلوية الملحمية، فهي تحدو إلى القتال مزهوة كالأسود، عافية مرتدية لجلال الصرق، غائضة لظمار الموت، تاركة الأعداء قتلى تنهشهم الطيور الجارحة. وليس هذا بعيداً من الأخطال، فهو ابن قبيلة عُرُفت بين القبائل بالبأس والبلاء، واعتادت اصطلاحاً المصاركة الحامية حتى أصبحت تتمشق اللقاء في الحروب. وبذلك كانت هذه الأبيات تلخص تاريخ تظلب وبطولتها منذ الجاهلية.

كذلك نجد القطامي التفلبي يفاغر بإيثار قومه لعناية البادية على حياة الحضر، ويبدو تعلّقهم بمظاهر الحياة المرمية القديمة من غزو وإغارة على القبائل المجاورة من أجل النهب والسلب. قال (٣):

ومن تكن الحضارة أعجبتُه فأوَّ أناس يادية ترانسا (٤)
ومن ربط الجحاش فإنَّ فينا قنا سُلُبا وأغراسا حسانا (٥)
وكنَّ إذا أغرنَّ على حناب وأعوزهنَّ نهب حيث كاننا (٦)

(١) الشمت: جمع الشمت وهو المفجر الرأس المتلبد الشعر. والنواصي: جمع النّاعة وهي قصاص الشعر في مقدّم الرأس.

(٢) الحمص: الشدة. والوطر: الحاجة.

(٣) ديوان القطامي ٧٦ - ٧٧.

(٤) الحضارة: خلافة البادية وهي المدن والقرى والريف.

(٥) سُلُب: طوال، يقال: رمح سُلُب أي طويل، وكذلك الرجل.

(٦) كن: يعني الخيول، أنزلها منزلة أربابها وهم المنيرون. حناب:

بطن من قبيلة كلب (جمهرة أنساب العرب ٥٥٦/٢ - ٥٥٧). النهب: سلب.

يُنْتَهَب، ورواية الديوان: "وأعوزهنَّ كَوَز" ولا معنى لها، أما الرواية

المثبتة فهي رواية التبريزي في شرح الحماسة ١٨٤/١.

أغرّن من الضّباب على حلال وضبة ، إنّه من حان حانسا (١)
وأحياناً على بكر أخينسا إذا ما لم نجد إلاّ أخانسا (٢)

فهم رجال بادية وأرباب غزو وإغارة ، إذا ضاقت بهم سبل العيش وجدوا بين أيديهم ما يمتدّون عليه في كسب أرزاقهم من الأقراس الجياد والرماح التي تسلب النفوس فيغيرون على القبائل في أحيائها النائية ويمودون بالضيعة ، فإنّ أعوزتهم الأحياء البعيدة عطفوا على إخوانهم المجاورين لهم . أما أهل النضر والأريسات ممن يقتنون العُمر ويميشون منها فليس في حياتهم ما يروق قوم الشاعر .

وينبجى شمر عمرو بن أحمر بأنّه كان يفضل الحياة البدوية في الصحراء على حياة أهل الريف في قراهم وضياعهم ، ولهذا رأيناه يحنّ إلى بلاد قومه في نجد حيث البيئة الصراوية والحياة الرعوية . (٣) يقول (٤) :
لقد ظلمت قيس فألقت بيوتها بسنجار فالأجراع أجراع دوسر (٥)

(١) الضّباب : يشتمل على ضبة وضبيب وحسل وحسيل . والحجّ الطلول : الذين يكونون في مكان واحد (شرح الحماسة ١٨٢/١) . وضبة : هو ضبة بن أد بن طابخسة ابن الياس بن مضر بن نزار (جمهرة أنساب العرب ٤٨٠/٢) . وقوله : " إنه من حان حانسا " أو أنه من هلك بفزونا فقد هلك .

(٢) بكر : هو بكر بن وائل .

(٣) مقدمة شمر عمرو بن أحمر ١٥ - ١٦ .

(٤) شمر عمرو بن أحمر ٨٢ - ٨٣ . ومن المعروف أنّ ابن أحمر ترك بلاده في نجد واشترك في فتوح الشام ، ثم استقرّ مع عشيرته في الجزيرة (مقدمة شمر عمرو ابن أحمر ١٥) . وانظر ترجمته : طبقات فحول الشعراء ٥٧١/٢ ، الشمر والشعراء ٣٥٦/١ و ٣٥٩ ، المصارع ٣٧ ، المؤتلف والمختلف ٤٤ ، وشمر عمرو بن أحمر ٩ - ١٠ .

(٥) سنجار ودوسر : مدينة وقريّة في الجزيرة . والأجراع : جمع الجنّ وهو منعطف الوادي .

وقد كان في الأظهار أورمل فارز
 غنى عن مياه بالمديبر ميرة
 أبعد خلول بالركاء، وجامل
 تبدلت اصطبلاً وتلاً وجيرة
 وبستان ذي ثورين لا لين عنده
 أوالدوم لما أن دنا فتَهَشَّرَ (١)
 وعن خرب بُنيانه قد تَكَشَّرَ (٢)
 غدا سارحاً من حولنا وتَنَشَّرَ (٣)
 وديكاً إذا ما آنس الفجر فَرَفَّرَ (٤)
 إذا ما طفى ناطوره وتَنَشَّمَر (٥)

وعلى نحو ما يتضح في قوله مؤثراً حياة الصحراء على غيرها ، ولأشياء زعماء
 قومه الذين أشاروا بالانتقال من نجد إلى الجزيرة : (٦)
 لِيَهْنَكُمْ أَنَا نَزَلْنَا بِبِلْدَةِ كَلَّا مَلَوْنَهَا مُبْشًى غَيْرَ مَنْصَمٍ (٧)
 تَمَّيَّ بِأَكْنَافِ الْبَلِيخِ نَسَاوْنَا أَرَامَلٍ يَسْتَعْظِمُن بِالْكَفِّ وَالْقَمِّ

(١) أظهار: من حائل (معجم البلدان ٢١٦/١) ، وهي قرية من نجران (معجم البلدان ٢٢٩/٤) . وفارز: هي عند ياقوت بتقديم الزاء المكسورة على الراء ، قال:
 "اسم رملية في أرض خثعم على سمت اليمامة ... وأخاف أن يكون بتقديم الراء
 على الزاء لأن الفارز طريقة تأخذ في رملة في دكاك لينة كأنها صدع من
 الأرض منقاد طويل خلقة ، حذاه الأزهر عن الليث (معجم البلدان ٢٢٩/٤) .
 والدوم: شجر المقل (معجم البلدان ٤٨٧/٢) .

(٢) المديبر: موضع في الجزيرة .

(٣) الركاء: واد بسرة نجد (معجم الاستعجم ٦٦٨) . والجامل: جماعة من الإبل
 تقع على الذكور والإناث ، فإذا قلت: الجمال والجمالة ففي الذكور خاصة
 (لسان العرب ١٧٤/١١ جمل) .

(٤) فرفر: صاح ، والفرفرة: الصياح .

(٥) تَنَشَّمَر: تَنَشَّشَر .

(٦) شعر عمرو بن أحمر ١٥٣ - ١٥٤ .

(٧) الملوآن: الليل والنهار .

نَقَائِذُ بَرَسَامٍ وَحُمَى وَحَصْبَةٌ وجوع وطاعون ونَقَرٌ وَمَغْرَمٌ (١)
أَرَى نَاقَتِي حَنَّتْ بَلِيلَ وَشَاقَهَا غِنَاءُ كَنْزِ الْأَعْجَمِ الْمُتَوَائِمِ (٢)

ومما يتصل بحياة البداوة من فضائل فاخر بها شعرا * تغلب قرو الضيف
وحسن استقباله ، ومن ذلك قول الأطلال من قصيدة : (٣)

وَمُسْتَنْبِحٌ بَعْدَ الْهُدُوءِ نَمُوْتُهُ بصوتي فاستعشى بينضو تَزَعْمًا (٤)
فَجَاءَ وَقَدْبَلَّتْ عَلَيْهِ ثِيَابَهُ سَجَابَةُ مُوَدٍّ مِنَ اللَّيْلِ أَظْلَمًا
وَفِي لَيْلَةٍ لَا يَنْبِجُ الْكَلْبُ ضَيْفَهَا لَوْذَا نُبِّهَ الْمَبْلُودُ فِيهَا تَضَمُّنًا (٥)
فَلَمَّا أَنَا تَهَلَّلْنَا النَّارَ وَاصْطَلَى أَضَاءُ تَجَفَّافٍ مَوْحِشًا قَدْ تَهَشَّمَا (٦)

(١) يقال : هم نقائذ بومس أي استنقذوا منه . البرسام : الموم وهي علة معروفة .
والنقر : قال الزبيدي : " النقر : ذباب أسود ... ونقرت الشاة نقرأ أصابتها
النقرة كهزة وهي داء يصيب الفم والبقر في أرجلها فترم منه بطون أفئانها
وتظال ، وقيل : هو التواء العرقوبين . وقال ابن السكيت : داء يأخذ المسزى
في حوافرها وفي أفئانها فيلتمس في موضعه فيرو كأنه ورم فيكوى (تساج
البروس ٥٨١/٣ نقر) .

(٢) الأعجم : الذي لا يبين . والمتوائم : المتناسق المتناغم الذي يجري على
وتيرة واحدة .

(٣) شعر الأطلال ٥٩٩/٢ - ٦٠٠ .

(٤) المستنبح : الرجل إذا كان في مضلة أخرج صوته على مثل نباح الكلب ليسمعه
الكلب فيتوقفه كلباً فينبج ، فيستدل بنباحه فيمتهدي . الهدوء : بعد هزيع من
الليل . استعشى : من عشايمه إذا أتى ناراً للضيافة إذ رآها في الليل
فقدمها مستنبها . النضو : البعير المهزول . وتزعَّم : ردد رغاءه في
لهازمه ، والتزعَّم : صوت ضعيف .

(٥) قوله : وفي ليلة لا ينبج الكلب ضيفها ، أراد لا ينبج الكلب من شدة البرد .

المبلود : الثقل البليد . والتضم : الكلام لغير المفهوم الذي لا يبين .

(٦) المهج : الجافي ، وقيل الجاني الذي استرخى بطنه . الموحش : الجشاش .
وتهشم : يبس ، أراد أن جلده يبس على عظامه .

فَنَبَيْتُ سَعْدًا بَعْدَ نَوْمٍ لَطَارِقٍ أَتَانَا ضَيْلًا صَوْتُهُ حِينَ سَلَمَا (١)
فَقُلْتُ لَهُمْ : مَا تَوَانِخِيرَةُ مَالِكٍ وَإِنْ كَانَ قَدْ لَاقَى لَبُوسًا وَمَطْعَمًا (٢)
فَقَالَ : أَلَا تَجْشُمُوهَا وَإِنَّمَا تَنْدَفِعُ دُونَ الْمُكَرَّعَاتِ لِتُجْشَمَا (٣)
وَإِنِّي لِحَلَالٍ بِي الْحَقِّ أَتَقِي إِذَا نَزَلَ الْأَشْيَاءُ أَنْ أَتَجَهَّمَا (٤)
إِذَا لَمْ تَذُدْ أَلْبَانَهَا عَنْ لَحُومِهَا حَلَبْنَا لَهُمْ مِنْهَا بِأَسْيَا فَنَادَمَا (٥)

يفاجر الخطال في هذه الأبيات باحتفائه بضيفه ، ذلك الأعرابي المسكين الذو ضل طريقه في ليلة مطيرة شديدة البرد ، وراح يبحث عن مكان يأوي إليه ويقضي فيه ليلته . وقد هداه تفكيره السانج إلى طريقة تمكنه من الاستدلال على بعض المضارب في البادية ، فأخذ ينبج ليستهدى بنباح الكلاب إلى مكان الحي . فلما تناهى نباهه إلى أسمع الشاعر دعاه إلى منزله وأوقد له نارا ونبه ولده سعداً وأهاب به أن يقوم على خدمته . ثم طلب إلى أهل بيته أن يأتوه بالناقة التي ادخرها لابنهم الأكبر مالك ، فلما أحس الضيف بعزم مستضيفه على ذبح الناقة أظهر أن هذا شيء كثير ، مع أنه كان يرغب حقيقة في أن تهدى له . وفي البيتين الأخيرين أكد الشاعر قيامه بحق الضيافة وفاخر بذلك .

والأبيات تعيد لنا أجواء الفخر في شعر حاتم الطائي ، ذلك الجاهلي الذي اشتهر باحتفاله بضيوفه وإكرامه لهم ، حتى إنه كان إذا جنّ الليل واشتدّ البرد أعزّ إلى غلامه أن يوقد النار في يفاع من الأرض لينظر إليها من أضله الساريسق وظل ساهراً يرقب الضيوف ويرشدكم إليه بصوته وناره حتى يأووا إلى منزله ، فيكرمهم بأعز ما لديه من ماله ومال أمه . (٦)

(١) سعد : غلام للخطال ، نبهه من نومه .

(٢) مالك : ابن الخطل ، وبه كان يكنى . ونخيره : ناقة ادخرها له .

(٣) لا تجشموها : لا تتكلفوا أن تجيئوا بها ، والتجشم : التكلف . والمكرعات :

الإبل تدخل رؤوسها إلى الصلاء فتسود أعناقها .

(٤) الحق : أراد حق الضيافة . وتجهّم : استقبل بوجه كره .

(٥) يقول : وإن لم تدفع ألبان هذه الإبل عن لحومها نحرنا .

(٦) أنظر : ديوان حاتم ٢٤٦ و ٢٥٠ و ٢٧١ و ٣٠٠ مثلاً . وانظر : مختارات من حاتم

٥ و ٣٠ ، الشعر الجاهلي للنويهي ٢٤٠/١ .

ويبدو الأخطل في هذه الأبيات مقلداً لما تم في قصيدته اللامية التي سرد فيها قصة هذا الضيف الضيف اليائس الذي ضلَّ السبيل وضاقت به سبل النجاة ليلاً بعد أن أخلد الناس للنوم ، وشرح يَصَوِّت ليستدلَّ على مكان الحي . فلما سمع الشاعر صوته أوقد ناراً وأخذ يناديه حتى اهتدر ، فأدخله إلى منزله ورَّعَّبه ونحر له ناقة كريمة حبسها لأمثاله ، ثم طفق يختار ما طاب من لحم كبدها وسنامها يشويه ويأكله للضيف (١) .

فتأثر الأخطل هنا بالشاعر الجاهلي يتضح بجلالة في القصة التي رأينا خطوطها واضحة في قصيدة حاتم ، وفي الأحداث التي رسمها الشاعر القديم ، كما أنه يتضح في هذا الأسلوب القصصي الذي سرد به معانيه ولَوَّنه ببعض الحوار وسبقه إليسه الشاعر الجاهلي .

واستمع إلى الأخطل يفاخر بهذه الإبل التي حُبست لأداء الحقوق والقيام بواجب الضيفان . إنها إبل عظيمة سِمان لم تلق بعد ، قد اكتنزت باللحم وطُبقت بالشحم حتى أصبحت لا تبالي شدة البرد وتراكم الثلج على أسنمتها وغواربها . وهي في مرعاضها تعتكف بفعل شديد الزمؤ والخُيلاء ، كأن مديرة ترجيع القاصب . وحين يشتد الهجير وتصرَّ الجنادب ترد الماء بأشداق كأنها مناوور الثمالب ، وإذا ما عادت لترعى كانت لها أنياب تعمل في نبات القَتَاد الشوكي عمل المناجل فـ في الحصيد أو عمل الفؤوس في حطم الجليد واقتلاع القَتَاد من تحتها . وهي كثيرة الأوبار التي تقيها الريح الباردة ، كأنما لبست قَطِيفة قَسَدَ اللينة . قال (٢) :

ومحبوس في الحي ضامنة القرو إذا الليلُ وافاه بأشعث ساغب (٣)
مُفَقَّر لا تذكر السيف وسطها إذا لم يكن فيها مَسَّس لحالب (٤)

(١) ديوان حاتم ٣٠٣ .

(٢) شعر الأخطل ٣٣٤/١ - ٣٣٧ .

(٣) الأشعث : الرجل تَفَبَّرَ شعره وتَلَبَّدَ من شدة السفر . وافاه : جاءها .
والسَّاعِب : الجائع .

(٤) تمقر شحم الناقة : اكتنز كل موضع منها شحماً . والممس : المطالب . يقوله إذا لم يكن فيها لبن نُحِرَتْ .

مَرَّاحٍ فِي الْمَأْوَى إِذَا هَبَّتِ الصَّبَا	تَطِيفُ أَوَابِيهَا بِأَكْلَفِ ثَالِبِ (١)
إِذَا اسْتَقْبَلَتْهَا الرِّيحُ لَمْ تَذْفِقْ لَهَا	وَإِنْ أَصْبَحَتْ شَهْبًا لَذَرَى وَالْفَوَارِبِ (٢)
إِذَا مَا الدَّمُ الْمَهْرَاقُ أَضْلَعَ حَمْلَهُ	وَنَابَ رَمَقًا هَا بِأَعْلَى النَّوَابِ (٣)
إِذَا مَا بَدَأَ الْفَيْتَبُ مِنْهَا عَصَابَةً	أَوَيْنَ لَهُ مِثْلِي النِّسَاءُ اللَّوَاغِبِ (٤)
يُطَافُ بِزَيَّافٍ كَأَنَّ مَدْيَنَ مَدْيَنَهُ	إِذَا جَاوَزَا الْحَيَزُومَ تَرْجِيحُ الْقَاصِبِ (٥)
تَرْتَعْلَى الظُّلُمُ الطَّوِيلُ نِطَافَهَا	إِذَا شَوَتْ الْجُوزَا وَوَرَقُ الْجَنَابِ (٦)
كَأَنَّهَا فِي بِلَاعِيمٍ جَنَّةً	وَأَشْدَقُهَا الْعُلْيَا مَفَارُ الثَّمَالِبِ (٧)

- (١) الرَّاحِ وَالْمَرْزَاجُ مِنَ الْإِبِلِ : الشديد الهزال الذي لا يتحرك ، وأراد الأخطال العكس أي أنها ثقيل في مباركها سميئة جدا لا تقدر على الحركة . الأوابي : القوائم . الأكلف : البسيريكون في خديّه سواد خفي . والثالب : الجمل الذي انكسر ثنياه من الهرم وتناثر قلب ذنبه ، وأراد الشاعر فعلاً مُسْتَأْذَنَةً هذه صفته .
- (٢) لم تنفقل لها : أي لم تبال شدة البرد ، والفقل في الأصل : اللَّيْ . والفوارب : جمع الفوارب وهو أعلى مقدّم السنام . وقوله : " وَإِنْ أَصْبَحَتْ شَهْبًا لَذَرَى " والفوارب " أي وإن أصبح الثلج على ذراها فابيضت منه الأسنة والفوارب .
- (٣) أضلع : أثقل وأمال . والنوَاب : جمع نائبة ، وهي ما ينوب الإنسان أي ينزل به من السمات والحوادث . وأراد أنهم كانوا يمدّون هذه الإبل للديّبات والرّمائن في أعظم المصائب .
- (٤) الضيب : ما اطمأن من الأرض ، وجمعه غيوب . أوين له : انضمّن إليه أي إلى الفحل . واللواغب : الكالة المصيّبة .
- (٥) الزيف : الفضل الذر يتبختر في مشيته . الحيزوم : وسط الصدر وما يضمّ عليه الحزام حيث تلتقي رؤوس الجوانح فوق الرّمابة بخيال الكاهل . والقاصب : الزّامر .
- (٦) نطافها : ما بقي في أجوافها من ظمئها وهي بقية الماء . الجوزا : نجم يقال إنه يحترق في جوز السماء . وورق الجناب : التي لونها لون الرمّاد ، والورقة : سواد نبي غبرة .
- (٧) اللها : جمع لهاة وهي اللحمة المشرفة على العلق . البلاعيم : جمع بلعوم وهو ما يجرد فيه الدّاء والشراب . والجنة : الجنّ ، أراد أنها واسمة اللّشداق .

إذا لم يكن إلا القِتَادُ تَجَزَّعَتْ مناجلُها أصل القِتَادُ المُكَالِبُ (١)
تُحَطَّمُ تحت الجليد فَوْءُوسُهَا إِذَا قَفَعَ الْمَشْتَى أَكُنَّ الْحَوَاطِبُ (٢)
كَأَنَّ عَلَيْهَا الْقَسْطَالَانِي مَخْمَلًا إِذَا مَا اتَّقَتْ شَقَّاهُ بِالْمَتَاكِيبِ (٣)

واضح أنَّ المعاني التي عرضها الأخطل للفخر بإبله الأبقار الموقوفة للضيفان أو لتأدية الحقوق ، من اكتناز لحمها ووفرة شحمها وعظم أسنمتها ووثاقسة أجسامها وضخامتها وصلابتها وقوتها مما يجعلها لا تجزع بالريخ الباردة أو الجليد، هي نفس المعاني التي عرض لها معاصروه من الأمويين وسابقوه من الجاهليين في وصف إبلهم والإعجاب بها . (٤) إلا أنَّ في معانيه هذه وجهاً آخر للتجديد، يفسده الأخطل من بيئته وطبيعة بلاده ، فذكره للريخ والبرد والثلج والجليد وغير ذلك من مظاهر قسوة الطبيعة التي لا تعفل بها الإبل ، مما لا نقع عليه في شعر غيره من الجاهليين الذين عاش أكثرهم في بيئات صحراوية تختلف في طبيعتها اختلافاً بيناً عن بلاد الجزيرة الفراتية وبخاصة في فصل الشتاء . على أنه لا ينسى البادية بل يذكرها ، فالفاظة التي طرأ بها هذه المعاني من أجزل ألفاظ البادية ، والكثير من معانيه وتشبيهاته وكنائياته أضفت عليه البادية الكثير من القوة والرصانة . وذلك كقوله :

ترد على الظم الطويل نطافها إذا شوت الجوزاء وري الجناب
وقوله :

إذا لم يكن إلا القِتَادُ تَجَزَّعَتْ مناجلُها أصل القِتَادُ المُكَالِبُ

(١) القِتَادُ : شجر له موك أمثال الإبر ، وله وريقة غبراء وثمره تنبت معها غبراء كأنها عجمة التوى . التَّجْزِيعُ : التَّكْسِيرُ . مناجلُها : أراد أنيابها . والمكالب : الخشن الكبير الشوك .

(٢) استمار الفؤوس للأضراس والجامع بينهما القطع . وقفح : أبيض وقبض . يقول : إذا منح البرد الإماء من الخروج لجميع القِتَادُ أخذته هذه الإبل من تحت الجليد وعظمت بأضراسها .

(٣) القسطلاني : نسبة إلى قسالة وهي مدينة بالأندلس (معجم البلدان ٤/٣٤٧) ، وأراد أنها كثيرة الأوبار . والثفان : القر والمطر .

(٤) أنظر : الشعر الجاهلي ١/٣٣٤ و٣٣٦ و٣٣٨ ، الوصف في الشعر العبري ١/٧٧ و٨٥ و١٠٤ و ١٠٥ ، الوصف ١٤ .

ولا ريب في أن الشاعر توّسل إلى هذا الفخر بنير قليل من الغلو والمبالغة
في وصف ضخامة الإبل وقوتها ، فهي لسظم ماماتها وقاماتها تبدو بلاعيمها كبلاعيم
الجان وأشداقها كالمفاور . بل إن لها أضرأاً شبيهة بتلك البلاعيم واللهي ،
إذ تراها تقتلع بها القتاد من جذوره حتى ولو كساه الجليد ونفرت الحاطبات عنه .

وعلى هذا النحو فاخر القطامي بإبله العظيمة التي تشبه الجبال أو الهضاب
ضخامة ، وتقذف ما ترناه في بلاعيم واسعة ، وهي كثيرة الشرب أيام القيظ ،
غليظة المناكب ، ظلت موضع حسد الكثيرين ، وقد حُبست لِقرو الشّيفان . يقول (١) :

تمادى السنون عن جراجب جلة	مهاريص ليست من ديات ولا مهسر (٢)
تنامي ضريب الحمض ليلة غبها	نصاء بني سعد على سمل القدر (٣)
إذا احتطبت نيبها قذفت به	بلاعيم أكراس كأوعية الففر (٤)
جبال إذا ما فت مضاب إذا شئت	وفي القيظ يعطفنا لمياه على العثر
مياه سوي يحملنها قبل المرى	دليف الروايا بالثممة الخضر (٥)
بنات علفدى المنكبين كأثما	تزينة الإخصاب بالمفر العمر (٦)

(١) ديوان القطامي ١٥٢-١٥٥ .

- (٢) الجراجب من الإبل : العظام . جلة : ضخام . المهاريص : الشداد و قيل : الجسام الثقال .
(٣) تنامي : تناول . الحمض : نبات فيه ملوحة ، وضريبه : رديئه وما أكل غيره وبقي شره
وأصوله ، ويقال : هو ما تكسّر منه . الفب : ورد يوم وظم آخر . النعي : نبت سبط أبيض
ناعم من أفضل المرعى . والسمل : بقية الماء في الحوض .
(٤) احتطبت الإبل : رعت دق الحطب ، واحتطبت أى أكلته . والففر : المتاح .
(٥) سوي : ماء لبهراء من ناحية السماوة (مسجم البلدان ٢٧١/٣) . المرى : الكلاء
الواحدة عروة . الدليف : المشي الرؤيد ، وذلك الحامل بحمله : أثقله .
الروايا : جمع الراوية وهي المزادة فيها الماء ، ويسمى البعير راوية
على تسمية الشيء باسم غيره لقربه منه . والثمام : نبت معروف في البادية
ولا تبجده النعم إلا في البدوية .
(٦) العلفدى : البعير الضخم الإبل ، والأثنى : علفدة ، وعلقدى : البعير : غلظ . المفر :
والمفر : طين أحمر يصعب به ، والأمفر من الإبل : الذي على لون المفر .

- إِذَا رَفَعَ الرَّاعِي الْهَرَاوَةَ فَوْقَهُ تَخَمَّطَ إِنْكَارُ الْمَزِينِ مِنَ الْقَهْرِ (١)
يَعِضُّ عَلَيْهَا الْخَاسِدُونَ بَنَانَهُمْ وَلَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ غِنَايٌ وَلَا فَقْرُ
طَوَالَ الْقِرَى لَا يَلْمُنَا لَضِيئَاتِهَا إِذَا هَوَّأَ رَغَى وَسَطَهَا بَعْدَمَا يَسْرَى
إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا خَلُوبٌ تَكْشِفُتْ عَنْ السِّيفِ مَصْقُولًا وَأَبْيَضَ كَالْبَسْدَرِ (٢)
وَمَا أَتَقَى السَّائِلَ الَّتِي تَتَقَى بِهَا إِذَا مَا تَعَادَى الرَّاتِكَاتِ مِنَ الْفَقْرِ (٣)
وَيَكْنِيكَ أَلَّا يَرَحَلَ الضَّيْفُ لَأَثْمًا كَرَادِيْسُ مِنْ نَابٍ تَنَامُ فِي الْقَدْرِ (٤)

ومعاني القطامي قديمة مكررة ، إذ سبقه إليها الجاهليون والمعاصرون ، فتشبيهه للإبل في ضخامتها بالجبال أو الهضاب أخذه عن المسيب بن علس^(٥) ، وذكره لفظاً من كتابها من المعاني المتداولة^(٦) ، أما غلوه في الفخر في وصف شهيتها المكتملة وشرافتها في الأكل بأظهار اتساع بلاعيمها وفخره بأنها حُبست لأطعام الضيوف فمما سبقه إليه الأشكال في الأبيات السابقة . ولكن لا بد أن نسجل للقطامي أنه استطاع أن ينفذ من خلال الفخر بإبله إلى الفخر بقومه ، فقلوه : إِنْ إِبْلُهُ لَيْسَتْ مِنْ دِيَاتِ وَلَا مَهْرٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْمَهُ أَقْوِيَاءُ قَادِرُونَ عَلَى إِدْرَاكِ أَوْتَارِهِمْ وَلَيْسَ مِنْ شِيَمِهِمْ أَنْ يَضَعُفُوا وَيَذَلُّوا فَيَرْضَوْا بِأَخْذِ الْإِبِلِ دِيَاتَ لِلْسَكُوتِ عَنْ الْمَطَالِبَةِ بِثَارِهِمْ ، كما أَنَّ لِقَوْلِهِ هَذَا بَعْدَ فَخْرِيَا آخِرَ بِقَوْمِهِ وَهُوَ أَنَّهُمْ أَعْزَاءُ لَيْسُوا كَفِيرِهِمْ مِمَّنْ يَمْلَأُونَ بَيْوتَهُمْ إِبِلًا مِنْ مَهْوَرِ بَنَاتِهِمْ . ومما يسجل للقطامي أيضاً هذا المعنى الذي أبرز به نجابة إبله وكرمها حين ذكر أنها نالت موضع حسد الكثيرين .

(١) تخمط : غضب وثار .

(٢) يقول : إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الْإِبِلِ لَبَنٌ تَكْشِفُتْ عَنْ السِّيفِ لَأَنَّهُ يَعْقُرُهَا .

(٣) الراتكات : جمع الراتكة وهي الناقة التي تمشي وكأنَّ برجليها قيداً وتضرب بيديها . والفقر : أَنْ تَقْطَعَ إِحْدَى قَوَائِمِ الْبَعِيرِ بِالسِّيفِ حَتَّى يَسْقُطَ ثُمَّ تَنْحَسِرُ مُسْتَمَكْنًا مِنْهُ .

(٤) الكراديس : جمع كردوس وهو مجتمع كل عظمين ، يقول : الْكَرَادِيْسُ تَمْنَعُ مِنْ لَوْمِ الضَّيْفِ . النَّابُ وَالنَّيُوبُ : الناقة المُسَنَّةُ ، سموها بذلك حين طال نابها وعظام . وثنامس : تفوس .

(٥) أنظر : الوصف في الشعر العربي ١ / ٩٦ ، الوصف ١٤٠ .

(٦) أنظر : الوصف في الشعر العربي ١ / ١٠٤ ، الوصف ١٢٠ .

وبين أن أسلوب القلامي في هذا الشعر أقل رنيناً من أسلوب الأخطل، وأن صورته وتشبيهاته ليست متكاملة كأكثر صور الأخطل . لكنه يتفق مع الأخطل في تخير اللفظ الجزل الذي يميل إلى الخرابية أحياناً .

وانبرى عمرو بن أحمير الباهلي يفاخر بكثرة ما كان يدليخ لضيوفه في قدوره السود الكبيرة التي تنضج ما يُقذف فيها من لحوم الإبل بسرعة ، فإذا ما نصبته الإمام وقام عليها الخدم اشتد غليانها ولم تسكن . فهي كاللحم إذا اشتد غضبه فإنه لا يحلم . وحينذاك تتبدى لها أصوات كأنها اندفاع مطر غزير مصحوب برجاج عاتية ورجود شديدة ، وتتراعى والبغار يُجللها كأنها جماعات خيل عظيمة يلفها السراب . قال : (١)

وَدُمَّ تَصَادِيهَا الْوَلَدُ دِلَّةٌ	إِذَا جَهَلْتَ أَجْوَاهَا لَمْ تَعْلَمْ (٢)
تَرَى كُلَّ مِرْجَابٍ لَجُوجٍ لَهْمَةٌ	زَنُوفٌ يَشْلُو النَّابَ جَوْفَاءُ عَيْلَمٌ (٣)
لَهَا زَجَلُجْنَجُ الظَّلَامِ كَأَنَّكُمْ	عَجَارِفُ غَيْثٍ رَائِحٌ مُتَهَزِّمٌ (٤)
إِذَا رَكِدَتْ حَوْلَ الْبَيْوتِ كَأَنَّهَا	تَرَى الْآلَ يَجْرِي عَنْ قَنَابِلِ صَيْمٍ (٥)

(١) شعر عمرو بن أحمير ١٤٩ - ١٥٠ .

(٢) الدهم : القدور السود ، جمع دهماء . تصادى : تدارى بها بالنصب والإنزال . الولد :

الإمام ، وقيل : الشواب من الجوارى . والجلّة : العظيمة الكبيرة .

(٣) الهرجاب : الطويلة من النوق ، الضخمة ، وأراد به عظم القدر وسرعة إنشاجها للحم

لجوج : مصوّنة . اللهمة : التي تلتقم ما فيها . زنوف : سريمة . الشلو : العضو . الناب :

الناقة المصنّة . جوفاء : واسعة الجوف . والعيلم : الواسعة الكبيرة . وهذه

الصفات وما سيأتي بعدما استعارها الشاعر للقدر .

(٤) الزجل : اختلاط الأصوات . جنح الظلام : إقباله . العجارف : الأمطار الشديدة

مع الرعد والرياح . الرائج : الآتي . والمتهمز : الذي له هزيم وهو صوت الرعد .

(٥) الآل : هو الذي يكون ضحى كالما بين السماء والأرض يرفع الشخوص ويترها ما ، فأما

السراب فهو الذي يكون نصف النهار لاطئاً بالأرض كأنه ماء جار . القنابيل :

جماعات الخيل ، جمع القنبلة والقنبلة : وهو من الخيل ما بين الثائين إلى

الربيعين . والصيم : الواقفات .

ولعلَّ أبرز ما يميز أسلوب الشاعر في هذه الأبيات ، اتكاؤه على التشبيه
 اتكاءً كبيراً والمبالغة في ذلك مبالغة عظيمة ، فغليان القدور يشبه اشتداد
 غضب الأحمر ، وأصوات غليانها تشبه اندفاع المطر النزير المصحوب بالرياح
 والرعود ، وتترأء والبشار يُجلَّلها مثبته خيلاً عظيمة يَلْفُّها السَّراب . وفي
 الألفاظ غرابة تُسَمِّدُ من قائلها ، فابن أحمر عُرف من بين المخضرمين بكثرة
 الغريب في شعره ، وقد نبّه على ذلك القدماء وأشاروا إلى أنَّه استخدم كلمات
 لم يأت بها سواه ، مما جعل لشعره قيمة لغوية كبيرة تظهر من مطالعنا للمعاجم
 وكتب اللغة التي استشهدت به في مواضع لا تحصى كثرة . (١)

وفيما قدّمنا ما يدلُّ على أنَّ الفخر القبلي ظلَّ يجري عند شعراء الجزيرة
 الفلواتية في العصر الأموي على الصورة الجاهلية ، فاستمَّ بالسمة القبلية وعَبَّرَ
 عن نزعة المصيبة ، ولا غرو فقد ألحنا إلى أنَّ الإسلام لم يستطع اجتثاث شأفة
 المصيبات التي رسخت جذورها في نفوس القوم ، فظلت لكثير من القيم الجاهلية
 مكانتها في نفوس الكثيرين ولا سيما أولئك الذين غلبت عليهم البداوة ، فإذا
 نزعوا إلى الفخر نهجوا نهج أسلافهم ففخروا بمثل ما كانوا يفخرون به . ومن هنا
 أصبحنا لا نجد فرقاً بين فخر شعراء الجزيرة الفراتية ومنهم الأختال والقنطاسي
 الثعلبيّان وعمرو بن أحمر الباطلي وبين الفخر الموروث عن العصر الجاهلي ، لأنَّ
 هؤلاء الشعراء نشأوا في البادية وعاشوا فيها ، فتأثروا ببيئتها وغلبت عليهم
 طبائع أهلها ، مع أنَّهم كانوا يعتقلون إلى الحواضر وينالون أهلها ويفشون
 مجالس الولاة وقصور الخلفاء . فلا جرم أنَّ نجد هؤلاء الشعراء يجلسون
 للفضائل المتصلة بحياة الشعراء المحلِّ الأول في فخرهم ، فهم يفخرون بشرف
 قبائلهم ومنعتهم وتماسكها وفضلها على سائر القبائل ، وببطولة فرسانهم في
 الذود عن الحمى والبلاء في القتال والظفر بالأعداء ، وبإيثار مظاهر الحياة
 البدوية القديمة على مظاهر حياة الحضار ، وبالترحيب بالزوار والاحتفاء بهم ،

(١) أنظر : شعر عمرو بن أحمر ٣٢ - ٣٣ .

مفاخرة ألهبها في نفوسهم تَمَتَّكهم بالقيم والمثل القبليَّة التي كانت مثلاً أعلى
للعربي في حياته وسلوكه .

ولأنَّ هؤلاء الشُّعراء من السرب الأقحاح الذين ملكوا ناصية الأسلوب العربي
الطَّلِّي ، فقد كانت ألفاظهم فخمة تصكُّ الأذان بقوة جرسها ، وتراكيبهم جزلة قوية
التأليف ، ومعانيهم فيها غير قليل من المبالغة والغلو ، وذلك طبعي فالفخر
مبعثه الاعتزاز ولوالتفوق ، وفي خصال من شأنها أن تدفع بأصحابها إلى التَّهويل
والتَّعظيم وتصوير الأمور على غير حقيقتهم —

(٣) الهجاء القبلي

الهجاء قديم في الشعر العربي منذ الجاهلية ، وقد أوجدته الحروب المستمرة بين القبائل وبطونها بسبب التنافس على الماء والكأ ، فإذا ثار الخلاف بينها عبّ شاعر كل قبيلة يدافع عن قبيلته ويتهدّد أعداءها^(١) ، كما أوجدته المناكرات والمفاخرات التي كانت تنشأ بين رجلين من قبيلتين أو بين رجلين من بطنيين مختلفين من قبيلة ، فكان كل منهما يأخذ في تعداد مناقب قومه ومفاخرهم ويشهر بمثالب قوم خصمه وعيوبهم^(٢) .

ولم يكن الجاهليون يفردون هجاءهم في قصائد مستقلة بل كانوا يُلصّون به في قصائدهم التقليدية ، إذ كانوا يسوقونه غالباً في تناعيفهم حماسهم وإشاداتهم بأجسادهم وانتصاراتهم الحربية^(٣) . ودار معظم هجائهم على كل ما يناقض مثلهم ، من الكرم والشجاعة وحماية الجار والوفاء والنجدة وطلب الثأر^(٤) ، يقول الدكتور شوقي شيف : " وما هي إلا أن يدخل الشاعر في الهجاء فإذا هو يُلصّ القبيلة وأشرفها من كل هذه الفضائل وما يتصل بها ، فهي لا تكرم الجار ولا تحميه ، وهي تفر في الحروب وتقمّد عن الأخذ بثأرها . ولا يكفي الشعراء الهجاءون بذلك بل يتمرّسون لمغازي القبيلة في حروبها وأيامها التي ولت على أدبارها فيها منهزمة^(٥) " . وربما عبّروا بقلّة عددها وضعة نسبها وغمسول نسبها واعتماها لنسائها في الرثي خارج البيت^(٦) .

ونهج شعراء صدر الاسلام طريقة أسلافهم في الهجاء ، فألصّوا به في مطولاتهم ، وعابوا على مهجوبيهم أنهم حادوا عن الفضائل العامة التي تقررت منذ الجاهليين ، على أن نفرأ منهم فصلوه عن غيره من الموضوعات ، وأفردوه في مقطوعات مشهروا فيها

(١) الهجاء والهجاءون في الجاهلية ٩٥ ، فن الهجاء وتطوره ٥٧ ، التطور والتجديد ١٧٧ .

(٢) فن الهجاء وتطوره ٨٤ ، ٨٥ .

(٣) العصر الجاهلي ٢٠٢ ، الهجاء ٥٨ ، فن الهجاء وتطوره ٧٨ ، تاريخ النقائض ٤٣ .

(٤) الهجاء والهجاءون في الجاهلية ٩٥ و ٦٦ ، الهجاء ٤٣ و ٧٧ ، فن الهجاء وتطوره ١١٩ .

(٥) العصر الجاهلي ٢٠١ .

(٦) الهجاء والهجاءون في الجاهلية ٨٢ و ٩٥ ، الهجاء ٤٣ ، تاريخ النقائض ٤٤ ، نقائض

جرير والأخطال (عبدالمجيد المتعصب) ٣٤١ .

بكفر مهجويهم وشركهم ومخالفتهم للخلق الحميد (١)

وتطور الهجاء في العصر الأموي تطوراً واسماً ، وردّد شعراء النقائض معاني الهجاء القديمة ، وأضافوا إليها كل ما تضمّنته تاريخ القبائل في الجاهلية والاسلام ، من : مناقب ومثالب وانتصارات ومزائم و أنساب وأحساب ومواقف ، وأنتملوا فيها الفحش والإقذاع إلى مدى بعيد ، فهتكوا الحرمات ونهشوا الأعراض وسقطوا على العورات فسمّوها بأسمائها من غير تحرج أو تأثم . وقد توخّوا من كل ذلك الإضاح والترفيه (٢).

وارتقى الأخطال والقطاني التغلبيّان الجزريّان بفن الهجاء بعض الرّقسيّ ، فلم يُلمّا به في القصيدة التقليدية ، بل صباه في مقطوعات أو أبيات مستقلة أحياناً . ولم يقتصر الأخطال في هجائه على الإفادة من المعاني القديمة ، بل تأثر بعض التأثير بمعاني الدين الجديد فوصم مهجويه بالظلال والنفات ، وجارى جريراً والفرزدق بعض المجازاة في فحشهما وإقذاعهما .

أهاجي الأخطال القبليّة

شهر الأخطال في أول عهده بالهجاء ، وكان له من ظروفه حياته القاسية ما جعله يبرع في هذا الفن في صباه ، فقد ولد لأب قاس عنيف ، وحُرّم من حنان أمه وعطفها بعد موتها أو طلاقها . وتزوج أبوه من أخرى كانت تفضل بنيتها عليه وتوهمهم بالعناية والفضاء ، وتبحث به ليرعى أعززا لها ، وكثيراً ما كان ينجو فلا ينال ما يكفيه ، فذاق بذلك طعم الضيق والحرمان وأحسّ بقصوره ووضاعة شأنه عند أبيه وزوجته الجديدة . وكان إهمالهما له واستهانتهما به مما يجزّئ عليه الناس ويحملهم على احتقاره وظلمه والنيل منه ، فترك هذا في شخصيته آثاراً بعيدة المدى ، فتمرد ورفض واقعه وشبّ على العناد والمشاكاة والميل إلى التمرد والتحرش بالناس والوقوف في أعراضهم ، حتى لقّب بالأخطال أي البسّاذ.

(١) الهجاء والهجاءون في الجاهلية ١٧٨ و ٢٢٥ ، فن الهجاء وتطوره ١٨١ و ١٨٢ .

(٢) تاريخ النقائض ٤٤ ، نقائض جرير والأخطال (عبدالمجيد المحتسب)

٧٦ و ٧٩ ، الهجاء ١٤ و ٤٧ ، التطور والتجديد ١٦٣-١٦٤ .

أما جيبه في القيسين :

ومن قصائده في الهجاء قصيدته الرائية وقد بدأها بمقدمة غزلية تقليدية ، وكان ذلك صنيعه في سائر مقدماته من هذا النوع (٤) ، ثم تحدث عن حرب قيس وتطلب ، فتغنى ببلاء قومه وتمجده به ، وذكر ما نال قبائل قيس وبعض زعمائها

(٤) مقدمة القيدة العربية في العصر الأموي ٦٥ •

وشعرائها من هوان . قال : (١)

- لقد حملت قيس بن عيلان حربنا
ركوب على السوات قد شرم استه
وإراواشقا قلائتين فمامر
وأما سليم فاستعادت حذارنا
تذق بلاشي هيبوخ محارب
ضفاد في ظلماء ليل تجاوبت
ونحن رفعا عن سلول رماحنا
على يابن السيساء محدود بالظهر (٢)
مزاحمة الأعداء والنشوي الدبر (٣)
تبيع بنيتها بالخصاء وبالتمر (٤)
بشرتها السوداء والجلد الوعر (٥)
وما خلقتها كانت تريش ولا تبرى (٦)
فدل عليها صوتها حية البحر
وعداً رغبتا عن دماء بني نصر (٧)

(١) شعر الأخطال ١٨٠/١ - ١٨٧ ، نقائش جرير والأخطال: ٢٨ - ٣٨ .

(٢) سيماء الظهر من الدواب : مجتمع وسطاه وهو موضع الركوب ، يقول : حملناهم

على مركب صعب كسيماء الحمار أو حملناهم على ما لا يثبت على مثله .

(٣) السوات : جمع السواة وهي النورة والفاخمة وكل خلقة قبيحة . شرم : جرح

ومزق ومشق . والنصر : النرز بنود ونحوه ، وأراد بذلك وصفهم بأنهم

سهزومون .

(٤) طاروا شقا : تفرقوا منشقين ، أرماروا فرقتين بمنزلة الأنثيين وسميا

البيضتان . والخصاء : جمع الخصة وهي جلة التمر التي تعمل من الخوص

وقيل : هي البحرانية من الحلال خاصة .

(٥) الحرة : الأرض الفليضة ذات الحجارة النخرة السود كأنها أحرقت بالنسار

وحرة بني سليم هي حرة النار ، وتسمى أم صبار في عالية نجد (متجم البلدان) ٢٤٦/٢ .

(٦) النقيق : صوت الضفاد والنمام . تريش : تركب الريش على السهام . وتبرى :

أي تسور عود السهم قبل أن يرمى ويُنصل ، فإذا ريشاً ورُكِبَ نصله صار سهماً .

ومعنى قوله : لا تريش ولا تبرى ، أي لا تنفع ولا تضر .

(٧) رغب عن الشيء : تركه متعمداً . روى أبو الفرج أن حماداً كان يفضل الأخطال على جرير

والفرزدق ، فقال له الفرزدق : إنما تفضله لأنه فاسق مثلك . فقال : لو فضلت

بالفسق لفضلتك . قال ابن النطاح : قال لاسحق بن مرار الشيباني : الأخطال عندنا

أشمر الثلاثة . فقلت : يقال إنه أمدحهم . فقال : لا والله ولكن أجهاهم ، من منهما

يحسن أن يقول : ونحن رفعا . البيت (الأغاني ١٧٧/٢) .

ولوبيني ذبيان بَلَّتْ رماحنا
شفى النفر قتلى من سليم وعامر
ولا جشم شر القبائل إنها
وما تركنا أسيا فنا حين جُرِّدت
وقد عركت بابني دخان فأصبنا
وأدركت علي في سواة أنها
لقرت بهم عيني وباء بهم وترى (١)
ولم تشفها قتلى غني ولا جسر
كبيش القطا ليسوا بسوا ولا عسر
لأعداءنا قيس بن عيلان من وتر
إذا ما احزأ لآ مثل باقية البطر (٢)
تقيم على الأوتار والمشب الكدر (٣)

فهذه حرب قيس لتغلب ، لم يجن منها القيسيون - كما يدعي الأخطار - سوء تفرق
قيائلهم وتشتت بطونهم في البلاد مع ما لحقهم من ذل وسوان : فعامر باتت من
ذليها وفقر حالها تبيع أبناءها بجلال التمر ، وسليم لجأت فرقا إلى حرثها
السوداء وجبلها الوعر ، ومحارب ظلت في عمارة من أمرها ليست تدر ما تصنع
كأنها في اصطفاها وضواها أشبه شي بالذفادج التي لا تكف عن الفيق فتجني
على نفسها لأنها بذلك تدل حية البدر على مكانها ، أما سلول وينو نصر فقد
رغبت تغلب عن دمائهم لأنهم ليسوا بأكفاء ، ولو عرفت باني ذبيان لقرت عيونها
وأدركت ثأرها ، وقد شفت غليلها مما قتلت من سليم وعامر ولم يشف غليلها قتل
غني وجسر ولا حتى جشم لأن بني غني وبني جسر أذلاء أما بنو جشم فهم ليسوا بعرب
خلص بل اختلطت أنسابهم فصاروا ألوانا أشبه ببني القطا الأبرش ، وقد استأملت
ابني دخان غنيا وباهلة ، وأنزلت سواة في دار ذل وهوان لا تستطيع فيها أن
تدرك بثأرها وترضى بشرب الكدر من الماء .

وأبدى الأخطار قسوة ظاهرة وهو يصور تصويراً بشما نساء قيس اللاتي لا يمين
حتوفهن في تلك الحرب ، فذكر أن سيوف تغلب كانت تبقر بطن كل امرأة حاسل
وتتركها صرمة قد تدلى جنينها من بطنها ، فتنقز عليها الطير تضرب عينيها
وتأخذ ما تشاء من أحشائها ، وبها بقية من رمق . قال — :

- (١) بليت : ظفست وعطقت . وباء بهم وترى : أصبت بهم ثأري .
(٢) عركت بهم : دارت عليهم . وابنا دخان : غني وباهلة . واحزأل : ارتفع .
(٣) الكدر : الكسور .

وَكَمَ مِنْ جَنِينَ بَاتَ يَنْزِي نَفْسَهُ لَقَيْسِيَّةٌ قَدْ هَكَّهَا السِّيفُ بِالْخُصْرِ (١)
 سُلَيْمِيَّةٌ سَوْدَاءُ أَوْعَا مَرِيَّةٌ تَجُرُّ سَلَاهَا عَيْنَ يَنْهَضُ بِالصَّدْرِ (٢)
 بهارمق ، فالطير تبقر بطنها وتضرب عينيها قوادم من نَسْر
 وسمت الأخطال بفرار القيسيين وانحارهم أمام تطلب ، وقد جَلَّى فرارهم
 بوصفهم يروى أحد زعمائهم وهو ابن بدر ، في مقطع استنفذ فيه غاية الوصف
 والتأويل والاقتراض ، فقد رسمه عائماً في الشراب ، يستحث فرسه ويُفدِّيها التمثيل
 رعبه وهلعه . قال — :

وَنَجَّى ابْنَ بَدْرِ رُكُضَهُ مِنْ رِمَاحِنَا وَنَضَاحَةُ الْأَعْطَافِ مُلْهِبَةُ الْخُصْرِ (٣)
 إِذَا قَلَّتْ نَالَتَهُ الْعَوَالِي تَقَاذِفَتْ بِمَسْوَعِ الرَّجْلَيْنِ صَائِبَةُ الصَّدْرِ (٤)
 كَأَنَّهُمَا وَالْآلُ يَنْجَابُ عَنْهُمَا إِذَا انْغَمَسَا فِيهِ يَحُومَانُ فِي غَسْرِ (٥)
 يُسْرِئُ إِلَيْهَا وَالرِّمَاحُ تَنْوَشُوهُ فِدْوُ لَكَ أَمِي إِنْ دَأَبَ إِلَى الْقَصْرِ (٦)
 فَظَالٌ يُفَدِّيهِمَا وَالَّتِ كَأَنَّهُمَا عَقَابٌ نَحَاهَا جُنْحَ لَيْلٍ إِلَى وَكْرِ (٧)

- (١) الهتك : مداركة الطعن بالرماح ، وهكها بالسيف : ضربه .
 (٢) السلا : اللقافة التي تكون على الولد في البطن .
 (٣) نضاحة : فرس تنضج أعطافها بالسر . الملهبية : التي قد ألهمت
 أو طُلب منها السرعة . والحضر : العدو . يريد : نبأه ركضه ونجاه نضاحة
 الأعطاف .
 (٤) العوالي : جمع المالبة وهي أعلى القناة ، وأسفلها السافلة وجمعها السوافل .
 سوخج الرجلين : طويلتهما . صائبة : قاصدة .
 (٥) كأنهما : يعني ابن بدر وفرسه . ينجاب : يذكمف ، إذا دأب في الآل فانطبق
 عليهما انغمسا فيه . يحومان : يسبحان . والنمر : الماء الكثيرة
 شبه الآل به .
 (٦) سارّه في أذنه مسارة وسراراً ، وتساروا : أو تناجوا . تناوش القوم في القتال : إذا
 تناول بعضهم بعضاً بالرماح ولم يتدانوا كل التداني . الدؤوب : المبالغة في
 السير ، وأدأب الرجل الدابة إذا بدأ بها ، وأدأب : السؤي الشديد والطرْد .
 والعصر : أواخر النهار .
 (٧) جُنْحَ الليل : إقباله .

- كَأَنَّ بَطْنَيْهَا وَمَجْرَى حَزَامِهَا أَدَاوَرُ تَسَحَّ الْمَاءُ * مِنْ حَوَرٍ وَفَرٍ (١)
 وَظَلَّ يَجِيئُ الْمَاءُ * مِنْ مُتَفَصَّدٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ مَذَاهِيهِ يَجْرِي (٢)
 فَأَقْسَمَ لَوْ أَدْرَكَهُ لَقَذَفْنَاهُ إِلَى صَبَةِ الْأَرْجَاءِ * مِظْلَمَةِ الْقَمَرِ (٣)
 فَوَسَّدَ فِيهَا كَفَّهُ أَوْ لَحِجْلَتِ ضَبَاعَ الصَّعَارَى حَوْبَهُ غَيْرَ ذِي قَبْرِ (٤)

فالرماح التظلية أخذت ابن بدر من كل جانب ، ففروا آذ يستحث فرسه استحثاشا شديداً على العدو حتى تفصدت أعطافها بالفرق من الجهد الذي أصابها كأنما ثبتت في بطنها قُرْبُ ترشح بالماء ، وَتَنَصَّبَ في عدوها مسرعة والرماح تنوش هذا القارس وحلول الظالم يزيد من ذعره وفزعه ، فراح يفديها بأمه إن هي ضاعفت من جريها ، فترامت كأنها عقاب الجأه إلى الليل إلى وكرها ، ولو أدركته الرماح لفادته جثة مطرحة لا يضمنها قبر تحجل حولها ضباغ الصعاري .

وتهكم الأخطل بقيس وأشرافها الذين رضوا بأن يسودهم بنو العجائن وهم مسن أسن الناس وأكثرهم لوماً وضة ، فهم يضنون على بنينهم بالزاد ، فيتضوّر كل واحد منهم جوعاً ، ولا يزال يبكي حتى تضيق به الجارية فتأخذه وتلقيه في جانب البيت احتقاراً له ، فإذا أصبح أخذ بذلك عينيه المضممتين كالخفاش الذي يوءذه ضوء النهار ، فما أهونه وأقبحه ! أما نساؤهم فإنهن يقضين النهار راعيات يجرين وراء الإبل ، قد لصقت الأقدار بثيابهن حتى عادت سرداء كأنما طليست بسواد التدر ، وتأكلت كموبهن من طول سعيهن وراء الإبل في البراري ، وغلظت وتشوّت أعجازهن من حمل السوايا . قال السُّدِّي :

- (١) الطَّبِي والطَّبِي : حلما تالضخ التي فيها اللبن من الخف والظلف والحافسر والسبان . الأداوى : جمع إداوة وهي السقا . تسح : تصب ، الحور : الأديم المصبوغ بحمرة . والوفر : الضخام التامة التي لم ينقص من أديمها شيء .
 (٢) يجيئ : يفيض ويتدفق . والمتفصد : أراد جليدها السائل بالفرق .
 (٣) الأرجاء : النواحي ، واحدها رجاء .
 (٤) وسد فيها كفه : لم يجد غير كفه وسادة . وحجلت : تبخترت وسارت على رسلها ، ترفسح قائمة وتتربّث على القائمة الأخرى .

- وقد سَرَّني من قيس عيَّازن أنغني
 وقد عَبَّرَ المجلان حيناً إذا بكى
 فيصيح كالخفاش يدللك عينسد
 وكنتم بني المجلان ألام عندنا
 بني كل كسما الشياب كأنما
 ترى كمبها قد زال من طول رعيها
 رأيت بني المجلان سادوا بني بدر (١)
 على الزاد ألقته الوليدة بالكسر (٢)
 فقبعت من وجه لثيم ومن حجس (٣)
 وأحقر من أن تشهدوا عالي الأمر
 طالاها بنو المجلان من حمم القدر (٤)
 وقاح الذنابي بالسوية والزفر (٥)

فالأطل يرمي بني المجلان بالبخل ، والهجا بالبخل مسروق في الجاهلية إلا أنه
 هنا أقوى ، إذ يتضمن بخل القبيلة على أبنائها . كما أنه يرميهم برذيلة
 أخرى هي الذل والهوان ، إذ يصف إقامتهم على الفقر والجوع ويصور امتنانهم
 لنسائهم بإرسالهن لرعي الإبل والدواب ، حتى اتسخت ثيابهن وتأكلت كموبهن
 وتقرحت أعجازهن . وهذا المعنى مستمد من قيم الفروسية العربية حيث كانت المرأة
 ترمز بترفها وتصونها إلى حال بني قومها . وبهذا الهجا المتذع استطاع الأطل
 أن يصور تلة خطر بني المجلان في الناس وقموبهم بين القبائل مقعد الفقير البائس
 المحتاج . (٦)

- (١) أراد سرنى أن أشراف قيس قتلوا حتى سادهم أحسهم .
 (٢) الكسر : جانب البيت ، أو هو أسفل شقة البيت التي تلي الأرض من حيث يكسرها
 جانباه من عن يمينك ويسارك .
 (٣) العجر : محبر العين .
 (٤) السماء : من التسم وهو الودك والوخر . والعمم : جمع حمة وهي السواد اللصق بالقدر .
 (٥) وقاح : صلب وغلظ . الذنابي : المعز . السوية : قتب عجي للبيير . والجمع
 السوايط : نيا ، والزفر : الغنم تفل والقربنة
 (٦) والسقما : الذي يحمل فيه الراعي ما .
 (٧) انظر : الهجا ٦٣ - ٦٤ ، فمن الهجا
 وتطوره ١٢٨ .

وهي الأخطل شاعر قيس نفيح بن صفار المحاربي ، فرسم له وهو وليد صورة فاحشة ، ووصف ما لحق أمه وهي ترضع طفلاً قبيحاً ، وصوّح بذلك ترضعها مكشوفاً نيفاً عن ذكره .

فالأخطل في هذه القصيدة وفي معظم شعره الذري هجافيه القيسيين وزعماءهم ، يستمدّ معانيه الهجائية مما كان بين قومه وبين المهجويين من وقائع وثارات فهو يهجوهم بمنازيتهم في حروبهم وأيامهم فيزعم أنهم كانوا يفرون من دون التظليبيين وينهزمون من أرض الممارك ويقعدون عن أخذ الثأر ، ويفاغر بانتصارات قومه وأدراكهم لأوتارهم . ولا ينسى الأخطل في هذه الهجاء أن يثلب مهجويه بمض الفضائل السربية كالكرم وإعزاز النساء ، وقد رأينا ذلك واضحاً في هجائه لبني العجلان .

إلا أن الظاهرة الجديدة في هذه القصيدة وفي بعض أهاجي الأخطل هي إفحاشه وسقوطه على ذكر العورة كما رأينا في هجائه لنفيح بن صفار ، وتلك سمة من سمات شعراء النقائض في هذا العصر ، برع فيها جرير ثم الفرزدق وكان الأخطل دون صاحبيه . (١)

وكثيراً ما يتمرّض الأخطل لهجاء القيسيين أعداء قومه في نقائضه مع جرير ، لأن جريراً كان ينطق بلسان قيس ويدافع عنها ويتغنى بانتصاراتها وبطولات فرسانها ، ويفخر بمآثرها ومناقبها ، إذ كانت عشيرته زبيرة الهوى . ومن هنا نستطيع أن ندرك الدوافع التي جعلت الأخطل يناقض جريراً ، مضناً نقائضه هجاء قوم جرير حيناً وهجاء قيس حيناً آخر ، وقد يجمع بينهم في الهجاء في نقيضة واحدة . (٢)

ونرى الأخطل في بعض نقائضه التي هجا فيها قيساً غير معني بالتقديم لها ، لأنه كما يقول الدكتور عبد المجيد المحتسب : "لم يكن له ولا وكده في نقائضه

(١) الأخطل شاعر بني أمية ٢٠٢ ، الأخطل الكبير ١٦٣ ، تاريخ النقائض ٤١٤ ، نقائض جرير والأخطل (عبد المجيد المحتسب) ٢٧١ .

(٢) نقائض جرير والأخطل (عبد المجيد المحتسب) ١٦٢ و ١٣١ و ١٣٣ و ٢٤٥ و ٢٤٦ و ٣٦٧ ، المصـ

الاسلامي ١٦١ و ٢٤٢ و ٢٥٢ و ٢٥٨ ، القطار : التجديد ١٦٨ و ١٨٢ ، الأخطل شاعر بني أمية ١١٠ ،

الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام ١٤٨ .

مع جرير إلا إعداد حجارة أو سهام من الهجاء اللاذع .. يقذف بها .. عشائر قيس
 عيلان في سرعة .. فأنعدم بهذا الموقف الشورى للأخطال في نقائضه الإحساس بضرورة
 المقدمات الغزلية في هذه النقائض " ، ففي لاميته (بثس الفوارس) تختفي
 المقدمة التقليدية ويباشر الشاعر موضوعه في هجاء القيسيين خاصاً منهم محارباً
 وسلولاً (١) ومنتهياً بالفخر ببني قومه . يقول (٢) :

بثس الفوارس عند مُتْرَك القنا	عدلا الحمار محارباً وسلولاً (٣)
خَضَّعَ إِلَى الطَّمَعِ الْقَلِيلِ وَرَفَدَهُم	عند الهياج لدوا لَطْعَانِ قَلِيلِ (٤)
مَلَأَتْ مَعْدَّ كُلِّ وَادٍ حَوْلَهَا	وأبوههم عن أمهم مَشْكُولِ (٥)
صَحُفَتْ حَوَامِلُهُ فَمَالَ إِلَى اسْتِهَا	في الضَّيِّقِ وَنَّ مُحَارِباً لَضَلُولِ (٦)
وَاللَّوْءُ حَالَفَ بَيْتِهِمْ وَفَنَاهُمْ	أبْدَاءً ، فَمَا يَمِيزُولُ يَمِيزُولُ
وَإِذَا تَرَا فِدَتِ الْقِبَائِلُ بِالْقَنَا	فمحارب عند الهياج فُلُولِ (٧)
مَنْ بَيْنَ مُقْتَسَرٍ يُشَدُّ بِسَاقِهِ	قَدْ الْمُزَيَّفُ جِسْمُهُ مَخْلُولِ (٨)
فِعْلُ الدَّلِيلِ يَرُومُهُ مِنْ رَامِهِ	وَعَلَى كَتَائِدِهِ تُشَدُّ كُبُولِ (٩)

(١) نقائض جرير والأخطال (عبدالمجيد المحتسب) ٢٦٤ .

(٢) شعر الأخطال ٣٢٧/١ - ٣٢٩ ، نقائض جرير والأخطال ١٧٧ - ١٧٨ .

(٣) الممتركة والممركة : موضع القتال . وعدلا : مثني عدل وهو نصف الحمل يكون
 على أحد جنبي الدابة .

(٤) خضع : جمع خضوع وهو الشديد الخضوع والذلة . وفدعهم : معونتهم . والهياج :
 الحرب .

(٥) مشكول : شدت قوائمه بحبل .

(٦) الحوامل : الأرجل . والضيق : الضلال .

(٧) ترافدت : تعاونت أو ترامت . وفلول : منهزمون ، جمع فل .

(٨) المقتسر : الأسير المشهور . القد : السير الذي يُقد من الجلد . المزيف :
 المذلل . والمخلول : المهزول .

(٩) الكتد والكتيد : مجتمع الكتفين من الإنسان والفرس ، وقيل : هو أعلى الكتف ،
 وقيل : هو الكاهل ، وقيل : هو ما بين الكاهل إلى الظهر ، وقيل : من أصل المنق
 إلى أسفل الكتفين . والكبول : جمع كبيل وهو القيد .

ولقد غصيتُ محارباً بخصاية وابنُ المراغة عنهم مشغولاً (١)
 زحاً الأراقم بالمجاز لوزنها كالسَّيل سالَّ بأبطحيه سيولاً
 تمدو بهم جُرد أمرٌ مَريرٌ ما كالطير يوم الرُّوع حين تجول (٢)

فالأخطال يعيب عليهم ذلهم وهوانهم ، وقلة عددهم في الحرب ، وضلالهم ، ولو همهم
 الذولا يفارقهم ، وقهر الأعداء لهم في المعركة لأنهم يفرون منها أو يوشرون .
 ومع أن الأخطال يستمد معانيه من الأحداث الحربية بين قومه وخصومهم ، مثل :
 مجاء بني محارب وسلول بإحجامهم عن دخول الحرب وفرارهم منها وأسر الأعداء
 لهم ، إلا أن هذه المعاني متداولة في الهجاء ، إذ طالما عَيَّر الشاعر الجاهلي
 أعداء قبيلته بغمولهم وضالة قدرهم وعدم صبرهم في الشدائد والمكاره ، فهم
 يقمعون عن المعركة ويتقونها وإذا دخلوها جبنوا وانهزموا . ولعل الجديد في
 هذه القصيدة هو إفحاش الأخطال في هجاء بني محارب وسلول ، فهم كثيرو الدنس وأهمهم
 فاجرة وأبوهم سفيه ، كما أن الدين يدخل عنصراً جديداً في هذا الهجاء ، فالسهجوون
 من أهل الفسوق والكفر .

مما سبق نتبين أن أماجي الأخطال في القيسيّين تحتلّ قسماً كبيراً من شعره ،
 وأنها كانت ترد في معرض الفخر بانتصارات قومه عليهم وفي نقائضه مع جرير
 لأن جريراً كان يحامي عن قيس عيلان . وأن الأخطال كان يتداول في هجائه لهم معاني
 متكررة يستند في أكثرها إلى معاني الهجاء القبلي المطروقة في شعر الجاهليين ،
 فهو يهجوهم بهوانهم وذلهم وعجزهم عن أخذ ثأر قتلهم ، ويهروهم من ميدان الوغى
 تاركين نساءهم وإماءهم للسبي والمار ، ويغمول نسبهم وضالة حبيبهم ، ويبغّلهم ،
 وبعدم إعزازهم لنسائهم اللواتي بدا عليهن سواد الإماء كأنهن صُبنن بفحم القُدور .
 أما الجديد في هذه الأماجي أو بنسها فأمران : أولهما ، هذا الفحش والإفحاش الذي
 تأباه النفوس المهذبة ، وثانيهما التأثير بالدين والانتهاك بضمف العقيدة وفسادها .

(١) ابن المراغة : لقب جرير .

(٢) جـرد : قصار الشور . أمـر : أحكم .

مـريرٌ ما : خلقها . والروح : الفزع .

أهاجيسه في جرير ورهطه :

أسخط جريراً تفضيل الأخطل للفرزدق عليه ، فهجا الأخطل وعيَّره بمغازي قبيلته وهزائمها في حروبها مع قيس ، وأبى الأخطل أن يسكت على هذا الهجا . فبسطت النقائص بينهما ولم يكن الأخطل يرى سبباً يحول دون هجا خصمه ، فقد كان جرير يمارش بني أمية ، وكان قومه كليب بن يربوع من أقوى فروع تميم دعوة لابن الزبير ، مما أغضب لحليه الخليفة عبد الملك . فاهتبل الأخطل هذه الفرصة لينال من جرير وقومه ، فهجاهم في بعض مدائحه للمروانيين وأفرد في هجائهم مجموعة أخرى من الأثمار . وكان ينوّه في هجائه لهم بانتصار دارم عليهم ليفيظ جريراً ورهطه ، وكان يفخر بمآثر قومه وعزّتهم ومنعتهم في الجاهلية والإسلام .^(١)

ففي قصيدته المشهورة (خف القطين) التي استهلها بمقدمة تقليدية وصف فيها طمائن محبوبته ، ومدح عبد الملك بن مروان ، ثم انتقل إلى هجا قيس ممدداً انتصارات تغلب عليها في حروبها في الزيرة ، حتى إذا انتهى من ذلك التفت إلى جرير فهجا قومه بني كليب واخوتهم بني غدانة اليربوعيين . قال^(٢) :

أما كليب بن يربوع فليس لهم عند التفارط إيراد ولا صَدْر^(٣)
مُخْلِفون ويقضي الناس أمرهم وهم بضيب وفي عمياء ما شَمروا^(٤)
مُطْمَون بأعقار الحياض فما يَنفَك من دارمي فيهم أَسْر^(٥)
بئس الصّاة وبئس الشرب شربهم إذا جرى فيهم المزاء والسكر^(٦)

(١) الأخطل شاعر بني أمية ١٨٦-١٨٧ هـ ، نقائض جرير والأخطل (عبد المجيد المديني) ٤٦٠ هـ

٤٦٣ هـ ، فن الهجا وتطوره ١٩٠ - ١٩٣ هـ ، العصر الإسلامي ٢٥٥ .

(٢) شعر الأخطل ٢٠٨/١ - ٢١١ هـ ، نقائض جرير والأخطل ١٦٢ - ١٦٥ .

(٣) التفارط : التسابق إلى الماء . وَرَدَ : أقبل على الماء . صَدَرَ : عاد من الماء . وأراد أنهم قوم أدلاء لا يسبون إلى الجلي .

(٤) الضيب : المكان المظلم الذي يُضَيَّب من ينتجهم عن عيون الناس . والعمياء : الجهالة .

(٥) أعقار : جمع عَقْر وهو مَوْخَر الحوض حيث تقف الإبل إذا وردت والدارمي : نسبة إلى دارم أحد أجداد الفرزدق .

(٦) المزاء : الخمر اللذيذة الطعم ، سميت بذلك للنعيم اللسان .

قوم تناهت إليهم كل مغزبة وكل فاحشة سبت بها مضر
على العيارات هداجون قد بلفت نجران أو حدثت سوءاتهم هجر (١)
الآكلون خبيث الزاد وخدمهم والسائلون بظهر الضيما الخبر
واذكر غدا نة عدا ناً مزمنة من الحبلق تبني حولها الصير (٢)
تمذى إذا سخت في قبل أذرعها وترزئم إذا ما بلها المطر (٣)
وما غدانة في شيء مكانهم الحابسوا الشاء حتى يفضل السور (٤)
يتصلون بربون ورفدهم عند التفاخر مضمور ومعتقر (٥)
صفا اللحي من وقود الأنخات إذا رد الرقاد وكف الحالب القرر (٦)
ثم الإياب إلى سود مدنسة لا يستحين إذا ما احتكت النقر (٧)
وأقسم المجدع لا يحالفهم حتى يحالف بطن الراحة الشعر

فبنو كليب أذلاء لا مفاخر ولا مكانة لهم بين القبائل ، تقضى أمورهم دون أن
يمصرفوا منها شيئاً ، ويخرجون عن الحياة حتى يستقي من هو أعظم شرفاً وقوة منهم
مثل آل دارم رمط الفرزدق الذين ما انفكوا يستذلونهم ، وهم أنذاك يتماجنون في
صحوهم وسكرهم ، جمعوا مخازي مضر ، وقد دأبوا على ركوب الحمير وسير الليل
للسرقة والفجور حتى ذاعت عيوبهم في كل ناحية ، وهم خبيثو الزاد بغلاء لا
يقرون ضيفاً ، ولا يشهدون مجالس القوم حيث يجمع الأشراف وتُدبر الأمور . فإذا

- (١) العيارات : جمع عيروهو الحمار . وهداجون : من مدج أي سار سيرا ضعيفا .
(٢) غدانة : من بني يربوع . المدان : جماعة من الممزي . المزنمة : المشوقة
الآذان . الحبلق : صغار الممزي ودماسها . والصير : جمع الصيرة وهي الحظيرة
تبني من الحجارة وأغصان الشجر .
(٣) تمذى : تبول . سخت : دفئت . وترزئم : تتقبض وتقصم .
(٤) السور : بقية الماء في الاناء ، وأراد : أنهم أذلاء لا يسقون شائهم حتى
يشرب الأنوياء .
(٥) رفدهم : معونتهم . ومضمور : قليل .
(٦) الرقاد : قدح ضخم . والقرر : جمع قررة وهي البرد . يقول : يحيى الحالب بالرفاد
ليحتلب فيه فيرده البرد .
(٧) سود : صفة لموصوف محدوف تقديره نسا . مدنسة : مقذرة . والنقر : الفروج ، واحدا نقرة .

انتقل الأخطال إلى هجاء بني غدانة ، نعى عليهم قذارتهم مُشَبِّهاً لهم بالضمائم هاناً لهم ، ورمائم بالبخل ، ونسب إلى نسائهم الرّجس والدّنس .

فالأخطال يجرّد المهجّيين كثيراً من الفضائل التي دأب العربي على الفخريتها واحترامها ، مثل : القوة التي كانت عنصراً أساسياً للتفاضل بين القوم ، والاعتزاز بنزول القلال العالية لأن ذلك أدلّ على النّاعة وملاقاة الأعداء ونجدة الضالّين ، والدماثة والظرافة وبخاصة في مجالس الشّراب ، والكرم والجود ، وحضور منتديات القوم . وقد سلبهم الأخطال هذه الفضائل ، فوضعهم في النّكف ، وذكر أن النّاس يتولّون أمورهم ويقودونهم ، وأنهم يركبون النّمير لا الخيل فلا يَنهَدون إلى قتال ولا يسمون إلى جُلّي ولا يَتَحَلّون بأية فضيلة من فضائل الفروسية والبطولة ، لأنهم قليلو القدر هزيلو الهموم يدأبون لغايات حقيرة . ووصف إقامتهم في الأمكنة القصيّة الخفيّة ، خوفاً من مواجهة الأعداء . وصوّر بذاتهم ومجونهم في صحوهم وسكرهم . وذكر ببخلهم ، فهم يأكلون زانهم وحدهم وينتجعون الغيب حتّى لا يقصدهم الطارقون البائسون . ثم جعلهم محجّوبين عن سياق الأحداث ، لا يستشارون ولا يحفل بهم فيها . (١)

وقد أساء الأخطال في بعض هجائه إسفافاً شديداً وأقذع إقذاعاً فاحشاً ، فنسب إلى بني كليب وإلى نساء غدانة الفسق والفجور ، وقرن بني غدانة بصغار الفهم التي حبست في الحظائر فأهزلها الجرد وقذّرما البول والوسخ . (٢)

وأحيانا يمزج الأخطال بين الهجاء والفخر ، كما نجد في رأيته (مازال فينا) التي لم يقدم لها بمقدمة تقليدية ، بل افتخر مباشرة بشجاعة قومه وهجاء بني كليب . (٣) قال (٤) :
ما زال فينا رباط الخيل معلّمة وفي كليب رباط الذلّ والعار (٥)

(١) فن الهجاء وتطوره ١٩٣ - ٢٠١ .

(٢) تاريخ النقائض ٣٩٦ ، فن الهجاء وتطوره ١٩٧ - ١٩٨ .

(٣) نقائض جرير والأخطال (عبدالمجيد المحتسب) ٤٢٧ ، فن الهجاء وتطوره ٢٠٥ .

(٤) شعر الأخطال ٦٣٥/٢ - ٦٤١ ، نقائض جرير والأخطال ١٣٤ - ١٣٩ .

(٥) الخيل المملّمة : التي وضع فرسانها عليها علامة للشجاعة .

- النَّازِلِينَ بدار الذلَّ إن نزلوا
والظَّاعِنِينَ على أهدوا * نسوتهم
بمعرض ومُعيد أو بني الخطف
قوم إذا استنبج الأضياف كلبهم
فتمسك البول بخلاً أن تجود به
لا يثأرون بقتالهم إذا قتلوا
ولا يزالون شتى في بيوتهم
فاقد جرير فقد لاقيت مطالعاً
هلا كفيتم ممداً يوم مضلة
جاءت كتاب كسرى وهي مضببة
ما كان منزلك المروت منجراً
- (١) وتستبيح كليب محرم الجار
(٢) وما لهم من قديم غير أعيار
(٣) ترجو جرير مساماتي وأخطاري
(٤) قالوا لهم: بولي على النار
وما تبول لهم إلا بمقدار
(٥) ولا يكرّون يوماً عند إجحار
(٦) يسمون من بين ملهوف وفرار
(٧) وعرا ولا تارك بحر مفعم جبار
(٨) كما كفيتم ممداً يوم مضلة
(٩) فاستأصلوها وأردوا كل جبار
(١٠) يا ابن المراغة يا حيلي، بمختار

- (١) محرم الجار : أي ما ينبغي أن يؤذى له من حقوة، وما يحفظ له من ذمار .
(٢) الظاعنون : المرتحلون . أعيار : جمع غير وهو الحمار .
(٣) معرض ومعيد : أحوال جرير من كليب . والخطفي : جد جرير (نقائض جرير والأخطال ١٣٤) . والمساماة : المفاخرة . والخطر : القدر والجاه .
(٤) استنبج الضيف : أن ينبج نباح الكلاب لتجيبه فيهتدى بصوتها إلى مكان أهل
ينجيه من هلاك السرى .
(٥) الإجحار : الإلحاح . والاضطراب .
(٦) شتى : متفرقون . ملهوف : مستعجد مستغيث . وفرار : هارب مذخور .
(٧) المطالع : المصعد .
(٨) مضلة : شديدة . ذو قار : ما لبني بكر بن وائل ، قريب من الكوفة وفيه
كانت الوقعة الشهيرة بين بكر بن وائل والفرس (معجم ما استعجم ١٠٤٧) .
(٩) أردوا : أهلكوا وقتلوا .
(١٠) المروت : بلاد بني كليب (نقائض جرير والأخطال ١٣٩ ، وانظر : معجم ما استعجم ١٢١٣) والمنجحر :
المقيم في الجحر ، وهو النفق الذي
تقيم فيه الدويبة .

جاءت به مُعْجَلًا عن غَبَّ سَابِغَةٍ من ذى لَهالِه، جهم الوجه كالقار (١)
أُمُّ لَيْثِيمة نَجَلِ الفحل مُقْرِفَةٍ أدَّت لفحلٍ لثيم النجل شَخَّار (٢)

فهو يَسْتَهْلِكها مُسْتَعْلِيًا بالخيل التفلبية وهاجياً بني كليب بنزولهم في ديار الذل،
وغدرهم بالجار، واقتفائهم آثار نسوتهم، وتخلفهم عن قرى الضيف وامتھانھم
لأَمْھاتھم، وعجزھم عن الحرب وإدراك الثأر وفرارھم في القتال. ويلتفت إلى
جرير فيسخر من تصدیه لمفاخرته بقومه الأذال، منوَّهاً ببسالة بني بكر
الربميين في مجالدة الفرس بيوم ذى قار. ثم يُزري بجرير وأمه ناسباً إليه
الهزال وإليها الفحش والفجور.

فهباء الأخطال لبني كليب مھنا يقوم في كثير من جوانبه على الممانسي
الميسورة المتداولة، لأنه يهجوهم بذلهم وموانھم، وغفرهم لذمة الجار،
ويغلهم الشديد حتى على التائه الضال ليلاً الذي قد يدركه الموت، وقعودهم عن
الثأر، وفرارهم من القتال مُولِّين ناجين بأنفسهم إذ يتمرضون لفارة أو تصدّي
لهم الأعداء. إلا أن الأخطال لا يكتفي بذلك، فهو يلبس المهجويين أقبح الهجاء
وأشدّه تهكماً وإقذاعاً مما نجده شائماً في شعر النقائض، ويتجلى تهكمه البالغ
في وصف امتھانھم لأَمْھم التي تقوم على النار الحقيمة الضئيلة فتطفئها ببولة
بنھا أمامھم وبطالبنھم، وفي انسياقھم لأَمْواء نسوتھم، وفي تمريضه بأخوال
جرير الأذلاء المقيمين على السار والذين يعرضون عمّن يَحْتَفِيھم، وفي تصوير والد
جرير الذي اسودَّ وجهه من لفع الهاجرة لقيامه منفرداً في الصراخ. كما أن
إفخائمه وإقذاعه بالمهجويين يتضح في ذكره لسوءة أَمْھم وهي تبول على النار، وفي
تشنيصه على والدّة جرير إذ يصفها بأنّها وضعت جريراً من فحل شَخَّار لثيم الولد.

ونرى الأخطال في قصائد أخرى يستهلّ متفاخراً بنفسه وشعره، متحدّياً جريراً،

(١) الممجل: الجنين الذي يجهض به، فيولد قبل حين الولادة. واللهال: جمع
لهلعة وهي الفلاة الواسعة.

(٢) النجل: الولد. والشخار: الذي يشتر بأنفه.

(٣) أنظر: فن الهجاء وتطوره ٢٠٦ - ٢١٢.

ومتعاليا بقومه الذين لا قبل للناس بهم أيًا ما كانت منعتهم • ثم يخلص إلى
دهجاء جرير وقومه بني كليب • قال (١) :

وما اليربوع مُحْتَضًا يديه بمُغْنٍ عن بني الخطافي قبالا (٢)
تسدُّ القاصما عليه حُتَّى تُنفق أويموت بها هزالا (٣)
فلا تدخل بيوت بني كليب ولا تقرب لهم أبدا رجالا (٤)
ترى منها لوامع مُبرِّقات يكدن ينكن بالحدق الرجالا (٥)
قصيرات الخطى عن كل خير إلى السَّوآت مُسِيخة رجالا (٦)

فالأخطا يزري بجرير وقبيلته الوضيعة ، إذ يرسم له صورة بارعة في السخريسة
مثبها إياه باليربوع ، الذي لا يكاد يسمع جرسا حتى يهين إلى جعته ضافا يديه
إلى صدره ومنتقلا من حفرة إلى أخرى ، حتى تكون نهايته في إحداها فيموت فيها
هزالا • وإذا ينتقل إلى هجو بني كليب يلصق بهم الهوان والقذارة ، ويفحش في
هجو نساءهم ، فيرسمهن وقد تزين وتبرجن وبرزن من بيوتهن ينوين الرجال ، ثم
يصفهن بالتخلف عن الخير وبالإسراع في طلب الفجور (٧).

فالدهجاء يعتمد على أهم سمات شعر النقائض في العصر الأموي وهي السخريسة

(١) شعر الأخطا ١٣٤/١ •

(٢) اليربوع : إشارة إلى جرير بن الخطافي ، وأصل اليربوع في الدلالة على نوث من
الفأر يقف على رجليه مستعينا بذنبه وبضم يديه • والقبال: شح النمل •
(٣) القاصما : الحفرة الأولى من حفر اليربوع ، والنافقا : هي الحفرة الثانية ،
والدأما : هي الحفرة الثالثة ، وهو ينتقل من إحداها إلى الأخرى فيما
يدامه خطـسر •

(٤) رجال : جمع رجل ، ولقد أشار به هنا إلى منازلهم •
(٥) اللوامع المبرقات : هنا إشارة إلى النساء الكثيرات الزينة • والحدق :
هنا الميـون •

(٦) مسمعة : مسرعة • رجال : جمع رعلة بمعنى القطيع والجماعة •
(٧) انظر : نقائض جرير والأخطا (عبد المجيد المحتسب) ٣٦١ و٤٥٦-٤٥٣ ، فن الهجاء
وتطوره ٢١٥ ، تاريخ النقائض ٣٨٢ ، الأخطا شاعر بني أمية ١٩٠ •

والإفحاش^(١) فهو يسخر من هوان جرير في قومه ويصفه بالفزع والجبن وقلة الفناء والنفع ، وهو يفحش على نساء بني كليب مجرداً لهن من أي مظهر من مظاهر التوقر والاحتشام .

فهجاء الأخطال لقوم جرير يُعدّ سجلاً خافلاً للمعركة التي نشبت بينه وبين جريره وهو سجل نرى فيه كل ألوان العنف الذي يصحب مثل هذه الظاهرة : ففيه الإزراء الشديد والاستعلاء المتناهي والإقذاع الفاحش والسخرية اللاذعة ، مما يكشف عن قدرة صاحبه وسعة خياله .

أما جيسه في بني أسد :

اندفع الأخطال إلى هجاء بني أسد بن غزيمة بسبب ما نشأ بينه وبين شاعرهم خنجر الأسد من منافرة ومفاخرة^(٢) وتركز هجاءه لهم في موضعين من شعره : فقد أَلَمَّ بهجائهم في نهاية قصيدته الرائية التي مدح بها جدار بن عباد التغلبي ، واستهلها بذكر الخمر ، ثم تخلص إلى مدح جدار ، وانتقل إلى الفخر فذكر اجارته بني فقيم التميميين ، وانتهى إلى هجائهم . قال^(٣) :

إذا الأسد حلّ بغير جدار	فليس له وابن ظلم انتصار
تصوّل إلى العلى أسد وتأبى	مخازيها وأيديها القصار ^(٤)
ولست بواجد الأسد ولا	يُنيب لما أناب له الحمار ^(٥)
وأشهد أنّها أسد بن نهد	وما ولدت بني أسد نزار ^(٦)

(١) تاريخ النقائض ٤١٣، الهجاء والهجاءون في صدر الاسلام ١٥٩ .

(٢) شعر الأخطال ٤٦٦/٢ .

(٣) شعر الأخطال ٤٦٦/٢ - ٤٦٧ .

(٤) معنى البيت : أي أنّ بني أسد تصدّم ما يبههم وضعفهم عن نيل المعالي والأجاد .

(٥) أناب : رجع مرة بعد أخرى ، يشبههم بالحدير في الذل .

(٦) نهد : قبيلة من اليمن ، وهي نهد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف

ابن قضاة (جمهرة أنساب العرب ٤٤٦/٢) .

فالأخطل يهجو الأسديين بضعفهم لأنهم يستجيرون بسواهم ليدافعوا عنهم ويحموهم، ويرميهم بالذل والهوان لأنهم يطلبون الأمجاد ولا يستطيعون تحصيلها لعدم تفرسهم بالقتال والانصرافهم إلى الخدمة والأعمال الحقة التي يقوم بها الحيوان، ثم يطلعن في نسبهم فيرفض انتداعهم إلى القبائل النزارية ويلحقهم بالقبائل اليمانية. وهذه المعاني من شأنها أن تنفي عن المهجوين فضائل الفروسية الحربية المأثورة، لأن الصربي الأصيل ينتصر لنفسه بقوته ولا ترضى له نخوته أن يدفع عنه غيره ظلم الآخرين، كما أنه يمارس القتال ويمانيه وفيما دون ذلك نراه وقد قام على خدمته السبيد والإماء. (١)

وهذا الأخطل بني أسد بضعف إسلامهم وتأخرهم عنه، وفضل قريشا عليهم وعلى بعض عشائر قيس. قال (٢):

بنو أسد رجالان: رجل تذبذبت،	ورجل أضافتها إلينا التراتر (٣)
فما الدين حاولتم ولكن دعاكم	إلى الدين جوع لا يفيض ساءر (٤)
أخنجر لو كنتم قريشاً شيمتم	وما هلك جوعاً بل نفوى المصاصر (٥)
إذا لظريتم في البطاح بسهممة	وكان لكم من طير مكة طائر (٥)
ولكنها احتكت بكم قملية	بها باطن من دا * سو * وظامر (٦)
وأما تمنىكم قريشاً فلزتها	مصايح يرميها بعينيها ناظر
فما أنتم منهم ولكنكم لهم	عبيد العصا ما دام للزيت عاصر
وما ختمت أكتافكم لنبوّة	وأستاهكم ما فسحت المنابر (٧)

(١) أنظر: فن الهجاء * وتطوره ٢٦٦-٢٦٧.

(٢) شعر الأخطل ٤٦٥-٤٥٩/٢.

(٣) تذبذبت: اضطربت، وأراد: ذهب إلى غيرنا. أضافتها: ألبأتها. والتراتر: المداثر.

(٤) لزوى: موضع في ديار بني أسد، قال الأخطل: أخنجر ١٠٠ البيت (مصحح ما استمع ١١٥٨).

والمصاصر: جمع المصير وهي الجارية أول ما تحيض لانصرار رحمها.

(٥) البطاح: جمع بطحاء، وأراد بطحاء مكة. والسهممة: النصيب.

(٦) القملية: المرأة القصيرة الحقيمة.

(٧) فسحتها المنابر: أي اتسعت من طول الجلوس عليها.

بني أسد لا تذكروا الفخر بينكم فأنتم لثام الناس بادوا حاضر
 بني أسد لا تذكروا المجد والعلو فإنكم في السوق كذب سماسر (١)
 إذا شئت أن تلقى غلام نزيمة بنو كاهل أخواله والفواضر (٢)
 بنو مردفات رثمن لمنزوة قراع الكماة والشواجر (٣)

فهو يهجومهم بتقلبهم ونفاقهم ، لأن دخول بعضهم في الإسلام لم يكن عن عقيـدة وإنما ألجأهم إليه ما كانوا فيه من فقر وجوع ، ويكذب انتسابهم إلى قريش لأنهم لو كانوا منها لما جاعوا وافتقروا ولكان لهم نصيب في بطاح مكة ولمـر جانبهم وشرفـت أقدارهم بالنبوة ، ويُنـدب بتعالـيهم واتعائهم المبد لأن ذلك كذب وبهتان ، فقد هانوا على القبائل حتى أبيحت ديارهم وسُبيت نساؤهم وأردفت خلف الفرسان .

ثم تصدى لشاعرهم خنجر ، فميرّه بهزيمته في قتال جرى بينه وبين بني أم سنبر السديين ، ورماه بشجّة أصابت حاجبيه يرمذه وقد استنفذ فيها غاية الوصف قال :

أخنجر قد أخزيت قومك بالتي رمتك فويق الحاجبين السنابر (٤)

(١) الكذب : بضم الـذال : جمع كذوب ، وسكنها للتخفيف . والسماسر : جمع سمار وهو المتوسط بين البائع والشاري .

(٢) النزيمة : القريبة . كاهل : هو كاهل بن أسد بن خزيمة (جمهرة أنساب العرب ١/١٩٠) . وغاضرة : هو غاضرة بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد ابن خزيمة (جمهرة أنساب العرب ٢/٤٦٥) . يقول : إذا شئت أن تلقى غلاماً منّا ، أمه سبيّة مذكم ، لقيته .

(٣) مردفات : جمع مردفة وهي السبية أردفها خلفه من سبائها . العنوة : القهر والنبوة . قراع الكماة : مضاربة الفرسان . والشواجر : المتشابكة المتداخلة .

(٤) السنابر : بنو أم سنبر من بني نصر بن قُيَين بن الحارث بن ثعلبة ابن دودان بن أسد ، وكانوا مجّجوا وأخنجروا في وجهه (شعر الأخطل ٢/٤٦٣ ، وانظر : جمهرة أنساب العرب ١/١٩٤) .

- فلو كنت ذا عزّ منمت ببعضه جبينك أن تدمى عليه البوائر (١)
 فأبدي لمن لا قيم وجهك واعترف بشنما* للذبان فيها مصاير (٢)
 بنمارق ينفى المصاير أربها عليها من الزرق العيون عساكر (٣)
 أين عوز السماء سُميت خنجرا وشرا سلاح المسلمين الخناجر
 وإن امرأ ما بين عينيه كاسته هجا واثلاً طراً لأحمق فاجر (٤)

فهو يهجو بهذه الطائفة التي شوّهت وجهه ونفرت الناس منه ، فهي عبيقة نافذة ، للذبان فيها مصاير* و"عليها من الزرق العيون عساكر" وهي شنما* قبيحة . وينمى عليه أن يسمى خنجرا ، وهو أردأ أسلحة المسلمين . إنها أبيات لاذعة جعلت وجه خنجر قميئاً دميماً تزدريه العين ، كما جعلت اسمه منفراً تمافه النفس .

والأخطال مقلد في بعض معانيه ، إذ يطن في نسب المهجوين فيبدمهم عن القرشيين ، ويبين هوانهم وقلة قدرهم بين القبائل التي أباحت حماهم وسببت نساءهم ، ويُميّز شاعرهم بجبينه وهزيمته في القتال مستدلاً على ذلك بالطائفة التي شجّت جبينه . وهو مجدّد في مبان أخرى ، أفاد بعضها من الحياة الإسلامية الجديدة كوصف المهجوين بالنفاق والتظاهر بالإيمان ، وابتدع بعضها ابتداءً كما يتضح ذلك في هجائه لشاعرهم باسمه وهيئته ، إذ لم نجد بين الشعراء الجاهليين أو الأمويين من يهجو خصمه باسمه أو بطائفة طعن بها ويتفرّغ لوصفها (٥).

ومن هنا نرى أن هجا* الأخطال لبني أسد اشتمل على بعض الممانى المذكورة ،

- (١) البوائر : جمع البصيرة وهي القطعة من الدم .
 (٢) المصاير : جمع الصير وهو الموقع . يقول : لا تستر تلك الشجة الشنيعة التي يسيل منها الدم ويتهافت عليها الذباب .
 (٣) الفمارة : التي يفور منها الدم . السّبر : مصدر سَبَر الجرح أو نظر مقداره وقاسه ليصر غوره ، ومُسَبَرته نهايته . والأرب : القطع . يقول : إنه جرح جرحاً بالفا لا يمكن أن يقاس غوره .
 (٤) طرا : جميعاً .
 (٥) أنظر : فنن الهجا* وتطوره ٢٦٣ و ٢٦٥ ، الأخطال الكبير ٢٥٠ .

ويتجلى ذلك في بيان ذلهم وضعفهم وقلة شأنهم وجبنهم أمام غارات القبائل عليهم .
كما اشتمل على مسان جديدة ، مثل هجا * الخصم بالنفاق والفسق .

أهاجيه في بعض بطون كلنسب :

ولالأخطال هجا * في بطون الذئيل وعوف وأشرس بني زيد بن عامر بن عبيل—
الكلبيين ، وكانت هذه البطون لحقت ببني تغلب وصارت في جوارهم وأُعت أنها منهم ،
فقلت : نحن بنو زيد اللات بن عمرو بن غنم بن تغلب^(١) . وربما كان دافع الأخطال
إلى هجائها هو ما عُرف عنه من البذاءة والسفه وطلاة اللسان ، فأراد تحقيرها
وبيان ضعفها وهوانها لتخليها عن نسبها ، ورفض ما تدعيه من أنها تغلبية النجار^(٢)
ومن الجائز أن يكون هجاؤه لها بدافع العداوة التي نشأت بين تغلب وبين كلب ،
إثر مؤازرة التغلبيين للقيسية في غاراتها على كلب واليمنية إبان الفتنة .

وهجا * هذه البطون لا يتمتعون فيد الأخطال المقطوعات والأبيات ، يكرّر فيها
المساني نفسها ويردّها . ومن ذلك قوله ينمى عليهم دناءتهم وذلتهم^(٣) :
إلا إن زيد اللات يوم لقيتها علاقة سوء في إنا * مثلهم^(٤)
قبيلة ما يندرون بدمية ولا يظلمون الناس مثقال درهم
ولا يردون الما * إلا عشيبة على طول أظما * ووجه ملطهم
هو العبد يجبي كل يوم ضريبة متى تلزم العبد المذلة يلسزم

فمن الواضح أن هجاؤه ههنا جاملي مشبع بروح الصحرا ، يقتبس منها صوره بالإضافة
إلى تعابيره وأجوائه . كما أن النقائص التي يتناول بها المهجويين مستفادة من
واقع البيئة الجاهلية ، فهو يهجوهم بهوانهم وقلة قدرهم إذ يقرنهم بجزء من
إنا * مثلهم وهو علاقته السهترية . ويندد بضعفهم إذ يصف عجزهم عن الندر والظلم ،
مفيداً في ذلك من قيم القروسية الجاهلية التي تؤمن بالقوة المطلقة التي لا
يحتما حد . ويتكامل هذا المعنى الهجائي بوصفه لعجزهم عن مزاحمة الناس على

(١) معجم ما استعجم ٣٠ .

(٢) انظر : شعر الأخطال ٥٥٦/٢ و ٥٧١ .

(٣) شعر الأخطال ٥٥٨/٢ .

(٤) العلاقة : ما يُعَلَّق به الإنا * . ثَلَمَ الإنا * : كسر حرفه .

الماء مع ظمئهم ، فهم لا يستقون إلا عشيّة أو بعد أن يتولّى الناس عن المسنود ويتفرّقوا ، فهم كالعبيد يُزجرون ويلطمون ولا قبل لهم برفض الذل .

إلا أن الجديد في هجا * الأخطال لبني زيد بن عاصم هو كما يتولّى إيليا حاور :
" تمثيله لهزال حالهم بصورة واقعية منعمة في الدقة ، إذ قرنهم بالإنا * المثلّم
أو بالأخرى بجزء منه بملاقته المتدلّية المهترئة . والمعنّى يتكامل بين الملاقة
والإنا * المثلّم ، إذ أن ثلثه يضاعف من الإيحا * بمعنّى الهوان وقلة القسدر .
ونظيلة الشاعر في ذلك هي امتداداً إلى هذه المقارنة الموحية النافذة " (١) .

ويقول واصفاً جبنهم (٢) :

لا يرهب الضبع من أمست بمقوّته إلا الأذلان : زيد اللات ، والضم (٣)
ها تا لهن ثفا * وهي جائلة وهو لا قابلو خف وإن رَغَمُوا (٤)

فالأخطال يتداول في البيتين معنى مجائياً قديماً وهو جبن المهجّوين ، ويستدلّ عليه بوصف تغاذلهم عندما يعترضهم الأعداء * فهم يدورون على أنفسهم ويتظاهرون بالحمية بعد أن يُنكل بهم .

ولعل الجديد في هذا المعنى المجائى يتمثل في هذه المقابلة التي أجراها الشاعر بين المهجّوين وبين الضم * فكما أن الضم تثنّو حين تفجّوها الضبع ، كذلك يتغاذل المهجّون ويحيثون عندما يطالهم الأعداء (٥) .

ويقول أيضاً في وصف جبنهم ، مقدّم في هجا * نساثم (٦) :

ألا يا لزيد اللات ما بال راية رفتم عصاها بعدما أدبر الأمر
لتحموا نساءً بادياً ثلباتها قصاراً هواديها ، وأساطها عَجْر (٧)

(١) فن الهجا * وتطوره ٢٧٢ .

(٢) شعر الأخطال ٥٧٧/٢ .

(٣) المقوة : ساحة الدار .

(٤) الثفا * : صوت الضم . الخف : الذل والضم . ورغما : لم يقدر وأعلى الانتصار .

(٥) أنظر : فن الهجا * وتطوره ٢٧٠ .

(٦) شعر الأخطال ٥٦٥/٢ .

(٧) ثلباتها : عيوبها . هواديها : أعناقها . وعجر : جمع أعجر وهو الضم الممتلي .

فبنو زيد جبناءً أذلاء لا ينهدون للدفاع عن حماهم حين يثار عليهم ، بل يتظاهرون بالإباء والبطولة وحماية أنفسهم ونسائهم بمد أن يتولّى المخيرون وينقضي القتال . وظاهر أن الأخطل يقذع في هجائهم إقذاعاً لم نشهد له مثيلاً في شعر الجاهليين ، فنسائهم لا يكدن يتميزن بأية ميزة تدفع رءالهن إلى الذود عنهن ، لكن عيوبهن كثيرة وأجسادهن قبيحة قبيحاً شديداً يظهر في قصر أعناقهن واستدارة صدورهم — وانتقام بطونهن (١) .

فالأخطل يعتمد في هجائه لبني زيد بن عامر الكلبيين على المعاني الهجائية المقررة في شعر الجاهليين والأمويين ، كوصم المهجوين بالذل وقلة الشأن والجن والتنازل . لكن الجديد في هجائه لهم يتمثل في ثلاثة أمور : أولها ، أنه يعتمد إلى تمثيل المعنى القديم بما يماثله ، وقد اتضح ذلك حين قرن المهوين بملاقة الإماء المثلم وبالضم لإبراز قلة شأنهم وجبنهم . وثانيها ، أنه يعتمد على بعض الإقذاع ، فهو يزرى بنساء المهجوين فينسب إليهن العيوب ويصف أعضائهن بما لا يحسن . وثالثها ، أنه يرتقي عن أساليب الهجاء القديمة التي كانت تلم بهذا الموضوع المأماً مبتسراً في القصيدة التقليدية ، إذ نراه يفرد الهجاء في مقطوعات وأبيات .

ولعل في كل ما تقدم ما يدل في وضوح على أن للأخطل أسلوبين في معالجة الهجاء ، نقع على أحدهما في الأنماط المبتوثة في المدائح والمفاخر كجزء من قصيدة كاملة ، ونقع على الآخر في القصائد الهجائية المستقلة . ونراه فسي الأسلوب الثاني قد عني أحياناً بنظام القصيدة فقدّم لها ، إمّا بالفضل ووصف الطلل والخمر وإمّا بوصف الطمائن والصيد ، وقد يكتفي في تقديمه لها بواحد من هذه الأغراض ، فإذا انتقل إلى غرضه الرئيسي اهتم بتنسيق عناصره وتنظيمها ، فنال من المهجوة أولاً ثم من قومه ، وأحياناً يفخر بنفسه أو يشيد بمآثر قومه . على أنه إذا كان قد راعى أحياناً نظام القصيدة بالتمهيد لما هو بسبيله من (١) انظر : فن الهجاء وتطوره ٢٦٩ .

هجاء ، فإنه غالباً ما يباشر غرضه الرئيسي دون أن يحتفل بالتقديم له ، أو أن يراعي أي تقسيم أو تنظيم بين عناصره بل يمزج فيما بينها مزجاً شديداً . وكذلك الحال في أماجيه القصيرة التي صَبَّها في مقطوعات أو أبيات ، فهو يبدأها غالباً بغرضه الرئيسي ، فإذا مهد له تَخَلَّص تَخَلُّصاً سريعاً ، إلى ما يريد من هجاء مازجاً بين عناصره في غير تنسيق (١) .

وتبيّن أيضاً أن أماجي الأخطال كانت أوصل بمماني الهجاء الجاهلي ، التي تدور حول وصم المهجوين بالذل والهوان والبلل وإباحة محارم الجيران والهروب عند القتال والقمود عن الثار . وفيما دون ذلك نرى الأخطال قد تأثر بالدين الجديد واتخذة سبيلاً يحاكم به مهجويه فوصفهم بالضلّال والنفاق ، ولجّ في أجواء الهجاء السائح في النقائص ، فلم يتورّع عن الإسفاف ووصم نساء المهجوين بالفحش ، على أن إسفافه لا يكاد يذكر إذا قوبل بما في أماجي جرير والفرزدق من قذف في الأعراض ورسم للمورات ، فلقد كان جرير والفرزدق مقنعين في شعرهما غايّة الإقذاع . ويغلب على الظن أن هناك علاقة قوية بين كون الأخطال شاعراً نصرانياً لدولة إسلامية كان يتكلم بلسانها ويصدر عن سياستها ويمدح خلفائها وأمرائها وبين هذا الإقلال من الفحش ، إذ لم يكن ليجروا على التشهير بنساء قيس ويزربع المسلمات لأن في ذلك عدواناً على مكانة الدولة وتقاليدها ، ولم يكن يليق به أن يغلط مدائمه في بني أمية بهذا التشنيع والسباب . فإذا أنفنا إلى ذلك سنّ الأخطال وتقدمه وتكلفه للوقار والرّزاة ، أدركنا السرّ في عدم تورّطه بما تورّط فيه زميلاه من سقوط على السورات وهتك للأعراض (٢)

واتضح أن أسلوب الأخطال في هجائه هو أسلوبه في معظم شعره ، القائم على الرصانة والذي يعنى بالألفاظ ويدقق في اختيار العبارات ، لأنه سار على طريقة

(١) أنظر : الأخطال شاعر بني أمية ١٨٧-١٨٩هـ ، فن الهجاء وتطوره ١٩٢ .

(٢) - أنظر : تاريخ النقائص ٤١٣-٤١٤هـ ، الأخطال شاعر بني أمية ٢٠٠ و ٢٠٢ و ٢٠٧ .

نقائص جرير والأخطال (عبدالمجيد المحتسب) ٤٥٤ - ٤٥٥ ، الأخطال الكبير ١٦٣ .

الهجاء والهجاءون في الإسلام ٢٠٠ ، الهجاء ١٥ - ١٦ .

زهير وبنيه والحطينة في المكون على القصيد لتجويده وتهذيب أطرافه وحذف فضوله حتى يبدو محكماً متلاحم العناصر . ونظراً لاعتماده على تعبير شعره وثقافته وعنايته بصقل عباراته وتنقيح ألفاظه ، فإن ذلك أنصب شرطاً كبيراً من قوة أهاجيه وتأثيرها وأفندما روح الدعابة والسخرية المضحكة التي يتوخاها جمهور الناس من الهجاء . ولذلك كانت أهاجي جرير أكثر تأثيراً وسيرورة بين العامة وعلى السنة الناس ، لأن صاحبها لم يكن معنياً بالفن الشعري السامي الذي يصدر عن الجهد الطويل والتروى والتجويد ، بل كان يكتفي بما وهبه الله من طبع شعري خصب ومن حسن فني دقيق رقيق ، مما أضفى على ألفاظه رشاقة وليونة وهلى عباراته سهولة وعدوبة وعلى صورته سخرية بارعة مسلّية (١).

أهاجي القطامي القبلية

وللقطامي التغلبي هجاء في القيسيين وفي بعض عشائر قومه ، اندفع إليه بدافع الاحتقار والزراية ، إذ وجد فيهم انحرافاً عن بعض الفضائل العربية المأثورة ، مثل : الكرم ، والذود عن الحمى . فقد غمز الأولين برذيلة البخل التي عاينها فيهم لما نزل بحمام ضيفاً ، ورمى الآخرين بالخور والجبن والقفود عن مواجهة غارات بني سليم وفرسان زفر بن الحارث :

ففي القيسيين :

تمرض القطامي لهجاء القيسيين في قصيدته البائية التي قدم لها بفزلاً تقليدياً ، أبان فيه عن محاسن محبوبته المادية شأنه في ذلك شأن « الكثريرة

(١) أنظر : الأخطال شاعر بني أمية ٣٠٧ و ٣٣٢ وما بعدها ، تاريخ النقائض ٤٢٤ و ٤٤٠ ، نقائض جرير والأخطال (عبدالمجيد المحتسب) ٤١٨ - ٤٢٣ و ٤٦٧ و ٥٠٠ ، الأخطال الكبير ٣٩٨ - ٣٩٩ ، الهجاء والهجاءون في الإسلام ١٣١ ، التطاور والتجديسد

المطالقة من الشعراء العرب في الجاهلية وفي العصور الإسلامية التالية الذين عنوا
 بالجانب الحسي في صوابهم (١) . وكان دافعه إلى مجائهم حرمانهم له من لقوى؛
 إذ ذكر أنه نزل بعشيرة محارب القيسية في ليلة ريح مطرة قارسة البردة، فاستضاف
 عجوزاً ترعى عندها ما يحفظ حياته من طعام ومأوى، فحرمته وغيببت معاه مخ ما
 رأت به من جوع ونصب، فارتحل عنها لما وجدها من قوم لا يقومون بحق الضيافة .
 قاله (٢) :

وإني ولون كانا لسا فر نازلاً	وإن كان ذا حق على الناس واجب
ولا بد أن الضيف مخبر ما رأى	مخبر أهل أو مخبر صاحب
لمخبرك الأنباء عن أم منزل	تضيقت بين المذيب فراسب (٣)
تلفقت في طل وريح تلفنسي	وفي طرمسا غير ذات كواكب (٤)
إلى حيزبون توقد النار كلما	تلفقت الظلما من كل جانب (٥)
تصلى بها برد المشاء ولم تكن	تغال وبيض النار يبدو لراكب (٦)
فما راعها إلا بفام مطيتي	تريح بمحسور من الصوت لاغيب (٧)
تقول وقد قربت كورى وناقتي	إليك، فلا تدع علي ركائبني (٨)

(١) مقدمة القصيدة السربية في العصر الأموي ٠٦٦

(٢) ديوان القطامي ٤٥ - ٥٠ .

(٣) المذيب : ماء بين القاسية والمفيضة ، بينه وبين القاسية أربعة أميال

(معجم البلدان ٩٢/٤) . وراسب : موضع قريب من المذيب بالكوفة ، قاله

القطامي : لمخبرك الأنباء . . . البيت (معجم ما استعجم ٦٢٦) .

(٤) الطرمسا : الظلمة الشديدة .

(٥) الحيزبون : العجوز ، والنون زائدة كما زيفت في الزيتون .

(٦) وبيض : بريق .

(٧) بفام الناقصة : صوت لا تفصح به . محسور : متمعب .

ولاغيب : متمعب .

(٨) الكسور : الرحيل ، وقيل : الرحيل .

بأداته .

فَجَنَّتْ جَنُونًا مِنْ دِلَالٍ مُنِيخَةٍ
سَرَى فِي جَلِيدِ اللَّيْلِ حَتَّى كَأَنَّمَا
فَسَلَّمَتْ وَالتَّسْلِيمَ لَيْسَ يَسْرِهَا
فَرَدَّتْ سَلَامًا كَارِهَاتِمَ أَعْرَضَتْ
فَقُلْتُ لَهَا : لَا تَفْعَلِي ذَا بَرَакِبِ
فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الْحَدِيثَ سَأَلْتُهَا :
مِنَ الْمُشْتَوِينَا لَقَدْ مِمَّا تَرَاهُمْ
فَلَمَّا بَدَأَ حُرْمَانَهَا الضَّيْفَ لَمْ يَكُنْ
أَلَا إِنَّمَا نِيرَانُ قَيْسٍ إِذَا اشْتَوُوا
إِذَا مَتَّ فَا نَعِينِي بِمَا كُنْتُ أَهْلُهُ

وَمِنْ رَجُلٍ عَارَى الْأَشَاجِعِ شَاحِبِ (١)
تَغْرُمُ بِالْأُطْرَافِ شَوْكَ الْمُقَارِبِ (٢)
وَلَكِنَّهُ حَقٌّ عَلَى كُلِّ جَانِبِ (٣)
كَمَا انْحَاذَتْ الْأَقْمَى مَخَافَةَ ضَارِبِ
أَتَاكَ مُصِيبٌ مَا أَصَابَ فَذَا مُسَبِّبِ
مِنَ الْحَيِّ ؟ قَالَتْ : مَعْشَرٌ مِنْ مُحَارِبِ
جِيَاءًا وَرَيْثًا النَّاسَ لَيْسَ بِذَا مُنَاضِبِ (٤)
عَلَيَّ مَنَاسِخُ السُّوءِ ضَرْبُةَ لَازِبِ
لَطَارِقِ لَيْلٍ مِثْلَ نَارِ الْحَبَاحِبِ (٥)
لَتَغْلِبَ ، إِنَّ الْحَقَّ لَا يَبْدُو غَالِبِي (٦)

(١) الدلات: النافذة الماضية. والأشاجع: جمع الأشجع وهو المصب الممدود فسوق
السلامي من بين الرسخ إلى أصول الأصابع التي يقال لها أطناص الأصابع فوق
ظهر الكف.

(٢) تخرم السموك في رجله : شَكَّهَا ودخل فيها • وشوكة العقرب : إِبْرَتَهُ •
(٣) الجانب : الضَرْبُ •

(٤) القد : السير الذي يُقدُّ من الجلد ، وقيل : الجلد الذي تخفف به النمل ،
وقيل : النمل . الريف : السمة في المآكل والمثارب . والناضب : المنقطع
القليل .

(٥) الحباب : رجل بخيل من العرب لا توقد له نار بليل ، فإن أوقدها ثم أبصرها مستضيء أطفأها ، فضربت العرب بناره ويغله المثل . وقيل : الحباب النار التي توربها الخيل بسنابكها من الحجارة . وقيل : الحباب طائر يطير فسي الظلام كقدر الذباب له جناح يعمر إذا طار به ، يتراءى من البعد كشمسة نار (مجمع الأمثال ٢٥١/١) . ووالج من كل ذلك أن نور الحباب هو ذلك النور الذي تضرب العرب به المثل على الاختفاء والظلمة .

(٦) الحسق : الموت .

واضح أن الأبيات تدور على معنى واحد من مساني الهجاء التقليدي المستمد من انعكاس القيم وسلبيتها وهو البخل ، فهو يهجو القيسيين بالامتناع عن إكرام الضيف وإيثاره بكل خير ، لأنه عندما انتجع ديارهم ونزل بهم طالباً القُرَى لم يلق منهم إلا الإملاق والهوان والصدّ والجفاء ، فقد خذلوه وخلفوه دون مأوى أو طعام ، فكان لا بد له من أن يرحل عنهم لأن الحرّ قد يصبر حيناً على الضيم لكنه لا يلبث أن يثور ويتحرّر منه .

في النص السابق ، بتراكيبها الميسرة ومعانيها الواضحة وألفاظها القريبة .

ومن هذين النموذجين يتبين أن للقطامي أسلوبين في الهجاء ، فهو إما أن يجعله جزءاً من قصيدة يحافظ على بنائها التقليدي بالتقديم لها ، وإما أن يفرد في مقطوعة خاصة مازجاً له بالفخر ببني قومه حتى يمتدح معناه ويوسعه ويزيد من زرايته بالمهجو .

وبعد هذه الدراسة يمكن أن نتبين أوجه الاختلاف بين أهاجي الأطل والقطامي التفلبيتين ، وهو اختلاف يظهر من ناحيتين ، هما : الأسلوب ، والمعاني . أما الأسلوب ، فقد خرجت أهاجي الأطل في أسلوب قوى رصين متلاحم العناصر مقتبول السبارات جزل الألفاظ ، لأن صاحبها كان يقتفي آثار أسلافه من عبید الشعر الجاهليين الذين عُنوا بمراجعة أشعارهم وتهذيبها وثقيفها قبل أن يخرجوها . في حين لم يكن القطامي من ذوق هذه المدرسة ، بل كان شاعراً مطبوعاً لا يتكلف الشعر ولا ينتقعه ، ولذلك جاء أسلوبه أيسر وأكثر صفاً وإشراقاً من أسلوب الأطل . أما المعاني ، فقد أفاد الأطل من الدين الجديد فوصم مهجويه بالنفاق والضلال وجارى شعراً عصره في الإسفاف والبذاء ، أما القطامي فتمسك بمعاني الهجاء القديمة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح الآن أن الهجاء في شعر الأطل والقطامي التفلبيين قد تطور بعض التطور في شكله ومضمونه ، فهما لم يقتصرا على اقتفاء آثار القدماء في الإلمام بالهجاء إلاماً مبتسراً في قصائد التقلدية ، بل أفرداه أحياناً في مقطوعات أو أبيات مستقلة . وزاوج الأطل في هجائه بين المعاني القديمة التي تناقض كل ما اعتاد العرب تعظيمه من الشجاعة والنجدة والكرم والوفاء وحماية الجار وطلب الثار ، وبين المعاني الجديدة المستمدة من الدين الجديد كالإيمان ومما شاع في شعر النقائص الأموية كالإفحاش وذكر الصورات .

القصيدة الرابعة

الشعر السياسي

- ١- السياسة في شعر الأخطى
- ٢- السياسة في شعر الخوانج

(١) السياسة في شعر الأخطل

تلعب السياسة دوراً كبيراً في شعر الأخطل التظلي ، فمن المعروف أنه بلغ ذروة مجده في بلاط بني أمية ، حتى إنهم كانوا يقدمونه على كل شعراء عصره ، لأنه دافع عن حقهم في الخلافة ، وأشاد بسياستهم وسياسة عمالهم وولايتهم ، وندد بخصومهم .

وقد نوه الأخطل بكفاح الأمويين في سبيل الملك وبتثبيتهم لأركان دولتهم بما أحرزوه من نصر على خصومهم السياسيين ، من العلويين الذين همزتهم جيوش معاوية في صفين ، والقيسين الذين التفتوا حول الضاحك بن قيس الفهري ودرجهم اليمانية بقيادة مروان بن الحكم في مرج راهط ، والزبيريين الذين قضى عبد الملك بن مروان على فتنهم في العراق والحجاز (١) . وردد الأخطل ما اعتمدته الأمويون من شعارات ومبادئ أقاموا عليها حقهم في الملك ، فهم أحق الناس بالخلافة لأنهم أهل عثمان الأتربون الذين ورثوه وخرجوا يطالبون بدمه حتى ثأروا له ، ولأنهم خير قريش وأحقها بالتقدمة والسلطان وليس ذلك بالتعام فمراقة منبتهم ورفعة أقدارهم وعزهم وكثرتهم وسخاوتهم وحلمهم وبأسهم ، تجعلهم ذوي فضل على الناقمين الطامحين من منافسيهم (٢) . وردد الأخطل الفكرة التي أراد الأمويون إقرارها في أنماط الناس ، وهي أن الله اصطافهم للأمة وأن سلطتهم بمشيئة الله وقدره (٣) . وعني الأخطل بالإشادة بولايتهم ، فأثنى على سياستهم القويمة التي اتصفت بالقوة والحزم ، وقامت على : اتباع سبل الهدى وإقامة حدود الله والتمسك بكتابه ، ومحاربة الفساد واستئصاله والضرب على أيدي

(١) أنظر : الأخطل شاعر بني أمية ١٧٦ - ١٧٧ ، نقائص جرير والأخطل (عبد المجيد المحتسب) ٢٤٥ .

(٢) أنظر : الأخطل شاعر بني أمية ٨١ ، الأخطل الكبير ٣٣١ - ٣٣٢ ، فن المديح وتطوره ١٤٥ ، الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام ٨١ .

(٣) أنظر : الأخطل شاعر بني أمية ١٧٦ - ١٧٧ ، الأخطل الكبير ٣٣١ ، الأخطل في سيرته ونفسيته وشعره ١١٨ ، فن المديح وتطوره ١٧٣ ، التطور والتجديد ١٤٦ ، الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام ٦٣ .

الصلاة والبطش بالمتبردين وإقرار الأمن^(١). وتتردّد هذه المعاني في مدائح الأخطل لبني أمية وولاتهم ، وفي بعض النقائض التي تبادلها مع جرير وتضمّنت مديحاً للأُمويين .

ولكننا نجد أكثر المعاني التي صوّر فيها الأخطل تمسك بني أمية بالملك ونضالهم في سبيله وحققهم فيه. وأثنى فيها على سياسة وولاتهم ، تتركز في القصائد التي مدح بها بني أمية وبعض عمالهم ولم يمن فيها بمناقضة جرير ، مثل: رائيته (صدع الغليظ)^(٢) في مدح عبدالله بن معاوية ، وداليته (كلت صبيرة)^(٣) في مدح عبدالله ويزيد ابني معاوية ، ورائيته (رأيت قريشاً)^(٤) في مدح خالد ابن يزيد بن معاوية ، ولاميته (صحا القلب)^(٥) ورائيته (أقفر البُلُخ)^(٦) وميميته (عفا الجر)^(٧) في مدح بشر بن مروان ، ولاميته (أبلغ أمير المؤمنين)^(٨) في مدح عبيدالله بن زياد والي العراق ليزيد بن معاوية ، ورائيته (صرمت جبالك)^(٩) في مدح الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق لعبد الملك ابن مروان .

أما المعاني التي هاجم بها الأخطل القيسيين والزبيريين خصوم الأمويين فتتركز في نقائضه مع جرير ، وبخاصة في رائيته (خف القطين)^(١٠) وفي بائيته

(١) أنظر : الأخطل شاعر بني أمية ١١٢ و ١٢٦ - ١٢٧ ، الأخطل الكبير ٧٢ و ٩٧ ، الأخطل : مدائح منتخبة ٤٢ ، نقائض جرير والأخطل (عبدالمجيد المحتسب) ٣٦٨ ، الهجاء والهجاءون في صدر الإسلام ٨٢ .

(٢) شعر الأخطل ٤١٥/٢ - ٤١٧ .

(٣) شعر الأخطل ٤٤٤/٢ - ٤٤٦ .

(٤) شعر الأخطل ٦٤/١ .

(٥) شعر الأخطل ٣٥٠/١ .

(٦) شعر الأخطل ٨٤/١ - ٨٦ .

(٧) شعر الأخطل ٣١٨/١ - ٣١٩ .

(٨) شعر الأخطل ٥٣٩/٢ - ٥٤٠ .

(٩) شعر الأخطل ٤٠٤/٢ - ٤٠٩ .

(١٠) شعر الأخطل ١٩٦/١ - ٢٠٥ .

(عقبتم علينا) (١) . وسبب ذلك أن جريراً من بني يربوع الذين تصبّوا لابن الزبير ، فقد حاربوا عبد الملك بن مروان مع مصعب بن الزبير سنة ٧٢ هـ . وحمروا ف أن القيسيين بايعوا ابن الزبير وحاربوا الأمويين وحلفاءهم من القبائل اليمانية تحت إمرة الضحاك بن قيس الفهري في مرج راط . فاتفق موى عثيرة جرير مع موى قيس المضرية (٢) التي جمعت إلى عداوة الأمويين عداوة بني تغلب في الجزيرة ، بسبب تنارب مصالح القبيلتين السياسية والاقتصادية ، وما جرى بينهما إثر ذلك من أيام وحروب ، وما ترأسه شعراؤهم من قصائد . وكان الأخطال من أشد شعراء تغلب انتصارا لقومه ، وتمرداً لأعدائهم من القيسيين الذين كانوا يعادون بني أمية (٣) . وكان جرير ينطق بلسان قيس ويدافع عنها ويملاً أنصاره بانتصاراتها . وكان الأخطال يؤيد بني أمية ، فاستغل موقف قومه وموقف بني أمية من خصومهم القيسيين والزبيريين أحسن استفلال ، وانطلق بهجوم ويحذر الدولة من نفاقهم وغدرهم وانحرافهم عن الحق (٤) .

ويبدو داعياً سياسياً في رائيته التي مدح بها عبدالله بن معاوية ، إذ يصفه عزم معاوية بن أبي سفيان على رفض التسليم ببينة علي بن أبي طالب والتمسك بحق الأمويين في الخلافة ، عن طريق قيادة الجيوش الجرارة إلى الخصوم

(١) شعر الأخطال ٤٧/١ - ٥١ .

(٢) نقائض جرير والأخطال (عبدالمجيد المحتسب) ١٣١ و ١٣٣ و ٢٤٥ و ٣٦٧ ، العصر الإسلامي ١٦١ و ٢٥٨ و ٢٥٩ ، التطور والتجديد ١٦٨ و ١٨٢ ، الأخطال شاعر بني أمية ١١٠ ، الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام ١٤٨ .

(٣) نقائض جرير والأخطال (عبدالمجيد المحتسب) ٦٢ و ٢٤٦ ، العصر الإسلامي ٢٥٢ ، فن المديح وتطوره ١٤٧ .

(٤) تاريخ النقائض ١٩٧ ، نقائض جرير والأخطال (عبدالمجيد المحتسب) ٦٦ و ١٦١ و ٣٧٦ ، الأخطال شاعر بني أمية ١٨٦ ، الأخطال الكبير ٢٠٠ ، العصر الإسلامي ٢٤٢ و ٢٥٢ ، التطور والتجديد ١٨٢ ، الهجاء والهجاؤون في صدر الإسلام ١٤٩ .

وعلى خُزاعة والسكون تَعَطَّفت (١)
والخيلُ تَمْتَقُ عنهم أسلابهم (٢)
حتى إذا عَلِمَ الإله نكالَه وتماغروا للحرب أي صُفَار
حَقَنَ الدِّمَاءَ وَرَدَّ الْفَتْهَمَ لَهُمْ وجزاهم بالقرن والإكثار

وفي الدالية التي مدح بها عبدالله ويزيد ابني مساوية ، وصف بلاء بني
أمية في مرج راسط ، وصوّر شدة إيقاعهم بأعدائهم . وأعاد القول في انتصارهم
بصفين ، يوم خرجوا ثائرين يطالبون بدم عثمان ، فاستجابت لهم الأقدار ويسّرت
لهم الانتقام من قتلته الظالمين الفادرين الذين لم يصفروا إلى من ناشدكم في
إنقاذه والكف عنه ، فكان قتلهم طمانينة لنفوس الثائرين وعقابا وإذلالا لرقاب
الواترين . قال (٣) :

ويوم شريلة قيس إذ مُنبتَ لهم حَنَّتْ مَثَاكِيلُ مِنْ إِيْقَاعِكُمْ نُكُودُ (٤)
ظَلُّوا وَظَلَّ سَحَابُ الْمَوْتِ يُمَطِّرُهُمْ حَتَّى تَوَجَّهَ مِنْهُمْ عَارِضٌ بِسُورِ (٥)
وَالْمُشْرِفِيَّةِ أَشْبَاهُ الْبُرُوقِ لَهَا فِي كُلِّ جَمْعَةٍ أَوْ بَيْضَةٍ خُكُودُ (٦)

- (١) خزاعة : قبيلة من الأزد (جمهرة أنساب العرب ٢/٣٣١) . السكون : هو السكون
ابن أشرس بن كندة (جمهرة أنساب العرب ٢/٤٢٩) . وتمطفت : مالت .
(٢) مَتَقَ الثوب : مَزَقَهُ . المشترك : ساحة الحرب . والمنار : الإشارة .
(٣) شعر الأخطال ٤٤٤/٢ - ٤٤٦ .
(٤) حَنَّتْ : بكت . الشكل : فقدان المرأة ولدها . والنكد : بتسكين الكاف : جمع
الناكد ، وهي التي لا يعيش لها ولد ، وحرك الكاف بالضم إتباعا . يقول :
قَدَّرَكَ اللَّهُ لِأَعْدَائِكَ يَوْمَ مَرْجٍ رَاسِطٍ ، فَأَوْقَعَتْ بِهِمْ وَأَثَكَلَتِ الْأُمْهَاتُ .
(٥) التَّوَجَّهَ : الإقبال والانتهزام . العارض : السحاب الممطر في الأفق ، شَبَّهَ الجيد به .
والبرد : الذي يطر البرد .
(٦) المشرفية : السيوف ، منسوبة إلى المشارف وهي قرى من أرض اليمن وقيل من
أرض الشام وقيل من أرض العرب تدنو من الريف (لسان العرب ٩/١٧٤ شرف) .
والخد : جمع الخدة وهي الحفرة المستعيلة في الأرض ، شَبَّهَ بها الجراح
في جماعهم الأعداء .

ويوم صفين والأبصارُ غاشمة أمتكم إذ دعوا من ربهم مَسَد
على الألى قتلوا عثمانَ مظلمة لم ينههم نصدعده وقد نُسَدوا^(١)
فتم قرت عيون الثائرين به وأدركوا كل تبّل عنده قَسود^(٢)
فلم تزل فيلق خضرا تحطمهم تنمى ابن عفان حتى أفرخ الصيد^(٣)

وفي رأيته التي مدح بها خالد بن يزيد بن معاوية ، نوه الأخطال بظهور
الأمويين على خصومهم وصور ظفرهم بالخلافة . قال^(٤) :
رأيت قريشا حين ميّز بينها تباحت أضفان وطعن أمـور
علتها بعمور من أمية ترتقي ذرى هضبة ما فرعها بقصير^(٥)

وفي نقيضه البائية التي مدح بها عبد الملك بن مروان وضمنها هجاء قبائل
قيس عيلان وهجاء شاعرهما جرير اليربوعي ، يمزج الأخطال بين مصلحة القبيلة وبين
مصلحة الدولة ويتجلى شاعراً سياسياً يداخ من وجهة نظر الحزب الأموي . فقد
خاطب في أولها القيسيين مفتخراً عليهم بقبيلته معتدّاً بما أنزلته بهم من
مزائم ، مُعيّناً الأيام مستمياً لها وللقبائل بأسمائها . ويميد إلى الأثمان ما
كان من أمر القيسيين في مرج راهط إذ ملأ ولوارعاة الحق والسلطان فانهزموا
وفشلوا في الدعوة لابن الزبير ، وقتل منهم العدد الكثير على يد المروانيين

- (١) المظلمة : الظلم . والنشد : الاستعلاء برفيع الصوت .
(٢) التبّل : التره ، أي العداوة التي يطالب بها ، والجمع التبول . والقود :
القصص ، أراد : فيه قود ، أقام "عند" مقام "في" . يقول : أدركوا ثأرهم
وكان ذلك عقاباً لما اقترفه قتلة عثمان من الإثم .
(٣) الفيلق : الجيش العظيم ، وأراد : كتيبة عظيمة . الخضرا* : الكتيبة ، لما
فيها من سواد الحديد . أفرخ : سكن وانقطع . والصيد : الكبر والنخرة .
(٤) شعر الأخطال ٦٤/١ .
(٥) الفـروع من كل شـيء* : أعـلاله ، والجمع
الفـروع .

وحلفائهم من اليمينيين ، الذين تصدّوا للعصاة ودافعوا عن حق المروانيين
فانتصروا ورجعوا بملكهم التّليد الذي أراده الله لهم من دون سواهم . ويتجسّد
بعد ذلك إلى عبد الملك بن مروان فيشير إلى أن الله خصّه بالخلافة لما فيه من
فضل وكفاية على رغم الكاذبين الذين يصدّون عن الحق من القيسيين والزبيريين (١).
قال (٢):

عَتَبْتُمْ عَلَيْنَا قِيَسَ عِيْلَانِ كَلِكُمْ وَأَيُّ عَدُوٍّ لَمْ تُبَيِّتْهُ عَلَى عَتَبِ (٣)
لَقَدْ عَلِمْتَ تِلْكَ الْقِبَائِلُ أَنَّنَا مَالَيْتُ جَذَامُونَ آخِيَةَ الشُّقْبِ (٤)
فَإِنَّتِكَ حَرْبَ ابْنِي نِزَارٍ تَوَاضَعْتَ فَقَدْ عَذَرْتَنَا مِنْ كَلْبٍ وَمِنْ كَيْسِ (٥)
وَفِي الْحُقْبِ مِنْ أَفْنَانٍ قِيَسَ كَأَنَّهُمْ بِمَنْعَرَجِ الشَّرَارِ حُشِبَ عَلَى غُشْبِ (٦)
وَوَلَّتْ بَنُو الصَّمَا تَأْوِي فُلُولَهُمْ إِلَى كُلِّ سَمَا ذِرَاعِينَ وَالْحُقْبِ (٧)
وَقَدْ كَانَ يَوْمًا رَامَطٌ مِنْ ضَالِكُمْ قَنَا لَأَقْرَامٍ وَخَطَبًا مِنْ الْخَطَبِ

- (١) أنظر : تاريخ النقائض، ٣٧٤ - ٣٧٥ ، نقائض جرير والأخطل (عبد المجيد المحتسب)
٢٤٩-٢٥٠ ، الأخطل شاعر بني أمية ١٢٤ ، الأخطل في سيرته ونفسيته وشعره ١٠٦ و
١١٢ ، الأخطل الكبير ٢٠١ و ٢٢٣ ، الأخطل : أمّاجي منتخبة ٢٤ ، الهجاء والهجمات
في صدر الإسلام ٧٧ و ٨٤ و ٨٧ .
(٢) شعر الأخطل ٤٧/١ - ٥١ .
(٣) على عتب : أي على بغض وعتاب وشكوى .
(٤) الماليت : جمع المصليت وهو الرجل الماضي في الأمور . جذامون : قاطمون .
الآخية : العمود يعرّض في الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير وساده كالعمود تُشدّ
إليه الدابة . والشب : تهيج الشر والفتنة والغمام .
(٥) ابنا نزار : مضر وربيعة ، وأراد : قيس وتغلب . تواضعت : سكنت وكفّت .
عذرهما إياهم : رضاها آثارهم فيها . وكلاب وكعب : ابنا ربيعة بن عامر
ابن صعصعة .
(٦) الحقب : قبائل من قيس ، جعلها أذنا با (شعر الأخطل ٤٨/١) . والأقنأ :
الأخطل ، جمع الفنو .
(٧) الصمما : أم عمير بن الحباب أو بغض أمهاته . الفلول : المشهزمون .
والسما : من اللسم وهو الوضّ -

تسامون أهل الحق بأبنئي مُعَارِبَ وركب بني الصجلان حسبك من ركب (١)
 قُروم أبي العاصي غداة تَخَمَّطت دمشقُ بأشباه المهنأة الجُرب (٢)
 يَفُودون موجاً من أمية لم يَكُث ديارسليم بالعجاز ولا الهَضْب (٣)
 مُلوكٌ وحكام وأصحاب نجسدة إذا شغبوا كانوا عليها أولي شغب
 أَهَلُّوا من الشهر الحرام فأصبحوا موالٍ مُلك لا طَريف ولا غَصْب (٤)
 ولم تَر عيني مثل مُلك رأيتَه أتاكَ بلا طَمَن الرِّماح ولا الضرب
 ولكن رآكَ الله موضع حقِّه على رغم أعداء وصدادة كُذِب (٥)

وتعدّ نقيضته المشهورة "خَفَّ القَطِين" أروع نقائضه مع جرير . وفيها استغل
 خصومة الزبيرية والقيسية لبني أمية وعلى رأسهم عبد الملك استغلالاً واسماً (١) إذ
 نراه معنياً بتقرير حق عبد الملك في الخلافة ، فهو مؤيد من الله في ملكه ، وهو
 خليفة الله في أرضه وحامي كلمته ومنفذ إرادته ، وهو خَوَّاش للفقرات العظيمة ،
 وهو الذي يتبع اليمن ظله ، به يَتَبَرَّك الناس وإليه يفرعون في تدبير أمورهم

- (١) تسامون : تفاخرون . وأراد بأهل الحق : بني أمية .
 (٢) القروم : جمع القرم وهو السيد العظيم هنا . تخمطت : هاجت وثار .
 المهنأة : المطالية بالقطران . والجرب : الإبل أصابها الجرب ، شبه السلاح
 عليهم بالقطران لسواده .
 (٣) الموج : العدد الكثير هنا . والهضب : جبال صفار بنجد ، تفصل بين ديار بني
 سليم وديار بني عامر (معجم البلدان ٤٠٧/٥ هضب) .
 (٤) أهلوا من الشهر الحرام : خرجوا في استهلاله . الموالى : الأصحاب . الطريف :
 المستحدث . والفصب : الإغتصاب والقهر ، أو لم يأخذوا الخلافة باغتصاب بل
 أخذوها باستحقاق .
 (٥) الصدادة : الذين يصدّون عن الحق . وكتب : بضم الذال ، سكتها للإتباع .
 (٦) نقائض جرير والأخطل (عبد المجيد المحتسب) ٤٥٨ هـ النصر الإسلامي

وتصريف شو* ونهم^(١) وهو محبّ للعمران ونهضة البلاد ، ساع في إقرار ملكه وتثبيت أركان دولته ، وهو بطل مقدام يحمي* الجيوش ويتقدمها ويغشى القناطر يبنيتها ويهدمها ، ويوقع بأعدائه الزبيريين الخارجين على سلطان الدولة في العراق الذين التفتوا حول مصعب بن الزبير فيخمد فتنتهم ويردّهم إلى طريق الهداية والحق ويميد الأمن والاستقرار إلى دار الاسلام التي ابتليت بشرم^(٢) ثم يتوجّه الأخطل بالنصيحة إلى بني أمية فيحذّرهم من عدوهم الألدّ زفر بن الحارث زعيم قيس الجزيرة وكانوا قد قرّبوه بنية اصطناع قبيلته ، ويبين لهم أن زفر منافق متقلب تنطوى نفسه على حقد دفين وغلّ كمين ، فكيف يطمئنون إليه ويأمنون شره وعداوته وهو يتربّع بهم ولا يرجو لهم ملاحاً^(٣) . ويزهو بانتصارات تطلب في الجزيرة على أعدائهم وأعداء الدولة من القيسيين الكافرين ، ويزعم أنه لولا هذه الانتصارات ما أقبلوا لمبايعة بني أمية مرغمين كارمين بعد تمرد وتردّد ويدعو عليهم بالظلال المقيم ، ويشهر بهم زاعماً أنهم يضرّون من العرب ولا يصيرون عليها^(٤) . قال^(٥) :

إلى امرئ لا تُعزّينا نوافله أظفره الله فليهنى* له الظفر^(٦)

- (١) الأخطل شاعر بني أمية ٢٤٤ ، الأخطل الكبير ٨٨ ، فن المديح وتطوره ١٦٨ .
- (٢) الأخطل شاعر بني أمية ١١٩ و٢٤٤ ، التطور والتجديد ١٥٢ ، العصر الاسلامي ٢٥٤ ، الأخطل في سيرته ونفسيته وشعره ١١٩ - ١٢١ ، نقائض جرير والأخطل (عبدالمجيد المحتسب) ٢١٣ و ٣٣٣ .
- (٣) تاريخ النقائض ٣٩٤ ، نقائض جرير والأخطل (عبدالمجيد المحتسب) ٣٣٣ ، الأخطل الكبير ٢٢٧ ، المصيبة القبلية ٤٣٣ ، الهجاء* والهجاءون في صدر الإسلام ٧٩ - ٨٠ .
- (٤) نقائض جرير والأخطل (عبدالمجيد المحتسب) ٢٢٦ و ٢٤١ ، تاريخ النقائض ٣٩٣ ، الأخطل شاعر بني أمية ١٢١ ، الأخطل الكبير ٨٩ و ٢٠٢ ، الأخطل في سيرته ونفسيته وشعره ١٢٧ ، العصر الاسلامي ٢٥٤ .
- (٥) شعر الأخطل ١٩٦/١ - ٢٠٥ .
- (٦) لاتعزّينسنا : لاتغفلننا ولا تهملننا . والنوافل :

الهبات والمطاييس .

(١) خليفة الله يُستسقى به المطار	الخاص النمر والميمون طائره
(٢) يفتريه بعد توكيد له غرر	والمستمر به أمر الجميع فما
(٣) أبدى النواجذ يوم باسل ذكر	فهو فداء أمير المؤمنين إذا
(٤) لوقعة كائن فيها له جرر	مفتري كافتراش الليث كلكله
ما إن رأى مثلهم جنولا بشر	مقدم مائتي ألف لمنزل
(٥) مسوم فوقه الرايات والقتر	يفشى القناطر يبنيها ويهدمها
(٦) وبالثوية لم ينبض بها وتر	حتى تكون لهم بالطف ملحمة
(٧) ويستقيم الذي في خده صفر	وتستبين لأقوام خالتهم
كانت له رنقة فيهم ومخر	ثم استقل بأثقال العراق وقد
فلا يبيتن فيكم آمنا زفر	بني أمية إني ناصح لكم
(٨) وما تقيت من أخلاقه نمر	واتخذوه عدواً إن شاهده

- (١) الفمر: الماء الكثير، شبه به الحرب • والميمون الطائر : المبارك الحظ •
 (٢) استمر: ههنا بمعنى استقام وصلح • يفتريه : يأتيه على حين غرة • والفَرر:
 التفرير •
 (٣) فهو : أي الشاعر • النواجذ : الأنياب • الباسل : الكريه الشديد • والذكر:
 المصيب المصير •
 (٤) المفتريش : البارك على صدره • الكلكل : الصدر • والجزر : القتل •
 (٥) المسوم : المعلم في الحرب لشهرته • والقتر : الفبار •
 (٦) الطف : أرض من ضاحية الكوفة في طريق البرية ، كان فيها مقتل الحسين بن علي (ر)،
 وهي أرض بادية قريبة من الريف ، فيها عدة عيون ماء جارية (معجم البلدان ٣٦/٤) •
 الثوية : موضع قريب من الكوفة ، كانت سجناً للنساء زين المنذر يحبس بها من أراد
 قتله ، فكان يقال لمن حبس بها ثوى أو أقام ، فسميت الثوية بذلك (معجم
 البلدان ٨٧/٢) • ولم ينبض بها وتر : أي أنها حرب صعبة ليس فيها رمي نبال
 وإنما فيها ضرب وطعن والتحام • وأراد بذلك إيقاع عبد الملك بمصعب ابن
 الزبير •
 (٧) الصفر : الميل من الكبر •
 (٨) الدعس : الفساد •

- إِنْ الضَّيْنَةُ تَلَقَّاهَا وَإِنْ قَدِمْتَ كَالْمَرْءِ يَكْمُنُ عَيْنًا ثُمَّ يَنْتَشِرُ (١)
 وقيس عيلان حتى أقبلوا رَقَصًا فبايموك جهارا بعدما كفروا (٢)
 فلا مدى الله قيسا من ضلالتهم ولا لعا لبني ذكوان إذ عثروا (٣)
 ضجوا من الجرب إنعصت غواربهم وقيس عيلان من أخلاقها الضجر (٤)

وفي رائيته (ألا يا أسلمي) التي مدح فيها عشائر قيس عيلان ، اندفع الأخطل
 يحرض الخليفة عبد الملك عليهم ويدعوه إلى نقض الصلح معهم ، واعماً أن مبايعتهم
 له ودخولهم في طاعته ليس نابهاً عن إيمان وإسلام بل عن نفاق وخوف من بطش الدولة
 بهم ، بعدما قدّموه من عون لمصعب بن الزبير في حربه لعبد الملك وللضعاك ابن
 قيس الفهري في حربه لمروان بن الحَكَم . قال (٥) :

- فإن تثنى قيس يا ابن مروان بايعت فقد وهلت قيس إليك من المُنذر (٦)
 على غير إسلام ولا عن بصيرة ولكنهم سيقتوا إليك على صُفر (٧)

وفي لاميته (صا القلب) التي مدح فيها بشر بن مروان ، عرّض الأخطل بزفر ابن
 الحارث زعيم قيس الجزيرة ، مشيراً إلى أن عواه في آل الزبير مُتمكّن من نفسه ،
 فقد شرط على عبد الملك حين بايعه أن لا يمينه على قتال ابن الزبير (٨) . فأولى
 ببني أمية أن يتخلّصوا من كيدته لا أن يمتحوه الأمن ويبسطوا له الوجه . قال (٩) :

فلا تجعلني يا ابن مروان كامرئ غلّت في موى آل الزبير مراجله

- (١) الضيئة : الحقد . والمر : الجرب .
 (٢) الرقص : الخَبَب ، وأراد السرعة في الجري . وكفروا : جحدوا خلافتك .
 (٣) لالما : أي لا أقامهم الله من عثرتهم . وبنو ذكوان : بطن من سليم بن منصور ،
 ومنهم عمير بن الحباب والجحاف بن حكيم .
 (٤) الغوارب : جمع الشارب وهو أعلى الكتف .
 (٥) شعر الأخطل ١/١٨٩ .
 (٦) وهلت : فرغت ، أي فرغت إليك تطالب عذرا عما قدّمت .
 (٧) البصيرة : الهدى . والضفر : الذل .
 (٨) أنساب لأشرف ، ٥/٣٠٥ و ٣٠٥/٥ ، الكامل في التاريخ ٤/٣٤٠ ، ابن خلدون ٣/٨١ .
 (٩) شعر الأخطل ١/٣٥٠ .

يُبَايِع بالكفّ التي قد عرفتُها وفي قلبه ناموسه وعَوَائِلُهُ (١)

وفي البائية (أَقْفَرَتِ الْبُلُغُ) التي مدح فيها بني أمية وَخَصَّ بشر بن مروان ،
تَدَدَ الْأَخْطَلُ بِآلِ الزَّبِيرِ ودعاتهم من القيسيين وسمت بانكسارهم زاعماً أن الله
أنزل بهم الهزيمة جزاء ما أنزلوا بالبلاد من خراب . وأكّد حقّ الأمرين بـفِي
الملك بفضلهم على الناس وبما لهم من حسب عريق في البادية وبولايتهم لـسدم
عثمان وسميهم في الأخذ بحقه ، مبيّناً كيف جاهدوا في الدفاع عن هذا الحق حين عاد
الزبيريون لمنازعتهم فيه بالعراق ، فهزموا أعداءهم وقتلوا أميرهم مصعباً وبعث
عبد الملك برأسه إلى أخيه عبدالعزیز بمصر . قال (٢) :

فَاللَّهُمَّ يَرْضُ عَنْ آلِ الزَّبِيرِ وَلَا	عن قيس عيلان حَيَّا طَالَ مَا غَرِبُوا (٣)
يُعَاظِمُونَ أَبَا الْعَاصِي وَهُمْ نَفَرٌ	في هامة من قريش دونها شَكَبَ (٤)
بِغَيْرِ مَصَالِيَتٍ أَبْنَاءُ الْمُلُوكِ فَلَنْ	يدرك ما قَدَّمُوا عَجْمٌ وَلَا عَرَبٌ (٥)
كَانُوا مَوَالِيَّ حَقَّ يَطْلُبُونَ بِهِ	فَأَدْرَكُوهُ ، وَمَا مَلَّوْا وَلَا لَنَبُوا (٦)
إِنْ تَكْ لِلْحَقِّ أَسْبَابٌ يُمَدُّ بِهَا	ففي أكَفِّهِمُ الْأَرْسَانَ وَالسَّبَبَ (٧)
هُمْ سَعَوْا بِابْنِ عَفَانَ الْإِمَامِ وَهُمْ	بعد الشمس مَرَوْهَا ثُمَّتَ احْتَلَبُوا
حَرْباً أَصَابَ بَنِي الْقَوَامِ جَانِبُهَا	بعد ألمن أكلته النار والعطش (٨)
حَتَّى تَنَاهَتْ إِلَى مَصْرِ جَمَاعَتُهُمْ	تَعْدُو بِهَا الْبُرْدَ مَنْصُوباً بِهَا الْخَشَبَ (٩)

- (١) الناموس: المنكر والخداع . والفوائل : جمع الفائلة وهي الداء العيب الباطن .
(٢) شعر الأخطل ٨٤/١ - ٨٦ .
(٣) خربوا : سرقوا .
(٤) يعاظمون : يفاخرون . والشكب : الشوك .
(٥) مصاليت : جمع مِثْلَت وهو الشجاع الماضي في الأمور .
(٦) الموالى : الأصحاب . الحق : مهنأق عثمان أي الطلب بدمه والاقتصاص من قاتليه .
ولنبوا : تعبوا وأعيوا .
(٧) الشمس : الانفور والاستمعا : يريد شمس الفتنة . ومروها : مسحوا أرضها لتدثر ، شبه
الحرب بناقة صعبة الخلق . يقول : ذلّ لهم الصعب من الحرب .
(٨) بنو القوام : آل الزبير .
(٩) البرد بضم الراء وسكّنها للتخفيف : جمع البريد وهو الدابة التي تستخدم
لنقل الأخبار والرسائل . ومنصوباً بها الخشب : أراد مرفوعة على الخشب . يشير
الأخطل هنا إلى إرسال عبد الملك بن مروان برأس مصعب بعد قتله إلى أخيه بمصر .

وفي الميمية (عَفَا الْجَوَّ) التي مدح بها بشر بن مروان ، بَيَّنَّ الأخطال أن الأمويين كانوا رحمة لهذه الأمة بعد أن تَأَجَّبَتِ الفتن وتَجَبَّرَ الطغاة واستشرى البلاء ، فاختارهم الله دون غيرهم لأنهم أقدر على إصلاح أمور الناس وإقامة شؤونهم بأمانة وعدل . قال (١) :

أبى أن يكون التاج إلا عليكم لصيد أبي العاصي الشديشكيمة (٢)
بكم أدرك الله البرية بعدما سقى لصها فيها وهب غشوم (٣)

ولم يزل الأخطال يدافع عن نظرية بني أمية في الخلافة والملك والحكم ، فأيدمهم فيما كانوا يختارون لولاياتهم من عمال ، وأثنى على بعض هؤلاء العمال وذكر تبنيهم لسياسة حكومتهم وخضوعهم المطلق لميولها ومتطلبات أمنها ووجودها . ففي لاميته (أبلغ أمير المؤمنين) يثني على السياسة الحازمة القوية لعبيد الله بن زياد في العراق ، وينوّه بقضائه على فتن الشيعة وقتله لزعمائهم : هاني* بن عروة المرادي ، ومسلم بن عقيل بن أبي طالب ، والحسين بن علي ابن أبي طالب ، فأنقذ الأمويين من خطر كان يتهدد ملكهم . قال (٤) :

ولم يك عن يوم ابن عروة غائباً كمال يغب عن ليلة ابن عقيل (٥)
وأطرق عنكم حية لو تمكنت من الأرض ، كانت حية بقليل (٦)

وفي رائيته (صَرَمَتْ حِيَالُكَ) التي مدح بها الحجاج بن يوسف الثقفي والي

(١) شعر الأخطال ٢١٨/١ - ٢١٩ .

(٢) الصيد : الملوك ، قيل لهم ذلك من الصيّد وهو الكبر . والشكيم : جمع الشكيمة وهي الأنفة .

(٣) الفشوم : الظالم ، الذي يغيظ الناس ويأخذ كل ما قدر عليه .

(٤) شعر الأخطال ٥٣٩/٢ - ٥٤٠ .

(٥) كان مسلم بن عقيل بن أبي طالب حين وجهه الحسين بن علي نزل على هاني* ، فلما قتل مسلم بعث ابن زياد إلى هاني* فقتله (شعر الأخطال ٥٣٩/٢) .

(٦) الحيلة : الداهية الشديدة ، وأراد : الحسين بن علي .
والظليل : الفخ والمداوة والفضن .

العراق لعبد الملك بن مروان ، أشاد الأخطل بالسياسة الحازمة التي يتبناها الحاج في ضبطه لأمور البلاد ، وحربه للأعاجم ، وضربه بقوة على أيدي الخوارج العصاة العابثين بالأمن والقانون الذين ما انفكوا يحاولون الخروج على سلطان الدولة والعمل على زعزعة كيانه . يقول لعبد الملك (١) :

فمليك بالحجاج لا تعدل به	أحدًا إذا نزلت عليك أمور
ولقد علمت وأنت أعلمنا به	أن ابن يوسف حازم منصور
وأخو الصفا فما تزال غنيمة	منه ، يجي بها إليك بشير
وترى الترواسم يختلفن وفوقها	ورق العراق سبائك وحريـر (٢)
وبنات فارس كل يوم تُصطفى	يبلونهن وما لهن مهـر (٣)
والخيل يتعبد لها على علاقتها	لله منتصب الفؤاد شكـور (٤)
ولقد علمت بلاءه في ممشـر	تفلي سناة صدورهم وتفسـر (٥)
والقوم زأروهم وأعلى صوتهم	تحت السيوف غماغم وكـرـر (٦)
طلب الأزارق بالكناشب انقوت	بشبيب غائلة النفوس غسـر (٧)

(١) شعر الأخطل ٤٠٤/٢ - ٤٠٩ .

(٢) الرواسم : جمع الرّسوم ، وهي الناقة توثر في الأرض من شدة الوط . يختلفن : يترددن ، يريد أن الإبل تكثر المجيء إلى الشام . الورث : الفضة . والسبائك : جمع السبيكة وهي الفضة المذوبة المفرغة في قالب .

(٣) يبلونهن : يخبرونهن .

(٤) على علاقتها : على كل حال ، أي دائما .

(٥) السناة : البفضا .

(٦) الضماغم : الكلام الخفي في الحرب خاصة . والهرير : النباح .

(٧) الأزارق : عنس الأزارقة ، وهم أصحاب نافع ابن

الأزرق الحنـفي . شبيب : هو شبيب بن يزيد

ابن نميم الشيباني ، من رؤوس الخـوارج الصفرية .

والفائـلة : الداء الميسب الباطـل .

والمهلكـة .

يرجو البقية بعدما حذقت به . فرط المنية : يحصب وحجور (١)
فأباد جسمهم حميداً وانتفى وله لوقمة آخرين زئير

وعلى هذا النحو ظل الأخطل شاعر الأمويين الرسمي منذ عهد معاوية ، يُمدّ نفسه للدفاع عن سياستهم ومهاجمة أعدائهم حباً فيهم وطلباً لنوالهم . فقد انتصر لحقهم في الخلافة انتصاراً كان يركز فيه على ما أعلنوه وسعوا إلى نشره بين الناس ، من أنهم استوجبوها بقرابتهم من عثمان ، وباصطفاء الله لهم وتفضيله إياهم ، لأنه لو صُرفت الخلافة إلى غيرهم لاضطربت في أيديهم ولم استقامت لهم ، فهم أمناء الله على عبادته ، طاعتهم واجبة ، ومشيئتهم نافذة لأنها مستمدة من مشيئة الله الذي وكل إليهم شؤون الرعية . وأخذ الأخطل ينوّه بجد أسرتهم ومآثرها ومكانتها وتاريخها وعزها الخالد المتجدد ، ويشيد بحسن إدارتها ورفقها بالناس وعدلها بينهم وجمعها لكلمتهم وإعانتها لهم ، فإذا هم يحيون في طمانينة وسر ودعة . وكان الأخطل يتصدى لخصوم الأمويين من أمثال الزبيريين والقيسين الذين خرجوا على طاعة الدولة ، متهماً إياهم بالفساد والانحراف والبغي والمروق من الدين ، فقد ثاروا على حفظه وحراسه فمحقهم الله محققاً .

وكان الأخطل يتروى في نظم تلك القصائد ويتأق ، فهو يبدأ القصيدة غالباً بمقدمة فنية (٢) يتنزل فيها أو يصف الطلل أو الخمر ، ثم ينتقل إلى وصف

(١) فرط المنية : ما سبق إليه منها . يحصب : قبيلة من حمير ، وهي يحصب ابن مالك بن زيد بن غوث بن سعد (جمهرة أنساب العرب ٤٣٥/٢) . وعجور : قبيلة من همدان ، وهي حجور بن أسلم بن عليان بن زيد بن عريب بن حاشد بن جشم ابن خيران بن نوف بن همدان بن مالك بن زيد بن أسلم . ابن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان ابن سبأ (جمهرة أنساب العرب ٣٩٧/٢ - ٣٩٣) .

(٢) الأخطل شاعر بني أمية ١٥٠ .

الناقة والرحلة أو مشهد الصيد . فإذا انتقل إلى المديح عني أشد المنايصة بتقسيم عناصره وتنسيقها ، فهو يبرز شخصية الممدوح في مقطع وينوه بمآثر قوم الممدوح في مقطع . أما إذا كان غرضه الرئيسي خليطاً من المدح والهجاء ، فنراه ينشيء مقطعا للممدوح وآخر لقوم الممدوح وثالثاً للمهجو ورابعاً لقوم المهجو^(١) . وقد اهتم الأخطال بتنمية هذه الأغراض ، فاحتذى ما اصطنعه عبيد الشعر وأصحاب الحوليات من الجاهليين من أساليب (الاستطراد) ، وهو أن يعرض للشاعر معنى أو صورة ويحرص بالحاجة إلى التمثيل ، فيشبهه المسمى بآخر يماثله والصورة بآخرى تشاكلها ثم يفضل القول في المشبه به ، حتى إذا اكتمل له ما أراد عاد إلى المعنى الأول أو انتقل إلى معنى آخر^(٢) . ففي قصيدته الدالية التي مدح بها عبدالله بن معاوية تحدث عن كرمه فشبهه بالنهر جوداً وعطاءً . قال^(٣) :

كأنه مُزبد رِيَّانٌ مُنتَجِعٌ يملو الجزائر في حافات الزبد
وهيأ له هذا التشبيه مادة يبدع فيها ويسهب ، فصور النهر مزبداً تضرب أمواجه الشيطان ، ومائجاً يكتسح ما يعترض سبيله من نباتات وأشجار ، وقويماً تطل فيه طيور الماء مجتمعة خشية الضرق ، وبشير خير يروى المطاش ويحيي الأرض الموات فكان استطراداً فنياً بديماً جسم به سخا ممدوحه .

ومن الأساليب الفنية التي اتخذها الأخطال لتنمية مدائحه (الاستدارة) ، وهي أن يرى الشاعر وجه شبه بين صورتين مختلفتين ، فيقابل بينهما ويفضل إحدهما على الأخرى في شكل دائري ، يبدأ بالفضل منفيّاً وينتهي بالمنضل مثبتاً . ومن ذلك قوله في مدح عبدالملك^(٥) :

وما الفرات إذا جاشت حوالبه	وفي حافتيه وفي أوساطه العُشَر
ونَعْنَعَتَه رياح الصيف واضطربت	فوق الجأحي من آذنيه عُسْدُر
مُسْتَحْفِرٌ من جبال الروم يستره	منها أكافيف فيها دونسه زُور
يوماً بأجود منه حين تسألـه	ولا بأجهر منه حين يُجْتَهـر

(١) الأخطال شاعر بني أمية ١٥١ .

(٢) المرجع نفسه ١٥٢ .

(٣) شعر الأخطال ٤٤٣/٢ .

(٤) الأخطال شاعر بني أمية ١٥٥ .

(٥) شعر الأخطال ١٩٧/١ - ١٩٨ .

فقد استعان بالاستدارة في تنفية مديحه واتخذ من فيضان الفرات مادة غنيصة
بالصور و قصور المطئان وقد غمرها الماء ، والأمواج وقد اكتسحت الأشجار، والسفينة
وقد اضطربت وفتح ملاحها ، والروافد وقد صبت بمائها فيه فزادت من فيضانه .
واستعان الأطل في تجويد هذه المدائح (بالوصف القصي) ، فأكسبها قوة
في البناء وفخامة في العرض (١) . ففي خف القطمين قال يصف مقتل عمير ابن
الحياب السلمي (٢) :

وقد نُصرت أمير المؤمنين بنا	لما أتاك ببطان الفلوة الخبر
يُعرفونك رأس ابن الحباب وقد	أضحى ولل سيف في حيشومه أثر
لاسمع الصوت مُستكاً سامعه	وليس ينطق حتى ينطق الحبير
أمت إلى جانب الحقائق جيفته	ورأسه دونه اليخوم والصور
يسأله الصبر من غسان أنحضروا	والعزن : كيف قراة الفلمة الجشور

كما استعان (بالتصوير الحركي) ، فعرض في مدائحه صوراً متتابعة تنبض
بالحركة والحياة ، تتمثل في هذه الأفعال المتوالية التي ينتقل بها من صورة
إلى أخرى ، فأكسب مدائحه حيوية في السرد وتسلسلاً في الأداء (٣) . ففي رأيته
خف القطمين نرى عبد الملك (مُفترشا) كافتراش الليث كلكله ، (مقدماً) مائتي
ألف لمنزلة ، (يَفشي) القناطر (بينيها) و (يهدمها) حتى تكون لهم بالطف
ملحمة و (تستبين) الأتوام ضلالهم و (يستقيم) الذي في خده صمره ثم
(استقل) بأثقال العراق (٤)

وقد تأثرت هذه المدائح بالجو الديني الذي عاش فيه الأطل ، فالأمويون
اتبعوا أنهم أحق الناس بالخلافة ، لأنهم ورثت عثمان وأصلح من غيرهم للحكم ،
ولأن نتيجة التحكيم كانت إلى جانبهم ، ولأن الله نصرهم على خصومهم في صفين
وبعدما . فاستمد الأطل من زعمهم هذا مادة خصبة وراج يردد أن (الله فضلهم)

(١) الأطل شاعر بني أمية ١٥٩ .

(٢) شعر الأطل ٢٠٣/١ - ٢٠٤ .

(٣) الأطل شاعر بني أمية ١٦٣ - ١٦٥ .

(٤) المرجع نفسه ١٦٤ .

و (أمتهم إذ دعوا من ربهم مدد) و (بكم أدرك الله البرية) ، وغير ذلك من
المعاني التي يتجلى فيها الأثر الديني بوضوح (١) .

كما تأثرت هذه المدائح بذوق البادية وطبائع أهلها في الأسلوب ، فألفاظها
جزلة فخمة تملأ الفم وتقرع الآذان ، وصورها وتشبيهاتها - في معظمها - مستمدة
من البادية . ولا غرو ، فالأخطل نشأ في بيئة بدوية ، وما أكثر ما وصفنا في
هذه المدائح : الأطلال وما خلف فيها أهلها المرتحلون عنها من أحجار ورماد
وأوتاد وما أحنى عليها وغيرهما من رياح وأمطار ، والفلاة وما عاش فيها من
حيوانات وطيور (٢) .

(١) الأخطل شاعر بني أمية ١٧٨ - ١٨٠ .

(٢) المرجع نفسه ١٧٥ .

(٢) السياسة في شعر الخوارج

ذكرنا فيما مضى أن خوارج الجزيرة من الصُّفَرِيَّة قاموا بثورات عديدة على امتداد العصر الأموي ، قاصدين إلى تحقيق مبادئهم التي تدعو إلى اقرار الأمور العامة وإصلاح الحكم ومحاربة الفساد ورفع الظلم عن الرعيَّة ، واعتقادهم أن بني أمية جائرون لا تنطبق عليهم شروط الخلافة .

وبيّنا أن أشد ثورات الخوارج تهديداً لملك الأمويين وسلطانهم ، ثورة شبيب ابن يزيد الشيباني وثورة الضحاك بن قيس الشيباني . لأن الأول تمكن من اقتحام العراق وأنزل بجيش الحجاج بن يوسف هزائم متلاحقة ، حتى دخل الكوفة وأطبق على الحجاج ، فمجز الحجاج عن القضاء عليه حتى وصلتته أمداد من كتائب مخبئسارية استدعيت من الشام . ولأن الثاني كان هدفه إزالة خلافة الأمويين بالقضاء على آخر خلفائهم مروان بن محمد ، الذي كان اتخذ من " حُرَّان " في الجزيرة مقسراً له . وقد استطاع أول الأمر أن يلحق أقسى الهزائم بجيوش الدولة ، التي كان يقودها الخليفة نفسه في " كفرتوثا " و " الموصل " من أعمال الجزيرة . وما لبثت جيوش العراق والشام أن تذاثرت على أصحابه ، فحصرتهم في أراضي الموصل الواقعة شرقي دجلة وأنزلت بهم هزيمة نكراء .

وقد رافق هاتين الثورتين بعض الأضرار التي قالها الخوارج وهم يقارعون جيوش الدولة وينزلون بها أمر الهزائم . لكن هذه الأضرار قليلة إلى درجة تجعلنا نقول : إنها لا تواكب أحداث ذلك الصراع الدامي الذي اتصل لسنوات طويلة ، ولم يستطع أصحابها أن يظهروا لنا معتقدهم في نظرية سياسية واضحة المعالم . فنحن لا نجد لهم شعراً منزهياً يصور وجهة نظرهم التي تعمقتهم ، وإنما هو شعر حماسي يصور حروبهم وإصرارهم على مواصلة القتال وتمجيد أبطالهم وقوادهم والإشادة ببسالتهم في مقارعة جيوش الدولة والظهور عليها والتنديد بهزيمتها . ومن هنا نرى اتصال هذا الشعر بالسياسة وأنه لا يخرج عن دائرتها ، لأنه قيل في إطار هذه الخصومة السياسية التي قامت بين فئتين متعارضتين ، أو بين حزبين كان لكل منهما وجهة نظره في مسألة الخلافة والحكم وجاهاذا بعنف في سبيل تثبيت معتقدهما .

وخير أشعار الخوارج التي تمثل تهديدهم لملك الأمويين ومنازعتهم لهمسم

في الخلافة ، هذه القصيدة التي قالها أحد شراة الجزيرة وهو عتبان بن أصيلة الشيباني (١) ، من شعراء ثورة شبيب بن يزيد الشيباني . قال مخاطباً الخليفة عبد الملك (٢) :

لعمري لقد نادى شبيب وصحبه	على الباب لو أن الأمير يجيب (٣)
فأبلغ أمير المؤمنين رسالة	وذوا النصح لو تُصْفي إليه ، فسيب
أتذكر إذ دارت عليك رماحنا	بمسكن ، والكليج ثم غريب (٤)
فلا صلح ما دامت منا براً أرضنا	يقوم عليها من ثقيف خطيب (٥)
فإنك لا ترض بكر بن وائل	يكن لك يوم بالعراق عصيب
فلا ضير إن كانت قريش عدى لنا	يُصيبون منا مرة ونصيب
فإنك منهم كان مروان وابنه	وعسرو ومنهم هاشم وحبيب (٦)

- (١) أنظر ترجمته : معجم الشعراء ١٠٨ ، وفيات الأعيان ٤٥٦/٢ - ٤٥٧ .
- (٢) شعر الخوارج ٦٣ ، والأبيات في أنساب الأشراف المخطوط ٩٥/٢ ، أعا البيت الأخير . وانظر : تاريخ خليفة بن خياط ٣٥٩/١ ، عيون الأخبار ١٥٥/٢ ، الاشتقاق ٣٥٩/٢ ، مروج الذهب ١٥١/٢ ، معجم الشعراء ١٠٨ - ١٠٩ ، الحماسة البصرية ١٦٥/١ - ١٦٦ ، وفيات الأعيان ٤٥٦/٢ - ٤٥٧ .
- (٣) الأمير : الحاج بن يوسف . يشير الشاعر إلى ما فعله شبيب وصحبه حسين دخلوا الكوفة ، حيث جعلوا يضربون باب قصر الإمارة ويقولون : يا عدو الله (أنساب الأشراف المخطوط ٩٥/٢) .
- (٤) مسكن : موضع قريب من أوانا على نهر دجيل عند دير الجاثليق ، به كانت الوقعة بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير في سنة ٧٢ هـ ، فقتل مصعب وقبره هناك معروف (معجم البلدان ١٢٧/٥) . لعله بهذا يشير إلى موقف قبيلة بكر إلى جانب مصعب بن الزبير في حربه لعبد الملك لما التقوا بمسكن .
- (٥) قوله : من ثقيف خطيب ، يريد به الحجاج ابن يوسف الثقفي .
- (٦) مروان : هو مروان بن الحكم . وابنه : هو عبد الملك بن مروان . وعسرو : هو عمرو بن سميد (الأشدق) .

فيمثا سويد والبطين وقمنب ومنا أمير المؤمنين شبيب (١)
 غزالذات النذر منا حميدة لها في سهام المسلمين نصيب (٢)
 ومنا سنان الموت وابن عويمر ومرة، فانظر أرى ذاك تغيب (٣)
 فوارسنا من يلقيهم يلقي حتفه ومن ينج منهم ينج وهو سليب

فقد اعتد الشاعر بدخول شبيب وأصابه الكوفة على الحجاج ، ودعا إلى رفض الصلح مع الأمويين الذين ما انفكوا يختارون لولاية العراق عمالاً ظالمين عرفوا بعسفهم وقسوتهم على الرعية ، كما دعا الخليفة إلى إرضاء الخوارج الذين كانت كثرتهم من شيبان التي ترتفع في نسبها إلى بكر بن وائل ومدده بيوم عذيب يكون وبالأعلى على الدولة ، وفاخر برجال الخوارج وأبطالهم من أمثال : سويد والبطين وقمنب وسنان الموت وابن عويمر ومرة وشبيب وزوجه غزالة ، مؤكداً أنهم في مستوى رجال بني أمية وأنهم يصلحون للخلافة .

وكان الخبير من أكبر قادة ثورة الضحاك بن قيس الشيباني ، فلما قتل الضحاك بكفرتوا على يد الخليفة مروان بن محمد وآلت إليه زعامة الخوارج الذين كانت كثرتهم الساحقة من بني شيبان ، أخذ يخرضهم على مواصلة قتال جند مروان ويهيب بهم أن يستدوا إليهم الطائعات النافذة ويناضدوا ألا يفـ

(١) سويد : هو سويد بن سليم الشيباني (المعارف ٤٥) ، أنساب الأشراف المخطوط ٨٦/٢ ، معجم الشعراء ١٠٩ ، الكامل في التاريخ ٤/٤١٦ . والبطين : هو البطين بن ثور بن الحارث بن عمرو بن محلم بن نهل بن شيبان (جمهرة النسب ٢٠٠/١) ، أنساب الأشراف المخطوط ٨٦/٢ ، معجم الشعراء ١٠٩ ، جمهرة أنساب العرب ٣/٣٢٢ . وقمنب : من بني عمرو بن النعمان بن عمرو بن الصلب من بني شيبان (جمهرة النسب ٢٠٦/١) ، المعارف ٤٥ ، معجم الشعراء ١٠٩ . هو علا من رجال شبيب البارزين .

(٢) غزالة : هي امرأة شبيب . وذات النذر : كانت غزالة نذرت أن تصعد منبر مسجد الكوفة وتطلي ركبتين تقرأ فيهما البقرة وآل عمران (أنساب الأشراف المخطوط ٩٥/٢) .

(٣) سنان الموت وابن عويمر ومرة : من الخوارج . وتغيب : تغتاب .

قال مرتجراً (١) :

إيهابني شيبان طعنا قَتَرى طعنأيرى منه القنا مَحْمَرَا (٢)
يترك ذا الثفن به مُزَوَّرَا يركب رَوْعاً للردى مَقَرَا
فلمنة الله على من فسرَا

وفاخر الخيبريّ ببسالته حين تمكن بقليل من أصحابه من اقتحام عسكر مروان وتوسطهم ، موجِّعاً السبب الذى من أجله ظهرت جماعة الخوارج وهو التحكيم الذى ينبغى أن يكون لله ولرسوله ، ومؤكداً أن جهاد الخوارج لجيش الدولة في سبيل الوصول إلى الخلافة حق لأن الرسول الكريم لم يجعلها وراثية بل جعلها حقاً لكل مسلم تتمثل فيه صفات التقوى والورع . قال من الرجـ (٣) ز :

إن تك مروان فإني الخيبرى أضرب بالسيف على حكم النبي
سابقة يدعي حصين مغفـ (٤) رى

وعبّر الخيبرى عن فرط سروره عندما استطاع بقتاله الشديد أن يصل إلى رواق الخليفة ويدخله ويجلس على فراشه ، فيما كان الخليفة فارّاً مهزوماً يستحث فرسه على استخراج أقصى ما عنده من الجري لينجو بنفسه . قال مرتجراً (٥) :

قد فرّ مروان عن الرواق نجاه منّا أعوجي بـ (٦)
بطل يُمريه بعظم الساق (٧)

-
- (١) أنساب الأشراف المخطوط ٣٦٦/٢ .
(٢) أيها : كلمة تقال للتحريض . وتترى : من المواترة أو المواصللة والمتابعة .
(٣) أنساب الأشراف المخطوط ٣٦٧/٢ .
(٤) السابقة : الطويلة الواسعة . والمففر : الترد يُنسى من الدروع على قسدر الرأس ، يُلبس تحت القلنسوة .
(٥) أنساب الأشراف المخطوط ٣٦٧ / ٢ .
(٦) الرواق : الفضاط . والأعوجي : نسبة إلى الأعوج ، وهو فرس سابق رُكب صفيحراً فاعوجت قوائمه .
(٧) يُمريه : يستخرج ما عنده من الجري حتى يدرك عرقه .

وبعد مقتل الخيبري وانحياز الخوارج بقيادة أبي ذُلف الشيباني إلى شرقي الموصل وحصر مروان لهم ، كانوا ينشدون وهم يقاتلون هذا الرجز الذي يفيض حماسة وتعطشاً للموت الذي يلحقهم بالأبرار من إخوانهم ويفتح أمامهم أبواب الجنّة^(١) :

نحن الشّراة لا شراة غزّه ولا شراة الكوفة المبتسزة^(٢)
نحن بني شيبان أهل الجنّة نقتلكم على هدى لا ظنّنه

وظل الخوارج ومروان يحصرهم في أراضي الموصل يناوئون جيشه ويحاربونه ، يدفعهم إلى ذلك عقيدة قويّة تمثّلت نفوسهم وأخذت بمجامع قلوبهم ، وإصرار عنيد على دحر أعدائهم وتحقيق الأهداف التي خرجوا من أجلها . على نحو ما يتّضح في قول بعض شعرائهم ، منجّداً فيهم روح الثبات والعزم . قال من الرجز^(٣) :

قد علمتُ خيلك يا ابن الصّخّح بالزّايبين والعيونُ تُلَمّح^(٤)
أنّا إذا صبح بنا لا نبرح إنّ الحديد بالحديد يُفْلِح
لن نبرح الموصل حتى يُفتَح

ولم يقاتل صُفريّة الجزيرة العبيوش الأموية في الجزيرة وحدها وحسب ، بل كانوا يقاتلونّها في الأقاليم المجاورة وبخاصة العراق ، إذ كانت الجزيرة مركزهم

(١) أنساب الأشراف المخطوط ٣٦٨ / ٢ .

(٢) غزه : غزه هذه بعين التمر (أنساب الأشراف المخطوط ٣٦٨ / ٢) ، وعين التمر : بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة (معجم البلدان ١٧٦ / ٤) .

(٣) أنساب الأشراف المخطوط ٣٦٩ / ٢ .

(٤) ابن الصّخّح : هو مصعب بن الصّخّح الأسدي ، من قادة الجيوش التي وجهها يزيد بن عمر بن هبيرة وهو بواسط لقتال الخوارج وهم محاصرون بأراضي الموصل (أنساب الأشراف المخطوط ٣٦٨ / ٢ - ٣٦٩) .

وقاعدتهم منها ينطلقون مجاهدين للسلطة الأموية • وكثيراً ما كانوا ينتصرون على جيوشها ويضعفون من سيطرتها على بعض المناطق ، مما كان يدعو بعض مشرقي الخوارج فيها ممن يوافقونهم في مذنبهم إلى تسجيل انتصاراتهم والإشادة بأبطالهم ، والتشديد بهزائم أعدائهم وإعلان سخطهم على سياستهم وجور عمالهم وقهرهم للناس (١)

(١) أنظر : أنساب الأشراف، المخطوط ٩٥/٢ - ٩٦ و ٣٦٥ ، الطبري ٥٧٦/٦ - ٥٧٧ ،
شعر الخوارج ٧٠ - ٧١ و ٧٤ •

وهكذا يتبين أن شعر الخوارج الجزريين في العصر الأموي يذهب كله في موضوعات قليلة يضمنها الجهاد في سبيل العقيدة ، ولهذا لم نجد لهم شعراً منزهياً يستوحى المبادئ التي خرجوا للجهاد من أجلها . ولعل السبب في ذلك يكمن في طبيعة الخوارج المتشددة في إيمانها ، وهي طبيعة لا تميل إلى أن تسلك سبيل المنطق فتنبى للدفاع عن العقيدة بالحجج والأدلة . ولذلك دار شعرهم - فسي مجسوم - حول تمجيد أبطالهم والإشادة ببسالتهم وتصوير حروبهم وعزمهم على متابعة القتال والتنديد بهزائم أعدائهم .

ولم يذهب شعرهم هذا المذهب التماسي الذي يحركه إيمان شديد بعقيدتهم، إلا لأنهم عاشوا حياتهم للقتال والحرب ، فكانوا ثواراً ترافقهم السيوف في حلهم وترحالهم ويستعذبون الموت ويبذلون أرواحهم للفوز برضوان الله وثوابه، وعلى هذا التصور اعتبروا جهاد الجماعة الضالة فريضة دينية فغاضوا الحرب مع الجيوش الأموية . ومن هنا يظهر اتصال شعرهم بالسياسة ، وأنه لا يخرج عن دأب الصراع السياسي بينهم وبين الحاكمين من بني أمية بل يتصل به أوثق الصلة ، لأنه كان دفاعاً عن المبدأ الذي خرجوا من أجله وجاء دوا في سبيله .

ولم يحفل شعراء الخوارج بالتقاليد الفنية الموروثة في شكل القصيدة ولم يستلهموا الجاهليين في نظامها وتعدد موضوعاتها وأغراضها ، فقد ألزمهم إخلاصهم لعقيدتهم أن يقصروا شعرهم للتعبير عن إيمانهم بها دون أن تكون لهم غايات أخرى . فظهرت القصيدة عندهم في مقطوعة قصيرة ذات هدف وحيد ، مما أكسبها وحدة فنية وموضوعية لا تتواءم على موضوع واحد أو اشتغالها على معان جزئية ، ومما جعل أسلوبها خالياً من التكلف ، فالألفاظ فيه جزلة تمثل صلابة أصحابها واندفاعهم والمعاني فيه واضحة تبرز عن صراحة أصحابها وجراتهم . وقد ساعد على كل ذلك ظروف القتال والجهاد التي لم تفسح لهم مجالاً للإكثار أو الإطالة ، فقد كانت القصيدة عندهم تمثل الصرخات التي يطلقونها وهم داخلون في حرب أو خارجون منها ، وتصور اللحظات الحاسمة التي توحىها رغبة القتال ، وتنتهي عند المناسبة التي قبلت فيها دون أن يسودوا لتفحصها تارة أخرى ، فكانت تأتي على السجية لا يحس السامع فيها بأثر للصنعة والتكلف .

الفصل الخامس

الشعر الجودي

١- الوصف

٢- الرثاء

(١) وصف الطبيعة الساكنة

وصف الصحراء :

ألف العربي إبان العصر الجاهلي حياة الصحراء إلّفاً عظيماً مع ما في هذه الحياة من المعاطب والمهالك والضيق والضنك ، وأخذ عيشها بمجامع قلبه وأصبح جزءاً منه يجرى في عروقه لأنّه أتاح له أكبر قسط من الحرية^(١) ، ولا عجب فهي قضاة متّسع رحيب يملأ جوانب النفس خشية ورغبة وبحر من الرمال المختلفة الألوان . ومن هنا كان لها أثر بالغ في نفسه^(٢) ونصيب كبير في شعره ، فوصفها وصفاً مسهباً ورسمها وما تشتمل عليه وما يظهر فيها ، فألمّ في خلال تصويره إيّاها باستوائاتها وامتداد رمالها ، وتتطرق إلى هجيرها فكّنى عنه بجريان الال (السراب) على آكامها ولعمانه في بیدائها وبانتصاب الحرباء بأمر رأسه نحو كبد السماء عندما ترفتح أشعة الشمس^(٣) ، وذكر أنها موحشة مقفرة فما تسكنها إلا الذئاب القاديصة والوحوش الضارية ولا يعيش فيها إلا الجن يمرحون ويصخبون فهي مرتهم وموطنهم الذي لا يشاركهم فيه أحد . وهي بعيدة عهد بالنبات قليلة الماء ، فالإبل حنين تبصرها تسير في ضنك وإرهاق متمبة مكدودة ، والعابرون يصيبهم الناس لغمود الطبيعة وسكونها ، فهي مخوفة ما يطيق مخاطرها إلا الفرسان الشجبان^(٤) .

وفي المادة يرد تصوير الشاعر للصحراء غالباً في قصيدة المدح ، بمبدأ أن يقف على الأطلال ويذكر المرأة ويشرع في الرحلة وقبل أن ينتجع الممدوح ويوفى إليه^(٥) . إذ كانت الممدحة " تسير على شاكلة مميّنة وخاصة إذا أنشدتها أمام الجمهور وفي حضرة الممدوح ، فالنزل هو اللحن المميز الذي ينبّه الجمهور ويجذب انتباههم ، ووصف الرحلة وما تجفّم من أخطار وما تعرّض له من معاطب ومهالك هو المامل الذي يؤمّج أريحية الممدوح كي يزيد في الهبات"^(٦) .

(١) مقدمة القصيدة المربية في العصر الجاهلي ٤٨ .

(٢) وصف الطبيعة وتطوره ٣ .

(٣) الوصف في الشعر العربي ٢٢٥/١ و ٣١٢ ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ٢٨ .

(٤) الوصف ٣٢ ، الوصف في الشعر العربي ٢٦٥/١ ، وصف الطبيعة وتطوره ٢٤ .

(٥) العصر الجاهلي ٢١٤ .

(٦) مقدمة القصيدة المربية في العصر الجاهلي ٢١٥ .

ومضى شاعر الجزيرة الفراتية عصر بني أمية يقتفي نهج آبائه على الرغم من أنه عايش البيئة الجديدة وأطلع على قليل أو كثير من معالمها ومناظرها ، فاستلهم صحراهم وزاوج على شاكلتهم بين حب الطبيعة وحب المرأة ، إذ افتتح مطولاته غالبا بوصف أطلال الديار وتحدث عن ذكريات حبه ووصف رحلته في الصحراء وما قطع فيها من مفاوز ، إذ كانت ذاكرته مكتظة بتجارب الصحراء ومشاهد ما بل لقد ظلت ملهمه الأول في أشعاره (١) . على نحو ما نجد عند الأطلال في نقيضته التي أنشأها في مدح خالد بن عبد الله بن أسيد الأموي (٢) ، فهو يلج في هذه القصيدة بموضوعات متعددة يقتفي فيها سنة شعر المديح (٣) ، إذ استلهمها بالوقوف على أطلال حبيبته رضوى التي عفت ، وشبه نفسه في ذموله بالثمل وانتهر هذه الفرصة فتغلغل إلى الثمر وأطال ، ثم انتقل إلى وصف الصحراء ووصفتها وقسوتها وما لقيت ناقتة من كلال وإعياء وما تعرض له معها من أهوال في سبيل الوصول إلى المدح .

وبيدا ^٥ محال كأن نعمتها	بأرجائها القصوى. أبا عمرو ^٥ قل
تري لامعات الآن فيها كأنها	رجال تفرى تارة وتسر ^٦ قل
وجوز فلاة ما يغمن ركبتها	ولا عين ما ديبها من الخوف تغفل ^٧
بكل بعيد الفول لا يهتدى له	بعرفان أعلام، وما فيه من ^٨ قل

- (١) العصر الإسلامي ٣٨٦ • وانظر وصف الصحراء في : شعر الأخطال ٢١/١-٢٤ و٢/٢-٦٠٨ •
 ٦٠٩ • ديوان القطامي ٢٥-٢٧ • شعر عمرو بن أحمز الباهلي ٦٥-٦٧ •
 (٢) نقائير جرير والأخطال (عبدالمجيد المستنصب) ٧٥٨ •
 (٣) الأخطال في سيرته ونفسيته وشعره ١٦٦ •
 (٤) شعر الأخطال ٢١/١-٢٤ • نقائير جرير والأخطال ٥٧-٥٥ •
 (٥) البيدا • الفلاة • وقيل مخازة لاشي • فيها • الممدار : التي لا نبت فيها •
 الأرجاء • النواحي • والأباعر الهمل : التي لا راعي لها تذهب وتجيء كيفما شاءت •
 (٦) تسربل : تلبس السراويل وهي القمصان •
 (٧) جوزالشي • وسطه • الركب : ركبان الإبل • اسم جمع • والهادى : الدليل الذي يهتدى
 الركب •
 (٨) الفسول : مفرد أغوال • وهي أطراف الأرض التي ينتال فيها الناس • الأعلام :
 أحجار تنصب منذراً ليستدلّ بها • والمنهله : المشرب •

- مَلْعَبٌ جَدَانُ كَانَ تَرَابَهُمَا إِذَا اطْمَرَدَتْ فِيهِ الرِّيحُ مُفْرِبِلٌ (١)
 أَجَزْتُ إِذَا الْحَرِبَاءُ أَوْفَى كَأَنَّهُ مُعَلَّ يَمَانُ أَوْ أُسِيرٌ مُكَبَّلٌ (٢)
 تَرَى الثَّعْلِبَ الْعَوْلِيَّ فِيهَا كَأَنَّهُ إِذَا مَا عَلَا تَقَرَّأَ حِصَانٌ مُجَلَّلٌ (٣)
 تَرَى الْيَرْمُسَ الْوَجْنَاءَ يَضْرِبُ حَانَهُ ضَيْلٌ كَثْرُوجُ الدَّبَاجَةِ مُسَبَّلٌ (٤)
 يَشُقُّ سَمَاحِيَتِ السَّلَا عَنْ جَنِينِهَا أَخُو قَفْرَةٍ بَادَى السَّنَابَةِ أَطْلَلٌ (٥)

أرأيت إليه وهو يصفى الصحراء سبيلاً إلى ممدوحه فيعبرن لها من جوانب عدة، ليظهر ما تكلفه من عناء ولكي ينقل إلى الممدوح ما تكبده من مشقة وهو يتفنن فسي تجسيم المشاق، فالصحراء محللة موحشة تهيبها المسافرون ولم يأمن بها إلا النعام وتراقص في نواحيها السراب فدبت فيها الحركة، فإذا هي مخوفة مفزعة (١) لا يضمن فيها الركب ولا تنقل عين هادئهم أبداً بل تظل عذرة مترقبة لكل ما ينتال المار فيها لأنها بعيدة الأطراف وعرة المسالك لا تبين فيها أرواحاً يستدل بها السابلة

- (١) الجنان : جمع جان ، يريد أنها سلب للجن سقفرة من الأرض . واطردت : تتابعت .
 (٢) العرباء : دويبة نحو الظلابة أو أكبره ، يستقبل الشمس برأسه ويكون معها كيد . دارت : أوفى : قام وانتصب . والعذبل : المفيد .
 (٣) العولي : ما أتى عليه حول . النمز : المتن المرتفع من الأرض . والمجلل : الذي عليه الجلال ، وجلال كل شيء غطاءه .
 (٤) اليرمس : الناقة الصلبة الشديدة . الوجناء : الناقة التامة الدلق النليظة لحسم الوجنة الصلبة الشديدة . حانها : جنبها ، ويقال : حاذوا الناقة ، ما ظهر من فخذيهما حيث يقع شعر الذنب . الضليل : الخفي . الضمير : والممجلل : الذي ولد لغير تمام .
 (٥) السماحيق : ما خرج على وجه الولد من السلا وبدو غماوة رقيقة . والسلا : الجلدة الرقيقة التي يكون فيها الولد ويخرج من بطن أمه ملفوفاً بها . أخو قفرة : الذئب . السنابة : الجوع . والأطلل : الذي يشبه لون الطحال
 أو أكثر السواد .

(٦) الأطلال الكبير ٢٠٨ - ٢٠٩ .

كأنما لم تطأها قدم بشر ، فهي مقفرة لا أنيس فيها كأنما ظلت ملاعب المجوس
والرياح الهوج . وإذا ما اشتد الهجير انتصب فيها الحرباء ، يستقبل عين الشمس
كأنه صُلّ ولّى وجهه قبل اليمن أو أسير موثق لا يبرح مكانه .

ولسدة الهول والتماع السراب كانت المشاهد تتضخم ، فالثعلب الصفير
تدفعه الأوهام فيظنه الناظر فرساً ضخماً مجللاً^(١) . ثم إن الناقة الغليظة الملبدة
يصيبها الإعياء والجهد والشوق فيضارب جنينها في أحشائها فتجهش به ، فيبـدو
لهزاله كأنه فرّوج الدجاجة لغروجه قبل أوانه ، فيثب إليه ذئب تلك الغلالة
الأكدر الجائع الذو الف القفر يمزق لفائفه التي تجنّه ويأكله . وموّد هذه
الصورة أن تلك الناقة لم تعد تطيق السير ، فأنحل عنها متنها وتثقل رحمها ،
فكأنها تكاد أن تتنازع وتموت على الطريق^(٢) .

وعلى هذا النحو يرد وصف الصرّاء عند الأطلال كمقدمة يفضي بها عما كابدته
من مشقة قبل أن يوفى إلى السمدوح ، وهو وصف جار على نهج المنى القديم كما
عهد في شعر الأعشى والنايفة ومن إليهما^(٣) . ولقد استغرق هذا الوصف نحو تسعة
أبيات ، تعرض فيها الشاعر للسراب المتلصّح والجنّ والهجرة ، وأشار إلى أهوال
الطريق ومشاقها وكلال ناقتها وإعيائها وإجهادها واقتراض الذئب لجنينها ، وما
إلى ذلك من مشاهد تتضافر جميعاً لتوحي بالإرهاق الذي عاناه الشاعر وتوّد ويوصفه
إلى أقصى غايته .

وقد اعتمد الأطلال في توضيح صورته وإبرازها على التشبيه ، وكثيراً ما يذكر
أداة التشبيه كما أن المشبه به حسي في معظم الأحيان ، وكان في ذلك مقلّداً
لشعراء مدرسة الصنعة الذين يعتمدون على التصوير الحسي مثل زهير والنايفة
وغيرهما^(٤) . فهو يشبه النعام في أرجاء البيداء بجمال شاردة ، ويشبه التماح
السراب المتفرق فوق الرمال في حركته الوهمية الخداعة التي تتراءى من بعيد
برجال يتمزّون تارة ويلبسون تارة أخرى ، ويشبه الحرباء مذنباً بالصلّي أو

(١) الأطلال الكبير ٢١٠ .

(٢) الأطلال في سيرته ونفسيته وشعره ٤٩٤ .

(٣) المرجع نفسه ١٦٢ .

(٤) نقاش زهير والأطلال (عبدالمجيد المنتصب) ٤٣٠ و ٤٥٠ .

بالأسير الموثق بسلاسل الحديد ، ويشبه الشعلب الضئير قائماً على نحر من الأرض بالفرس المجلل ، ويشبه ولد الناقة الهزيل بفروج الدجاجة . وبهذه التشبيهات البدوية والصور المكرورة في وصف الصحراء عند الشعراء القدماء^(١) استطاع الأطلال أن يجعل من الطبيعة الصامتة عالماً دائب، النشاط نابضاً بالحياة ، وبخاصة حين استعان بالسراب كما الجاهلي في تحريك صور البیداء^(٢).

ولعل فضيلة الأطلال في وصفه هذا هي فضيلة مدّ أبعاد هذه الصور وحشد الألفاظ الجزلة الفخمة لها وعرضها في أرقى أساليب التقرير الذي يعظم أعجام الأشياء تعظيماً ملحماً دون أن يبدل من طبيعتها^(٣) ، وفي نفاذه من خلال ذلك إلى طريقة جديدة في وصف صحرائه استطاع أن يصنع من خلالها هذه اللوحة الفاتنة التي تدل دلالة واضحة على أن الشعر العربي تطور في هذا العصر ، فهو أشبه بالرسام الذي يحشد في لونهاته جميع الجزئيات والتفاصيل .

وصف الرياح :

يتبين للناظر في الشعر الجاهلي أن وصف الرياح فيه جاء عارضاً ضئيلاً ، غاية الشاعر منه توضيح بعض أوصاف الطبيعة الصامتة مثل الطلل والسحاب والبحر ، فهو يجعل الرياح من بين الدوامل التي غيرت الطلل وأبلته^(٤) واستدرت السحاب فأنزله ، منه المطر وأهاجت البحر فثارت مياهه وتحالت أمواجه^(٥).

ومضى عمرو بن أمّير الباهلي الجزري يصف الرياح العاتية المهلكة الصوت ، التي تحمل معها النبار فتسفيه على البيوت وعلى ديار ماحبته ، وتكسرها بعابقة منه حتى تغير معالمها . على نحو ما يتضح في مقدمة قصيدته السيمية ، نفيها

(١) الأطلال في سيرته ونفسيته وشعره ١٦٨ .

(٢) الطبيعة في الشعر الجاهلي ٣٧٢ .

(٣) الأطلال في سيرته ونفسيته وشعره ١٦٨ .

(٤) مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ٨٨ و ٩١ ، الوصف ٣٠ و ٣١ .

(٥) الطبيعة في الشعر الجاهلي ٢٤٧ و ٢٧٣ ، وصف الطبيعة ، تطوره ١٠ و ١٢ و ١٣ ، الوصف

في الشعر العربي ٢٦١/١ ، الوصف ٣٣ .

وقف وقفة بديعة متطاولة أمام الرياح العاصفة التي تماقبت على الأطلال ودرستها .
فوصفها بوبها وسرعتها وتركبتها وما حملته معها من الأثرية التي سقتها على الديار .
قال (١) :

أَلَمْ تَرَمْ الْأُطْلَالَ مِنْ حَوْلِ جُفُفِمْ مَعَ الدَّاعِنِ الْمُسْتَلْحِقِ الْمُتَقَسِّمْ (٢)
إِلَى عَيْتَةِ الْأَطْهَارِ غَيْرِ رَسْمِهَا بَنَاتُ الْيَلَى مِنْ يَدِ الْبُيُوتِ يَهْرُ (٣)
إِلَى الْبُشْرِ فَالْقَتَارِ فَالْجِسْرِ فَالضُّفَا بِكَالْعَةِ الْأَنْيَابِ صَمًا صَلْدِمْ (٤)
أَرَبْتَ عَلَيْهَا كُلَّ هَوَاجٍ سَهْوَةٍ زَفُوفِ التَّوَالِي رَحْبَةِ الْمُتَنَسِّمْ (٥)
إِبَارِيَّةً وَجَاءَ مَوْعِدُهَا الضُّحَى إِذَا أَرَزَمْتَ جَاءَتْ بِوَرْدِ غَشْمِمْ (٦)

(١) شعر عمرو بن أحمر ١٤٥ - ١٤٨ . وانظر : ٨٧ - ٨٨ .

(٢) رام : برج . جشم : بلد باليمن . الداعن : الراحل . المستلق : الذر يجتهد في سيره ليدرك من مضى قبله . والمتقسم : المتفرق .

(٣) العيثة : الأرض السهلة ، وهي بلد باليمن . الأطهار : من حائل ، وحائل بين رمتين : بين حراد والأطهار . غير : درس وأفنى . والرسم : ما كان من آثار الدار لاحقاً بالأرض .

(٤) البشر : جبل يمتد من عرض إلى الفرات من أرض الشام من جهة البادية . القطار : رستاق من رساتيق الجزيرة . الجسر : قرب الحيرة . الصفيصا : علم على مواضع كثيرة . الكلاح والكلاح : السنة المجعدة الشديدة ، وكالعة الأنياب : لعله يريد سنة اشتد جذبها وعظم بلاؤها . الصماء : الدامية . والصلدم : الشديدة .

(٥) أربت : أقامت . الهوَجاء : الريح الشديدة الهبوب التي تغلب البيوت . السهوة : اللينة . الزفوف : التي تهب بوباً ليلاً ، وقيل الشديدة المصوتة . وتواليها : أواخرها .

(٦) إبارية : منسوبة إلى الإبر ، كأنما يخز مَرْدَا الأرض وخزاً ، وقيل التي تسلي التاج . موعدها الضحى : أو يبتدئ هبوبها من طلوع الشمس . أرزمت : حنّنت وصوتت على ولدها ، شبهها بالذاتة . والورد الغشيم : إذا ركبت رؤوسها فلم تثن عن وجهها .

- زَفَوْفَ نِيَا نَهَبَ عَجْرَفِيَّةَ ترى البید من إعصافها الجرر ترتفع (١)
 تَحْنٌ وَلَمْ تَرَأْ فَصِيلاً وَإِنْ تَبَسَّدَ فيافي غيطان تهتج وتسرأ (٢)
 تَهَبُّ مِنَ النُّورِ الْيَمَانِي وَتَنْتَهِي إلى هُذْبِ الحُورِ يَا بَعْدَ مَقَرِّ (٣)
 تَبِيَتْ وَلَمْ تَهَبْ فَيَصْبِحُ ذَيْلُهَا له ثائب يشقى به كل مخسر (٤)
 لَهَا مَنْخَلٌ تَذُرُّ إِذَا عَصَفَتْ بِهِ أمابي سفاف من التُّرب تَسْوَأُ (٥)
 إِذَا عَصَفَتْ رَسْمًا فَلَيْسَ بِدَائِمٍ له وتد إلا تحلة مقسّم (٦)

فالشاعر - كما نرى - يتمسك تمسكاً شديداً بالأصون والتقاليد الموروثة للمقدمة الطاللية ؛ فقد حدد موضع المنزل ثم ذكر ما أغنى عليه وعفاه (٧) من الرياح ، مستطرداً إلى وصفها ؛ فهي رياح عاتية شديدة لا تسكن أبداً ، تشقى بها البید والقفار لدوام هبوبها واتصال عصفها في أرجائها ولشدة تصويتها بين طرقها وشعابها ولكثرة ما تعمل من الأتربة والرمال التي تذروها على الديار حتى تجعلها دائرة كأن لم تكسب من .

- (١) النيات : التي ترتفع في سيرها . الهيرج : السريعة الهبوب . المجرفية : السريعة التي لا تقيد في سيرها من نشاطها . والبید : القفار .
 (٢) ترأ : تعطف . الفصيا : ولد الناقة إذا فصل عن أمه . الفيطان : جمع النايط وهو المطامئن من الأرض الواسع . وتهتج : تعن وتصوت .
 (٣) النور : المنخفض من الأرض . الهب : جمع هبة وهي العشر النابتة على سفار الصين ، ولعله يريد أطراف الحوار وحدوده . الحوار : موضعها الجزيرة (معجم البلدان ٣١٥/٢) . السقم : سرعة السير والتماذر فيه .
 (٤) تبیت : ولم تهبج : تستمر في الليل ولا تسكن ولا تهدأ . ذيلها : ما انسحب منها على الأرض . له ثائب : أي له امتداد . والمخسر : منقطع أنف الجبل والطريق في الجبال أو الرمال .
 (٥) المنخل : معروف وهو لا يرفع شيئاً إنما يسقط ما دق ويمسك ما جل أو كبر . تذرو : تسقط وتطير . الأمابي : التراب الذي تطيره الرياح ، جمع إهباءة . السفاف : ما دق من التراب . وتوأم : أي ذرتين ذرتين .
 (٦) عصفت : هبت ، هبوباً شديداً . دائم : باق . وتحلة مقسم : أصله من تحليل اليمين وهو أن يحلل الرجل ثم يستثنى استثناءً متصلاً باليمين غير منفصل عنها ، يقال : آلى فلان أليّة لم يتحلل فيها أو لم يستثن ثم جعل ذلك مثلاً للتذليل .
 (٧) أنظر : مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي ٣٥ .

ولعل ميل الشاعر إلى الإطالة والتفصيل في وصف الرياح وتدقيقه وتأنيده في عرض صورها اقترب به كثيراً من الواقعية ، فقد حرص على تحديد الوقت الذي دبت فيه (موعدها الضحى) والمكان الذي دبت منه (النور اليماني) والذي انتهت إليه (هدب الحوار) ، وأظهر شتوها حين جعلها تصوت وتسفي السوم المهلكة وحين أفاض عليها بعض التشابيه التي جسدت قوة عصفها وشدة أذاها كتشبيهها بالمنخل الذي لا يكاد يمسك شيئاً بل يطرد ويسقط كل ما نيد من التراب الدقيق .

ولم يتغلب ابن أحمر في هذا الوصف مما عرفه عنه من جزالة الأسلوب وضامة التعبير وغمابة الألفاظ^(١) ، فالأبيات تمتلي* بالألفاظ الذابية الفامضة ذات المصارج المتنافرة ، مثل : صلد ، غشم ، هيرج ، عيرفية ، وغيرها مما تصك الآذان كأنها الصغور صلابة . ولعل هذا ما يفسر لنا احتفاظ القدماء من اللغويين بأشعاره في معاجمهم واستشهادهم بها على معاني كثير من الألفاظ والمصاني القريبة النادرة يدفعهم إلى ذلك فصاحة الشاعر وصحة أسلوبه^(٢) . ومن هنا تأتي قيمة شعر ابن أحمر اللغوية^(٣) .

وصف المطر :

اهتم العرب في بيئتهم الصحراوية الجافة بالنيث أبلى الاهتمام وحرصوا عليه أكبر الحرص ، وقد دفعهم ذلك إلى أن يديموا النظر في السماء فهي لهم معين الحياة وأصل البقاء ، فإذا اكتست بالسحب وتلبدت بالغيوم وتلاأ فيها البرق وقصف الرعد آذنتهم السعادة ورواتهم رعد الميث ، إذ ما تلبث الأمطار أن تنصب فتماك الأودية وتفرم البطائح ، ويكون بذلك حصول معاشهم من الرعي والسقي ، إذ ينبت الكلأ ويحيى الضحى^(٤) .

وقد وصف شعراء الجاهلية أمام المطر ومناظره التي غلبت أنفقتهم واستهوت

(١) شعر عمرو بن أحمر ٣٢ .

(٢) السرج نفسه ٣٢ .

(٣) السرج نفسه ٣٤ .

(٤) الطبيعة في الشعر الجاهلي ٥٩ - ٦٠ ، الوصف في الشعر العربي ٢٢٥/١ و٢١٦ .

نفوسهم (١)، فصوروا السحب الدانية وهي تعترض في الأفق وتعيث بها الريح، فتستدرها ريح الصبا الشمالية تارة وتقصدها ريح الجنوب تارة أخرى (٢). ووصفوا البرق الذي يخطف خلال النجوم المتراكمة فمثلوه دانياً، ورسوا تألقه ولسمانه وتلالؤه، وشاموه فكانوا يكثرون من استعمال الفقلين: راقب، وأرق، اللذين يدلان على الحذر والقلق. ووصفوا الرعد الأهر الصوت الذي يعتبر مقدمة للنيث وعلامة من علاماته (٣). حتى إذا انتهوا من ذلك صوروا المطر وانصبابه وتحوله إلى سيول مؤارة جارفة، تجتاح المدن والقرى فتقتلح الأنهار الضخمة وتدمر البيوت وتملأ القيمان، وتجاوز الحد فتبلغ الأمكنة العالية وتكره الوعول المحصنة في أوكارها الحصينة على النزول، وقد نضرت نضراً شديداً فاندفعها ربة كل مهرب ضاربة في كل اتجاه، مضفين على ذلك كله جواً من الرهبة متولداً من روعة المشهد وهو له. ومن ثم ينصرفون إلى بيان أثر الأمطار وإبراز فضلها في إحياء الأرض بعد موتها، إذ بها ينبت الزرع ويمتلئ الضرع (٤).

(١) مقدمة التصيدة العربية في الشعر الجاهلي ٤٧.

(٢) الوصف في الشعر العربي ٢٥٩/١ و ٣٦١، الوصف ٣٣، وصف الطبيعة وتطوره ١٠.

١٢، الطبيعة في الشعر الجاهلي ٢٤٨، العصر الجاهلي ٢٥٦ و ٢٥٧، أمروء

القيس، شاعر المرأة والطبيعة ١٦١، النابغة سياسته وفنه ونفسيته ٢٥٦.

(٣) الطبيعة في الشعر الجاهلي ٦٠ و ٢٤٧ و ٣٧٣، الوصف في الشعر العربي ٢٦١/١،

وصف الطبيعة وتطوره ١٠ و ١٢ و ١٣، الوصف ٣٣، العصر الجاهلي ٢٥٦، النابغة

سياسته وفنه ونفسيته ١٩ و ٢٥٦، أمروء القيس، شاعر المرأة والطبيعة ١١٤.

(٤) الطبيعة نسي الشعر الجاهلي ٢٤٨ و ٢٧٣، الوصف في الشعر

المعربي ٢٥٩/١ و ٣٦١، وصف الطبيعة وتطوره ١٠ - ١١، الوصف

٢٣ - ٣٤، العصر الجاهلي ٢٥٦ و ٢٥٧، النابغة

سياسته وفنه ونفسيته ٢٥٦، أمروء

القيس، شاعر المرأة

والطبيعة ١١٤ و ١١٨.

وقد استمد الشاعر الجاهلي من السحاب وأشكاله ومن البرق واستنارته ومن
الدمار وهطوله صوراً كثيرة استعان بها لتحريك كثير من صور الطبيعة ونسج
ملاحمها بادية في تشبيهاته ^(١)، فقد شبه هياكل السحاب بتطشان النياق ^(٢) تارة
وبالأملاك البلق ^(٣) تارة أخرى، وشبه انتشار البرق وتشققه وهو يتابع بمس
اللمعات بحركة اليدين وتقليبهما ^(٤) كما شبه تألقه وانطفائه بالشملة التي
تومئ ثم يذهب وميضها وبالشرارة التي تلمح وما يلبث أن يعتفي لمعانها ^(٥)،
ووصف كذلك السيل الجارف وتحذره وقوته وجبروته وهو يكتسح كل ما يقف دونه من
الوحوش والأعجار والبيوت ^(٦).

وغلب على وصف الشاعر الجاهلي للمطر أنه لم يكن يفرد له قصائد خاصة،
وإنما كان يأتي عرضاً في ثنايا قصائده ^(٧). فقد تصدى له امرؤ القيس ^(٨) كما
أن لعلشى ^(٩) وعبيد بن الأبرص ^(١٠) وصفا للمطر، وفي شعر النابغة أبيات في وصفه
لا يبلغ فيها شأواً وسواه ^(١١).

(١) الطبيعة في الشعر الجاهلي ٢٤٨.

(٢) النابغة في سياسته وفنه ونفسيته ١٩ و ٢٥٦.

(٣) الطبيعة في الشعر الجاهلي ٢٢٤ و ٣٣٥، وصف الطبيعة وتطوره ١٢.

(٤) الطبيعة في الشعر الجاهلي ٢٢٦، امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة ١١٤.

المصر الجاهلي ٢٥٦.

(٥) وصف الطبيعة وتطوره ٢٢، الوصف في الشعر العربي ٢٦١/١.

(٦) الطبيعة في الشعر الجاهلي ٢٤٨ و ٣٣٣، الوصف في الشعر العربي ٢٥٦/١.

وصف الطبيعة وتطوره ١٠ - ١١، امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة

١١٤، مصر الجاهلي ٢٥٦ - ٢٥٧.

(٧) وصف الطبيعة وتطوره ٨.

(٨) امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة ١١٤، وصف الطبيعة

وتطوره ٩، مصر الجاهلي ٢٥٥.

(٩) ديوانه ٥٧ - ٥٩.

(١٠) الوصف ٢٢، وصف الطبيعة وتطوره ١٢.

(١١) النابغة في سياسته وفنه ونفسيته ٢٥٦.

سقى الله أرضاً خالداً خيراً أهلها
إذ أطفئت ریح الصبا في فروجه
إذا زعزعته الريح جزّ ذبوله
دليل كأن البرق في حباته
فلما انتحي نحو اليمامة قاصدا
سقى لعلماً والقرنيتين فلم يكسدا
بمستفرغ باتت عزاليه تسحل (٧)
تخلّب ريثان الأسافل أنجل (٨)
كما زحفت عوذ ثقال تطائل (٩)
مصابيح أو أقراب بلق تجقل (١٠)
دعته الجنوب فانشنى يتشزّل (١١)
بأثقاله عن ليل يتعطل (١٢)

تلقا على الح (مستقيم ما استعجم ١٠٦٨) وعلى الح في ديار كلب (معجم ما استعجم ٩١٣).

وغادر أكم الحزن تطافو كأنها بما احتملت منه رواجن قفيل (١)
وبالمترسانيات حل وأرزممت برون القطامنه مافيل حفيل (٢)

فانطلق في وصفه للمطر ينحو نحو الشراء الجاهليين الذين كانوا يتصدون لوصف
البحار في ما ولائهم التي تتداخل فيها موضوعات عدة . وهو يقلدهم في تصويره
للسحاب بهيئات الإبل والخيول ، وفي وصفه لتألول البرق من خلال السحاب الأسود
بالمصابين أو بغواصر المغيل البلق ، وهي مجفلة ، وفي وصفه لمطول المطر وتحوله
إلى سيل يملأ القيمان ويخمر المرتفعات حتى لا يبدو منها إلا رؤوسها ، وفي إظهاره
للآثار الواسعة التي تعقب المطر على الأرض والكائنات . كما أننا نقع في هذا

- (١) الأكمة : جمع الأكمة وهي ما ارتفع من الأرض ولم يبلغ أن يكون جبلا . الرواجن :
الدواب التي تمسك وتعلق في السنازل ، والمفرد راجنة . والقفل : جمع قافل
وهو الناصر . يقول : غمرت المياه الأراضي فلم يكن يبرز على وجه المياه
إلا القليل من رؤوس الكام شبه إبل ضامرة مذبذبة في المنازل للعلف .
- (٢) المترسانيات : أرض بالجزيرة (شعر الأطلال ٣١/١) . أرزممت : حنت على ولدها
وصوتت . روضة القطا : من أشهر رياض العرب وأكثرها ذورا في أثمارهم ، وهي
بناحية كُتلة وجدود . قال الخالغ : فهذا روض القطا وقد وصفته شعراء القبائل
على اختلاف أنسابها وباعدوا بين ذكر موضعه ، فمنهم من يصفه أنه بالحجاز
ومنهم من يصفه أنه بطريق الحجاز ومنهم أنه بطريق بالشام ، ولا أدري كيف
هذا إلا أنني إذا وجدته . ولم أجد أحدا ذكر موضعه وبيئته ، وليس القطا
تكثر بالرياح فنسبت إليها . قلت أنا : وجدت في كتاب أبي جعفر محمد
ابن إدريس بن أبي حفصة في مناقب الإمامة ، قال فيه : إذا خرجت من حُبَر
تريد البصرة فأول ما تطلعا السبع ثم الخُربة ثم
قارات الخُـبـل ثم بطـن السـلـي ثم طـسار ثم عـيـان
ثم روض القطا ثم القـرمة . وهذه كلها
من أرض الإمامة (معجم البلدان ٩٤/٣) . المطافيل :
التي هي مهمـلا أولادهمـلا . والعفـل :

المتلثة الضـرـون .

الوصف على نوع من الترويع الشبيه بترويع الجاهليين أمام المطر ، في تكاثف
سحابه وخطاه برقه وتمثيل فيضانه ^(١) ، ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا : إن
الأخطال في هذه الأبيات كان يمارس وصف امرئ القيس للمطر في المملقة ^(٢) ، فلم
يقصر عنه في تمثيل شدة انهماكه وتغطف برقه وفيضانه على المدن والقرى ومنا
إليها ^(٣) . ومما يدل على ذلك أكبر الدلالة أن أبيات امرئ القيس والأخطال من
وزن واحد وهو الطويل ، أن القافية واحدة وهي اللام . كذلك يقلد في هذا الوصف
شعرا * مدرسة الصنعة في توضيح صورهم وعرضها عرضا يشد السامع إليها بالاستمانة
بالتصوير الحسي والانتكا * على التشبيه ، والأخطال يذكر الأداة غالبا وهي الكاف
وكان كما أن السببه به حسي ^(٤) ، فالسحاب حين يجزّ ذبوله يتراعى وكأنه قطيع
من الإبل أو الخيل يزحف ليغزو أطفاله ، وللمان البرق وسط السحاب الأسود أشبه
بالمصابيح أو بخواصر الخيل البلق ، ورووس الكمام إذ تنطيطها المياه أشبهه
بالإبل الضامرة .

أما فضيلة الأخطال في هذا الوصف فتتمثل فيما اصطنعه من الحركة في تصويره
ليجمل صورته تنبض بالحياة ، ويبدو ذلك واضحا في هذه الأفعال المتوالية التي
ينتقل بها من صورة إلى أخرى ، فالسحاب الذي يدعو للمدح أن يسقي أرضه قد
باتت عزاليه (تسعل) ، وإذا (طعنت) في فروجه الريح (تخلّب) ، وإذا (زعزعتسه)
(جزّ) ذبوله كأنها عوذ ثقال (تطقل) ، فلما (انتحى) نحو اليمامة قاصدا (دعته)
الجنوب (فانشنى يتخزل) ، و (سقى) لعلما والقرنتين فلم يكاد (يتخمل) ، ثم (غادر)
الأمم (تطفو) ، و (حلّ) بالمرسانيات و (أرزمت) منه مطافيل دفل ^(٥) .

ونقع في شعر القطامي التفلبي على وصف للمطر استهل به إحدى قصائده ،
فوصف الأرق الذي انتابه في إحدى الليالي حين كان البرق يتقد في الظلام اتقادا

(١) الأخطال في سيرته ونفسيته وشعره ٣٩٢ .

(٢) ديوان امرئ القيس ٥٩ - ٦٣ .

(٣) الأخطال في سيرته ونفسيته وشعره ١٦٨ .

(٤) نقائش جرير والأخطال (عبدالمبيد المحتسب) ٥٠٣ .

(٥) الأخطال شاعر بني أمية ١٦٣ و ١٦٥ .

شديدا ، أعقبه مطر شديد الانصباب ، أجرى عيولا تدافعت بقوة من سفوح الجبال —
ففسرت أراضي منيم والعيّن . وما لبث أن ازداد هطول المطر حتى غرق الأماكن
المرتفعة التي تسكنها الرثال والبقر الوحشي ، فذعرت ذعرا شديدا وخرجت من
أوكارها الحصينة تريد النجاة ، فاندفعت هاربة ضاربة في كل اتجاه . يقول (١) :

أرقت وممرضات الليل دوني لبرق بات يستمر استسارا
تواضّع للشجاسج من منيم وجاء الصيّن وافترش الفمار (٢)
وبات يحطّ من جبلي زيزار غوارب سيله حزمًا كبارا
بسّح تفرق النجوات منسه ويبث من مرابمها الصّوار (٣)
ويمطاد الرثال إذا علاها وإن أمعن من فزع فزار (٤)

واضح أن النظامي يسلك في وصفه للمطر مسلك الجاهليين الذين لم يتمضوا لوصفه
في قصيدة خاصة وإنما تحدثوا عنه في مطولاتهم ، واستهلاله هنا إحدى قصائده بوصف
المطر أشبه بصنيع النابغة الذي كان وصف المطر عنده غالبا ما يتقدم على التل
وربما يحقه (٥) . والقظامي يحذو حذو الجاهليين في التعبير عما أصابه من قلق
حين عبّر بالفعل (أرقت) الذي يدل على الحذر والقلق (٦) ، وفي نزوعهم إلى الضلو
والمبالغة إذ يصفون على وصف المطر ومناظره جوا من الرهبة متولدا من روعة
المشهد ويتمثل ذلك في تصويره للبرق الذي (يستمر استسارا) كأنما هو جذوة من نار
تتأكل ، وفي تشبيهه لأمواج السيل الموّارة وهي تتدافع إثر بعضها بالحزم الضخمة
وفي وصفه لإغراق الأمطار للأماكن العالية وإكراه الوعول المعتمدة في قسماها على الهرب

(١) ديوانه ١٣٢ ، صفة جزيرة العرب ٣٣١ .

(٢) تواضّع : اطمأن . أرض سحجج : مطمئنة ، وقيل هي الواسعة . منيم : موضع
(معجم البلدان ٢١٨/٥) . العين : علم على مواضع كثيرة (أنظر: معجم البلدان
١٧٤/٤ - ١٧٦) . والفمار : جمع القمّر وهو الماء الكثير .

(٣) السحج : شدة الانصباب . النجوات : جمع النجوة وهي ما ارتفع من الأرض .
والصوار : القطيع من البقر .

(٤) الرثال : جمع الرثال ، وهو ولد النعام ، وفي بعضهم به الحولي .

(٥) النابغة في سياسته وفنه ونفسيته ٢٥٦ .

(٦) الطبيعة في الشعر الجاهلي ٢٤٧ .

بعدمهم ، وقد رأيناهم يمتنون بوصف النهر ويدققون في إظهار امتلائه بالماء وما يجلب معه من العظام والركام ويصورون "أثر اضطرابه على السفن والملاحين لكسي يظهروا أريحية ممدوحهم وعطاءهم الفامر وكرمهم الذي لا يبارى والذي يفوق في كثرته واتصاله مياه أعظم الأنهار" ، كل ذلك في صور معادة مكرورة وألفاظ وقوالب متماثلة عند أكثرهم . ويتضح ذلك بجلاء في مدح النابغة الذبياني للهلك النعمان وفي كثير من مدائح الأعشى الذي استطاع أن يتغفف من صعوبة الأسلوب وغرابسة التراكيب التي تفاوب عليها الشعراء ورسخوها .^(١)

وماك نموذج يقدمه النابغة عرضا في وصف الفرات حين شبه به ممدوحه النعمان في جوده وكرمه ، فصور فيضان النهر إذ تهب عليه الريح ويترع بالروافد والسيول وتتلاطم الأمواج ويصطب الأذى ، فيمتد حاملا العظام والركام ويحصف بكل ما عليه حتى لنرى الملاح معتصما بصدر السفينة كيلا يطوق الموج بها ويرديها . كل ذلك لينفي أن يكون الفرات في تدفقه وفيضانه أجود من النعمان وأكثر سيبا^(٢) قال :^(٣)

فما الفرات إذا هم الرياح له ترمي أواذيه المبرين بالزبد^(٤)
يمده كل واد مترع لجب^(٥) فيه ركام من الينبوت والخضد^(٥)
يظل من خوفه الملاح معتصما بالخيزرانة بعد الأين والتجد^(٦)
يوما بأجود منه سيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غدد

فأنت ترى أن الشاعر الجاهلي وقف عند النهر علبى أنه تجسيد لكرم ممدوحه ،

(١) وصف البحر والنهر ٤١ .

(٢) الوصف في الشعر العربي ٢٧١/١ ، وصف الطبيعة وتطوره ٣٠ و ٣١ و ٢٢١ ، القصص

الجاهلي ٢٨٧-٢٨٨ ، المديح ١٧-١٨ ، النابغة في سياسته وفنه ونفسيته ٢٢٠ .

(٣) ديرانه ٣٦ - ٣٧ .

(٤) الأواذ : الأمواج الكبيرة .

(٥) مترع : ملي . جب : صخب . الينبوت والخضد : نوعان من الشجر الكبير الضخم .

(٦) الخيزرانة : صدر السفينة . الأين والتجد :

التعب والخوف .

فمن علينا في أربعة أبيات هذه الصورة الكاملة للفرات ، وهي صورة متماز
بفخامتها ودوتها وإتقانها (١).

ولما كان الأخطل التغلبي يترسم خطأ النابغة في بعض شعره ولا سيما المديح،
فقد شغلته هذه الصورة القديمة لوصف الفرات عند النابغة فحام حولها ونهل منها
في تنمية بعض مداخله (٢). ففي داليته التي مدح بها يزيد بن معاوية
والتي بدأها بوصف الطمائن والحديث عن المطية ذاكرا السبيل الذي اجتازته
وتخلص إلى مدح يزيد وتعرض لوصف الفرات ليقرن به كرم يزيد موثرا إياه عليه (٣).
قال (٤) :

وما مُزبد يملو جزائر حامر	يشق إليها خيزرانا وغرقدا (٥)
تخرز منه أهل عانة بعدما	كسا سورة الأعلى غثا * منضدا (٦)
يقيم بالملاح حتى يشفه الـ	حذار وإن كان المسيح المعودا (٧)
بمطراد الآدى جُون كأنما	زفا بالقراير النمام المطردا (٨)

(١) الأخطل الكبير ٣٤٠ .

(٢) الأخطل الكبير ٣٤٠ ، الأخطل شاعر بني أمية ٣٢٠ ، وصف الطبيعة وتطوره ٤١ .

(٣) الأخطل في سيرته ونفسيته وشعره ٧١ و٧٩ ، الأخطل : مدائح منتخبة ١ .

(٤) شعر الأخطل ٣١٠/١ - ٣١١ .

(٥) المزبد : المائج الذي يقذف بالزبد ، وزبده : طفاوته وقذاه . حامر :

ناحية بين منبج والرقعة على شط الفرات (معجم البلدان ٢٠٧/٢) . والفرقد : شجر

عظام وهو من العشاء ، واحدته غرقدة . قال أبو حنيفة : إذا عظمت الموجة

فهي الغرقدة .

(٦) الفثا : ما يقذفه السيل من قمام وزبد وورق بال . والمنضد : الذي يملو بعضه بعضا .

(٧) القماس : أن لا يستقر في موضع ، تراه يقم فيثب من مكانه من غير صبر ، ويقال

للقلق قد أخذه القماس . يشفه : يحزنه ويقلقه . والمشيخ : الجاد والحدرد .

(٨) المطرد : الذي يتبع بعضه بعضا . الآدى : الموج . العون : الأبيض ههنا

لما يملوه من الزبد . زفا : حث وطسرد . والقراير :

جمع القرقور وهي السفينة الطويلة أو السطيمة .

كأن بنات الماء في حجراته أباريق أهدتها ديافا لصرخد (١)
بأجود سيبا من يزيد إذ اغدت به بخته يعملن مكدًا وسودد (٢)

فمياه الفرات عند الفيضان يشهد اضطرابها وهقلبها حتى تشق كل ما يمر — ترض
مجراها من أشجار الخيزران والفرقد المظيمة ، وتفرق جزائر حاسر، وتتدافع
باتجاه مدينة عانة فتغطي سورها بالفضاء ويحتفي منها الناس . وإن أمواجهما
المتتابعة المزبدة توقع الاضطراب في السفينة فتثير في الملاح القلق والخوف
وإن كان معتادا ركوب البحار حاذقا في قيادة السفن الكبار . أما طيور الماء
فتترامى في جوانب النهر كأنها أباريق جميلة أهداها أهل ديافا لجيرانهم فهي
صرخد . فإذا ما انتهى الأخطال من هذا التصوير للفرات إبان فيضانه ، تم له آخر
الأمر ما أراد إليه من تفضيل الممدوح على النهر حين يسغو على الناس بالمال .

وللأخطال دالية أخرى في عبدالله بن معاذية ، عرش فيها الشاعر لوصف
الفرات عندما أراد أن يصور كرم ممدوحه ، فشبهه بالنهر جودا وعطا . قال (٣) :
كأنه مزيد ريان منتجع يملو الجزائر في حافات الزبد (٤)
حتى ترى كل مزور أضرب به كأنما الشجر البالي به بجسد (٥)
تظل فيه بنات الماء أنجية وفي جوانبه الينبوت والحصد (٦)

(١) بنات الماء : طيورهم . حجراته : نواحيه . ديافا : من قرى الشام . وصرخد : بلد قريب
من حوران من أعمال دمشق ، ينسب إليها الخمر الجيدة (معجم ما استمع ٨٣١ ، معجم
البلدان ٤٠١/٣) .

(٢) البخت : جمع بختي وبختية وهي الإبل الخراسانية أو مطلقا .

(٣) شعر الأخطال ٤٤٤/٢ .

(٤) أراد بالمزيد الريان : الفرات إذ يفيض بالمياه . والمنتجع : الذي يقصد لما
فيه من الخير .

(٥) المزور : ما تنحى عن البحر ينسب الجزائر . قوله : أضربه أي ملاءه حتى فاض .
والبجد : جمع بجاد وهو من الأكسية ما كان غزله شزرا ، والشزر أن يفتسل

عن جانب اليسار .

(٦) الأنجية : الجماعة . والينبوت والحصد : نوعان من الشجر الكبير الضخم ، وواحدة

الحصد حصدة وواحدة الينبوت ينبوتة .

سهل القرائح تروى الحائحات به إذا العطاش رأوا وأوضاه ورددوا^(١)
 فالأخطال يصور الفرات فائضا متدفقا تضرب أمواجه الشيطان ، ويصوره هائجا قويا
 يقتل في سبيله الأشجار الضخمة ، وتظل فيه طيور الماء مجتمعة بعضها إلى بعض
 غشية الفرق ، ويصوره إلى ذلك بشير خير ونعمة يروى العطاش ويحيي الأرض المواتة
 فكان استطرادا فنيا بديعا جسم به جود ممدوحه^(٢).

وفي رائية الأخطال المشهورة (خف القطين) التي استهلها بذكر الارتحال
 والتنائي متشبهًا بشارب الخمر وتتبع فيها المسافرات على مذهب زهير ثم تخلص
 إلى مدح الخليفة عبد الملك بن مروان ، نراه يصور الفرات عندما التفت إلى
 كرم عبد الملك فإذا هو يفوق الفرات جودا وعطا . قال^(٣) :
 وما الفرات إذا جاشت حوالبه وفي حافتيه وفي أوساطه القُـمـر^(٤)
 ونعنته رياح الصيف واضطربت فوق الجآجي من آذيه غُـدُر^(٥)
 مسخن من جبال الروم يستره منها أكافيف فيها دونه زور^(٦)
 يوما بأجود منه حين تسأله ولا بأجهر منه حين يجتهر^(٧)

فالفرات إذ يرتفع فيضانه ويشدد تدفقه فيكتسح ما يلقيه في طريقه من أشجار
 قوية ضخمة ، وإذا تحركه الرياح فتزيد من جيشانه واضطراب أمواجه واصطفاق
 أواذيه وارتفاعها على السفينة ، وإذا ينهمر من جبال الروم في سرعة فائقة

(١) الأوضح : جمع الوضح وهو هنا محجة الطريق إلى الفـسـرات .

(٢) الأخطال شاعر بني أمية ١٥٣ .

(٣) شعر الأخطال لـ ١٩٧/١ - ١٩٨ .

(٤) جاشت : غلت واضطربت . حوالبه : أمواجه . حافتيه : جانبيه . القُـمـر : شجر .

(٥) نعنته : حركته . الجآجي : جمع الجوجوء وهو الصدر ، أراد به هنا صدر

السفينة . آذيه : أمواجه . غدر : جمع غدير وهو النهر .

(٦) المسخن : السريع الجرى . الأكافيف : مناكب وحيرد في جوانبه . والزور :

البيـل .

(٧) أجهر : أحسن ، والجهير : الرجل الجسيم الرائع ، ويقال : جهرت الرجل واجتهرته

إذا أعجبك حسنه . ويجتهر : ينظر إليه .

وانحدار شديد، ليس الفرات وهو على هذه الحال بأكثر سببا من الممدوح ولأبأروع منه منظرا (١).

وفي رائية الأخطال التي مدح بها عذرة الفياض، يتصدى الشاعر لوصف الفرات حين قرن به كرم. ممدوحه، فإذا هو يفوق النهر كرما وسخاء. قال (٢):

وما مزبد الأطواد مندود عانة يشق جبال الخور ذو حدب غمسر (٣)
تظل بنات الماء تبدر متونها وطورا توارى في غواربه الكدر (٤)
متى يطرديسقي السواد فضوله وفي كل مستن جدوله تجرى (٥)
بأجود من مأوى اليتامى وملجأ المضاف وهاب القيان أبي عمرو (٦)

فليس الفرات وقد ثار وأزبد واشتد جريه، فاشترق الجبال وغرق طيور الماء فأغفاها في غواربه وفاز على أرض السواد وأترعت منه السيول والجداول، بأكثر عطاء من الممدوح.

فالأخطال وصف الفرات من خلال المفاضلة بينه وبين ممدوحه في كثرة السيب والعطاء، «فقد رأى في النهر إذا فاض، وفي الممدوح إذا أعطى وأثاب، وجه شبه يتمثل في هذا الخير الذي يصيب الناس بعد فيضان هذا وعطاء ذاك. ووجد في هذا الشبه مجالا للمفاضلة بين فيضان النهر وعطاء الممدوح. وما إلى تفضيل النهر أراد بل قصد إلى تمجيد ممدوحه كرما وسخاء» (٧). فجاء بهذه الاستدارة الفنية الجميلة ونمى بها مدائحه حتى غدت متميزة بها أشد التميز، وهي استدارة مأثورة لدى الشعراء الجاهليين وبخاصة لدى النابغة الذبياني الذي

(١) الأخطال في سيرته ونفسيته وشعره ١٢٨، المديح ٢٢، التطور والتجديد ١٥٢.

(٢) شعر الأخطال ٤٥٥/٢.

(٣) الحدب: الموج وتراكب الماء في جريه. والنمر: الكثير، يعني الفرات

في فيضانه.

(٤) الفوارب: الأمواج.

(٥) يطرود: يتبع بعضه بعضا. والمستن: موضع جسر الماء.

(٦) المضاف: الملجأ المحرج المثلث بالشر.

(٧) الأخطال شاعر بتي أمية ١٥٦.

استمان بها في تنمية مديحة للملك النعمان (١).

فوصف الأخطل للفرات لم يكن وليد عبقرية الأخطل (٢) وليس له فيه فضيلة الابتكار والخلق ، إذ أن سنة هذا المعنى اشتقت له وتقررت فيه من قبل (٣) ذلك أن شعر المدح كان شعر تبعية وتقليد يتأخذ الشعراء معانيه بعضا عن البعض الآخر (٤) . ومما لا شك فيه أنه إذا كان للنايفة يد طويلة على براعة الشاعر الإسلامي في هذا الميدان ، كما أنه كان لداليته في النعمان أثر خاص في الأخطل ، سار في ركايتها غير مرة لشدة انطباعها في مخيلته (٥) .

فالناظر في وصف الأخطل للفرات وفي وصف النايفة له يرى بجلاء تقليد الشاعر الإسلامي للشاعر الجاهلي ، فالمعاني هي ذاتها تتردد في تصوير الأخطل للنهر ، وهو تصوير تعرض له كالنايفة من خلال أبيات معدودة في هذا التشبيه الاستطراذ الذي يستعمله - غالبا - بالمفضول منفيًا بما ، وهي من أخوات ليس ويمتدح بينهما وبين اسمها ببيتين أو ثلاثة ثم ينتهي دائما بالمفضل مثبتا (٦) . كل ذلك يقدمه الأخطل كالنايفة في أسلوب قوى قوة الماء حين يثور والنهر عندما يفيض ، ويصطفي له الألفاظ التي لا ينوب عنها غيرها في معانيها ، فالزبد والآذ والفرار والفرقد والينبوت والخض والفشا ، كلها ألفاظ تشترك بالقوة كما أنه يصطنع - كأستاذ النايفة - التصوير الحركي في هذا الوصف ، ذلك التصوير الذي يتمثل في هذه الأفعال المتوالية التي ينتقل بها من صورة إلى أخرى ، فحين قرن بين كرم عبد الملك والنهر في فيضانه مثلاً رأينا الفرار الذي يفوق الممدوح جودا قد (جاشت) حوالبه و (نعمته) رياح الصيف و (اضطربت) من آذيه غدر (محنفر) من جبال الروم (يستره) منها أكافيف فيها دونه زور . وهكذا

(١) الأخطل شاعر بني أمية ١١٨ و ٢٢٣ ، الأخطل في سيرته ونفسيته وشعره ١٣٧ ،

المديح ٢٢ .

(٢) النايفة في سياسته وفنه ٢٢٢ .

(٣) الأخطل في سيرته ونفسيته وشعره ٨٠ .

(٤) النايفة في سياسته وفنه ٢٢٢ .

(٥) شعر اللهو والخمر ٩٨ .

(٦) الأخطل شاعر بني أمية ١٥٥ ، النايفة في سياسته وفنه ٢٢٢ ، الأخطل في سيرته ونفسيته

وشعره ١٣٧ .

(٧) الوصف في الشعر العربي ٢٧١/١ .

(١)

يختار الأخطال لوصف النهر - شأن النابغة في المواقف التي تنبض بالحركة والحياة ولعل فضيلة الأخطال في هذا الوصف يستمدّها أولاً من التفصيل في صورة فيضان الفرات حين يتعقبه وهو يسقط من جبال الروم في انحدار شديد تتدافع مـمـه السيول والأمواج تدافعا^(٢) وذلك عندما نوه بكرم عبد الملك ، وحين يصور طيور الماء مجتمعة إلى بعضها خشية الفرق كما في مدحه ليزيد وعبد الله ابني معاوية أو حين يصور هذه الطيور وقد غرقها النهر فتوالت في أمواجه وذلك عندما التفت إلى كرم عكرمة ، وحين يصف ارتفاع فيضان النهر فوق أسوار المدينة كما في مدحه ليزيد ، وحين يصور النهر بشير يمن وبركة يسقي الأرض الموات وذلك عندما أثر عليه كرم عبد الله وعكرمة . وهي فضيلة يستمدّها في بعض هذه الأوصاف للنهر من المقارنة نفسها كما يقول الدكتور شوقي ضيف : " فالنابغة يكتفي في المقارنة بين النعمان والفرات بالوجود، أما الأخطال فيمد المقارنة إلى الجهارة والروعة، فمـبـد الملك لا يشبه الفرات فقط في جوده ، بل يشبهه أيضا في جسامته وروعته وفخامته ".^(٣)

وبعد ، فهذه هي صورة النهر كما جاءت عند الأخطال ، توصل إليها بأسلوب التشبيه الاستطراذ أو بالاستدارة في معرض المفاضلة ، وهي استدارة كانت تقررت عند الجاهليين بأصولها وتقاليدها ، لكن شاعر الجزيرة الفراتية في العصر الأموي لم يقف عند حد التقليد ، بل حاول التجديد في الصورة والتحوير فيها ، وقد نفذ إلى ذلك عندما استطاع أن يمد في أبعادها ويكسبها ألوانا وأطرافا جديدة .

وصف الرحلة النهرية :

كان الشعراء الجاهليون والأمويون يصفون رحلة الظمائن في الصحراء على

(١) الأخطال شاعر بني أمية ١٦٣ - ١٦٤ .

(٢) التطور والتجديد ١٥٢ .

(٣) المرجع نفسه ١٥٢ .

ظهور الإبل والنوق (١) وينصرفون إلى تشبيه هواجج النساء بالسفن ، وهو تشبيه دقيق ، فللهواجج كما للسفن قرارات ويطون يجلس فيها السَّفر ، والهواجج فهي امتدادها تشبه السفن في تتابعها ، والصحراء الواسعة تسير فيها مراكب النساء أشبه ما تكون بالبحر (٢) .

لكن نفرا من شعراء العصر الأموي طوروا هذا الوصف فنقلوه من تشبيه الظمن الراحلة في الصحراء بالسفن السائرة في الأنهار ، إما في نهر النيل وإما في أنهار العراق . والمظنون أن عبيد الله بن قيس الرقيات هو أول من حاول ذلك عندما صور انتقال نساء عبد العزيز بن مروان بالسفن في نهر النيل (٣) .

وحذا الأخطل التغلبي حذوه في مقدمة طويلة لقصيدته البائية التي مدح بها عبد الله بن سميد بن العاص ، فصور بهمد أن نفت آلامه لأنه ودَّع عهد الصبا - الطاعنا من نساء قومه - ومن يرتحلن بالسفينة من مكان كن يتميِّفن فيه إلى موطنهن الأملي (٤) . قال (٥) :

كأن الرِّيط فوق ظِلِّها * فَلَجْ	غداة لبسن للبيِّن الثياب (٦)
ففارِقن الخليط على سفين	يشقَّ بهن أمواجاً صاب (٧)
ترى الملاح مُحْتَجزاً بليف	يوْمُ بهن آجاً ما وغاب (٨)
إذا التبان قَلْبٌ عن مُشِيح	صدَفن ولم يَرِدن له عتاب (٩)

(١) مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي ٧٠، الأخطل في سيرته ونفسيته وشعره ٥١٤ .

(٢) الوصف في الشعر العربي ٢٧٤/١ .

(٣) وصف البحر والنهر ٤٤ - ٤٥ .

(٤) وصف البحر والنهر ٤٥، مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي ٦٥، الأخطل

في سيرته ونفسيته وشعره ٥١٤ .

(٥) شعر الأخطل ٣٢٦/١ - ٣٢٨ .

(٦) الرِّيط : جمع رِيطَة وهي الملاحة . الأطباء : جمع طبي وهو الفزال . فلج : واد

بين البصرة وحمي ضرية . والبين : المفارقة .

(٧) مُحْتَجزاً : أُرْشِدَ أو أُعْلِي وَسَطَهُ .

(٨) التبان : سراويل صفيّر مقدار شيرستر الصورة يكون للملاحين . قلب : ارتفع وانشمر .

المشيح : الجاد المنكمش والشجاع الحريص . وصدفن : عدلن وأعرضن .

- يَمِدُّ الْمَاءُ تَحْتَ مُخَرَّاتٍ يَصُكُّ الْقَارَ وَالْخَشْبَ الصَّلَابَ (١)
 يَمْسُ عَلَى كَلْكَلِهِنَّ فِيهِ وَلَوْ يُزْجَا إِلَيْهِ الْفِيلَ هَابًا (٢)
 وَإِذَا اضْطَرَّهِنَّ إِلَى مَضِيْقٍ وَمَوْجُ الْمَاءِ يَطْرُدُ الْحَبَابَ (٣)
 تَتَابَعُ صِرْمَةُ الْوَحْدَى تَأْوِي لِأُولَاهَا إِذَا الرَّاعِي أَهَابًا (٤)
 نَجْنُ بَحِيثٍ تَنْتَسِغُ الْمَطَايَا فَلَا بَقَاً يَخْفَنَ وَلَا ذُبَابًا (٥)
 إِذَا الْقَوَامِرَاسِيَهُنَّ حَلُّنَا دَبِيبَ السَّبْيِ يَبْتَدِرُ النَّقَابَ (٦)

فالنساء انتقلن من المكان الذي أمضين فيه الصيف على سفينة افترعت بهن عباب
 الموج المتلاطم كاللجأ والمفبات، بينما كان يقودها ملاح ماهر شد وسطه بحبل
 من الليف، وستر عورته بسر وال قصير، فكان يشحن بأنظارهن عنه. ولم تزل
 السفينة تشق هذا الخضم الذي يرهبه حتى الفيل، والمياه تتدافع بجوانبها
 القوية وتتلطم بجدرانها المطبيلة بالقار إلى أن وصلت إلى الثغر وفيه
 تراكبت أمواج الماء وتتابعت كأنها قطيع من الإبل زجرها الراعي. ولشدة خوف
 الطاعنات لم يكد الملاحون يلقون بمراسي السفينة حتى هرعن إلى اليابسة كأنهن
 السبايا المصعدات في الجبال (٧).

وهكذا، مضى الأخطال في وصف الرحلة النهرية وصفا واقعيا، تمثل في حبل

- (١) يمد: يجرى بلا انقطاع، اشتقه من الماء المد وهو الجارى الذوله مادة لا
 تنقطع. المسخرات: السفن. ويصك: يضرب.
 (٢) كلكل السفينة: صدرها. ويزجي: يدفع.
 (٣) يطرد: يطرد. والحباب: ما تتابع منه بعضه في اثر بعض.
 (٤) الصرمة: القطعة من الإبل، قيل: هي ما بين المشرين إلى الثلاثين، وقيل:
 ما بين الثلاثين إلى الخمسين. الوحدي: قبيلة من تغلب كانوا ينزلون
 وحدهم متفرقين فلقبوا بذلك (شعر الأخطال ٣٢٨/١). وأهاب: دعى وصاح وزجر.
 (٥) دجن: نزلن وأقمن. الانتساغ: التباعد والتفرق في السرى. والمطايا:
 الإبل.
 (٦) دب: مشى على هيئته. السبي: الأسرى. والنقاب: جمع النقب وهو الطريق
 في الجبل.
 (٧) وصف البحر والنهر ٤٧-٤٨، الأخطال في سيرته ونفسيته وشعره ٥١٤ - ٥١٥.

الليذ الذي منه الملاح على وسطه ، وفي سرواله القصير الذي لا يكاد يستر عورته حين تمتد العاصفة ، وفي صورة السفينة التي شيدت بألواح الخشب وطلبت بالقار حتى لا يتسرب إليها الماء ، وفي التطام الموج بجوانبها وتدافعه على جدرانها ، وأعطى الأخطال الرحلة النهرية صورتها الصحيحة وألفاظها التي تقلب معها ، فقد صورها في هذا الأسلوب الرشيق الذي يث فيه الشجور نظم الوزن والمعبارة وهو وزن الوافر بتفصيلاته المتلاحقة السيالة ، والذي تجنب فيه استخدام التشبيهات البدوية التي أكثر منها الجاهليون ، فنحن لا نكاد نجد عنده إلا تشبيها واحدا وهو تشبيه الموج المتعالي فوق سطح النهر والذي كان يدفع بحضه بعضا بتلاحق قطع من الإبل إذا طرده الراعي ، " وإنما هيا له ذلك أنه نظر في محاولات سابقه واعتمد عليها . ويحس الإنسان إحساسا غامضا أنه تأثر تأثرا ما بوصف بشر بن أبي خازم الأسدي للرحلة النهرية التجارية ٠٠ ومما يقوى هذا الإحساس أنه كان كثير الرجوع إلى قصائد الشعراء الجاهليين ، طويل التوقر عليها ، شديد المعاكاة لها ، والأخذ منها ، كما هيا له ذلك أيضا أنه كان يتأني في صنع قصائده ، وما يزال بها ينقحها ويهذبها حتى تخرج مستوية في الجودة " (١)

وقد سجل له الدكتور حسين عطوان فضل التفوق على ابن قيس الرقيات في وصف الرحلة النهرية ، وآية ذلك أن الأخطال " تتبها من بدايتها إلى نهايتها ، وعني بذكر هيئة الملاح وما كان يرتدى من الثياب وما كان يقوم به من توجيه السفينة وقيادتها ، وذكر أيضا هيئة ماء النهر الذي كانت السفينة تسير فيه ، وأواجه السعالية التي كانت تضرب أسفلها وجوانبها ، كما حدد غاية الرحلة وكيف ثبت الملاحون السفينة بإلقاء مراسيها ، فاستقرت ونزلت النساء منها " (٢) مما يجعله أهلاً لأن يسجل له فضيلة مد أبعاد هذه الصورة وتلوين جوانبها وإرساء تقاليدهما لمن جاء بعده من الشعراء العباسيين ، مثل : بشار ومسلم والحسين بن الضحاك وغيرهم (٣) ، الذين أعجبوا بها فتعهدوها " بالرعاية والعناية وبالتطويع والتحوير ، فإذا هم يصورون حيناً مفارقة صواحبهم لهم في السفن الضخمة ، وإذا هم

(١) وصف البحر والنهر ٤٨ - ٤٩ .

(٢) المرجع نفسه ٤٨ .

(٣) مقدمة القصيدة المربية في العصر الأموي ٦٦ .

حيناً آخر يصفون رحلتهم ثم إلى الممدوحين في السفن والأنهار لا على ظهور الإبل
في الفيافي والقفار ، وإذا هم حيناً آخر يصورون سفن الممدوحين التي كانوا
يركبونها للنزعة في جلة والفرات^(١)

وصف البحر :

وصف الشعراء الجاهليون البحر وبخاصة شعراء القبائل التي كانت تنزل في
اليمامة على الساحل ، ويمارس بعض أفرادها عمل الفياصة بحثاً عن الدر وسعيها
لإستخراجها من الصدف المستقر في قاع البحر . وقد جاء تصوير الشاعر الجاهلي
للبحر - غالباً - في تشبيهه المحبوبة في حسننها وجمالها بالدرة^(٢) ، ثم يستطرد
من هذا التشبيه إلى وصف ما تكبده المائد من أهوال في سبيل الوقوع عليها ، إذ
ركب البحر وألقى بنفسه في لجّاته البعيدة النور ممرّضاً نفسه للموت في أعماقه
السائكة المظلمة^(٣) . وعرض الشاعر الجاهلي أيضاً لتصوير الفواص ، فأبان عن
شكله وهيئته ولونه ، وأظهر ما كان يستمين به في الفوص من أدوات وبخاصة
الزيت الذي كان يطلي به جلده خوفاً من أن يوءثر فيه ماء البحر الملح فيشققه
ولكي يضيء له في قاع البحر ويساعده في اصطياد الدر^(٤) .

ونقح في شعر القطامي التثليبي على وصف البحر يقلد فيه الجاهليين إلى
أبعد حد . فهو في مقدمة قصيدته الميمية الطويلة يبتّ الأخران على مباينة صاحبته
أميمة له ، ويصف بعض أعضائها وصفا مادياً تقليدياً ، إذ شبه بياض أسنانها بالبرّد
واستواء قوامها بنبتة الحوذان أو العذم . ويميل بعد ذلك إلى تصوير جمالها
وحسنها فيشبهها بالدرة الكريمة التي استخرجت من قاع البحر . قال^(٥) :

قامت تريك وتجلو من محاسنها برود الثمامة تسقي بلدة حرماً

(١) مقدمة القصيدة العربية في مصر الأموي ٧٠ .

(٢) وصف البحر والنهر ١٩ .

(٣) المرجع نفسه ٢٧ .

(٤) المرجع نفسه ١٩ .

(٥) ديوانه ٩٨ - ١٠٠ .

- تَعُودُ مُنْعَمَةٌ نَضْحَ الْمَبِيرِ بِهَا إِذَا تَمَيَّلَ عَنْ خِلْفِهَا انْقَصَا (١)
 ليست تَرَرُ عَجَبًا إِلَّا بَدَأَ بَسْرَدُ غُرَا الْمَضَاجِرِ ذُو نَوْرٍ إِذَا ابْتَسَمَ
 كَأَنَّهَا بَيْضَةُ صَفْرَاءٍ خَدَّاهَا فِي عَثَمَتٍ يَنْبِتُ الْخَوْدَانُ وَالْعِظْمَا (٢)
 أَوْ دَرَّةٌ مِنْ هِجَانِ الدَّرِّ أَدْرَكَهَا مُصَرَّرٌ مِنْ رِجَالِ الْهِنْدِ قَدْ سَهَمَا (٣)
 أَوْفَى عَلَى ظَهْرِ مَسْتَحَاجٍ تَقَدَّمَهِ غَوَارِبُ الْمَاءِ قَدْ أَلْقَيْتَهُ قُدُمَا (٤)
 جَوْفَاءَ مَطْلِيَةِ قَارَا إِذَا اجْتَنَحَتْ بِهِ غَوَارِبُهُ قَحْمَتَهَا قَحْمَا (٥)
 عَتَى إِذَا السُّفْنُ كَانَتْ فَوْقَ مُقْتَلَجٍ أَلْقَى الْمَاوِزَ عِنْدَهُ ثُبَّتْ أَنْكُتُمَا (٦)
 فِي ذُو حُبُوكٍ يُقْضَى الْمَوْتُ صَاحِبِهِ إِذَا الصَّرَارُ مِنْ أَسْوَاحِهِ ارْتَسَمَا (٧)
 غَوَّاسٌ مَا يَمِجُّ الزَّيْتُ مَنْفَسَا إِذَا الضُّمُورَةُ كَانَتْ قَوْقَهُ قِيمَا (٨)
 حَتَّى تَذَاوِلَهَا وَالْمَوْتُ كَارِبُهُ فِي جَوْنَسَاجٍ سَوَادِيٍّ إِذَا قَحْمَا (٩)

فالقطامي بعد أن شبه محبوبته بالدرة ، صور لنا التقاط الفواش لها من أعماق البحر . وقد عني بإظهار شكل الفواش وهيئته ، فهو قوى نحيف من رجال الهند ،

- (١) العود : الفتاة الحسنة الخلق الشابة ، وقيل : الجارية الناعمة . النضج : اللطخ يبقى في الجسد والثوب من الطيب ونحوه . والقَصْمُ : الكسر .
 (٢) خد : حفر . العثمت : الكثيب السهل . الخودان : نبات يرتفع قدر الذراع له زهرة حمراء في أصلها صفرة ، ورقته مدورة ، والعاقر يسمن عليه ، وهو مسن نبات السهل علو طيب الطعم . والعظم : نبات .
 (٣) الهجان : الخالص . المصمر : الشديد في غده ميل . وسهم : ضرر وتغيير لونه وذبلت شفتاه .
 (٤) مستحاج : مسرع . والفوارب : جمع الفارب وهو أعلى الموج .
 (٥) الجوفاء : الواسعة الجوف . واجتنحت : مالت .
 (٦) المقتلج : المتناظم الأمواج . الماواز : جمع الميموز وهي الشرقة . وانكتم : لعله أراد رمى بنفسه أو كتم نفسه ثم ألقى بنفسه في الماء .
 (٧) ذو الحبوك : أو البحر الذي يتكرر ماومه حين تمر به الرياح . الصراري : الملاح . وارتسم : دعى .
 (٨) يمي : يرمي . الضمورة : كثرة الماء . وقيم : يقال قام الماء إذا ثبت متحيراً لا يجد منفذاً .
 (٩) الساجي : البحر الساكن المظلم . وفحم : أسود .

ووصف سفينته التي استخدمها للفرار فهي واسعة مطلية بالقار • وصور ما عانسه من الجهد والمثقة في سبيل الوصول إلى الدرة • وأبان عن شدة طلبه لها وسعيه من أجلها • حين ركب البحر في يوم عاصف ومارح بسفينته الأمواج المصطبة المتلاطمة وعرض نفسه للموت إذ ألقى بأداة النوص على وجه الماء ثم رمى بنفسه في ظلمات البحر العميقة • ومكث يبحث في قاعه عن الدر يساعده في ذلك الضوء المنبعث من الزيت الذي كان قد اتخذه • إلى أن وُفق في اصطاد واحدة •

والأبيات رقصة غنية بديعة تتضح فيها النزعة التصويرية بجلالة • استغفل القطامي بتجويدها فقد عني باختيار المسماني المتجانسة والألفاظ التي تناسبها واستخدم الوصف القصي • فاستقامت أجزاؤها واستوى بناؤها •

وأن أنه قد اتضحت الآن موضوعات الطبيعة الساكنة التي رسمها شعرا • الجزيرة الفراتية في العصر الأموي • وهي : الصحراء والرياح والمطر والنهر والرحلة النهرية والبحر • وهم في تصويرهم لهذه الموضوعات لم يتركوا كبيرة ولا صغيرة تتصل بها دون أن يذكروها • فقد وصفوا امتداد الصحراء وترامسي أطرافها • واتساع فجاجها وأجامها • وشدة قفرها وقسوتها ووحشتها • واتقاسمها والتماع سرائها على وجهها واشتزاز آلهة على كثبانها • وما يعانیه قاطعها في سفره من مصاعب وأهوال • ورسموا هبوب الرياح وسرعتها وحركتها وتصويتها وحملها للتراب الذر تسفيه على الديار • وصوروا المطر وما يتقدمه من السحاب والبرق والرعد وما يعقبه من تدفق للسيول وإغيا للأرض • ورسموا فيضان النهر وارتفاعه لكل ما يمر من سبيله من أشجار ونباتات • ووصفوا رحلة الطمأن بالسنن • وصوروا البحر بأمواجه المصطبة المتعالية ولائته التي يكابد من أجلها النواص كل مثقة وهو ————— •

وهم لم يصفوا كل ذلك وصفا جامدا وإنما كانت الطبيعة عندهم شيئا حيا نابضا بالحركة • فوصفوها مدققين في ظواهرها متقسين لصفاتها متركين لصورها الساكنة • وهم مع هذا لم يفرّدوا لها قصائد خاصة بل كانوا يسوقونها في ثنايا قصائدهم • مقلدين لسابقيهم من الشعراء الجاهليين • ولم يقتصر أثر التقليد في هذه الأمثلة على مجيئها عرضا في ثنايا القصائد وإنما تمدد ذلك إلى كثير من المسماني والصور القديمة التي عرفها الشعر الجاهلي على نحو ما تبين لك في مواضعه •

(٢) وصف الطبيعة المتحركة

وصف الثور الوحشي :

في تضاعيف القصائد الجاهلية قطع كثيرة في وصف ثور الوحش تدل على احتفال الشعراء الجاهليين بهذا الموضوع ، فقد كانوا يتخذون تشبيه الناقة بالثور مدخلاً لوصفه وصفاً مفصلاً ، لأنهم يريدون إضفاء طابع الشدة والقوة والصلابة على هذه الناقة فلم يجدوا أصلب وأقوى وأسرع من الثور الوحشي . وهذا يعني أن وصفهم له لم يكن غاية مباشرة ، بل كانوا يستطردون إليه استطراداً ليظهروا من خلاله قدرة الناقة على السير المتواصل والسهر الطويل وشدة التحمل لمساق الرحلة (١) .

وجرى وصفهم للثور وفقاً لسنة مأثورة وفي معان مكرورة ، فهم يصورونه وقد ألجأته السحابة الممطرة إلى شجرة أرطاة فاستظل بأغصانها وأقام تحتها يريد أن يقضي ليلته ، لكن المطر يزداد تهطاله والبرق يخطف من حوله والرعد يشتد قصفه ، فيظل طول الليل سادراً موءزقاً يأخذه الفزع من كل جانب ، حتى إذا تنفّس الصبح وانبلجت أضواء يومه فاجأه صياد ضامر نحيل ، بكلاب مضرة هزيلة نحيفة جائعة مسترخية الآذان سريعة العدو تنطلق إلى صيدها وكأنها النبال في سرعتها . وحين يدرك الثور أن الكلاب قد رأتة يجد في عدوه محالاً فوتهما لكنها تلاحقه ولا تقصر في طلبه ، حتى إذا نال منه التعب مبلهاً جمع قواه وعطف عليها ثم دفعها بقرنيه وسدد إليها طعنات نافذة يتدفق الدم على أثرها ، فيتركها صرعى أو مكلومة أو منهزمة ويسدو مسرعاً كأنه الكوكب المنقصر . وقد دأب الشاعر على أن يختم منظر الصيد بهذه الخاتمة وهو في معرض المديح والفخر ، أما في معرض الرثاء والتعزية فكان يختمه بمصرع الثور ومقتله (٢) .

وهذه الصورة الجاهلية في وصف الثور نجدها بكل دقائقها وأجزائها وتفصيلاتها في الشعر الأموي ، ومما لا ريب فيه أن شعراء الجزيرة الفراتية

(١) الطبيعة في الشعر الجاهلي ١٣١ و ٣٠٠ و ٣٧٥ ، قصة ثور الوحش (مجلة كلية

الآداب - بغداد ع ١٤ ص ٢٠٣) ، الشعر الجاهلي ٣٩٠/١ ، العصر الجاهلي ٣٥٥ .

(٢) الطبيعة في الشعر الجاهلي ١١٧ - ١٢٠ و ١٣١ - ١٣٢ و ٣٠٠ - ٣٠١ ، العصر

الأمويين كانوا يتأثرون الشعراء الجاهليين في هذا الوصف . فصورة الثور عند الأخطال والقطامي التثليبيين لا تكاد تختلف عن الصورة السابقة ، فهما يلتمان بها في ثنايا قصائدهما وسما يصفان الناقة والرحلة .
فالأخطال عرض لوصف الثور في مقطوعات ممتددة ^(١) من مدائحه ، مشبهاً به ناقة التي تبليغه إلى الممدوح ، يصفها بعجز الوصف ثم ينصرف عنها إلى تصوير الثور الذي احتفى بشجرة الأرطاة ليلاً فلغّه الظلام وأفرعه عصاف الرياح وخطف البرق وسقوط المطر وتدقق السيل فظل يعاني الآلام والمتاعب ، حتى إذا ما ولّى الليل وأشرق الصباح فاجأه الصياد الضامر بكلاجه المدرّبة التي تُسرّع إليه تريد اللحاق به وهو يتنصاع أمامها يريد أن ينجو منها ، فإذا ما أيقن أنها أدركته كفّ عن العدو ورجع إليها طاعناً لها بروقيه وممقراً لها بالتراب ، ثم غادرها تتخبّط في دمائها أو تطلب النجاء فيما هو يجرى مسرعاً كأنه الكوكب الدرّي المتلألئ .
ومن ذلك قوله في الرائية التي مدح بها يزيد بن معاوية ^(٢) :

ومَهْمَه طامِس تُخْشَى غَوَائِلُه	قَطْمَتُه بَكَلَوُ الْعَيْنِ سَهَامُ ^(٣)
يَحْرَةُ كَأَنَّ الضَّلَّ أَضْمَرَهَا	بَعْدَ الرِّبَالَةِ تَرَحَّالِي وَتَسْيَارِي ^(٤)
أَخْتُ الْغَلَاةِ إِذَا شُدَّتْ مَمَاقِدُهَا	زَلَّتْ قَوَى النَّسْجِ عَنْ كَبْدَا مِصْفَارِ ^(٥)

(١) شعر الأخطال ٥٧/١ - ٦٢ و ٩٨ - ١٠٤ و ٣٨٤ - ٣٨٨ ، ٤٣٥/٢ - ٤٤٠ و ٦٠٥ - ٦٠٩ و ٦٤٤ - ٦٥١ .

(٢) شعر الأخطال ١٦٢/١ - ١٦٨ .

(٣) السهم : المفازة البعيدة ، والجمع السهام . الطامس : الذي انحست معالمه . غوائله : مهالكه . كلو العين : أي حذرة ساهرة شديدة لا ينلها النوم . والمسهار : التقوية على السهر .

(٤) الحرة : الكريمة . أتان الضحل : الصخرة العظيمة تكون في الماء ، فإذا كانت في الماء الضحاح قيل : أتان الضحل ، وثبت بها الناقة في صلابتها . والربالة : كثرة اللحم .

(٥) المماقد : مواضع المقد . النسج : سير يُضفر على هيئة أعنة النمال — ، تُشدّ به الرّحال . الكبداً : العظيمة الوسط . والمصفار : القويسة على السيف .

- كَأَنَّهَا بُرْجٌ رُومِيٌّ يُشَبِّدُهُ لَزَّ بَجَّ وَأَجَرَ وَأَحْجَارَ (١)
 أَوْ مُقْفَرٌ خَاضِبُ الْأَطْلَافِ جَادَلَهُ غَيْثٌ تَظَاهَرَ فِي مَيْثَاءٍ مَبْكَارَ (٢)
 فَبَاتَ فِي جَنْبِ أَرْطَاةٍ تُكَفِّثُهُ رِيحٌ شَأْمِيَّةٌ مَبَّتْ بِأَمْطَارَ (٣)
 يَجُولُ لَيْلَتَهُ وَالْمَعِينُ تَضْرِبُهُ مِنْهَا بِغَيْثِ أَجْشِ الرُّعْدِ نَيَّْارَ (٤)
 إِذَا أَرَادَ بِهَا التَّنْمِيزَ أَرْقَهُ سَيْلٌ يَدْبُ بِهَدْمِ الثُّرْبِ مَسْوَارَ (٥)
 كَأَنَّهُ إِذَا أَضَاءَ الْبَرَى بَهَبَّتَهُ فِي أَصْفَهَا نَيَّْةٌ أَوْ مُصْطَلِي نَارَ (٦)
 أُمَّا السَّرَاةُ فَمِنْ دِيبَاجَةٍ لَهَقَ وَبِالْقَوَائِمِ مِثْلُ الْوُشْمِ بِالْقَارِ (٧)
 حَتَّى إِذَا انْجَابَ عَنْهُ اللَّيْلُ وَانْكَشَفَتْ سَمَاوُهُ عَنْ أَدِيمِ مُصْعَرِ عَسَارِ (٨)

- (١) لَزَّ : ضَمَّ وَأَلْصَقَ ، شَبَّهَهَا بِالْبُرْجِ فِي صَلَابَتِهَا وَقُوَّتِهَا .
 (٢) الْمُقْفَرُ : أَوَّ الثَّوْرِ الْمَلْزَمُ لِلْقَفْرِ . الْأَطْلَافُ : جَمْعُ الظِّلْفِ وَالظُّلْفِ وَهُوَ ظَفَرُ كُلِّ مَا اجْتَرَّ . الْمَيْثَاءُ : الْأَرْضُ اللَّيِّنَةُ السَّهْلَةُ . وَالْمَبْكَارُ : الَّتِي بَاكَرَهَا الْمَطَرُ .
 (٣) تُكَفِّثُهُ : تَقْلِبُهُ وَتَحْوِلُهُ . وَشَأْمِيَّةٌ : مِنْ نَاحِيَةِ الشَّامِ .
 (٤) الْعَيْنُ : السَّحَابُ . الْأَجْشُ : الْخَلِيطُ الصَّوْتُ . وَنِيَارٌ : لَسَلُهَا تِيَّارٌ أَوْ شَدِيدُ الْانْصِبَابِ .
 (٥) بِهَا : أَوْ بَلِيلَتُهُ . وَالْمَوَارِ : الْمَثِيرُ لِلتَّرَابِ .
 (٦) أَصْبَهَانُ : مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ مَشْهُورَةٌ فِي فَارَسٍ مِنْ نَوَاحِي الْجَبَلِ (مَعْجَمُ الْبِلْدَانِ ١ / ٢٠٦) . وَمُصْطَلِي نَارٍ : أَرَادَ أَنْ لَوْنَ الثَّوْرَ حِينَ يَضِيئُهُ الْبَرَى يَشْبَهُ لَوْنَ مَنْ يَصْطَلِي بِالنَّارِ إِذْ يَقَعُ عَلَيْهِ مِنْ نَوْرِهَا ضِيَاءٌ أَصْفَرُ . يَقُولُ : كَأَنَّ الثَّوْرَ مُوَشَّحٌ بِثَوْبِ أَصْفَهَانِي وَهُوَ الْمَصْبُوغُ بِالزَّعْفَرَانِ ، قَالَ الْحَجَّاجُ لِبَعْضِ وِلَاةِ أَصْبَهَانَ : « قَدْ وَلَيْتُكَ بِلَدَةٍ حَجَرَهَا الْكُحْلُ وَذَبَابُهَا النَّحْلُ وَحَشِيشُهَا الزَّعْفَرَانُ » . (مَعْجَمُ الْبِلْدَانِ ١ / ٢٠٨) .
 (٧) السَّرَاةُ : أَعْلَى الظَّهْرِ . اللَّهَقَ : الشَّدِيدُ الْبَيَاضُ . الْوُشْمُ : مَا تَجْعَلُهُ الْمَرْأَةُ عَلَى ذِرَاعِهَا بِالْإِبْرَةِ ثُمَّ تَحْشُوهُ بِالنَّوْءِ وَهُوَ دُخَانُ الشَّعْمِ . وَقَوْلُهُ : وَبِالْقَوَائِمِ مِثْلُ الْوُشْمِ بِالْقَارِ ، أَرَادَ أَنْ قَوَائِمَهُ سَوْدَاءُ .
 (٨) الْأَدِيمُ : الْجِلْدُ . وَالْمُصْعَرُ : الْأَحْمَرُ إِلَى الْبَيْضَاءِ .

- (١) آتَنَنْ صَوْت قَنِيصٍ إِذْ أَحَسَّ بِهِمْ كَالِإِنَّ يَهْفُونَ مِنْ جَرَمٍ وَأَنْمَارَ
(٢) فَاَنْصَاعَ كَالْكُوكِبِا لِدَرْيٍّ مَيِّعَتُهُ غَضْبَانَ يَخْلُطُ مِنْ مَمَّجٍ وَإِحْضَارَ
(٣) فَأَرْسَلُوهُمْ يَثْرِينَ التَّرَابِ كَمَا يُذْرِي سَبَائِخَ قُطْنٍ نَدْفُ أَوْتَارَ
(٤) حَتَّى إِذَا قَلَّتْ نَالَتُهُ سَوَابِقُهَا وَأَرْهَقَتْهُ بَأْنِيَابُ وَأَطْفَسَا
(٥) أَنْحَى إِلَيْهِنَّ عَيْنًا غَيْرَ غَافِلَةٍ وَطَمَنَ مُحْتَقِرِ الْأَقْرَانِ كَسْرَارَ
(٦) فَمَفَرَّ الضَّارِيَاتِ اللَّاهِقَاتِ بِهِ عَفَرَ الضَّرِيبِ قِدَا حَابِينَ أَيْسَارَ
(٧) يَمُذِّنَ مِنْهُ بِحِزَانِ الْيَتَانِ وَقَدْ فُرِّقْنَ عَنْهُ بِذِي وَقْعٍ وَأَنْسَارَ
(٨) حَتَّى شَتَا وَهُوَ مَفْبُوطٌ بِغَائِطِهِ يَرَعَى ذُكُورًا طَاعَتِ بَعْدَ أَحْرَارَ

- (١) آنسر الصوت : سمعه • القنيص : الصائد • والضمير من آنسن للكلاب ومن أحس للثور • وقوله : بهم أي الصيادين • ويهفون : يسرعون • جرم : قبيلة من طي* (جمهرة أنساب العرب ٢/٤٠٠ و٤٧٦) • وأنمار : قبيلة من عبد القيس (جمهرة أنساب العرب ٢/٢٩٦) •
(٢) ميمته : أول جريده ، يشبه الكوكب الدرّي أي المنقش • الممّج : الإسراع في السير • والإحضار : الإرتفاع في العدو •
(٣) يثرين : يثرن • السبائخ : جمع السبيخة وهي القطنة ، وقيل هي القطن المنفوش المندوف • والندف : طارق القطن بالمندف •
(٤) نالته : أدركته • سوابقها : متقدّمات الكلاب • وأرهقته : غشيتها وأجهدته •
(٥) أنحى : أمال • الأقران : جمع القرن وهو الكفو والنظير في الشجاعة والحرب • والكرار : الكثير الكرّ على العدو •
(٦) عفرها : مرّغها بالتراب • الضاريات : الكلاب التي عوّنها أصحابها على الصيد • النريب منها : الذي يضرب السهام للمقاصرين • القداح : جمع القدح وهو قِدْرُ السهم ، وقدر الميسر • والأيسار : المجتمعون على الميسر (المقامرون) •
(٧) يمدّن : يلتجئن ويلذّن • الحزان : ما غلظ من الأرض في ارتفاع • المتان : جمع المتن وهو ما ارتفع وصلب من الأرض • وقوله : بذى وقع وآثاره أي بقرنه الذي أوقع به في الكلاب وأثر فيها تجريحاً •
(٨) شتا : دخل في الشتاء • المنبوط : المسرور • غائطه : منزله ، والغائط : ما انخفض من الأرض • والذكور : ما غلظ من البقل • أطاعت : أدركت وأمكن أن تُجتنى • وأحرار البقول : ما رَقَّ منه وطاب •

فَرْدٌ تُنَنِّيهِ ذِبَّانُ الرِّياضِ كما غَنَّى الفُؤاةَ بَصْنَجٌ عِنْدَ إِسْـوَارِ^(١)
كَأَنَّهُ مِنْ نَدَى الْقُرَاصِ مُفْتَلِلٌ بِالْوَرَسِ أَوْ خَارِجٌ مِنْ بَيْتِ عَطَّارِ^(٢)

فالأخطل يفخر باجتيازه للمفاوز والفلوات الواسعة على ناقة صلبة قوية على السهر، ضخمة كمخرة عظيمة مُكَلِّمة كأنها أحد الأبراج الرومية التي شُيِّدت بالجر والنجار، أو ثور وحشي يلزم القفر غُضِبَتْ أظلاله من رعيه البقول. وقد انهسر عليه المطر فاحتسب بالأرطاة، وكانت الريح الشامية المحملة بالماء تضربه من كل ناحية والسحاب المنمقد في الأفق يهطل عليه بأطار غزيرة الانصباب مصحوبة برعود شديدة، وعيناه لا تكادان تغمضان من شدة اندفاع السيل الذي يهيل التراب فيدخل في عينيه ويمسسه من الذوم. فإذا أضاء البرق صفحته ظهر كأنه موشج بثوب أصفها نبي صبغ بالزعفران أو كأنما اصطلى بالنار فوقع عليه من نورها ضياء فبدأ أصفر، أما قوائمه فقد زينتها نقط سود كأنما طليت بالقار، هذه صورة الثور أثناء الليل. أما في الصباح فكانت الفيوم قد تفتت وتناهت إلى أسماع الثور أصوات صيادين من قبيلتي جرم وأنمار، يقصدون إليه كأنهم الجن يستدعون ورائهم كلابا ضارية، فجرو مسرعا كأنه الكوكب الدرّي، حتى إذا لحقته أوائل الكلاب وأعملت فيه أنيابها وأطفارها ارتدّ عليها فطعنها بقرنيه باحتقار حتى صرعا وعقرها بالخراب وولت منه هاربة. وعاد يرعى ما طاب من البقول والذباب يحوم من حوله يننّيه كأنه قائد النرس تغنيه القيان، فتغضبت قوائمه بالورس الأصفر وانبعثت منه رائحة طيبة كأنما خرج من بيت عطار.

واضح أن الشاعر استهل وصفه مفاخرا باجتياز الفلوات المهلكة، وهذا معنى أبدأ المشراء الجاهليون فيه وأعادوا. وهو يستعيد التشبيه الجاهلي للناقاة بالصخرة الفليضة الضخمة لتمثيل شدتها وصلابتها.^(٣) وكذلك يستقي تشبيهها بالبرج

- (١) فرد: منفرد وهو الثور. الفؤاة: جمع غا وهو المنهمكة في الضلال. الصنج: ذوالأوتار الذي يلعب به وهو دخیل مشرب. والإسوار: بضم الهمزة وكسرها: قائد الفرس.
(٢) القراض: نبت ينبت في السهولة والقيمان والأردية والجدد، وزهره أصفر، وهو حار حامض يقرض إذا أكل منه شيء، واحدته قرامة. والورس: نبت أصفر يخرج على الرمث بين آخر الصيف وأول الشتاء، إذا أصاب الثوب لونه.

(٣) الوصف في المشراء العربي ١٠١/١، الأخطل في سيرته ونفسيته وشعره ٤٨١، الأخطل شاعريني أمة ٢٧٨ - ٢٢٩.

الرومي من طرفة بن السبد^(١) ومن أعشى قيس^(٢) . وكانت صورته لتخضب أظلاف الثور
تقليدية أيضا ، إذ لم يكد الجاهليون يذكرون الثور حتى يثيروا إلى تخضبه^(٣) .
ولم يستطع الأخطال في ترسمه للأحداث التي تمر بالثور أن يتخطى خيال الجاهليين
كالنابغة والأعشى ، فهو يعرضه قائما بكنف الأرطاة ، تُفزع الرياح والمافسة
والسحر المنهمر بفسارة في الليل ، وتهاجمه الكلاب المسترخية الآذان في الصباح ،
وهذه المشاهد مكررة في أشعار سابقه^(٤) .

ومعروف أن الأخطال كان معجبا بالنابغة أشد الإعجاب ، يُجلّه ويقدمه ويترسم
خطاه ويتأثر به في بعض صوره وألفاظه وفي بعض معانيه وأساليبه . وإذا ما قايلا
بين هذه الرائية ورائية النابغة التي مطلعها^(٥) :

عوجوا فحيوا النعم دمنة الدار ما ذا تُحيون من نومي وأحجار
رأينا إذا التأثر مُثلاً أصدق تمثيل فقد جاراها الأخطال في الوزن والقافية
والأسلوب ، واتكأ على بعض معانيه ، ونسخ كثيراً من ألفاظه وصوره^(٦) .

قال النابغة :
مُجَرَّسٌ وَحْدَ جَابِ أَطْلَاحٍ لَهُ نَبَاتٌ غِيثٌ مِنَ الْوَسْمِيِّ مَبْكَارٍ
وقال الأخطال :
أَوْ مُقْفَرٌ خَاضِبُ الْأَطْلَاحِ جَاذِلُهُ غِيثٌ تَظَاهَرُ فِي مَيْثَانِهِ مَبْكَارٍ

قال النابغة :
وَبَاتَ ضَيْقاً لِرُطَاةٍ وَأَلْجَاءُ مَعَ الظَّلَامِ إِلَيْهَا وَابِلٌ سَارٍ
وقال الأخطال :
فَبَاتَ فِي جَنْبِ أَرْطَاةٍ تُكْفِّثُهُ رِيحٌ شَامِيَةٌ دَهَبَتْ بِأَمْطَارٍ

(١) الأخطال شاعر بني أمية ٢٢٨-٢٢٩هـ ، الأخطال في سيرته ونفسيته وشعره ٥٧٤هـ ، الأخطال الكبير ٣٤٧هـ ،

الوصف ١٢ .

(٢) ديوان الأعشى ٥ .

(٣) الأخطال في سيرته ونفسيته وشعره ٤٨٢ .

(٤) المرجع نفسه ٤٨٩ - ٤٩٠ .

(٥) ديوان النابغة ٥١ - ٥٤ .

(٦) الأخطال شاعر بني أمية ١٦٩ و ٢١٧-٢١٨هـ ، الأخطال الكبير ٣٤٠-٣٤١هـ ، الأخطال في سيرته ونفسيته وشعره

قال النابغة :

باتت له ليلة قهبا تشفمه
وقال الأطل :
بحاص ذات إشمان وأمطار ٢٧٦
يجول ليلته والمين تضربه
منها بغيث أجش الرعد نيار

قال النابغة :

سراته ما خلا لبانه لهق
وقال الأطل :
وفي القوائم مثل الوشم بالقار
أما السراة فمن ديباجة لهق
وبالقوائم مثل الوشم بالقار

قال النابغة :

حتى إذا ما أنجلت ظلمات ليلته
وقال الأطل :
وأسفر الصبح عنه أي إسفار
حتى إذا انجاب عنه الليل وانكشف سماؤه عن أديم مصر عار

قال النابغة :

أهوى له قانس يسمى بأكلبه
وقال الأطل :
مارى الأشاجع من قنّاص أنمار
آسن صوت قنّيص إذا حنّ بهم
كالجنّ يهفون من جرّم وأنمار

قال النابغة :

مُتالف الصيد مَبْأثره لحَم
وقال الأطل (مقطع الخمر):
ما إن عليه ثياب غير أطار
في بيت مُنْخَرِق الشربال معتمل
ما إن عليه ثياب غير أطار

قال النابغة :

انقضّ كالكوكب الدرّ مُنْصَلِتا
وقال الأطل :
يهوى ويخلط تقريبا بإحضار
فانصاع كالكوكب الدرّ ميمته
غضبان يخلط من مئج وإحضار
فالأطل - كما نرى - يعتمد في كثير من معاني رائيته وتعابيرهِ على رائية النابغة
وينقل عنها مشهد وصف الثور في إطاره العام وعناصره وجزئياته نقلاً صريحاً وإن
كان ثمة اختلاف طفيف في أبيات الأطل .

وأكثر المقطوعات التي وصف فيها الأخطال الثور الوحشي متماثلة متكسرة، ومنها هذا النموذج الذي يتسم بالتفصيل والتدقيق، ويظهر حرص الشاعر على حشد جل التشابيه والأحداث التي يعرضها في وصف الثور وسرد قصته .

ففي اللامية التي مدح بها مَـصْقَلة الشيباني وصف الثور لإظهار ما خيم على منزل حبيبته من وحشة بعد رحيلها عنه، وقد عني الشاعر - كالأهلين^(١) - بتعدد موضع المنزل وذكر ما أخنى عليه وبذل معالنه من رياح سَفَت عليه الرمال حتى امسى أو كاد، فخلا من الأنيس وأصبح مرتعاً لثور وحشي يتنقل في ساحاته ويلعب به آمناً .

وقد هياً له هذا الاستطراد أن يصف الثور وصفاً دقيقاً مصفياً، فهو ثور موشى الأكارع يأنس في الفلاة الموحشة، إذا ألم به صوت تحوّل عن موضعه الذي يرعى فيه . وكانت الأمطار المفزيرة التي هطلت في شهرى جمادى روت أرض المكان، فلما كان شهر رجب ازدهت بنباتات ورياحين تبعث العبير وتصبغ قدمي الثور بالورس الأصفر . حتى إذا أقبل الليل وأسدل أستار ظلمته، صجّ المكان بأصوات رعود شديدة تلاها وابل غزير من المطر انصب من سحب كان تراكم في الأفق القريب . فبات الثور حذراً مترقباً لا يمي ما يجري حوله كأنه إنسان أرقه مرضه وحرمة النوم، ففضى ليلته لا ينفذ له جفن . وقد احتفى الثور من هذا المملر المنهمر بشجرة الأرتاة، فكان يتنقل تحتها من موضع إلى موضع خشية السيل، حتى بدا كأنه ساجد يصلي أو مستبح يبتهل في نصف الليل أو رئيس جماعة من الفرسان اشتغل بقسمة النخيمة بين أصحابه . وكانت قطرات المطر تتماقط على روقيه ومثنينه وكفله من أغصان الأرتاة كأنها حبات مرجان . فلما انبلج الصبح فاجأه صياد ضامر مهزول جائع لا يكاد يفيش عجزه وفخذه شيء من اللحم، كأنه ذئب الفلاة إذا أحسّت به الوحش اغتفت . وهو يستدعي خلفه كلاباً سلوقيّة مسترخية الآذان، إذا اندفعت هابها أبرع الرماة، تشرب دماء صيدها كأنما تشرب العسل . أما الثور فلم يكذبصرها حتى عدا مسرعاً كأنه الكوكب الدرّ، وقد نفذ عنه كل ما علق به من مياه المطر . لكن الكلاب ألحّت في طلبه، فكرّ عليها وظل يطعننها بقرنيه العاديين حتى تخضبت بدماؤها كأنما تشبّثها نار تقذف الشعل، فراحت تمتكسّف

(١) أنظر : مقدمة القميدة العربية في العصر الجاهلي ٩١ و ١٧١ .

ببعضها خثية وفرقا ثم ولت هاربة ، بينما جرى الثور مسرعاً غير هيباب . قال (١) :
 هل تسرنا اليوم من ماوية اللالا تحملت إنسه منه وما احتملا
 ببطن خينف من أم الوليد وقد تامت فوءاك أوكانت له خبالا (٢)
 جرت عليه رياح الصيف حاصبها حتى تغير بعد الإنس أو خمالا (٣)
 فما به غير موشي أكارعه إذا أحس بشخص نابي مثالا (٤)
 يرعى بخينب أحياناً وتضره أرض خلا وما سائل غلالا (٥)
 شهرى جمادى فلما كان في رجب أتمت الأرض ما حملت خبالا (٦)
 كأن عطاره باتت تطيف به حتى تسربل ما الورس وانتعلا (٧)
 من خضب نور خزامي قد أطاع له أصاب بالقفر من وسميه خضالا (٨)

(١) شعر الأخطال ١٤٨/١ - ١٥٤ .

(٢) خينف : واد بالجزيرة (معجم البلدان ٤١٥/٢) . تامت : تيمت ودلّيت ونهبت بعقله .
 والخبل : الفساد .

(٣) الحاصب : الريح فيها التراب والحصى . وخمل : درس .
 (٤) الموشى : أراد الثور ، والشيء هي في ألوان البهائم بياض في سواداً وسواد في بياض .
 الأكارع والأكرع : جمع الكراع ، وهو من البقر والفم بمنزلة الوظيف من الخيل
 والإبل والحمر ، وهو مستدق السان البارى من اللحم . النابي : الهاجم الطالع .
 ومثل : انتصب .

(٥) تضره : تفيبه . وغلل : أي يتفلغل من مكان إلى آخر .

(٦) ما حملت خبالا : أي أنبتت الحب الذي أودعته .

(٧) تسربل : لبس . الورس : نبت له نور أصفر ، أراد أن الورس أثر في بطانه
 وقوائمه فكان كالسراويل والتعلل .

(٨) خضب الشيء : غير لونه بحمرة أو صفرة أو غيرهما . الخزامى : نبت طيب الريح ،
 واحدته خزاماة ، وقال أبو حنيفة : الخزامى عشبة طويلة العيدان صغيرة الورق
 حمراء الزهرة طيبة الريح ، لها نور كنور البنفسج . أطاع له : أمكنه .
 الوسمي : مطر أول الربيع ، وهو بعد الخريف لأنه يسم الأرض بالنبات فيصير
 فيها أثراً في أول السنة . والخضل : الناعم . يريد أنه يصفّر لونه
 مما يتفرغ فيه ، وتصفر أطلافه من وطئه .

حتى إذا الليل كفَّ الطرفُ ألبسه
 داني الرباب إذا ارتجت حوامله
 فبات مكتئلاً للبرق يترقبه
 فبات في حقف أرطاة يلودُ بها
 كأنه ساجد من نضح ديمته
 ينفي التراب برؤيته وكذلك
 كأنما القطر مرجان يساقطه
 حتى إذا الشمس وافته بمطامها
 غيث إذا ما مرته ريحه سحلاً (١)
 بالما سد فُروج الأرض واحتفلاً (٢)
 كليبة الوصب ما أغفا وما عقلاً (٣)
 إذا أحس بسيل تحته انتقلاً (٤)
 مَسَّح قام نصف الليل فابتهلاً (٥)
 كما استما ز رئيساً لمقنب النفل (٦)
 إذا علا الرّوق والمثنى والكفل (٧)
 صبحه ضامر غرثان قد نحسلاً (٨)

- (١) الليل كف الطرف : أي أسدل أستار ظلمته وكف عن الميون البصر . مرته نعلته ، من مرى الريح السحاب ، وهو استمارة من مرى الضرع لتدبر . وسحل : صب .
 (٢) الرباب : السحاب المتعلق دون السحاب الأعظم كأنه ذوائب متدلّية . ارتجت : رعدت . الحوامل : جمع الحاملة وهي السحابة تحمل الماء . فروج الأرض : نواحيها . واحتفل : كثر ماؤه .
 (٣) مكتئلاً : محترساً مترقباً . الوصب والوصيب : المريض . وما عقل : أي ما وعى من شدة ما به .
 (٤) الحقف من الرمل : الموج ، وجمعه أحقاف ، وحقوق وحفاف . الأرطاة : واحدة الأرضي وهو شجر ينبت بالرمل شبيه بالفصا ينبت عصياً من أصل واحد يطول قدر قامة ، وله نور مثل نور الغلاف ورائحته طيبة . يلود بها : يلجأ إليها من المطر . وانتفل : يقال انتفل من الشيء انتفى وتبرأ منه ، ولعل انتفل تصحيف انتقل .
 (٥) من نضح ديمته : أي بسبب نضح المدار عليه . والديمة : المطر الدائم مع شكون ، والجمع ديم .
 (٦) الروق : القرن . الكلكل : الصدر . استماز : مئز واختار . المقنب من الخيل : مابين الثلاثين إلى الأربعين ، وقيل زهاء ثلاثمائة . والنفل : الفنيمة .
 (٧) المرجحان : اللؤلؤ الضار وهي أشدّ بياضاً . والكفل : المجزر .
 (٨) الضامر : أراد الصياد الهزيل . والغرثان : الجائع .

طاي أزل كسرحان الفلاة إذا
 يشلي سلوقيّة غصفاً إذا اندفعت
 مكلّبين إذا اصطادوا كأنهم
 فانصاع كالكوكب الدرّي جرّده
 حتى إذا قلت نالته سوابقها
 فظلّ يطمئنها شزراً بمخولسه
 كأنهن وقدسربلن من علق
 إذا اتاهن مكلوم عكفن به
 لم تؤنس الوحش منه نبأة ختلا (١)
 خافت جديلة في الآثار أو ثملا (٢)
 يسقونها بدماء الأبداء لمسا (٣)
 غيث تقشّع عنه طال ما مطّلا (٤)
 كرعليها وقد أمّلتنه سهلا (٥)
 إذا أماب برؤق ضارياً قتّلا (٦)
 يفضّين موقدنا ر تقذف الشملا (٧)
 عكف الفوارس ما برأ الدارح البعلا

- (١) الطاوي : الجائع . الأزل : الذي في ضيق وجذب . السرحان : الذئب . تؤنس : تحب وتسمع . النبأة : الصوت . وختل : اختفى .
- (٢) يشلي : يدعو . السلوقية : الكلاب المنسوبة إلى سلوق ، وهي قرية باليمن (معجم البلدان ٢/٤٤٢ ، وانظر : العيوان ٢/٣١٩) . الفضل : المسترخية الآذان المنعطفة نحو وجوهها . جديلة : قبيلة من بني * (جمهرة أنساب العرب ٢/٤٧٦) . وثل : من بني * أيضا . وجديلة وثل مشهورتان بالرماية ، قال امرؤ القيس :
 رَبِّ رَامٍ مِنْ بَنِي ثُعَلٍّ مُتَلَجَّ كَفَيْهِ فِي تُسْتَرِهِ
 (ديوان امرؤ القيس ١٣) . يقول : إذا اندفعت هذه الكلاب أسرعت كأنها تخاف أن تلحقها قبيلة جديلة أو قبيلة ثعل .
- (٣) المكلّبين : أصحاب الكلاب . والأبداء والأوباد : الوحش ، الذكر أيد والأُنثى آيسدة .
- (٤) انصاع : مضى مسرعاً . الكوكب الدرّي : المندفع في مضيه من المشرق إلى المغرب . جرده : عراه . وتقشّع : انكشف .
- (٥) سوابقها : سوابق الكلاب أي أوائلها .
- (٦) شزرا : أزع على غير استواء ، عن يمين وشمال . المفلول : المشرط يكون في جوفه سيف ، سمي مفلولاً لأن صاحبه يفتال به عدوه أي يهلكه من حيث لا يحتسبه ، شبه به القرن والضاري : الكلب اعتاد الضراوة على الصيد .
- (٧) الملق : الدم قبل أن ييبس .

حتى تناهين عنه سامياً حرجاً وما هدى هدى مهزوم وما نكلاً (١)

فالأخطال حريص على تمثيل النسيم الذي كان يقيم فيه الثور ، وقد جسد ذلك بإظهار ارتوائه وشبعه وفرحه ، فهو يخوض في الماء ، ويرعى ما لذ من النبات ، ويلهو بحديقة الطليعة حتى انتمل منها الورس الأصفر وزهر الخزامى . إلا أن الليل يفجؤه بالظلام والمطر ، وقد خص الشاعر المطر ببعض الوصف ، إذ ذكر أن الريح استدرته من السحاب الثقيل فانهمر كالسيل وضاعت عنه الأرض . ومثل الشاعر فرح الثور بالأرق الذي انتابه ، وقد ألم به في الأبيات السابقة لكنه أضاف إليه معنى السقم والذآ ، فهو يحدث في البرق كالمرضى الذي يغالبه الألم ويعرمه النوم . وشبه الثور خلال البرق بالرجل التقى الذي يقوم الليل ويقضيه ساجداً لله مسبحاً بحمده . وأخاف إلى قلبك مشهداً آخر ، إذ شبه الثور وهي ينقب التراب بروقيسه ومدره بقائد اشتغل بقسمة الغنيمة بين فرسانه . ثم وصف الكلاب ومشهد الصيد وصفاً تقليدياً (٢).

وواضح أن الأخطال كان بارعاً في وصف الثور في هذين المثالين ، سواء من حيث توشيته بالتشبيهات الدقيقة أو من حيث ملوئه - كالنابضة - بالصورة النابضة بالحركة والحياة والتي يتلو بعضها بعضاً في حركة مستمرة ، تتمثل في هذه الأفعال المتوالية التي ينتقل بها من صورة إلى أخرى ، ففي الرائية نرى الثور وقد (بات) في جنب أرطاة ، (شكفته) ريح شامية (دبت) بأقطار ، (يجول) ليلته والمين (تضربه) بنيث أجن الرعد (تبار)، فإذا أراد بها (التخمير) (أرقه) سيل (يدب) بهدم الترب (مؤار)، حتى إذا (انجاب) عنه الليل وأحس بالقنص كالجن (يهفون) من جرم وأنمار ، (انصاع) كالكوكب الدرر (يخلط) من (مسج) و (إحضار) ، والكلاب بيد الصيادين قد (أرسلوه) خلفه (يذرين) التراب ، حتى إذا قلت (نالتة) سوابقها (أرهفته) بأنياب وأظفار ، (أنحى) إليهن عينا غير غافلة و (طعن) محتقرا الأقران

(١) تناهين : نهين . السامي : من سما الفعل أو تطاول على شؤله وسطاً . الحرج : الذي لا ينهزم كأنه يضيئ عليه الضدر في الانهزام . ما هدى : ما فعل . ونكل :

جــــــــــــــبن .

(٢) أنظر : الأخطال في سيرته ونفسيته وشعره ٤٩١ - ٤٩٣ .

(كَّرَار) ، و(عَقَرَهَا) عفر القِدَاحَ ، (فَفَرَّقَن) عنه و (عُدْن) منه بِحِزَانِ المِتانِ ، و (شَتَا) يَرعى ذكورا أطاعت بعد أحرار^(١) . وفي اللامية نرى الثور وقد (بَاتَ) يرقب البرق بكشف الأُرطاة إذا أحسَّ بسيل تعته (انتقلا) ، كأنَّه مسبِّح قام نصف الليل (فابتهلأ) ، (يَنفِي) التراب بروثيه وكذلك كما (استماز) رئيس المَدَنب النَّفَّالاء حتى إذا الشمس (وافته) فاجأه الصياد وهو (يُشْلِي) كاذباً سَلَوَقِيَّة إذا (اندفعت) خافت جديلة في الآثار أو شلأ ، (فانصاع) كالكوكب الدرؤ (جَرَدَه) غيث (تَقَشَّع) عنسه ، حتى إذا (نالته) لموابقها (كَرَّ) عليها وظل (يطمئنها) إذا أصاب بروق ضارياً (قَتَلَا) ، فكأن الكلاب وقد (سُرِّلن) بالدم (يَنشِئَن) موقد نار (تَقْدِرَن) الشُّملا ، حتى (تَنَامِيَن) عند وما (نَكَلَا) .

وعلى هذا النحو يصطنع الأخطال - كالنابغة - التصوير الحركي في وصفه للثور، بل يختار له المواقف المليئة بالحركة والحياة شأن امرؤ القيس وزمير والأعشى في بعض أشعارهم ، مما أكسب الوصف حيوية في السرد وتسلسلاً في الأداء وقصصية في السرد^(٢) .

وثمة ملاحظة يحسن تسجيلها ، وهي أن الأخطال يصف الثور غالباً وقد توفّر له الماء والنبات ، واصطبغت قوائمه بالورس الأصفر فانبعثت منه روائح طيبة . وهو حين يعرضه للمطر المنهمر يراوح في تشبيهه لما يتساقط عليه من قطرات الماء بين الدرّ والمرجان واللؤلؤ* ، كما يراوح في وصفه له والبرق يخطف عليه بين تشبيهه بمن يمحلي النار ومن يرتد ثوباً أصفها نيا أو من يقضي ليله متمبداً* . وعند الصباح يظهر معاناته لترقب الصيادين ومطاردة كلابهم له ، إلى أن يكسر عليها بعد انهزام ويطمئنها بقرنيه الحادّين ويمضي مسرعاً مزموماً بقوته^(٣) .

وللقطامي التغلبي صورة أخرى للثور الوحشي وردت في النونية التي مدح

(١) الأخطال شاعر بني أمية ١٦٣ - ١٦٤ .

(٢) المرجع نفسه ١٦٦ .

(٣) أنظر : الأخطال في سيرته ونفسيته وشعره ٤٩٣ .

بها أسماء بن خازجة الفزاري، وهي صورة لا تقل طرافة وروعة عن صورة الخطل.
وقد استلذذ إليها للتدليل على قوة ناقته وسرعتها وهي في سبيلها إلى المدوح،
فإذا هي تداوى الفلوات في المهاجرة، إذ تَصْرُ الجنادب ويلج السراب، كأنها ثور
وحشي أبيض مخطط يرمي في أماكن نائية، قد طال عليه المطر وأخاض صفحته برق
كأنه حريق مشتعل، فبات مؤرقاً. وفي الصباح نهض متثاقلاً حذراً وراح يقضّب
أغصان الشجر ويهزّ قرناً حاداً كأنما الندى له دمان، وكأن ما تساقط عليه من
قطرات الماء جبات لؤلؤ تظمتها نساء ثقيف في عقد جميل. وبينما هو كذلك راعه
وجود صيادين من بني ذكوان على القرب منه، معهم كلاب سلوقيّة ضارية كأنها غيول
تجول في ميدان القتال وتجرّر بأرسانها، فعدا عدواً شديداً، وانطلقت الكلاب
خلفه تريد اللحاق به، فلما أحس باقترابها كَرَّ عليها وأخذ يذودها بقرن صلب
كأنما ثبت فيه سنان حاد، وظل يلعب أكثرهما غشياناً له حتى صرعها وخرج من بينها
يمدو مسرعاً، يقول: (١)

وإذا تُسَانِنِي الهموم قَرَيْتُهَا سَرَحَ الْيَدَيْنِ تُخَالِسُ الْخَطَرَانَا (٢)
خَرَجاً كَأَنَّ مِنَ الْكُحَيْلِ صَبَابَةً نَضَحَتْ سَفَائِنُهَا بِهَا نَضَاحَا (٣)
تَصِلُ الْمَخِيلَةُ بِالذَّرَاعَةِ بَعْدَمَا جَمَلَ الْجِنَادِبُ تَرَكِبَ السِّدَانَا (٤)
وَجَرَى السَّرَابُ عَلَى الْإِكَامِ كَأَنَّهُ نَسَجَ الْوَلَادُ بَيْنَمَا الْكَتَانَا (٥)

(١) ديوان القطامي ٦٠ - ٦٣.

(٢) قريتها: سلوتها. سرح: أراد ناقته سن أو سريضة في سيرها. الخلس: الأخذ
في شهرة ومخالطة. والخطران: النشاط، يقال: ناقه خطارة أو تخطربذنبها
في السير نشاطاً.

(٣) الحرج: الضامر والشديد. الكحيل: القطران الذي تطالى به الإبل الجريسي
والمخابن: جمع مخين، وهو الإبط والرّفق وما أطاع به.

(٤) المخيلة: السحابة المنذرة بالمطر. والذراعة: السعة في الشطو.

(٥) السراب: الذي يكون نصه النهار لاطئاً بالأرض لاصقاً بها كأنه ما
جبار. والأكمام: جمع أكمامة وهي الرابيصة

المشرقة المرتفعة.

- وَكَاذَنْ نُمِرَّتِي فَوَيْقَ مُوَلَّعٍ يَرْمِي الدَّكَادِكُ مِنْ جَنُوبِ قَطَانَا (١)
 بِمَوَازِبِ الْقَفَرَاتِ بَيْنَ شَقِيقَةٍ وَكَثِيبِهَا يَتَنَظَّرُ الْحَدَثَانَا (٢)
 لَهَقَ سَقَّتُهُ مِنَ الْمُحَرَّمِ لَيْلَةً هَتَلَتْ عَلَيْهِ بَدِيمَةٌ هَتَلَانَا (٣)
 فَثَنِي أَذَارَعَهُ وَبَاتَ تَبِئُشُهُ رَأَى تَسِيلُ تِلَاعُهُ إِمْعَانَانَا (٤)
 أَرِقًا تَضَامَكُهُ الْبُرُوقُ بِرَاجِيفٍ كَسَفَى الْحَرِيقُ وَلاَمَحَ لَمْعَانَا (٥)
 فَتَدَا صَبِيحَةُ صَوْبِهَا مُتَوَجِّسًا شَرِيزَ الْقِيَامِ يُقَضِّبُ الْأَعْمَانَا (٦)
 بِحَضِيضِ رَابِيَةٍ يَهَيَّزُ مَذَلَّقًا صَلْبًا يَكُونُ لَهُ الدَّلَالُ دِهَانَا (٧)
 فَتَرَى الْحُبَابَ كَأَنَّمَا عَبَّثَتْ بِهِ تَقْفِيَتَانِ تَنْظُمَانِ جُمَانَانَا (٨)
 فَلَبِينَمَاهُ وَغَافِلٌ إِذْ رَاعَاهُ يَحْمُونَ أَرْسَالَهُمْ بَنُو ذَكْرَانَا (٩)
 مَعَهُمْ صَوَارٌ مِنْ سَلَوَى كَأَنَّهَا حُصْنٌ تَجُولُ تُجَرَّرُ الْأَرْسَانَا (١٠)

(١) النمرقة : الوسادة • المولع : المضطرب وهو الثور • الدكادك : جمع الدكدك

والدكدك والدكدك ، وهو البطن المستور من الأرض الرملية • وقطان : أرض بني
 ديار بني تغلب (معجم ما استعجم ١٠٨١) •

(٢) عواذب : يقال عذبت الأرض إذا لم يكن بها أحد • والشقيقة : الفرجة بسين
 الرمال ————— •

(٣) اللهق : الأبيض الشديد البياض ، واللهاق : الثور الأبيض • هتلت : مثل هطلت •
 والديمة : المطر الدائم في سكون ليس فيه برق ولا رعد •

(٤) الأكراع : جمع الكراع وهو من البقر والغنم بمنزلة الوظيف من الخيول
 والإبل والحمر ، وهو مستدق الساق العاري من اللحم • أجمه : أعلاه جمسه
 الماء • الرهم : جمع الرهمة وهي المطار الضعيف الدائم الصغير القطر •
 التلزع : مسايل الماء ، والتلزع : الطويل النضر • والمعن والعين : الماء
 السائل الجاري •

(٥) الراجف ههنا : بمعنى الرعد •

(٦) الصوب : نزول المطر • التوجس : التسمّع إلى الصوت الخفي • مكان شئ : غليظ •

(٧) المذلّق : العادة وهو القرن • والطلال : جمع إلّ وههنا وأغفّ المطر وأضعفه ، وقيل هو الندى •

(٨) الحباب : الطلّ والجمان : اللؤلؤ • شبهه حباب المطريق على ثرى الثور بالجمان •

(٩) أرسلهم : أي الكلاب التي يرسلونها بين أيديهم ويوجهونها إلى القنص •

(١٠) الضواري : الكلاب التي تعود على الصيد • والحصن : جمع حصان وهو الفحل من الخيل •

- فطالبتهم شأواً وتغالبوا غيابه
 وبالأمعافتهن ثممته
 فسما وقام يذوبهن بمزجصف
 فإذا خسن مضي على مضوائه
 خرجا وكره كرو صاحب نجدة
 ويكون حد سنان له لشده
 فحسرن غير مخدشات أديمه
 وغدا بروح برزوخاً عجلاً (٧)
- وغيارهن إذا التهنن دحاناً (١)
 ذذر القتال وحين آخر حاناً (٢)
 صلب القناة كأن فيها سناناً (٣)
 وإذا الحقن به أصاب طماناً (٤)
 خزر الخرائر أن يكون جباناً (٥)
 قرماً وأكثرها له عشياناً (٦)

وهو يقلد الجاهليين في هذا الوصف ، إذ يفخر باجتياز الفلوات الخطرة في الهاجرة وحين تلتهب الرمضاء فتكوى ناقته القوية السريعة ، وقد تلتفت الآكام بالسراب وصرت الجناب على الميدان . ومع أن هذه الممانى تبلغ غايتها في الإيحاء بعظم القوة ، فإنها مأثورة في وصف الناقة عند الجاهليين (٨) . ومع أن القطامي ترسم الجاهليين في بعض الأوصاف التي غلبها على الثور ، كحالة القلق والاضطراب التي يمانىها إثر تخطف البرق وانهمار المطر في الليل وترصد الصيادين في الصباح وملاحقة كلابهم له وكره عليها مسماً قرنه في أجسادها لافناً وتمزيقاً وخروجاً من بينها سالماً غانماً ، وما يتخلل ذلك من تشبيهات وصور لوميض البرق الذي ينشر صوراً خلابة على الآفاق ولعبات الندى المتناطقة على قرن الثور الحادث الذي يشبه الثنان . إلا أنه لا يقف في جوانب من هذا الوصف عند ما قررته الجاهليون ، فقد عجز للثور قائماً بين الرمال لا تحت شجرة الأرضاة ، وإذا أردته الذلاب وأسرع محاولاً فوتها والإفلات منها لم يشبّه في سرعته وبياضه

(١) الشأوا: الشوط والمدى والتبقي . والقهنن: اشتد جريها .

(٢) الوقل: الضعف والفرج ، والوهيل: الفرع النشط .

(٣) المرفف: الحادث ، وأراد قرن الثور .

(٤) مضوائه: تقدّمه .

(٥) العرج: الضامر الشديد .

(٦) القرم: شدة الشهوة إلى اللحم . والعشيان: القرب والمباشرة في القتال .

(٧) حسرن: انكشفن . وأديمه: طاهر جلده .

(٨) أنظر: الوصف في الشعر العربي ٨٤/١ .

بالذكوب المنقش وهو التشبيه الأكثر تداولاً في هذه الحالة ، وقد غالى في وصف الكلاب فجعلها ضخمة كأنها الخيول بينما وصفها الجاهلي بالضمور والهزال واسترخاء الأذان لتكون أسرع وأكثر فتكا .

وإذا ما قارنا بين وصف الأخطل وبين وصف القطامي للثور ، ألفيدا أنهما يتفقان - وقد كانا متماصين - في بعض المعاني والأحداث التي تقرررت في هذا الموضوع . إلا أن الأخطل كان أكثر تأثراً بالجاهليين ، وكان وصفه أكثر حيوية سراء من حيث انتقاء الألفاظ والتعابير وتخير المعاني ومثانة البناء ، أو من حيث تمثيل المنظر وتجسيمه وتوضيحه بالتشبيهات ، أو من حيث دقة التصوير وجماله ، ففي وصفه صور رائعة زاخرة بالحركة والحياة النابضة تملك الأفضة والألباب . ولعل سر تفوق الأخطل على القطامي ، أنه كان يتكئ في مسانينه وأساليبه اتكاءً أشدداً على النابضة الذبياني الذي عُرِفَ بتخيرهِ للألفاظ والمعاني وبقدرته على التصوير . (١)

فوصف الثور ونشأله وما يلقي من قسوة الريح والمطر وعتت الصائد ومطاردة الكلاب ودخوله معها في معركة وشروحه من بينها منتصراً ، من الموضوعات التي عالجها الأخطل والقطامي التغليبان الجزريان معالجة تقليدية . فهو بمجملته مسخر لناية خارجية ، غالباً ما تكون لإظهار قوة المطية وقدرتها على تخطي العقبات في سبيل الممدوح ، ولذلك كانا يتقدمان به لمدايحهما حتى يجعلا المشقات التي تكبداها إليه .

وقد عُنِيَ في هذا الوصف كالجاءلين (٢) بتصوير ما يحس به الثور من مشاعر وأحاسيس إذ يساقط عليه المطر وتطارده الكلاب ، فهو فزع متوجس ليلاً حذر سترقب صباحاً ، أبي يأنف الهزيمة ، قوي يستبسل في الدفاع عن نفسه ويفتخ بالكلاب وعرضاً في وصفه ، للوقت المناسب الذي يركن للصائد أن يخرج فيه لإدارة الثور وهو

(١) الأخطل شاعر بني أمية ٦٩ .

(٢) أنظر : النابغة في الشعر الجاهلي ٢٨٧ و ٢٩٦ - ٣٠٠ .

الصباح . وذكر القبايل التي عرفت بمهارتها في الصيد وضرب بها المثل في جودة الرمي ، كجرهم وأنمار وجديلة ولعل عند الأخطل وذكوان عند القطامي . وتحدثا عن الحيوانات التي استُخدمت في الصيد ، وهي الكلاب المصّرة التي عرفت بذكائها ومهارتها وخبرتها في الاحتيال للصيد . وحرما في إنياء الطراد على اتباع تقليد مأثور تنبّه إليه الجاحظ^(١) ، فالثور ينتصر على الكلاب ويفادها صرعى أو منهزمة . وسرّ ذلك أن المشرا كانوا يرمزون بالثور إلى الممدوح ، ويتخذون الكلاب رمزاً لأعداء الممدوح ، فاغتراس الثور أو سقوطه مضرباً بين الكلاب كان يعني بالنسبة للشاعر سقوط الممدوح ولمكن أعدائه منه .

وهو وصف يعتمد على أسلوب الوصف القصي^(٢) الذي تتسلسل فيه الصور وتتلاحم الأجزاء ، وذلك باد في الحديث عن الأحداث التي تمرّ بالثور من سقوط المطر عليه وتوجسه الدائم من تربس الصيادين واضطراره للقتال دفاعاً عن النفس . ويمكننا اعتبار مسرح تلك الأحداث المهامه المقفرة التي تفتال المسافرين ويصرّ من لفتح مجيرها الجندب ، وزمانها الليل البهيم الماطر الذي يفرع ببروقه الخاطفة ورعوده القاصفة أو الفجر المشرق الذي يحدّد بداية الصراع ، ثم تأتي الخاتمة التي تنتهي بانتصار الثور على الكلاب .

وصف الذئب والضراب :

رسم المشرا الجاهليون في ثنايا قصائدهم مشاهد دقيقة لما تقاسيه وحوش الصحراء وبأبورها في حياتها من تشرد وبؤس وحرمان . فالفلوات تتقاذفها والمدافوز تتهاها ، وهي دائبة السعي في البحث عن طعامها ، كثيرة التشاجر لكسب قوتها وإسكات جوعها . وقد ميأوا لذلك ما قدروا عليه من الألفاظ والمعاني الموحية ، فهي شديدة الهزال عابسة الملامح بشمة المنظر ، لأنّها تعيش على الصدور وتتقوّت بالضراب وتُفْضي على الجوع وتفترّ أجفانها على القدر وترعب من يراها^(٣) .

(١) أنظر : النيران ٢/٢٤٢ .

(٢) راجع : الطبيعة في الشعر الجاهلي ٣١٦ - ٣١٧ ، العصر الجاهلي ٢٢٤ .

(٣) الطبيعة في الشعر الجاهلي ٢١٩ ، الوصف ٦٦ و ٤٨ ، الشعر الجاهلي ٣٧٩ .

ومن المحقق أنه كان لنمأة الأخطال التغلبي في بواوير الجزيرة الفراتية
ولكثرة غشيان الصغار في رحلاته وأسفاره أثر كبير في تصويره لوحون الفلاة
وطيورها^(١)، وما تكتظ بها مبيشتها من تنافس ومشاجرة، ففي قصيدته النونية
التي مدح بها يزيد بن معاوية وصف مشهداً حياً للذئب وغراب اشتدّ بهما الجوع في
القفر، فكانا يسيرانه ليظفرا بما يطرحه لهما من طعام، فجعل يطاصهما من
زاده، فبئس فسان فيه ويتسابقان لتلقّنه. وقد صور عمّال الذئب، ووصف شدة
سواد الغراب ومراوحتة في مبيته بين الخطو والحبّالان ونفاذ بصره وعدته، وكيف
أن الغراب كان يطرد الذئب عنه ببذاته وببمده. فاعتزى الشاعر غوته بشديد
اقشمت له نفسه واضطرب له فؤاده^(٢). قال^(٣):

وأرقني من بعد ما نمت نومة	وعُضِبَ جِلَّتْ عنه القيون يمانني ^(٤)
تصاحبُ حبيبي تفرّة يحرفانها	غُرابٌ هو ذئب دائم السَّكَّان ^(٥)
إذا حضرائي عند زادي لم أكن	بغيلة ولا صَباً إذا تَرَكَ انسي ^(٦)
إذا ابتدرا ما تطرن الككّ فاتد	به حبيبي كيّس اللحظَّان ^(٧)
يُبَاعِدُهُ منه الجناح وتارة	يُراوِج بين الخطو والحبّالان ^(٨)
إذا غشيانني هيلت النفس منهما	تُشْمِرُيرةً وازددتُ غوتَ جَنان ^(٩)

(١) الأخطال في سيرته ونفسيته وشعره ٦٢.

(٢) الأخطال في سيرته ونفسيته وشعره ٤٩٦ - ٤٩٨، الأخطال الكبير ١٥٠.

(٣) شعر الأخطال ٢٩٤/١ - ٢٩٥.

(٤) العضب: السيخ القاطع. والقيون: جمع قين وهو العدد.

(٥) السكّان: من عدو الذئب والثعلب، يقال: عمّل الذئب والثعلب أو منى مسرعاً
واضطرب في عدوه وهزّ رأسه.

(٦) ولا صَباً: أي لا اشتاقهما إذا فارقاني.

(٧) الكيس: الخفة والتوقّد. يقول: — إذا أُلقيت إلى الذئب والغراب شيئاً
استلبه الغراب فطار به.

(٨) حَجَلٌ يَحْجِلُ حَجَلَانَا: نَزَا في مبيته، أي رفع رجلاً وتريث في مبيته على رجل.

(٩) غشيانني: اقتربني. هيلت: فرغت
وخافت. والجنان: القلب.

وهذه الأبيات لا تختلف كثيراً عن المصدر الجاهلي الذي قيل في البادية وحياة ما بها من وحوش وطيور ، فنحن حين نوازن بينها وبين ما قاله كعب بن زهير في وصف الذئب ، وانذاراً في تناعيف لحيته :

أَلَا بَكَرَتْ عِيسَى تَلُومُ وَتَعُذُّ — وَغَيْرَ الذِّئْبِ قَالَتْ أَعْنُ وَأَجْمَلُ

نجد الأخطال يحذو حذوه ويندو نحوه في أكثر مسانيد وفي أسلوبه القصي . على أن وصف الذئب للذئب والشراب التسم بالآول والتفصيل في تصوير أعناء كل منهما ، ولم يمار طالبهما للطعام وسعيهما من أجله ، فهما هزيران ، زالا بالنا جائعان جوعاً شديداً ، يدنوان منه رجاء أن يرمي لهما شيئاً يأكلته فلا يظنران ، لأنه أمدّ منهما إملاقاً وفقرًا . (١)

ولعل ميزة الأخطال في هذا الموضع تظهر في الإيجاز والقدرة على التصوير بأقل لفظ وأجز عبارة ، وفي ما أشاعه في رصنه من الحركة والحياة بهذه الأفعال : ابتدرا ، تبارح ، فاته ، يباعده ، يراي ، فضلاً عن ضرورة الفعل والحجاء . (٢)

وصف الخبر ————— :

الحرباء دويبة إذا بدت الشمس لجأ بظهره إلى أصول الشجر وشماريخ الفضل فإن رمضت الأرض ارتفع ، ثم هو يقلب بوجهه أبداً من الشمس حيث دارت حتى تفيسه وكلما سميت عليه الشمس اخضر جلده . وكانت إشارات المشرك إليه في قصائدهم قليلة ، يكونون بها عن حدة الحر وارتفاع النهار (٣) .

ومن صور الأفعال الباريفة للحرباء قوله من قصيدة ، يصفها وقد انتصبت قائمة فاستقبلت قرص الشمس ، وأخذت تميل معه في كل جهة كأنها رجل يمانى ظل تائماً في صلاته يقرأ السور الطويلة (٤) :

(١) شرح ديوان كعب بن زهير ٤٦ - ٥٢ .

(٢) الأخطال شاعر بني أمية ١٧١ .

(٣) الطبيعة في العصر الجاهلي ٢٠٩ .

(٤) شعر الأخطال ١٥٥/١ .

يَظَلُّ مُرْتَبِئًا لِلشَّمْسِ تَصْهَرُهُ إِذَا رَأَى الشَّمْسَ مَا لَتْ جَانِبًا عَدَلًا (١)
كَأَنَّهُ حِينَ يَمْتَدُّ النَّهَارَ لَهُ إِذَا اسْتَقَلَّ يَمَانٍ يَقْرَأُ الطُّوْلَ (٢)

وقوله من قصيدة يصفها وقد انتصبت في الهاجرة كالمصلي الذي يولي وجهه
شطر اليمن أو كالأسير الذي كُبل بقيود الحديد ، فلا يكاد يبرح مكانه (٣) :
أَجَزَتْ إِذَا الْحَرْبَاءُ أَوْفَى كَأَنَّهُ مَصَلَّ يَمَانٍ أَوْ أُسِيرٌ مَكْبَسَلٌ (٤)
وهذه الصورة للحرباء تتفق مع الصورة الأولى كل الاتفاق ، فهما في حقيقة الأمر
صورة واحدة لمعنى واحد ، جلبها الشاعر للتأكيـد عن شدة الحر ، مشبها قيام
الحرباء في الهاجرة بالمصلي الذي يطول قيامه في الصلاة أو بالأسير الموثق
بالحديد .

ولا يختلف وصف الأخطال للحرباء كثيراً عن وصف الشراة الجاهليين والإسلاميين ،
فنحن إذا قارنا بينه وبين ما قاله كعب بن زهير مثلاً في وصفه الدويبة في
لاميته : بَانَتْ سَمَادٌ ٠٠٠ ، أَلْفِينَا الْأَخْطَالُ يَحْتَذِرُ بِصَنِيعِ كَعْبٍ ، فيصف الحرباء قائمة
على الرَّمضاء تواجه الشمس وتدور معها كيفما نارت حتى تشور جليدها (٥) ، على أننا
نرى الأخطال يعمد إلى مشاهد العبادات الإسلامية فيستقي منها ما يلون به المعنى
والصورة ليحقق لها قوة التأثير ، فالحرباء يذصب في الهجرة كالمصلي الذي
يولي وجهه شطر اليمن . وهذه الصورة إسلامية خالصة وإن كان في النصرانية
(دين الأخطال) صلاة ، لأن المصلي المسلم في بلاد الشام والجزيرة الفراتية تكلم ن
قبلته نحو اليمن ، خلافاً للنصراني الذي يتجه في صلاته نحو المشرق حيثما كان .

(١) المرتبي : المشرق الذي قد علّ رابية ، وهي كل ما ارتفع من الأرض . تصهره :
تذيبه وتحرقه . وعدل : ما لــــ .

(٢) امتدّ النهار : ارتفع . والطول : ما طال من السور .

(٣) شعر الأخطال ٧٣/١ .

(٤) أجزت : قطعت ، أو المنازة . وأوفى : انتصب .

(٥) شرح ديوان كعب بن زهير ١٥ .

(٦) الأخبار الكبير ٧٤٨ .

وصف القطا :

القطا طير يضرب به السرب المثل على الاختداء إلى الأماكن بفريزته الخامضة حتى يقال : " أمدو من قطاة " لأنها تهتدى في المجهل وتعرف موضع الماء ، وهي من أكثر الطيور قدرة على اجتياز المسافات ، وقد تردد وصفها في الشعر الجاهلي بكثرة . وكان يأتي على سبيل الاستطراد في وصف القفار المجهول للتلذليل على ترامي أطرافها ووعشتها أو لتمثيل حدة الهاجرة فيها وندرة الماء في أرجائها ، أو في وصف الراحلة وتمييزها في سرعتها بالقطاة التي تطوى الأرض طياتاً . (١)

ومع أن وصف القطا في شعر الجزيرة الفراتية الأموي يأتي - غالباً - وسيلة إلى غيره من الممانى ، إلا أن أعشى تنلب انفراد بوصف القطاة وفرخها في قصيدة كاملة مؤلفة من سبعة عشر بيتاً ، أحسن فيها كل الإحسان حتى قال الجاحظ إنها : " أجود قصيدة قيلت في القطا " (٢) . يقول الأعشى (٣) :

ثلاث مرورات يحاربها القطا	تري الفرخ في حاناتها يتحرق (٤)
يظل بها فرخ القطاة ذائئاً	يتيم جفا عنه مواليه مطرق
بديومة قد بات فيها وعينه	على مرقه تنضي مراراً وترمق (٥)
شبيه بلا شيء من الناس	يواريه قين حوله متفلق (٦)
له معجرات عيون مريضة	وشدق بمثل الزعفران مخلق (٧)

(١) الطبيعة في الشعر الجاهلي ١٩٨ - ٢٠٠ .

(٢) النيران ، ٣٨٠/٥ .

(٣) النيران ، ٣٨٠/٥ - ٣٨١ ، نهاية العرب ٢٦٢/١٠ - ٢٦٥ .

(٤) المروارة : المفازة لشيء فيها .

(٥) الديومة : المفازة البعيدة الأرجاء التي يدوم السير

فيها ، وجمعها الدياميم . المرق : مرض في العين لترى الكحل . وترمق : تديم النظر .

(٦) القيض : قشرة البيضة المليحة اليابسة ، وقيل : هي التي

خرج فرخها أو ماؤها كله .

(٧) معجرات العين : ما دار بها من العظم الذر في أسفل العين .

- تُحاجيه كحلاء المدامح حُرّة لها ذنب ساج وجيد مطوّق (١)
 سماكية كدريّة عرعريّة سكاكية عفراء سمراء عذلق (٢)
 إذا غادرته تبتغي ما يمشيه كفاه رذاياها الرقيق الهبنق (٣)
 غدت تستقي من مذهب ليس دونه سيرة شهر للقطا متعلّق (٤)
 لأزغب مطروح بجوز تنوّقة تلطّي سموماً قيظاً فهو أوزق (٥)
 تراه إذا أسمى وقد كان جلده من الحرّ عن أوصاله يتمسّق (٦)
 غدت فاستقلت ثم ولت صغيرة بهامين يزدها الجناحان أولق (٧)
 تيمّم ضحاًها من الماء قد بدت دعاميه في الماء أطلّ أطرق (٨)

- (١) تحاجيه : من مناجاة الفصيل وهو أن يرضع بفيل لبن أمه ، إذا كان اللبن لها أوماتت أولاً ذاعلته بشيء أو منعدته اللبن وغذيته بالطعام . والساجي : الأسود .
 (٢) سماكية : نسبة إلى السماء ، والسماكان كوزبان نيران يقال لأحدهما الآخر السمان والآخر الزامح . الكدريّة والكداري : ضرب من القفا قصار الأذنان فضيحة تنادى باسمها ، واحده كدريّة وكداريّة . عرعرية : منسوبة إلى العرعر وهو شجر السرور فارسية . سكاكية : منسوبة إلى السكاكة ككمامة ، والسكاكة الصغير الأذن ، وهي أيضا الهواء الملاقى عنان السماء . عفراء : من العفرة وهي غيرة في حمرة . والصلق : الضعيف أو الطويل العنق .
 (٣) الرّزق : الضعيف من كل شيء ، والجمع رذايا ورذاة . والهبنق : الأحمق ، قيل : أراد الهبنق القمري ، وقيل : بل هو الكروان وهو يوصف بالعمق لتركه بيضه واحتفانه بغير غيره .
 (٤) جوز الشيء : وسطه . التنوّقة : القفر من الأرض . تلطّي : اشتدّ حرّه . السموم : الريح الحارة أو حرّ النهار . قيظ : أراد قيظه . والأوزق : الأسود في غيرة .
 (٥) ازدهاه الشيء : أعذته خفة من الزهو أو غيره . وأولق : جنون ، وقيل : الخفة من النشاط كالجنون .
 (٦) الضمّاح : ما رَقّ من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكسبين . الدعامين : جمع دعووس وهو دويبة صغيرة تكون في مستنقعات المساء .
 الأطل : لون بين الفسبرة والبياض بسواد قليل كلون الرماد .
 والأطرق : الذوف في لونه خضرة .

- فلما أتنه مُقَدِّراً تَقَرَّبَتْ تَقَرَّبَ مجنون ، فتطافو وتفسرو (١)
 تجرّ وتُلقي في سِقَاءٍ كَأَنَّه من الحنظل المامي جرّو مُمَلِّس (٢)
 فلما ارتوت من مائها لم يكن لها أناة وقد كادت من الرى تَبْهَق (٣)
 طمت طموة مُعْدَاً ومَدَّتْ جِرَانَهَا وطارت كما طار الشهاب المخلّق (٤)

فالقطاة وفرخها كانا في مفازة مترامية الأطراف شديدة الحرّ قاتلة ، وكان الفرخ ضعيفاً وبعيداً حزينا كبير العجز ، تضربه حرارة الشمس ولا يقيه لهيبها المحرّق لا بقايا قشرة البيضة اليابسة التي خرج منها . أما أمه فهي سوداء الذنب مطوقة الجيد كدراء اللون ، غفيفة تُدِيمُ التخلّيق حتى تطاول عذارة السماء كأنها نجم بعيد ، ولا تنثنى عن الطيران فوق أعالي أشجار السرو السامقة . وظلت الأم محزونة لا تجد ما تطعم به فرخها فراحت تعلله وتناجيه ، ولما رأت شهدة ما به من الجوع والظما غادرت تبتني ما يحيشه تاركة الهبنق القمرو أو الذكروان الأحمر يحتضنه ، وقصدت ضحاح ماء بعيد قد أسن وتغير ونمت فيه الديدان ، فخطت عليه وهرعت كالمنجونة تنهل من مائه الذكر ، ولما ارتوت طارت عائدة إلى فرخها كالشهاب .

والحق أن وصف الأعشى للقطا في هذه القصيدة يعدّ عملاً فنياً متميزاً نابضاً بالحياة ، وربما أفقده بعض حيويته ما اصطفيه الشاعر من غرابة في الألفاظ وتكلف للأوصاف التي تتلاحق أو تتراكم في مثل قوله :

سماكية كُدرية عَرعرِيّة سداكية عَفراء سَمراء عَشْلَق

وإذا كان أعشى تغلب أفرد قصيدة مستقلة لوصف القطا ، فإن الأخطال التغلبي يتخذ وصف القطا وسيلة إلى غيره من الممانج . ففي الذونية التي مدح بها

- (١) المقدح : الثائر المضارب .
 (٢) المامي : اليابس الذي أتى عليه عام . والجرو : ما استدار من ثمار الأشجار كالحنظل ونحوه ، والجمع أجُر .
 (٣) تبهق : تفتت فاهها وتصوت بشدة .
 (٤) طمت : ارتفعت وعلت . والجران : جلدة تضطرب على باطن العنق من ثفرة النحر إلى منتهى السنق في الرأس ، والجمع أجِرنة وجِرُن .

يزيد بن معاوية توسّل به للتدليل على شدة الهاجرة وافتقار الماء ، فوصف طيرانه وتخليقه في كل ناحية بحثاً عن الماء ، دون أن يهتدى إلى مورد يستقي منه وينقح طمأ فراغه الهزيلة التي تدرج على الأرض كنبات الأقاني الهزيل الهالكة . ثم صوّر خروج تلك الفراخ من البيض الذي يشبه الصدف ، وسيان بقايا الملح الأصفر الذي يشبه الوز المتناثر في بيوت القيان (١) . قال (٢) :

لياليج لا يجذو القطا لفراغه بذو أبهر ماء ولا يحفان (٣)
يقلن عن زغب صغار كأنهن إذا درجت تحت الظلال أفاني (٤)
كأن بقايا الملح من حيث درجت مفرك من في مبيت رقيان (٥)
إلى كل قيض من ضويل كأنما تفلق في أفحوصه صدفان (٦)

والناظر في هذه الأبيات لا يجد فيها التدرج المنطقي والتسلسل الفكري الذي رأيناه في وصف العنق للقطا ، فالأخطأ بعد أن جعل وصف القطا سبيلاً للتدليل على حدة الحرّ وصور بنه الشديد عن الماء ليحيى فراغه الهالكة التي سارت على الأرض ونما ريشها ، انثنى إلى الواقع الذي سبق ذلك فتحدث عن الهيئة التي خرجت بهما الفراخ من بيضها ، وذكر بقايا الملح الأصفر على الأرض ، وغير خاف أن هذا الانجذاب إلى الواقع يعتبر نبؤاً عن الدونوع الأساسي وخروجاً عنه ، مما أدى إلى

(١) أنظر : الأخطأ في سيرته ونفسيته وشعره ٥٠٠ - ٥٠١ .

(٢) شعر الأخطأ ٢٩٨/١ - ٢٩٩ .

(٣) يجذو : يحمل . أبهر وحفان : علان لموضعين . يقول : إنها ليال شديدة القيط ، بحيث يفتقد الماء ولا يقوى القطا على العثور عليه في موضع أبهر وحفان .

(٤) يقلن : يقصّر ويتباعد . والأقاني : جمع فنية وهي بقلة صغيرة . يقول : إن القطا كان يقصر عن جلب الماء لفراغه الصغيرة الشبيهة بالأقاني .

(٥) الملح : صفار البيض . مفرك : مبعثر منشور . والص : الروس . يقول : إن بقايا الملح الأصفر من حيث تفرشت شبيه بالروس في بيت القيان .

(٦) القيض : البيض . والأفحوص : موضع بيض القطا . يمثل خروج الفراخ من بيضها بمثل خروجها من الصدف .

تفكك الوصف وانعدام التلاحم بين الأبيات وضياع الوحدة التي تجمعها .
 وواضح أن الأطلال اتكأ في وصفه اتكأ أشديداً على التشبيه النفسي ، فقد
 شبه فراخ القطا الصغيرة بنباتات الأفاني الضعيفة ، وشبه صفار البين السائل
 على الأرض بما انتشر من نباتات الورس في بيت التبان ، كما شبه البيض بالصدى .

وبالوصف القطا عند الأطلال سبيلاً إلى غيره ، ففي البائية التي مدح بها
 عبد الملك قرن بين ناقته السريمة وبين القطاة التي كرت أفضل طيراتها وبذلت
 أقصى سرعتها حتى جلبت الماء لفراخها العاجزة ، التي قامت في أرض غليظة ولاذت
 من شدة الحر بصنار النباتات الشوكية (١) . قال (٢) :

كَأَنَّ رِحَالَ الْقَوْمِ حِينَ تَزْعُزَعُ عَلَى قَطَاوَاتٍ مِنْ قَطَا عَالِجٍ مُقْبِبٍ (٣)
 أَجَدَّتْ لِيُورِدَ مِنْ أَبَاغٍ وَسَفْهِا وَأَجْرَ أَيَّامٍ وَوَيْدَنَ لَهَا شُهْب (٤)
 إِذَا حَمَلَتْ مَاءَ الصَّرَائِمِ قَلَصَتْ رَوَايَا الْأَطْفَالِ بِسَمِيَّةٍ زُغْب (٥)
 تَوَائِمَ أَشْبَاهَ بَأْرٍ مَرِيضَةٍ يَلْدُنْ بِخَدْرَانِ الْيَتَامِ وَبِالْعِرْبِ (٦)

(١) انظر : الأطلال في سيرته ونفسيته وشعره ٥٠١-٥٠٢ .

(٢) شعر الأطلال ٤٠/١ - ٤١ .

(٣) عالج : رمال بين قيد والقرى ، وهي متصلة بالشلبية على طريق مكة ، لأنها
 بها . والقطاوات النقب : هي التي احتبس عليها المطر فهي عطشى وذلك لأدعى
 لسرعتها .

(٤) أجدت : أسرع لطلب الماء . أباغ : واد وراء الأنبار على طريق الغرات إلى

الشام . سفها : أهزلها . والأيام الشهب : البيض في وقت الهواجر .

(٥) الصرائم : جمع عريم وهو منقطع الرمل . قلصت : مضت وأسرعته الروايا : يعني
 القطا التي تحمل الماء لفراخها . سمية : مظلة . وزغب : سفة لفراخ القطا التي
 يبدو عليها الزغب أو صنار الريس .

(٦) توائم أشباه : فراخ القطا ، ما ائذان ائذان . الأرض المريضة : الساكنة

الرياح لشدة الحر . الخدران : نبات ربيعي إذا أحسن الصيف

يبس ، الواحدة خذرافة . العرب : شاة البهي إذا جأ .

وإذا كانت القطاة في هذه الأبيات قد حصلت على الماء وقد كانت طالبت له ولم تمثر عليه في الأبيات السابقة ، فذاك يعود إلى أن غاية الشاعر من وصفه تباينست . فقد اتخذ - في القطاة السابقة - عاماً القطاة وعدم اهتدائها إلى الماء تمثيلاً لشدة الهاجرة ، أما هنا فقد جعله رمزاً لسرعة القدو ، وآية ذلك أنه جعلها في أشد حالة من السجلة والضر ، حين رأت فراغها شديدة الظمأ تلوذ بالمقنآن والنبات الشوكي ، مما جعلها تبذل أقصى ما لديها من سرعة على الطيران حرصاً على جلب الماء الذي يحفظ حياة فراغها ، ولم تكن الهاجرة إلا سبباً استحثها به إليه . (١)

وكما اتخذ الأنثى وصف القطاة في الأبيات السابقة مادة للتشبيه لإظهار مدى سرعة الناقة ، فإنه يستعين به في الأبيات التالية من الميمية التي هجا فيها عوف بن مالك وزيد بن عمرو ، للتدليل على التوحش والعفاء اللذين أغنيا على مقام الحبيبة إثر ارتحالها ، محتاضاً به عن ذكر البقر الوحشي والظباء وغيرها من البهائم التي درج على ذكرها لإظهار توحش الطلل وتعمق آثاره بعد أهل^(٢) كسه . وكان وصفه للطلل في مقدمة هذه القصيدة تقليدياً ، فقد أعصى آثاره وبيت ما أفضى إليه من الدثور ، إذ حدد موضعه وصور بقاياه تصويراً مفصلاً ، فالحفـير انهارت بهوانبه وامتلاً بالتراب ، وموضع الحطب عفى وأحجار العود لم تزل ماثلة في مكانها تظهر على صفحاتها آثار النار مشبهة في لونها لون الحمامة السوداء ، أما الحوز فقد تهدم بنيانه^(٣) وأسنت مياهه حتى أصبحت شديدة الحرارة لتراكم الأوساخ التي تذروها الرياح ، فإذا ما وردته الناقة لتشرب تقلب مشفرها من شدة مرارته كأنما ألقى فيه نبات الشر أو العلقم .

وفي البدء ذكر الأنثى قيام النمام البري في الطلل واستقائه من الدثور ، حتى إذا ارتحل حل من دونه القطاة الذي يسقي فراغه الفرادى والتوائم . وهو

(١) أنظر : الأخطال في سيرته ونفسيته وشمسه ٥٠٢ .

(٢) أنظر : المرجع نفسه ٥٠٦ .

(٣) مقدمة القصيدة العربية في النصر الأموي ٤٣ .

يصور شرب القطا للماء وارتشافها منه حتى تنتفخ حواصلها مشبعة الكيزان الخضراء تنقله إلى فراخها الضعيفة المقيمة في الفلاة الموحشة ، فتنبهها وتسقيها منه . ثم نرى الشاعر يميل إلى وصف الهيئة التي كان القطا يحتضن عليها البيض حتى تحطمت قشوره وخرجت الفراخ منه وكبرت ، فطاروا وانتشروا في كل ناحية كأنها عصابة سبي تمشي من أن تتقسم (١) . قال (٢) :

أُتُفِرِّقُ مِنْ أَسْمَاءَ بِالْجُدِّ رُؤُوسًا	مُحْيَلَاءَ وَنُوءِيَا دَارِسًا قَدْ تَهَدَّمَا (٣)
وَمَوْضِعَ أَطْطَابٍ تَحْمِلُ أَهْلُهَا	وَمَوْقِدَ نَارٍ كَالْحَمَامَةِ أَشْتَمَا (٤)
عَلَى آجِنٍ أَبْقَتْ لَهُ الرِّيحُ دِمْنَةً	وَحَوْضًا تَأْتِيهِ الدَّمَامَةُ أَفْلَمَا (٥)
تَرَى مِنْ قُرَى الْقَيْسَاءِ حِينَ تَسُوفُهُ	إِذَا وَجَدْتَ طِغْمَ الْمَرَارَةِ أَكْزَمَا (٦)
كَأَنَّ الْيَمَامِيَّ الطَّيِّبَ نَبْرُولَهَا	فَذَرَّ لَهَا فِي الْحَوْضِ شَرِيًّا وَعَلَقَمَا (٧)
بِأَحْنَاءٍ مَجْهُولٍ تَعَاوَى سِبَاعُهُ	تَقْوُضُ حَتَّى كَانَ لِلطَّيْرِ أَذْرَمَا (٨)
إِذَا صَدَرَتْ عَنْهُ حَمَامٌ تَرْكَنُهَا	لَوْ رَدَّ قَطَا يَسْقِي فُرَادَى وَتَوَامَا
تَرَاهَا إِذَا رَاحَتْ رِوَاءَ ذَاتِهَا	مُسْلَقَةً عِنْدَ الْحَنَاجِرِ حَتَمَمَا (٩)

(١) أنظر : الأخطال في سيرته ونفسيته وشعره ٥٥٦ .

(٢) شعر الأخطال ٥٩٤/٢ - ٥٩٧ .

(٣) الجدد : ماء بالجزيرة (معجم البلدان ١١٣/٢) . الرسوم : الرسم وهو الأثر . المحيل : المنزل الذي غاب عنه أهله منذ حول والذي أتت عليه أحوال . والنوءى : الحفير حول الخباء أو النخيلة يمنع السيل .

(٤) الأشم : الأسود ، شبهه بالحمامة إذا اشتد سواد لونها .

(٥) الآجن : الماء المتغير الطعم واللون . الأنحي : موضع بيض النمام . والأثلَم : المتثلَّم جُرفه .

(٦) الشُّفْرُ والشُّفْرُ للبعير : كالشفة للإنسان . العيساء : واحدة العيس ، وهي الإبل تضرب إلى الصفرة ، وقيل : هي البيض مع شقرة يسيرة . تسوفه : تشمه . والأكزم : المتقلص .

(٧) اليمامي : نسبة إلى اليمامة . انبرى : عرش . الشرى : شجر المنطل ، واحده شربة . والملقم : جمع الملقة ، وهي النبتة الشربة ، وقيل : شجرة الحنظل .

(٨) الأحناء : الجوانب ، مفردا حنو . تقوض : انهدم . والأذرم : المستور .

(٩) الحنم : الجرار الخضراء شبهه بحواصلها المتثلثة بالماء .

- تَأَوَّبُ رُغْبًا بِالْفَلَاةِ تَرْكَنَهَا بِأَغْبَرَ مَجْهُولِ الْمَخَارِمِ أَقْتَمَهَا (١)
 إِذَا نَبَّهْتَهُنَ الرُّوَافِدَ بِالْقِرَى سَقَيْنَ مَجَاجَاتِ هَوَامِدَ جُثْمَهَا (٢)
 يَنْبُتُهُنَّ قَيْطِيَّ الْفَرَاخِ كَأَنَّهَا يَنْبُتُهُنَّ مَمُورًا مِنَ النُّومِ أَعْجَمَهَا (٣)
 ثَنِينَ عَلَيْهَا الرِّيشَ حَتَّى تَلَاخَقَتْ وَصَارَ شَعَاً قَيْطُهَا قَدْ تَعَطَّلَهَا (٤)
 فَطَارَتْ بِإِلَالًا وَابْذَعَرَتْ كَأَنَّهَا عِصَابَةً سَبَّيَ شَحَّ أَنْ يُتَقَسَّمَهَا (٥)

فالأخطال لا يصف القطا لذاته ، وإنما يستعين به لتمثيل غلاة الطلل وتحفيه ، ذلك أن القطا من الطيور البرية التي تنفر من الناس ، ولو لم يكن الطلل غالياً مقفراً لنزحت عنه القطا وجفلت ولم تنع بيضها فيه ولم تحتضنه مدة من الزمن حتى تتعظم قشوره وتخرج منها الفراخ ، وتقوم في تلك الغلاة القائطة المقفرة مزيلة عاجزة حتى كبرت وطارت في كل اتجاه (١) .

ولم يكن التسلسل الفكري في وصف القطا منها بأحسن إلا أنه في الأبيات النونية السابقة ، فالأخطال بعد أن وصف استقاء القطا للماء ونقلها له إلى فراخها ، عاد إلى ما قبل ذلك فصور احتضان القطا للبيض حتى فن ودج وطار .

ونحن حين نوازن بين وصف الأعشى للقطا في قصيدته وبين وصف الأخطال له في هذه المقاطع الثلاث ، نرى الأخطال لا يبلغ مبلغ الأعشى ولا يمدو في طاقه على الرغم من اتفاقهما في كثير من المساني . وقد ظهر ذلك في احتفال الأعشى بوصفه ، إذ خص له قصيدة كاملة ترابطت أبياتها وتلاحمت أفذارها وتمتت الزن القصصية في سرد معانيها . أما وصف الأخطال للقطا فلم يستقل عن غيره من الموضوعات بسـ

(١) تأوب : ترجع . أغبر : أراد فلاة مظلمة موشة . المخارم : أفواه الفجاج .
 والأقتم : الأسود .

(٢) الروافد : أمهاتهن . المجاجات : جمع المجاج وهو ما مجّه من فيه . الهوامد : الساكنة الضعيفة . والجثم : اللاصقة بالأرض .

(٣) القيطي : ما فرغ في القيط . والأعجم : الذر في لسانه حبسة .

(٤) الشماخ : المتفرق . وقيطها : أراد قيصها أو قشور بيضها . يقول : حضن البيض حتى خرجت منه الفراخ ولحق بعضها ببعض .

(٥) لال : متفرقة . ابذعرت : أسرع في تفرقها . وشح : تفرق حذراً خائفاً .

(٦) أنظر : الأخطال في سيرته ونفسيته وشعره ٥٠٨ - ٥٠٩ .

جاء في تضاعيف قصائده ، وانعدم فيه التدوج المنطقي حتى بدا مشككاً مضارباً لا روابط بين أجزائه .

فالقطا من الطيور التي وصفها الأعشى والأخطل التغلبيان الجزيريان ، وقد أظهرتا في وصفها فطنتها وذكاءها وتفوقتها ، فهي تهتدي إلى الأماكن ، وتعطف على صغارها فتحلق في القائطة المديدة وتجتاز المسافات الشاسعة لتنقل المساء في خواصلها لفراخها المأجزة لتعلمها منه وتنقذها من الهلاك المحقق .

ومن هذا ترى أن للطبيعة المتحركة بما فيها من حيوانات وطيور أثراً في شعر الجزيرة الفراتية الأمور ، فقد وصفوا من الحيوانات : الثور الوحشي ، والذئب والفراب ، والضرباء ، وعلى نحو ما وصفوا الحيوان وصفوا طير القطا . وهذه الموضوعات غالباً ما كانت تتداخل في القصيدة الطويلة .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت الآن موضوعات الطبيعة التي رسمها شعراء الجزيرة الفراتية في العصر الأمور ، هي : الصحراء والرياح والمطر والنهر والرحلة النهرية والبحر مما تشتمل عليه الطبيعة الساكنة ، والثور الوحشي والذئب والفراب والضرباء والقطا مما تشتمل عليه الطبيعة المتحركة . وهي موضوعات لم يترك الشعراء كبيرة ولا صغيرة تتصل بها دون أن يذكروها ، فقد تعرضوا في وصفهم للصحراء - وهم في طريقهم إلى الممدوح - إلى رسم السراب المتلصق والين والهجرة وأوال الطريق ومناقها وكلال الناقة وإعيائها وإجهادها وإفتراس الذئب لجنينها . وألقوا بوصف الرياح من خلال جعلهم لها عاملاً في تغيير معالم الديار ، فرسموا سرعة هبوبها وحركتها وتصويتها وحملها للرمال والأتربة . ومن خلال المناضلة بين المطر والنهر وبين الممدوح في كثرة السيل والسياء ، صرخوا المطر وما يتقدمه من سحاب وبرق ورعد وانصباب وما

يمتدح من تدفق للسيول وإمراع الأرض والحيوان ، ورسوموا فيضان النهر واجتياحه لكل ما يمر من طريقه من أشجار ونباتات . وطرّروا وصف الساعليين لرحلة الطعائن في الصحراء ، فنقلوه إلى وصف رحلة الطعائن بالسفن في الأنهار . ومن خلال تشبيه المحبوبة في حسنها وجمالها بالدرّة ، صوّروا البحر بأواجه المتلاطمة المتعالية ولآلئه التي يمانى من أجلها الفواص كل مشقة وهول . ولإظهار قسوة المطيّة وقدرتها على تحطّي العقبات في سبيل الممدوح ، وصفوا ثور الوحش القويّ الذئب وما يلقي من شدة الريح وانهمار المطر وعنت الصائد وملاحقة الكلاب ودنوله منها في سرقة وخروجه من بينها منتصرا . وإبراز قسوة الصحراء وقرعها وشدة شجيرتها ، رسموا مشاهد خلابة للذئب والشراب وهما يسيان دابّين في البحث عن طعامهما ، وللحرباء وهي قائمة على الرّمضاء تواجه الشمس وتدور معها كيفما دارت حتى تشوّى جلدها ، وللقطا الذكية التي تجتاز المسافات الشاسعة لتتنقل لفراخها الماء بعواصلها .

ومع أنهم قدّموا لنا هذه الأوصاف في صور بديعة نابضة بالحياة تقصّوا فيها كل صفات الموصوف ، إلّا أنهم لم يفرّدوا لها قصائد خاصة ، بل كانوا يسرقونها في تضاعيف قصائدهم مقلّدين لما فيهم من الشعراء الجاهليين ، وكأنهم لم يفادروا صحراءهم المحبوبة ويتملّوا من محاسن الجزيرة الفولانية ورياضها وأنهارها ، فظلّ خيالهم بدوياً سانحاً وظلت ممانيتهم قديمة . ومن هنا كان التجديد في أوصافهم قليلاً فثيلاً ، سواء من حيث المبنى كما رأينا في وصف الأعشى التغلبي للقطا أو من حيث المعنى كما رأينا في وصف الأخطل التغلبي للرحلة النهريسة . كذلك نلاحظ أثر التقليد في هذه الأوصاف ماثلاً في استخدام الشعراء للألفاظ الجزلة والكلمات الضخمة وفي ميلهم إلى البحور الطويلة لتتّون الصور التي يرسمونها كاملة التكوين في البيتين .

(٣) وصف الخمر

لم يفرد الشاعر الجاهلي للخمر قصيدة مستقلة متكاملة ، بل تناولها متحدة
بغيرها من الموضوعات التي ترد ضمن القصيدة العامة ^(١) ، وحتى الأعشى الذي يُعدُّ
زعيماً لوصافي الخمر الجاهلية ^(٢) بإطالته وتفصيله في أوصافها وإلماسه بكثير
من أحوالها وتشابيحها ^(٣) لا نكاد نلظف له بخمرية مستقلة بذاتها ^(٤) ، بل نجد
وصفه للخمر غالباً في فاتحة كثير من قصائده ^(٥) .

ولا يكاد الجاهلي يصف الخمر حتى يتحدث عن مباكرته لها قبل أن تصيح الديكة
ويسفر الصبح ويصحو النيام . وهو في ذلك يسرف بإظهار إدمانه إيّاها ، ويدلُّ على
كلفه بها وتهالكه عليها ^(٦) . وكان للخمر ودنانها ولونها وألقها ورائحتها
وطيبها أوصاف في شعر الجاهليين ، فهي معتقة مكثت زمناً في دنِّها الأسود المدمج
بالطين ^(٧) . فإذا ما سقطت من دنِّها فهي حمراء كالدم ^(٨) ، صافية كمين الديك ^(٩)
يشبه شاعها المشوب بالصفار قرن الشمس الوهاج رغبتلوعها ^(١٠) . أمّا رائحتها

- (١) فن الشعر الخمرى وتطوره ٢٥٥ ، شعر اللهو والخمر ٢١ ، تطور الخمرات ٥٧ .
- (٢) الوصف في الشعر العربي ٢٨٠/١ ، الوصف ٣٥ .
- (٣) فن الشعر الخمرى وتطوره ٣٧ و ٥٩ ، تطور الخمرات ٥٧ .
- (٤) فن الشعر الخمرى وتطوره ٢٧ .
- (٥) العصر الجاهلي ٣٥٥ .
- (٦) ديوان الأعشى ٦٩ ، تطور الخمرات ٦٢ ، شعر اللهو والخمر ١٦ ، فن الشعر
الخمرى ٥٤ ، العصر الجاهلي ٣٥٨ ، الوصف في الشعر العربي ٢٨٩/١ ، الوصف ٣٩ .
- (٧) ديوان الأعشى ١٩٧ و ٢٤٣ ، تطور الخمرات ٤٢ و ٦٠ ، فن الشعر الخمرى ٣٣ ،
الوصف في الشعر العربي ٢٨٤/١ ، الوصف ٣٩ ، العصر الجاهلي ٣٥٩ .
- (٨) تطور الخمرات ٥٨ و ٦١ ، شعر اللهو والخمر ١٧ ، الوصف في
الشعر العربي ٢٨٠/١ ، الوصف ٣٩ .
- (٩) تطور الخمرات ٥٩ ، فن الشعر الخمرى ١٦٣ ، شعر اللهو والخمر ١٧ ،
الوصف في الشعر العربي ٢٩١/١ ، الوصف ٣٨ ، العصر الجاهلي ٣٥٩ .
- (١٠) ديوان الأعشى ١٩٧ ، تطور الخمرات ٥٨ ، فن الشعر الخمرى ٥٧ .

فلذاعة ينفذ طيبها إلى الأنف كأنها رائحة المسك^(١)، وهي لذلك طيبة، يحرس عليها تجارها الأعاجم حرصاً يجعلهم يُقالون في ثمنها ويسامون على بيعها ليبتزوا من البليها غاية ما يُستطاع من الثمن^(٢).

وعرض الجاهلي لمجلس الخمر وما يُقدّم فيه من راح وشواء وما يَزخر به من ساقيات وقيان، فوصف الساقية الفاتنة في يمينها الإبريق مُترعاً بالمُدام، تطوف على الندامي المترفين من الشباب، يماثلونها فلا تخذلهم أو تصدّم عن شبي*. وصوّر القينة الساحرة وهي تنفي أعذب الألحان بصوتها الذي شالطته بحة لكثرة إدمانها الخمر^(٣).

ولا يعدو وصف الجاهلي لتأثير الخمر التجربة الحسية أو الملاحظة السطحية غالباً، فالشارب تغور قواه ويهدم جسمه ويغاشي كالميت، وغاية ذلك إظهار إدمانه إياها ومماقرته لها، فهو يمل منها حتى ينفذل ويحيى لا يملك لنفسه حراكاً^(٤). ونادراً ما تحدّث عن أفاعيلها في نفسه واضطرابها في روحه، وإن كان أحياناً سور ما يصيبه من نشوة تبت فيه الزهو والخيلاء^(٥).

وفي العصر الإسلامي حوّل الشاعر بالزام من واقعه النزعة الوصفية للخمر بما فيها من انصراف إلى ذكر اللون والشاع والكأس وما أشبه، إلى نزعة جدليّة كلاميّة تعرض فيها لتسفيه آراء عاذليه على شربها، مظهرأً فضلها وشفه بها في غير قليل من التحرّج. ورأس هذا المذهب من الإسلاميين الحارثة بن بدر وأبومحجن الثقفي^(٦).

(١) ديوان الأعشى ١٩٧، تطور الخمریات ٤٤، فن الشعر الخمری وتطوره ٥٥، شعر اللهو والخمر ١٧، العصر الجاهلي ٣٥٩.

(٢) ديوان الأعشى ٣١٩، تطور الخمریات ٣٨، فن الشعر الخمری ٥٠.

(٣) تطور الخمریات ٤٤، فن الشعر الخمری ٦٦، شعر اللهو والخمر ١٦، الوصف

في الشعر العربي ٢٨٧/١ و ٢٩٠، الوصف ٣٨، العصر الجاهلي ٣٥٦.

(٤) ديوان الأعشى ٣١٩، تطور الخمریات ٦١، فن الشعر الخمری ٢٥، الوصف في

الشعر العربي ٢٨٠/١، الوصف ٣٦.

(٥) تطور الخمریات ٣٩، فن الشعر الخمری ٢١.

(٦) فن الشعر الخمری ٨٦ - ٨٧ و ٩٣ و ١٦٣.

أما شعراء الخمر الأموية فينقسمون إلى طائفتين : طائفة اتخذت الخمر وسيلة لذاتها فأفردت لها قطعة خاصة بها ، نزلت فيها منزعا نفسيا ضال من قدر الوصف ، وتماطمت عليها الأفكار والمواقف ، فخلت من التقليد ومن صور البادية والألفاظ الغريبة . ومن شعرائها : الوليد بن يزيد ، وأبو الهندي ، والأقيشر ، وعَمَّار ذو كُبار ، وأبو جَلْدَةَ اليشكري ، ومالك بن أسماء بن خازجة ، وعبد الرحمن ابن أُرطاة^(١) . والطائفة الثانية سلكت مسلك الجاهليين ، في ذكر الخمر عبر قصيدة المدح أو الهجاء ، وفي طغيان النزعة الوصفية الحسية عليها ، وفي الإلتكاء على المماني والصور القديمة والتعابير الفخمة ، على نحو ما هو معروف عن الأخطل والقطامي ونابغة بني شيبان والفرزدق^(٢) .

وبسببنا ههنا شاعران من شعراء الطبقة الثانية ، وهما الأخطل والقطامي التفليبيان ، اللذان عاشا في الجزيرة الفراتية وكانت قبيلتهما تطلب مفرسة بالخمر^(٣) . وقد يَسَّر لها ذلك أن بلاد الجزيرة كانت مليئة بالأديرة التي تصنع فيها الخمر على أيدي رجال الدين وتُباع على نطاق واسع ، وأن الإسلام أبقى للنصارى حاناتهم ولم يمنعهم من شرب الخمر أو التعبير عما تجيش به نفوسهم . ومعنى ذلك أن تفرّد هذين الشاعرين بذكر الخمر من بين شعراء الجزيرة إنما يعود إلى نصرانيتهما التي أباحتهما تعاطيها ومماقرتها ونسبتها بغير ما حرج ودون أن يخشيا رقابة أو عقوبة^(٤) .

وصف الأخطل للخمر : —————

أما الأخطل فقد عرّف بولعه وإيمانه للخمر ، إذ كانت رفيقة حياته بها يخفّف

(١) تطور الخمریات ١٦٠ و ١٦٩ و ١٧٧ ، فن الشعر الخمری ١٢٧ و ١٣٩ و ١٤٣ و ١٥١

و ١٥٣ و ١٦٠-١٦٣ و ١٦٥ ، التطور والتجديد ٣٣٠ و ٣٣٤ .

(٢) تطور الخمریات ١٥٤ و ١٦٦ و ١٦٩ ، التطور والتجديد ٣٣٠ ، الشعراء من مخزومي

الدولتين ٢٩٥ .

(٣) تطور الخمریات ٣٢ و ١٠٥ .

(٤) شعر اللهو والخمر ١٠٧ ، الأخطل الكبير ١١٥ ، الأخطل شاعر بني أمية ٢٢٤ .

آلامه ويدارد شجونه ، وعشيقه عمره التي هام بها واصحابتها نفسه حتى كان لا يرى في الدنيا ما يعادلها أو ينافسها^(١) . فكانت معلقته لها متصلة ، يشربها طاعناً ومقيماً في برادى الجزيرة وحواضرها وفي البلاد الكثيرة التي يفدحها ماحاً كبيراً ما وأهلها ، حتى عرفت حانات الكوفة والحيرة ولم تذكره حانات بصرى وغزة ودمشق^(٢) . وكان لشدته تعلقه بها يرى أنها مصدر نبوغه وإلهامه الشعرى ، فكان إذا ارتج عليه وأغلقت دونه منافذ القول فنز إليها لتفتح أمامه المسالك في عالم النظم والإبداع^(٣) . فبحث في وصف الخمر الحياة^(٤) ، وكان أحد رؤاده في العصر الأموى^(٥) .

وبالرغم من أن الأخطل أدمن الخمر فقد ظل شعره فيها غير مستقلاً ، فلم يخصصها بالقصائد التامة ولم يجعلها فناً يطرق لذاته إلا نادراً . شأنه في ذلك شأن سلفه الأعشى وشأن شعراء عصره ، يجعل منها غرضاً من أغراض القصيدة لا يتجاوز المقدمات ، يبتثها غالباً في قصائده التي تحوى مديحاً^(٦) . ففي لاميته (عفا واسط) التي مدح بها خالد بن عبد الله بن أسيد الأموى ، والتي وصف الخمر في سبعة عشر بيتاً منها ، أراد أن يصور حزنه على فراق الأختبة الطاعنين فتشبه بالسكران ، وساقه هذا التشبيه إلى أن يستقصى حالة هذا السكران وإلى أن يفصل القول في الخمر ، فصوّر أشرداً في النفس والجسم ، ووصف عتقها ومواطن إنتاجها ، وقربها السوداء ، وشاربيها وقد عقدوا مجلسهم عليها وأداروها بينهم ، وماتخلل ذلك من أوصاف تقليدية . وتحدث عن شجرة الكرم ، فذكر تمهّد الفلاح لها بالمسحاة

(١) الأخطال الكبير ١١٥ ، الأخطال شاعر بني أمية ٢٣٣ ، تطور الخمريات ١٥٤ ، شعر

اللهو والخمر ١٠٤ .

(٢) الأخطال شاعر بني أمية ٢٢٤ ، تطور الخمريات ١٥٤ .

(٣) الأخطال الكبير ١١٦ و ١١٧ ، تطور الخمريات ١٥٥ ، الأخطال شاعر بني أمية ٢٣٣ ،

شعر اللهو والخمر ١٠٤ .

(٤) شعر اللهو والخمر ٣٠ و ١١٢ ، الأخطال الكبير ١١٥ .

(٥) فن الشعر الخمرى ٩٨ ، شعر اللهو والخمر ٣٠ .

(٦) فن الشعر الخمرى ٩٨ ، شعر اللهو والخمر ١١١ ، نقائض جريس والأخطال

(عبد المجيد المحتسب) ٤٤٧ ، الشعراء من مخضرمي الدولتين ٢٩٦ .

والسقي (١) . قال (٢) :

كَأَنِّي عِدَاةٌ أَنْصَنَ لِلْبَيْنِ مُسَلِّمٌ بضربة مُغْنَقُ أَوْ غَوَى مُمَذَّلٌ (٣)
صَرِيحٌ مُدَامٌ يَرْفَعُ الشَّرْبَ رَأْسَهُ لِيَحْيَا ، وَقَدْ مَاتَتْ عِظَامٌ وَمَفْصِلٌ (٤)
تُهَادِيهِ أحياناً وحيناً تَجْرُهُ وما كَادَ إِلَّا بِالْحُشَاةِ يَمْقِلُ (٥)
إِذَا رَفَعُوا عِظْمًا تَحَامِلُ صَدْرُهُ وَآخِرُ مَبَانِيالٍ مِنْهَا مُخْبِلٌ
شَرِبْتُ وَلَقَانِي لَحْلٌ أَلِيَّتَنِي قَلِيلًا رَتَرَوِيٍّ مِنْ فِلَسَلِينَ مَثْقِلٌ (٦)
عَلَيْهِ مِنَ الْيَمْزَى مُسَوِّكٌ رَوِيَّةٌ مُمَلَأَةٌ يُعْلَلُ بِهَا وَتُعَمَّسَدَلُ (٧)
فَقُلْتُ : أَصْبَحُونِي لَا أَبَا الْبَيْكَمِ وما وَضَعُوا الْأَثْقَالَ إِلَّا لِيَفْعَلُوا (٨)
أَنَا خَوْفَجَرَّوَا شَاصِيَاتٍ كَأَنَّهَُا رِجَالٌ مِنَ السُّودَانِ لَمْ يَتَسَرَّبَلُوا (٩)
وَجَاءَ رَابِئِيَّ سَانِيَّةٌ هِيَ بَعْدَمَا يَمْلَأُ بِهَا السَّاقِي الذِّئْبُ وَأَسْهَلُ (١٠)
تَمَرَّبَهَا الْأَيْدَى سَنِيحًا وَبَارِحًا وَتُوضَعُ بِاللَّهْمِ حَيٌّ وَتُحْمَلُ (١١)

(١) تطوار الخمریات ١٥٩-١٦٠هـ ، فن الشعر الخمری ٩٨-٩٩هـ ، الأخطال شاعر بني أمية ١٥٢هـ

نقائض جرير والأخطال (عبدالمجيد المحتسب) ٤٥٠ و٤٩٢هـ ، النصر الإسلامي ٢٦٤ .

(٢) شعر الأخطال ١٥/١ - ١٨ .

(٣) انصن : مضين . مسلم : مستكين لفرأقهم . بضربة عنق : أي كمن ضربت عنقه .
وقوله : غوى ممذل أو غوى يلام على فعله .

(٤) المدام : الخمر التي سكنت في دنها . الشرب : جمع الشارب . والمفصل : مكان
انفصال بعض الأعضاء من بعض .

(٥) تهاديه : تسوقه . والحشاة : بقيّة النفس .

(٦) الآليّة : اليمين . والقطار : قطعة من الإبل على نسق واحد .

(٧) مسوك اليمزى : جلوسها ، ويعني بها الزقاق التي صنعت منها . والرؤية :
الضخام المملوءة .

(٨) الصبوح : شرب الفبادة .

(٩) الشاصيات : الشائلات القوائم من امتلائها ، وعني بالشاصيات ههنا الزقاق لأنها
إذا امتلأت شالت أكارعها .

(١٠) بيسانية : نسبها إلى بيسان ، وهي بناحية الأردن . والعلل : الشرب الثاني .

(١١) السنيح : ما جاء عن يمينك يريد شمالك . البارح : ما جاء عن شمالك يريد
يمينك . وقوله : " توضع باللهم حيّ وتحمل " ، أي يسي عليها بذكر الله
في وضعها ورفعها .

- وتوقف أحياناً فيفصل بيننا غنا * مفن أو شوا * مرعبـ (١)
 فلذت لمرتاج وطابت لشارب وراجعني منها مراح وأغـ (٢)
 فما لبثتنا نشوة لحقت بنا توابها مما نمل ونهـ (٣)
 تدب دبيباً في العظام كأنه دبيب نمل في نقا يتهـ (٤)
 فقلت: اقلوها عنكم بمزاجها فأطيب بها مقتولة حين تقتـ (٥)
 ربت ورباً في حجرها ابن مدينة يظل على مسحاته يتركـ (٦)
 إذا خاف من نجم عليها ظمأة أنب إليها جدولاً يتسلـ (٧)

وهذا وصف ألم فيه الأخطال بمعظم المعاني الماثورة المقررة في وصف الخسر،
 فنحن لا نكاد نمثر على معنى حتى يذكرنا بمعنى ألم به الباهليون (٨)، وبخاصة
 الأعشى الذي كان إمام شعر الخمر ورائد وصفها وبأساط معانيها وآثارها في النفس
 والجسم، وعارض مفاتنها وما يحيط بها من جمال ولذائذ. فكان على الأخطال وهو
 المتيم بها أن ينسج على منوال الرائد الأول (٩).

فمشهد السكران الصريح الذي ماتت عظامه ومفاصله وتساقت أعضاؤه ولم يمد

- (١) رعب اللحم: قطعه لتصل إليه النار فتنضجه.
 (٢) المرتاج: المهتز وهو الأريحي. المراح: من المرح وهو النشاط. وأغـ:
 من الغيلاء وهي الكبر.
 (٣) النشوة: السكر. توابها: ما لحق من سكرها. والنهل: الشرب الأول.
 (٤) شبه دبيبها (تمشيها) في البدن بدبيب النمل في نقا وهو ما ارتفع من الرمل،
 يتهـ أي يتحدّر.
 (٥) قتل الخمر: مزجها بالماء لإزالة حدتها.
 (٦) ربت: نشأت. حجرها: كنفها. مدينة: أمة. المسحاة: آلة تسحابها الأرض
 أي تقشر. ويترك: يدفسها برجله.
 (٧) الظمأة: الطمأ. أنب: أجرى. ويتسلل: يتحدّر. يعني أنه إذا خاف عليها
 العطش من نجوم الصيف أجرى لها جدولاً يتحدّر.
 (٨) فن الشعر الخمرى ١٠٣، الأخطال في سيرته ونفسيته ١٦٦.
 (٩) الأخطال الكبير ٢٣٩.

يتمالك نفسه فوافق صحبه يهادونه ، وما يتمثل في هذا المشهد من نزعة الفلو التي أحال بها السكر إلى موت^(١) ، مما عرفه الجاهليون ، فألم به زهير والأعشى في صورة موت الشاربين إذ مثلاً ما يصيبهم من انخزال وإعياء* ، بل وانبطاح على الأرض لمجز أقدامهم عن حملهم^(٢) . كذلك استقى الأخطل تشبيهه للدنان بالسودان المرأة من الأعشى^(٣) ، إذ قال^(٤) :

تحسب الزرق لديها مسنداً حبشياً نام عمداً فانبطح
والأخطل بقوله : "توضع باللهم خي وتحمل" يقتفي الأعشى في تعبده للخمر وتقديسه لمفاتها إذ قال^(٥) :

وقابلها الرّيح في دنّها وصلى على دنّها وارتسم
وقال^(٦) :

لها حارس ما يبرج الثمر بيتها إذا ذبحت صلى عليها وزمّزما

ويترسمه في وصفه لمجلسها وللمفنين^(٧) ، وفي ما يتخلل شربها من تناول للشوا* وهو مما يفخر به الجاهليون^(٨) . أما وصفه لأثرها وما تتركه في نفس شاربها من خيلاء* بقوله : " وراجعني منها مراح وأخيل " ، فتلك الخيلاء* كان قد أنهكها التناول في شعر الخمر . قال حسان بن ثابت^(٩) :

ونشربها فتركنا ملوكاً وأسداً لا ينهنهن اللقا*

(١) الأخطل في سيرته ونفسيته وشعره ١٦٦ ، شعر اللهو والخمر ١٠٢ .

(٢) فن الشعر الخمرى ٣٦ .

(٣) تطور الخمريات ١٦٠ ، الأخطل شاعر بني أمية ٢٢٤ ، الأخطل الكبير ٣٩ .

(٤) ديوان الأعشى ٢٤٣ .

(٥) ديوان الأعشى ٣٥ . وانظر : فن الشعر الخمرى ١٠٤ ، شعر اللهو والخمر ٩٧ ،

الأخطل الكبير ١٢١ .

(٦) ديوان الأعشى ٢٩٣ .

(٧) ديوان الأعشى ٣١٩ .

(٨) تطور الخمريات ١٦٠ ، شعر اللهو والخمر ١٠٢ .

(٩) فن الشعر الخمرى ١٠٤ .

وكذلك الأمر في وصفه لدبيب الخمر . قال الأعشى : (١)

تدبّ لها فترة في المطام وينشى الذؤابة فؤارها
وقال حسان بن ثابت (٢) :

تدبّ في الجسم ديبباً كما كبّ دبّي وسط رفاقهيام

وعلى الجملة ، فإن المعاني التي تشخص في هذا الوصف جميعها هي مـسـانـ
مـسـروـفـة في سـمـر الخـمـر . أما الصور فمادية حسية ونراه لا يبعد فيها عن صور
البادية ، فهو يشرب بعد أن حلت أليته في الشراب ، وخمرته نُقلت على جمال
بزقاق من جلود الممزي ، وتناول الشاربين للكؤوس يشبه حركة السانح والبارح
من الطير ، ودبيب الخمر في الجسد يشبه دبيب النمل على رمل يتهيل . ولا نرى
فيها من صور الحاضرة إلا ما ذكره من تعهد الفلاح لشجرة الكرمة بالحرث والسقي (٣)
واصطنع الأخطل في هذا الوصف وفي كثير من شعره التصوير الحركي ، شأنه في
ذلك شأن امرئ القيس وزهير والنابغة والأعشى في بعض شعرهم . وهو تصوير يتمثل
باختياره لهذه الألفاظ المعبّرة التي تزخر بالحركة والحياة وتصور الموقـف
تصويراً دالاً موحياً ، فالشارب (صريح) (يرفع) الشرب رأسه ليحيا وقد (ماتت)
عظام ومفصل ، (نهاده) أحياناً وحيناً (نجره) ، فإذا (رفموا) عظماً (تخامل)
صدره وآخر ممّا نال منها (مُخبل) ، ثم نرى الشرب وقد (أناخوا) الجمال (فجروا)
الزقاق ، و (جاءوا) بالخمر البيسانية ، (تمرّ) بها الأيدي (سنيحاً) (وبارحاً)
(توضّع) باللهم حَيّ (وتحمل) ، و (توقف) أحياناً (فيفصل) بين الشرب غنساء أو
شواء ، فإذا (لحقت) بهم نشوة ممّا (يُملّ) و (يُنهل) ، أحسّوا بالخمر (تدبّ)
في أجسادهم (دبيب) نـمـال في نـقا يـتـهـيـل (٤) .

أما أسلوب هذا الوصف فيتصف بما اتصف به أسلوب الجاهلي من تفكك والتفات
إلى الأجزاء ، دون أن يكون فيه شئ ارتباط بين المعاني (٥) على أن الأخطل

(١) ديوان الأعشى ٣١٩ . وانظر : فن الشعر الخمرى ١٠٥ مشعر اللهو والخمر ١٠٣ .

(٢) أنظر : الأخطل شاعر بني أمية ٢٢٧ ، الأخطل الكبير ٣٤٩ ، الأخطل في سيرته

ونفسيته وشعره ٥٧٣ .

(٣) تطاور الخمريات ١٦٠ .

(٤) انظر : الأخطل شاعر بني أمية ١٧٢ .

(٥) فن الشعر الخمرى ١٠٦ .

يتوسل في عرض هذه المعاني المفككة بأسلوب القص الذي عرفه الجاهليون في تقليد ألب الخمر وخاصة في ذكر المجلس والندامى ، فقد تحدثت عن الفتيان الذين أناخوا الإبل وأنزلوا عنها القرب وجاءوا بالخمر ، وعن الفناء الذي سمعوه والشوا الذي أكلوه . (١) وتبدو التبعية في الأسلوب أيضا في استخدام الشاعر لمثل هذه الألفاظ الجزلة التي تميل إلى التجهيم : شاصيات ، مرعبل ، مسعاة ، يتركل ، وغيرها .

ومن بديع وصف الأخطل للخمر ما جاء في الرائية التي مدح بها يزيد ابنن معاوية ، بمد وصف الديار والرحيل والتسبب والطريق . إذ صور النديم الجواد ، والخمر الممتقة ، والبائع الذي حرص عليها وتشدد في بيعها ، ولونها الأحمر ، ومراعتها التي تمبه رائحة المسك . قال (٢) :

وشارب مريح بالكأس نادمني	لا بالصور ولا فيها بسوار (٣)
نازعه طيب الراح الشمول وقد	صاح الدجاج وحانت وقعة الساري (٤)
من خمر عانة ينصاع لفرات لها	بجدول صخب الآدى جسرار (٥)
كمت ثلاثة أحوال بطينتها	حتى إذا صرحت من بعد تهدار (٦)
آلت إلى النصف من كلفاء أترعها	علج ولثمتها بالجفن والفار (٧)

(١) الأخطل في سيرته ونفسيته وشعره ٢٧٢ .

(٢) شعر الأخطل ١٦٨/١ - ١٧٠ .

(٣) السريح : الذي يخالي في الثمن فيريح عليه التجار . الحصور والعصير : المسك البخيل . والسوار : المبريد السحري الخلق .

(٤) نازعه : نازلته . الشمول : الخمر لأنها تشمل بريحها الناس . الدجاج ههنا : الديوك لأن الدجاجة تقح على الذكر والأنثى ، يريد وقت السحر . والساري : ههنا المسافر .

(٥) ينصاع لفرات لها : يبرئها . الصب : المصوت . والآدى : الموج .
(٦) كمت : طينت وسدت . صرحت : انجلى زبدتها فخلصت . وتهدار : غليان .
(٧) آلت إلى النصف : أي نقصت من مزالسنيين حتى ما رت إلى نصفها . الكلفاء : الخمر التي تشتد حمرتها حتى تضرب إلى السواد . أترعها : ملأها . العلج : الرجل من كفار النعم . لثمتها : غطاها . الجفن : قضبان الكرمة وقيل ورقها . والفار : ورقا لكرمة وقيل ورق النوس .

- ليست بسوداء من ميثاء مظلمة
لها رداء ان نسج العنكبوت وقد
صهبا قد كلفت من طول ما حُيست
عذرا لم يجتل الخطاب بهجتها
في بيت منخرق السربال مُتميل
إذا أقول تراضينا على ثمن
كأنما المِلح إذا وُجبت صَفَقَتها
لما أتوها بمصباح ومبزلهم
تدما إذا طمنوا فيها بجائفسه
- ولم تُعذب بإدناء من النار (١)
حُفَّت بآخر من ليف ومن قمار
في مخدع بين جنات وأنها (٢)
حتى اجتلاها عبادي بدينسار (٣)
ما إن عليه ثياب غير أطمار (٤)
ضنت بها نفس حبّ البيع مكار (٥)
خلّيج خصل نكيب بين أقمار (٦)
سارت إليهم سوار الأبلج لظاري (٧)
فوق الزجاج عتيق غير مسطار (٨)

- (١) الميثاء : الأرض السهلة . يقول : لم ينبت كرمها بأرض سوداء فتحي سوداء كدرة ،
ولكن كرمها ينبت في ميثاء .
- (٢) الصهبا : الخمر ، سُميت بذلك للونها . كلفت : تغيّر لونها . حبست : خُبثت .
والمخدع : المخبأ ، يروى بضم الميم وكسر هاء وفتحها .
- (٣) لم يجتل الخطاب بهجتها : أي لم يشهدوها ولم يروا جمالها . والعبادي :
منسوب إلى العباد وهم قبائل شتى من العرب اجتمعوا على النصرانية بالخيصة .
- (٤) المنخرق : الممزق . السربال : القميص والدرع . المحتمل : المنهمك في
العمل . والأطمار : جمع الطمر وهو الثوب الخلق .
- (٥) الخب : الخداع .
- (٦) الخليج : المقصور ماله . الخصل : ما يتقار عليه . النكيب : المنكوب
المخلوب . والأقمار : جمع قمر وهو النّقّار .
- (٧) المبزل : الثقب في جانب الخابية ، تجري منه الخمر صافية . سارت : وثبتت
وشارت . الأبلج : عرق يكون في الدواب ، وهو في الناس الأكل . والظاري :
المتدفق بالدم . أراد : أن الخمر خرجت من الخابية خروج الدم من
الأبلج .
- (٨) الجائفسه : الطعنة التي تبلغ الجوف . العتيق : الخالص .
المسطار : روميّة مفرّبة ، وهي الخمر الدنيئة التي
اعتصرت من أبكار العنب .

كَأَنَّمَا الْمِسْكُ نُهَبِي بَيْنَ أَرْحُلُنَا مِمَّا تَضَوُّقٌ مِنْ نَاجُوْدِهَا الْجَارِي (١)

فنديمه سخي جواد دمث الأخلاق ، عاقر ممه الخمر في السحر . وهي غمر عانبة قام على تصنيفها عِلَج حاذق ، أحكم غطاءً . إنائها بالليف والقار ولم يُدْنِها من النار ، وجَلَّلها بأوراق الكرمة وخَبَّأها ثلاثة أعوام ، حتى تَضَيَّرَ لونها وخالط حمرتها بعض السواد ، وبني عليها العنكبوت فزاد غطاءها إحكاماً . ثم أخرجها العِلَج لطالبيها كأنها العذراء التي حَصَّنْها أهلها عن أعين الخطاب ، حتى جاء من ساق لها أغلى السهور . أما صاحبها العِلَج فمَمَزَّق الثياب مهتم بشؤون خمرته حريص عليها مخادع في بيئها ، فالشرب ما إن يتراضوا وإياه على ثمنها حتى تبخل بها نفسه الطامعة الجشعة ، فإذا أوجبوا عليه الصَّفقة تَبَّ الحزن في نفسه كأنه مقبور مُكَيَّب في لعبة ميسر ، وراح يفتح الدن بمثقبه على ضوء المصباح ، ففارت الخمر كما يفور الدم من الجرح وفاحت رائحتها الطيبة كأنها المسك (٢) .

والأخطال ههنا لم يكد يأتي بجديد ، فهو يحذو حذو الجاهليين في كثير من معانيه ، ألا تراه يفخر بمعاشرته للنديم الدمث الأخلاق الجواد الذي لا يبخل بالمال ولا يحرص عليه ، وهو ما فخر به الجاهليون (٣) وبخاصة امرؤ القيس وكعب ابن زهير . قال — امرؤ القيس (٤) :

وأخي إخاء ذي محافظة سهل الخليفة ماجد الأصل
 حلوا إذا ما جئت ، قال : ألا في الرحب أنت ومنزل السهل
 نازعتك كأس الصبوح ولم أجعل مُعِدَّةً عِذْرَةَ الرَّجُل
 وقال كعب في نديمه الذي لا يساوم ولا يعربد (٥) :
 إذا غلبته الكأس لا متمبِّس حصور ، ولا من دونها يتَبَسَّل

(١) نهبي : اسم للنهب وللمنهوب . تضوُّق : فاح . وناجودها : أول ما يخرج منها

إذا بُزِلَ عنها الدن ، وقيل : إناؤها .

(٢) أنظر : فن الشعر الخمرى ١١١ ، شعر اللهو والخمر ١٠٦-١٠٧ ، الأخطال في سيرته

ونفسيته وشعره ٣٧٥ ، الأخطال الكبير ١٢٧ .

(٣) فن الشعر الخمرى ٤٦ .

(٤) ديوانه ١٥٣ . وأنظر : الأخطال شاعر بني أمية ٢٢٦ .

(٥) شرح ديوان كعب بن زهير ٤٤ .

كما أنّ الفلّوّ في حرص التاجر على الخمر وإيثاره لها وتشدّد في ثمنها، ممّا سبق إليه الأعشى حين ذكر مما طلة صاحبها وامتناعه عن بيعها مؤملاً الشراء والربح الكثير . قال (١) :

يؤمّل أن تكون له ثمرات فأغلقَ دونها وعلا سوامها
كذلك سبقه الأعشى إلى تشبيه تدفق الخمر بلونها الأحمر من الإبريق بفوران الدم
من الجرح . قال (٢) :

فترى إبريقهم مُسترعفاً بشمول صفقت من ماء شـن
أمّا تشبيه طيب رائحة الخمر بالمسك فقد كان شائعاً في الشعر الخمرى الجاهلي،
عرفه الأعشى وغيره (٣) . قال الأعشى (٤) :

من اللاتي حُملن على الروايا كريح المسك تستل الزكاما
وقال عدى بن زيد (٥) :

كأنّ ريح المسك في كأسها إذا مزجناها بماء السما
هذا إلى ذكره لمعاقرتها في السحر حين يصبح الديك ، ولما لقيته الخمر مسن
تحقيق في دنّها حتى قنيت ، وللونّها الأحمر ، ممّا لا يخفى في الشعر الجاهلي . ولا
نكاد نجد فيها جديداً على ما قاله الجاهليون إلا تشبيهه للخمر بالعدراء (٦) .
واستخدم الشاعر الأسلوب القصصي في هذا الوصف ، فقد حدّد الزمان الذي
استقبل فيه الشراب مع نديمه الجواد :

نازعت طيب الرّاح الشمول وقد صاَح الدجاج وحانت وقعة السّاري
والمكان الذي شربا فيه :

في بيت منخرق السّربال معتمل ما إن عليه ثياب غير أظمار

(١) دوانه ١٩٧٠ . وانظر : فن الشعر الخمرى ٥٠ ، الأطل شاعر بني أمية ٢٢٥ ،

الأطل في سيرته ونفسيته وشعره ٥٧١ .

(٢) أنظر : الأطل شاعر بني أمية ٢٢٤ .

(٣) أنظر : فن الشعر الخمرى ٥٥ .

(٤) ديوانه ١٩٧٠ .

(٥) أنظر : الأطل شاعر بني أمية ٢٢٧ ، الأطل في سيرته ونفسيته وشعره ٥٧٣ .

(٦) أنظر : تطور الخمريات ١٥٧ .

وحلل المشاعر والميول ، فقد عرض لبائع الخمر العليج عرضاً وفق فيه إلى تحليل نفسيته الماكره التي تطبقت بطباع الربح والجشع ، مختاراً لذلك مجموعة من الألفاظ المعبرة التي تحمل الخبث والمكر والطمع ، في : ضنت ، غيّ البيسج ، مكار . وتحمل الحزن والهم والأسى ، في : خليج خصل ، نكيب بين أقمار . هذا إلى ما في هذه الأبيات من سرد للأحداث والأوصاف ، يدفع بالقص الخمرى إلى الأمام في تاريخ الألب السربي (١) .

وأقام الأخطل على الممانى الخمرية القديمة في الأبيات التي افتتح بها لاميته في هجاء رجل من شيبان ، فإنه أظهر فيها ولعه بالخمر المعتقد التي ظلت في خابيتها تغلي حتى صفت وخلصت . وتأنى في عرض مجلسها ، فوصف الزقاق والأباريق ، والندامى الذين التقوا حولها وعاقروها سرورين فرحين (٢) . قال (٣) :

عزّ الشراب فأقبلت مشروبة هدر الدنان بها هدير الأفحل (٤)
وتفطت أيامها في شارف نقلت قرائنه ولما ينقل (٥)
وتروى القلال بجانبيه كأنها قلّس يسفن فروج قرم مرسل (٦)

- (١) أنظر : الأخطل الكبير ١٢٨ ، الأخطل شاعر بني أمية ١٧٣ ، الأخطل في سيرته ونفسيته وشعره ٣٧٥ ، فن الشعر الخمرى ١١١ ، شعر اللهو والخمر ١٠٧ .
- (٢) فن الشعر الخمرى ١١٥ - ١١٦ ، مقدمة القصيدة السربية في الصرا الأموى ٣٠ .
- (٣) شعر الأخطل ٥٣٧/٢ .
- (٤) عز : غلا . الدنان : جمع الدن وهو ما عظم من الرواقيد ، مستوى الصنمة ، في أسفله كهيئة قوثر البيضة ، وهو عربي صحيح . والهدير : صوت الهياج .
- (٥) تفطتها : شدة غليانها . الشارف : الخابية القديمة القوية . وقوله : "نقلت قرائنه ولما ينقل" أي أن هذه الخابية أبقيت بعد الكلّ ولم تستق خمرها ، وذلك أجود لمتقها .
- (٦) القلال : جمع القلة وهي العجرة والكوز الصغير . القلص : جمع القلوص وهي الناقة الشابة . يسفن : يشمن . الفروج : ما بين القوائم . القرم : الفعل الذي يودع من الركوب والعمل للفحلة . والمرسل : الذي أرسل في الشول للضراب .

وكانَّ أصوات الفؤاة تَعَوُّه أصوات نَوْحٍ أو جَلَّاجٍ عَوَّكَل (١)
 حتَّى تَصَبَّ ما وءه عن جِلْفِه ضمَّ المَقْدَمَ سَحْبِلِي الأسفل (٢)

فالأخطال منذ المطالع يفاخر بأنَّه يشرب الخمر في وقت يفتقد لها فيه غيره لأنَّه لا
 يتدكَّن من شرائها ؛ فهي خمر معتقة من صنف مختار ، لاقت كلَّ عناية وتعقيق حتَّى
 اضطربت في دتِّها وصوتت ، وكانَّ غليانها هدير الفحل . وعندما قُدِّمت في المجلس ،
 ووضع دتِّها الكبير وتناثرت القلال من حوله مشبهة النوق الصغار المطيفة بفحل
 ضم ، أقبل مع أصحابه يعبئون منها بفرج غامر اشتدَّ فيه ضجيجهم وجلببتهم ، فكانوا
 أشبه بالنساء اللاتي أقمن مأتما للنواح والصياح ، وكانَّهم عوكل المرأة المشهورة
 بكثرة صراخها وشقاقها (٣) .

فالأخطال في هذا الوصف يمد كلَّ البعد عن مظاهر الحضارة متعلِّق بالمظاهر
 البدوية والعناصر الصحراوية والتقاليد الباهلية ؛ فقد شبَّه صوت الخمر فسي
 الخابية بهدير الفحل ، كما شبَّه القلال القائمة حول الدنَّ الضخم بصغار النوق
 القائمة حول الفحل . وهذا الفلَّو بضامة الدن والقلال يُذكرنا بنظرة الجاهلي
 المروعة المندمئة التي تُؤخذ بحجم الأشياء ، وهو ما أَلْفِيناه في شعر الأعشى
 الذي عَظَّم من سعة الدنَّ . أمَّا التدامي فشبه أصواتهم أثناء انشغالهم بالشراب
 بأصوات النساء الناثحات وبمويل عوكل الحمقاء . وكل ذلك يسوقنا إلى الاعتقاد
 بأنَّ الأخطال لم يتطَّبع بطباع الحاضرة بالرغم من إقامته فيها زماناً فتشبيهاً به
 كلِّها بدويَّة مفرقة في البداوة (٤) . وأيضاً ، فإنَّه في هذا الوصف لم يتخفَّف
 من فغامة أسلوبه وصمويته ؛ فالأبيات مليئة بالألفاظ الجزلة الفاضلة ذات
 المخارج المتنافرة التي لا تتولَّد منها نغمات حلوة (٥) ، من مثل : هدير ،
 الأفحل ، تفيظت ، قُلص ، قَرَم ، جَلَّاج ، عَوَّكَل ، جِلْفِه ، سَحْبِلِي . وهذا ما يجعلنا

(١) النوح : النساء يجتمعن للحزن . الجَلَّاجلة : حدة الصوت . وعوكل : امرأة حمقاء .

كثيرة الشقاق والغلاف .

(٢) الجِلْف : الدنَّ . والسَحْبِل : الواسع .

(٣) أنظر : فن الشعر الخمرى ١١٦ ، مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي ٣١-٣٠ .

(٤) أنظر : فن الشعر الخمرى ١١٦ ، مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي ٣١ .

(٥) أنظر : مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي ٣٠ .

نعتقد بأنها غير متلائمة مع موضوع وصف الخمر الذي يتطلب رقّة في اللفظ، ولا مع بحر الوافر الذي صبّها فيه بتفعيلاته المتلاحقة الرشيقة، ولو أنه استخدم ألفاظاً أخرى تناسب موضوع الوصف لأمكن أن تتولد منها نشأت حلوة .

وعلى نحو ما استعمل الأخطال لأميته السابقة في هجا * رجل من شيبان بذكر الخمر ووصفها، رأيناها أيضاً في رائيته التي مدح بها جدار بن عبّاد التفليبي قد استبدل المقدمة الفزلية بالتشبيب بالخمر، فذكر مباكرتها لها مظهراً شدة افتقانه بها، ووصف لونها وآثارها في الشاربين، وشغف تجارها بها وإيثارهم لها وحرصهم عليها وتمنّهم في بيعها وتأبّيها على الثمن اليسير (١). قال (٢) :

أعاذلّ، ما عليك بأن تربيّني أباكر قهوة فيها احمرار (٣)
تضمنها نفوس الشرب حتى يروحوا في جفونهم انكسار (٤)
تواعدوا التجار إلى أناها فأطلمها على العرب التجار (٥)
فأعطينا الفلاء بها وكانت تأبّي أو يكون لها يسار (٦)

والأخطال في هذه الأبيات لا يزيد على ما يفصل الجاهليون، من زجرهم لتلك المرأة اللاحية التي تلومهم على إيمانهم للخمر وتملّقهم بها، وتخبر للوقت الذي يحتسونها فيه وهو السحر، ووصف للون الذي يفضّلونها عليه وهو الأحمر، وتصوير للآثار التي تتركها في أجسامهم تصويراً لا يبدو التجربة الحسية، فهي تبثّ فيها السكون وتكسر الأجفان، ومن افتخارهم بأنهم يخالون في ثمنها غير آبهيّين (٧)

(١) أنظر : الأخطال الكبير ١٢٨ - ١٢٩ .

(٢) شعر الأخطال ٢٧٧/١ .

(٣) القهوة : الخمر الحادة التي تسخّح صاحبها من الطعام .

(٤) تضمنها الشرب : أقاموا على معاقبتها .

(٥) التجار : بائعوا الخمر، والشرب تطلق كلمة تاجر على بائع الخمر، وكان هؤلاء

التجار يدورون على القبائل ويستطون في ثمن خمورهم . وأناها : بلوغها .

(٦) تأبّي : تتأبّي أي تمنّ عن البسّ . ويسار :

زيادة في الثمن .

(٧) أنظر : تطور الخمرات ١٥٦ .

ولا نراه في مقدمة قصيدته البائية في هجا * بني هوازن يأتي بجديتند،
يقول (١) :

بأن الثباب وربما علّته	بالفانيات وبالشّراب الأذهب (٢)
ولقد شربت الخمر في حانوتها	ولعبت بالقينات كلّ الملمب (٣)
ولقد غدوت على التجار بمسيح	هرّت هواذله هريز الأكلب (٤)
لذيّ تقبله النعم كائنا	مُحت ترائبه بماء منهب (٥)
لباس أردية الملوك يروقه	من كلّ مرتقب عيون الرّيب (٦)
ينظرون من خلل الستور إذا بدا	نظر الهجان إلى الفنيق المصعب (٧)
خضلا الكياس إذا تشّنت لم يكن	خلفاً موعده كبرق الخلب (٨)

(١) شعر الأخطال ٨٨/١ - ٩٠ .

(٢) علّته : شغلته ولهيته .

(٣) الحانوت : معروف ، وقد غلب على حانوت الخماره وكانت العرب تسمي بيوت
الخمارين الحوانيت . والقينات : جمع القينة وهي الأمة المنية .

(٤) المسمح : الذي يجود بسخا . وهرت : نبحت .

(٥) تقبله النعم : بداعليه واستبان فيه . الترائب : عظام الصدر . والمذهب :
الممزوج بالذهب ، يريد بهذا : " محمد بن عبد الله بن الصباس وهو المذهب .
كان أحسن الناس وأسخاهم وهو الذي مدحه الأخطال ، فقصي عن الأخطال ألف
دينار . ركب فرسا فصرعه فمات " . (جمهرة النسب ١٠/١ ، وانظر : زهر الآداب
٧٣/١) .

(٦) المرتقب : المنظر . والربرب : القطيع من بقر الوحش وقيل من الظبا . لا
واحد له ، وعنى به النساء .

(٧) الهجان من الإبل : الناقة الأدما . وهي الخالصة اللون والمتق . الفنيق :
الفحل الذي يودع من الركوب والممل للفحلة ، والمصعب كذلك .

(٨) الخضل : الندي . الكياس : جمع كاس بتسهيل الهمز . تشّى : دخل في الشتا .
الثلث : الندر . والبرق الخلب : الذي لا غيث فيه كأنه خادح يومض حتى
تطمع بمطره ثم يخلّفك .

وإذا تضرورت الزجاجة لم يكن عند الشراب بفاحش متقطّـب^(١)

فالأخطـل في هذه الأبيات يعرض لمعظم المعاني المتداولة في التفني بالخمروالفخر بالاعتلاق إلى الحانات ووصف مجلس الشراب ، من معاينة للقيان وتمتّع بالفانيات ومعايرة للخمـر^(٢) ، وامتداح للنديم الطريف الذي يروى الحسان والجواد الذي يهين المال ويبذله حين يحرس عليه الآخرون ويضنون به ، والسّـمـح الذي يجلس للشراب غير عابس ولا متقطّـب .

ولا نعتـم أن نُبـصر التجديد في غمريات الأخطـل ، فها هو ذا يتحدّث عن الخمر حديثاً مستقلاً في قصيدة كاملة ، يظهر فيها تأثره بواقع الحضارة الجديدة أو الدين الجديد ، ويبعدو فيها عتوّه وطيشه بحيث نراه مستغفراً بالدين الجديد^(٣) هازئاً بالمحرّمات ساخراً بالورعين الذين يُذكرون معايرة الخمر ويلومون متعاطيها^(٤) : قال :

شربنا فمتنامية جاهلية	مضى أهلها لم يعرفوا ما محمّد
ثلاثة أيام فلما تنبّهت	حشاشات أنفاس أتنا تأسرّد ^(٥)
حيينا حياة لم تكن من قيامة	علينا ، ولا حشر أتناه موعـد
حياة مراض ، حولهم بمدما صحوا	من الناس شتى : عاذلون وعُـود ^(٦)
وقلنا الساقين : عليك فعّد بننا	إلى مثلها بالأس فالعُود أحمد
فجاء بها كأنما في أنائسه	بها الكوكب المريخ تصفو وتزبد ^(٧)

(١) التماور : التداول . الفاحش : السيء الخلق المتشدّد البخيل . والمتقطّـب : المابس .

(٢) أنظر : مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي ٩٥ .

(٣) أنظر : فن الشعر الخمرى ١٠٦ - ١٠٧ ، شعر اللهو والخمر ١٠٠ - ١٠١ ، الأخطـل الكبير ٢٥٥ .

(٤) شعر الأخطـل ٧٣٢/٢ - ٧٣٣ .

(٥) الحشاشات : جمع الحشاشة وهي بقية الروح . والأنفاس : جمع لنفس .

(٦) العاذلون : اللاثمون . والعود : اللاتي يمدن المريض .

(٧) المريخ : كوكب من النّـس في السماء الخامسة ، يضرب لون نوره إلى الحمرة . وتزبد : تفور .

تفوح بما يشبه الطيب طيبه إذا ما تعاطت كأسها من يد يد (١)
تميت وتحيي بعد موت وموتها لذيد ومعياها الذ وأحمس

فالأخطل وصحبه ماتوا على دين الجاهلية عندما سذكروا ، ولبثت ميتتهم ثلاثة أيام ، فلما صحوا وارتدت إليهم بقيّة حياة ألفوا أنفسهم لا في الحشر بل بين الناس من لائمين وعائدين ، فطالبوا من ساقبهم أن يأتيتهم بالخمير التي تسيدهم إلى حالة الأمل ، فأتاها الساقب بخمير مشقة طيبة . ثم التفت الشاعر إلى مفعول الخمر ، واصفاً المتع التي يجنيها الشاربون في تنقلهم بين الحياة والموت ، فهم يموتون ويحيون ولكنهم في موتهم يفسرون بالذائد ، وإذا بعثتهم الخمر من جديد أفاضت عليهم بما هو الذ وأحمد (٢) .

واضح أن الشاعر أدخل إلى معادلة شعره الخمر في هذه القصيدة معانسي جديدة أفادها من واقع الدين الجديد ، بحيث غدت الخمر عنده خروجاً على نواهي الشرّ والمحرمات ، فقد ذكر إنكار المتديّنين لشربها ولومهم لمتعاطيها ، وتحدث عن البعث والحشر والقيامة وما إلى ذلك (٣) . فيما ألفتناه مقلداً للجاهليين وبخاصة النخعي ، في وصفه لطيبها الفواح ، وفي تشبيهه لشعاعها بالذوكب المربخ الشديد التآلق (٤) ، حيث يقول (٥) :

كان شعاع قرن الشمس فيها إذا ما فت عن فيها الختام
ومهما يكن ، فالقصيدة تضم أبياتها وحدة فنيّة قصيدة ، تظهر من تخصيص القصيدة لموضوع واحد وهو الخمر وهذا ما لم تكن نشهده في الجاهلية ، ومن ترابط معانيها بسبببّة وإحكام ، فقد استهلّها بذكر ميتتهم الجاهلية ، وانثنى إلى بعثهم واستعادتهم للحياة ، ثم انتهى إلى ذكر ميتتهم الجديدة ، كلّ ذلك في سرد

(١) الماء مهنا : بخار الخمر وما يتطاير منها .

(٢) أنظر : فن الشعر الخمرى ١٠٧ ، الأخطل الكبير ١٢١ .

(٣) أنظر : فن الشعر الخمرى ١٠٧ ، شعر اللهو والخمر ١٠١ .

(٤) أنظر : فن الشعر الخمرى ١٠٨ .

(٥) ديوانه ١٩٧ . وانظر : الأخطل شاعر بني أمية ٢٢٥ ،

الأخطل في سيمتسه ونفسيته وشعره ٥٧١ .

تتميّ في الروح القصصيّة . وهو سرد ليس للأخطال فيه فضيلة الإبداع والابتكار ، لأنّ السرد القصصيّ في الخمر وفي غيرها من المعاني عرف في الجاهلية وبخاصة في شعر الأعشى وامرئ القيس . إلّا أنّ القصة التي ألّم بها الأخطال في خمريّته هذه تختلف عن قصة الخمر الجاهلية ، لأنّها تجري على ما جاء به النبيّ محمد (ص) من تعريم لمعاقر الخمر ومن القيامة والعشر حيث يحاقب المذنبون ويثاب الصالحون . وهذه الداحية تظهر التجديد في معاني خمر الأخطال (١).

ولمّله قد اتضح الآن أنّ الخمر في شعر الأخطال ظلت تقليدية ، فهي ترد غالباً ضمن قصيدة المدح أو الهجاء وفي مطالعها واستهلالاتها ، وربما أفرد لها مقطوعة خاصة وطرقها لذاتها على أنّها فنّ مستقل كما رأينا في (الميتة الجاهليّة) (٢) . ويبدو التقليد كذلك فيما يشيع في خمرياته من تفكّك في الأبيات واستقلال بعضها عن البعض الآخر ، دون أن يكون ثمة توليد أو صيرورة من معنى إلى آخر ، فهي تجمع معاني شتى وليست تلمّ بقضية من القضايا ، وذلك ما نتحقّقه في الشعر الجاهليّ (٣) . إلّا أنّ النزعة الاتباعيّة أشدّ ما تبدو في خمرياته من خلال الأمور التالية :

١ - نقله للمعاني الجاهلية المتداولة التي تقف عند حد وصف مظاهر الخمر وآثارها الخارجية بالنظر إلى مجلسها وآنيّتها ومعانها وطيبها ونشوتها ، دون الوقوف عند آثارها الداخلية في السقول والنفوس ومسّها لها أو عبثها بها وهيّطرتها عليها أو تركها فيها ما تترك من أصداء واهتزازات . وقد يستكمل الأخطال عدّة الوصفية بالسرد القصصيّ والإخبار ، ولكننا لا نكاد نلمح جديداً لديه إلّا فيما أفاده من معان دينية مبتسرة وذلك في قصيدته (الميتة الجاهلية) (٤) .

(١) أنظر : فن الشعر الخمرى ١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) أنظر : فن الشعر الخمرى ١١٩ ، شعر اللهو والخمر ١١١ ، الشعراء مسن مخضرمي الدولتين ٢٩٦ .

(٣) أنظر : فن الشعر الخمرى ١٠٦ و ١١٩ .

(٤) أنظر : فن الشعر الخمرى ١١٩ و ١٦٣ ، شعر اللهو والخمر ١٠١ ، الأخطال في سيرته ونفسيته وشعره ٣٧٠ ، الشعراء من مخضرمي الدولتين ٢٩٥ .

٢ - تشابيهه وصوره الماديّة الحسيّة التي استمارها من أعماق البيئة الجاهلية القديمة ، فيما ظلت البيئة الأهوية الجديدة المزدخرة حواليد وكأنتها غير موجودة ، فهو يشبه قُرْب الخمر بالمبيد السودان ، ودبيب الشمر بدبيب النمل على نقا الرمل ، وصوتها في الدن بصوت الفحل ، وقلالها بالنوق الضفار . فالخيال الذي يستمير هذه الصور لا يزال خيالاً أعرابياً جاهلياً مُشعباً أجوا .
البادية (١) .

٣ - أسلوب القوى الشديد الأسر ، الذي يتميّز في استخدامه للألفاظ الجزلة الفخمة ، مثل : شاميات ، مُرْعَبَل ، يَتَرَكَل ، جَرَّار ، الأَبْجَل ، جائفة ، الأَقْل ، شارف ، قُلص ، فروج ، قَرَم ، جَلَّجِل ، حِلْفَد ، سَحْبِلِي ، الهِجْيان ، الفَنِيق ، المُصَّيب . وهذه الألفاظ فضلاً عن أخرى تضاهيها فخامة ، تؤكد أن أسلوب الأخطل في غمرياته هو الأسلوب الجزل الذي يميل إلى التثنيهم غالباً (٢) .

٤ - أوزانه الطويلة الضخمة التي يُضفر فيها معانيه ، كالطويل في : " كأنتسي غداة انتصن للبتن مُسَلَّم " و " شربنا فمتنا ميتة جاهلية " ، والبسيط في : " وشارب مُربح بالكأس نادمني " ، والوافر في : " عزّ الشراب فأقبلت مشروبة " و " أعاذل ما عليك بأن تَرَيَنِي " ، والكامل في : " ولقد شربت الخمر في حانوتها " .

وصف القطامي للخمر :

أما القطامي فقد قلّ وصف الخمر في شعره قلّة ظاهرة ، وآية ذلك أننا لا نجد له في هذا الموضوع إلاّ مقطوعتين اثنتين^١ . ولعلّ السبب في قلّة شعره الخمرى إلى هذا الحد يرجع إلى أن القطامي كان شاعراً مُقِلّاً ، فإنّ مجموع شعره بالقياس إلى شعر الأخطل مثلاً لا يتجاوز الخمس .

(١) أنظر : فن الشعر الخمرى ١١٩ و ١٦٥ - ١٦٦ ، شعر اللهم والخمر ١٠١ ،

المسراة من مخزومي الدولتين ٢٩٥ .

(٢) أنظر : فن الشعر الخمرى ١٦٥ .

ومهما يكن ، فوصف الخمر في هاتين المقطوعتين لا يطرق لذاته على أنه ثن مستقل ، بل يرد ضمن القصيدة التي يجمع فيها الشاعر أغراضاً شتى ، شأنه في ذلك شأن الجاهليين وشأن معاصره الأخطل في عدم تخصيص الخمر بقصيدة أو مقطوعة مستقلة وتناولها عرضاً عبر القصيدة السامة . وهو وصف ترين فيه الممانسي والتشبيهات والصور الجاهلية القديمة الماثورة في أدب الخمر .

ففي قصيدته القائية في الفخر بالقبائل النزارية التي استهلها بإظهار حزنه لتحمل الظمائن وإبداء حسرتة على أيام صباه ، عرض للخمر فأشار إلى تردده مع صحبه على حوانيتها ، وذكر ما كان يجري بينهم وبين أصحابها الماكرين من مساومات على بيعها ، حتى إذا اتفقوا على ثمنها بذلوها لهم وعدوهم أصدقاء دائمين . ووصف خلال ذلك الزقاق وتدفعها بالخمر ، والنشوة التي أصابتهم وجعلتهم يواصلون الشرب ويذثرون من تناول الشواء . قال (١) :

وراح سلاف شمشع التجر مزجها لنحني ، وما فينا عن الشرب صايف (٢)
فصالوا واصلنا واتقونا بما كسر ليملح ما فينا عن البئح كاييف (٣)
فخطوا إلينا شاصيات كأنها من السند مسلوب القميص رواعيف (٤)
فلما انتشينا عدني من صديقه وعاد الصبوح والشواء السدائف (٥)

فالقطامي في هذه الأبيات يرجع الممانسي القديمة التي تناوب عليها الجاهليون واستقامها الأخطل ولا يضيف إليها جديداً ، فخمره شمشعة مزوجة بالما ، مثل خمر عمرو بن كلثوم (٦) ، وصاحبها جشع ماكر يساوم على بيعها ويخالي في ثمنها كما حب خمر الجاهليين وبخاصة الأعشى (٧) ، والشرب مقبلون عليها ليس في ريتهم أن يتحولوا عنها وهو ما رأيناه في شعر الجاهليين الذين يفغرون بشرب

(١) ديوانه ٥٣ .

(٢) نحني : نسكر . صايف : منصرف .

(٣) كئيف : عدل .

(٤) الشاصيات : الزقاق . ورواعيف : أوتافور حين يخرج الشراب منها .

(٥) الصبوح : شرب الفداء . والسدائف : جمع السديف وهو لحم السنام .

(٦) شرح القصائد العشر (للتبريزي) ٣٨١ .

(٧) ديوانه ١٩٧ .

الخمير الضالفة الثمن (١) . أمّا تشبيهه للزقاق بالعبيد السودان المُرّة فذلك مبذول في شعر الخمير الجاهلية منذ الأعشى ، وقد كرّره من الشعراء الأمويين قبل القطامي الأخطل وأبو الهندي (٢) ، فتناوله القطامي كرقم ميت لا خيال فيسميه . وكذلك الأمر في ذكره لفوران الخمير من الرّق (٣) ، وللنشوة التي اعترت الشاربين ، وللوقت الذي احتسوها فيه وهو الغداة (٥) ، ولما تخلّل شربهم لها من تناول للشواء (٦) .

وعلى هذا النحو جرى وصفه للخمير في رائيته في الفخر بربيمة ، فقد بدأها بإظهار الألم الذي يترّج به إثر ترحّل الطمائن . ثم تحدّث عن الخمير حديثاً أعاد فيه معاني الجاهليين وصورهم ولم يستطع أن يحلّق بخياله بعيداً عنهم ، فقد ذكر تمثيها في العظام ، ووصف مزجها بالماء ، وأظهر إيثار التاجر لها وامتناعه عن بيعها إلا بثمن كثير . ثم رأيناها يفتخر بما دُفِئ فيه من ثمن لقاء الحصول عليها ، كما افتخر بمماقرته لها بصبغة نتيان كرام لا يحرصون على المال بل يبذلونه في مأربهم بدلاً لا يباليون فيه لوم الماذلين . ثم انتهى إلى وصف نشوة الخمير التي استبدّت بروءوسهم بتأثير اتصال ممّاقرتهم لها من الفجر حتى الأصيل حين خرجوا من حانوت الخمير واللذة تفرهم . قال (٧) :

وكأس تَسْتِي في العظام سبيئة من الرّاح تملو الماء حتى تُكاثِرُهُ (٨)

(١) تطوّر الخمريات ٦٦ .

(٢) أنظر ص ٣٠٧ من هذه الدراسة .

(٣) أنظر ص ٣١٢ من هذه الدراسة .

(٤) أنظر ص ٣٠٢ من هذه الدراسة .

(٥) أنظر ص ٣٠١ من هذه الدراسة .

(٦) أنظر ص ٣٠٧ من هذه الدراسة .

(٧) ديوانه ٩٣ - ٩٤ .

(٨) سبيئة : مُشْتَرَاة ، يقال : سَبَا : سَبَا

الخمير إذا اشتراها .

- كُمَيْتٍ إِذَا مَا شَجَّهَا الْمَاءُ صَرَّحَتْ نَخَافُ حَائِيَّ عَلَيْهَا يُنْشِئُ نَذْرَهُ (١)
 فَجَاءَ بِهَا بَعْدَ الْإِبَاءِ وَيَمْدَمُهَا بَذَلْنَا لَهُ مَا اسْتَأْمَرَ فِي السَّوْمِ تَاجِرَهُ (٢)
 شَرِبْتُ وَفَتَيَانِ كَجَنَّةٍ عَبَقَ كَرَامٍ إِذَا مَا الْأَمْرُ أُغْنِيَتْ جَرَائِرُهُ (٣)
 فَقُلْتُ اشْرَبُوا حَيًّا كَمَا اللَّهُ رَاسِبُكُمْ عَوَازِلْنَا مِنْهَا بَرِيٌّ نُبَا كَسْرَهُ (٤)
 فَلَمَّا انْتَشَيْنَا وَاسْتَدَارَتْ بِهَا مِنْهَا وَقُلْنَا اكْتَفَيْنَا بَعْدَ عَفَقٍ نُظَامِرَهُ (٥)
 وَرُحْنَا أَصِيلًا نَجْرَ ذِيُولِنِيَا بِأَنْعَمَ لَيْلٍ قَدْ تَطَاوَلَ آخِرُهُ

فالمعاني التي نقع عليها في هذا الوصف مكرورة في وصف الخمر ، عرض لها الجاهليون قديما ، كما عرض لها الأخطل وغيره من معاصريه ، وبخاصة حين يصف تمشيها في العظام (٦) ، ويذكر حرص التاجر عليها وتمنعه في بيعها ومنالته في ثمنها (٧) . وحين يفتخر ببذلهم ثمنها غاليا في سبيلها (٨) ، أو يفتخر بمعاشرته للقوم الكرام في مجلس الخمر (٩) ، وحين يتحدث عن النشوة التي اعترتهم وطوفت

- (١) شجها الماء : غلاها ومزجها . الحائي : صاحب الحانوت أي دكان الخمر . وقوله : ينادره ، أي أن صاحب الحانوت نذر عليها ألا يبيعها إلا بثمن كثير .
 (٢) الإباء : أراد امتناع التاجر عن بيعها . السوم : عرض السلعة للبيع . تاجره : الهاء فيها راجعة إلى الخمر .
 (٣) عبقر : موضع بالبادية كثير الجن ، يقال في المثل : كأنهم جن عبقر . عي بالامر وعيي : عجز عنه . والجرائر : جمع الجريرة وهي الجناية والذنب .
 (٤) العواذل : اللاثمون . البري : التراب ، يقال في الدعاء على الإنسان : بفيه البري كما يقال بفيه التراب ، والمباراة : المباراة والمسابقة .
 (٥) عَفَقَ : أكثر الرجوع إلى الماء ، ومثلها كلمة (غَفَقَ) بإعجام الميم .
 (٦) أنظر ص ٣٠٨ من هذه الدراسة .
 (٧) أنظر ص ٣١٢ من هذه الدراسة .
 (٨) أنظر ص ٣١٥ من هذه الدراسة .
 (٩) أنظر ص ٣١١ من هذه الدراسة .

برؤوسهم من كثرة شرب الخمر (١) .

وربما رأينا القطامي في هذه الأبيات يمد إلى نسخ بعض معاني الأخطال معاصره في الزمان ومجاوره في المكان وابن قبيلته تغلب . فإذا قارنا بين قول الأخطال : "تدب ديباً في العظام كأنه" (٢) وبين قول القطامي : "وكأس تمشي في العظام سبيئة" ، أو بين قول الأخطال "فأعطينا الفلاء بها وكانت" (٣) وبين قول القطامي : "بذلنا له في السوم ما استام تاجره" ، رأينا القطامي ينقل معاني الأخطال نقلاً صريحاً دون أن يحاول تنمية أبعادها ولا إثراء أطرافها بدقائق غيرها .

فوصف القطامي للخمر تقليدوً ، عرض له في مقطوعتين اثنتين بثهما في ثنايا قصيدتيه في الفخر بقبائل نزار وبربيعة خاصة . وعني فيه بالنظر إلى شكل الخمر الخارجي ، وطمع تجارها ، والحال التي يبدو عليها من يشربها ، وما إلى ذلك من أوصاف تقليدية مقررّة ، دون أن يتطرق إلى فعلها في عقول الشاربين وما تبعثه في نفوسهم من طرب ، مما سبق إلى بعضه الأعشى وما أصبح جزءاً من الخمرية العباسية (٤)

ونظرة سريعة إلى وصف الخمر عند شاعري تغلب : الأخطال والقطامي ، تظهر بصورة واضحة أنّ كلا الشاعرين تعرّضا - غالباً - لهذا الموضوع تعرّضاً عابراً من خلال القصيدة العامة التي تجمع موضوعات شتى ، وأنهما لم يتجاوزا في وصف الخمر بيان مظاهرها وآثارها الخارجية الحسية ، فتحدّثا عن وقعها على الحواس الإنسانية من بصر وشم وذوق حديثاً فيه استيفاء وإسراف ، فصورا أشكال آنيتهما من حوَاب وقرب وزقاق ووصفا رائحتها وطعمها وغير ذلك ممّا تتنبّه له الحواس ،

(١) أنظر ص ٣٠٢ من هذه الدراسة .

(٢) أنظر ص ٣٠٦ من هذه الدراسة .

(٣) أنظر ص ٣١٥ من هذه الدراسة .

(٤) أنظر : السراة من مخزومي الدولتين ٣٠٢ .

ولكنّهما لم يتطرّقا للحديث عن آثارها الداخلية في النفوس والعقول ، مما يؤكد أنّهما تناوبا على المعاني القديمة التي تتردّد في أدب الخمر عند الأعشى وغيره . كما أنّهما استخدما في وصفها الأوزان الطويلة الضخمة ، فقد قدّما الأخطال كما رأينا - في أوزان : الطويل والبسيط والوافر والكامل ، وقدّما القطامي في المخطوعتين المتقدمتين في وزن الطويل . هذا إلى ما اتّسم به وصفها عند كلا الشاعرين من إيجاز واقتصاب وإن كان الأخطال أكثر إطالة في تصويرها من القطامي ، وإلى ما اتّصف به أسلوبهما ههنا من فخامة العبارة وجزالة اللفظ وإن كان أسلوب القطامي أرقّ وأسلم مع ما في أسلوب الأخطال من كثرة الصور والتشبيهات

ومعنى ما قدّمنا أنّ وصف الخمر في شعر الأخطال والقطامي في بيئة الجزيرة الفراتية عصر بني أمية ، جرى على طريقة الجاهليين . وآية ذلك أنّهما استمدا فيه من معاني الجاهليين وتشبيهاتهم وأساليبهم وأخيلتهم ، دون أن يحاولا تحويرها أو تطويرها أو يلائمابين فنيهما الخمرى . وواقع حياتهما المتحضرة المترفة ، ودون أن ينميا الوصف ويصقلاه بالإكثار من النظم فيه أو بإفراده في قصائد تامة تستوفي فيها جزئيات الموصوف ودقائقه .

(١) رثاء السادة والأمراء والخلفاء

عرف العرب الرثاء منذ العصر النبوي ، وكان شعرا وهم - في الغالب - لا يفرّدون له قصائد خاصة بل يتعلّلون له قطعة في مطولاتهم التي يضمنونها كثيرا من الموضوعات ويستهلونها بوصف الأطلال أو بالفرح ، ثم ينتنون إلى تأبين القتلى والموتى من أبطالهم وساداتهم تأبيناً لا يكتفون فيه بتصوير مشاعرهم الحزينة بل يضيفون إليها وصفا لمحاسنهم وخلالهم وذكرى لمناقبهم وأفعالهم ، ويجمعون إلى ذلك تمزية لأهل المرثيين وقبائلهم من خلال الحديث عن هلاك أقوى الحيوانات وأبعدا عن أسباب الموت ، وقد يضمنون هذا التأبين استنزالا للفيث على قبور المرثيين وهجاء لائغا لخصومهم وفخرا بحشيرتهم (١).

ومع أن الرثية الأموية ظلت - في الغالب - تجرى على هذا النحو في شكلها ومضمونها (٢) إلا أن شعراء الجزيرة الغراتية ارتقوا بها ، فلم تعد جزءا من قصائدهم بل أفردوا لها مقطوعات خاصة ، وأسقطوا منها أسلوب التمزية البدوي ، وضمنها بعضهم معاني جديدة أفادوها مما لابس حياة المرثيين أو حياة آبائهم من ظروف العصر الإسلامي وأحداثه ، فيما استمرّ معظمهم يضيفون إلى تصوير أحزانهم إشادة بآثار المرثيين ومناقبهم وثناء على أعمالهم وصفاتهم السرية من جود وسيادة وعراقة منبت .

فقد أفجع موت (٣) عبدالرحمن بن خالد بن الوليد كعبا بن جميل التغلبي ، لأن كعبا كان كثير المدح له في سياحه إذ كان عبدالرحمن بطالا شجاعا كأيّيه عظيم القدر في أهل الشام . شهد من معاوية صفين ، وولي له الجزيرة (٤) . وزعموا أن

(١) أنظر: الرثاء ٨٧٧ ، العصر الإسلامي ٢٠٧ و ٢٠٩ ، الشعراء من مخزومي الدولتين

• ٣٧٧

(٢) الرثاء ٩ ، العصر السلافي ٢١٠ ، الشعراء من مخزومي الدولتين ٣٧٧ .

(٣) روى في سبب موته أن رجلا يقال له ابن أثال وكان رئيس الذمة بأرض حمص سقاه شربة فيها سم فمات . وزعم بعضهم أن ذلك كان بأمر معاوية ، لأن عبدالرحمن كان قد

عظم أمره عند أهل الشام فغافه معاوية (البداية والنهاية ٣١٨) .

(٤) نسب قريش ٣٢٤ ، جمهرة أنساب العرب ١٤٧/١ ، البداية والنهاية

• ٣٨/١

معاوية بن أبي سفيان قال: لكذب بعد موت عبد الرحمن: "ليس للشاعر عهد! لقد كان عبد الرحمن لك صديقا، فلما مات نسيت". قال: "ما فعلت، ولقد قلت فيه بعد موته: (١)

ألا تبكي وما ظلمت قريش بإعوال البكاء على فتاهها (٢)
فلو سُئلت دمشق وبعلبائ وخص من أباح لها عمامها
سيف الله أدخلها المنايا وهن منهنها وخور قرائها (٣)
وأنزلها معاوية بن حرب وكانت أرضه أرضا سواها

فموت عبد الرحمن بن خالد أصاب كعبا بحزن مبرح حتى إنه طالب إلى قوم الميت أن يذرفوا الدمع مدرارا أسفا لهلاكه وجزعا على فقده، فهو فتى شجاع وبطل صنيعة، وهو ابن أعظم قادة الفتى الإسلامي الصحابي الجليل خالد بن الوليد الذي قاد الجيوش الإسلامية وحارب أهل الشرك من الروم في الشام، فذكر حصونهم وفتح مدنها وقراهم ونشر فيها راية الإسلام.

ويحق المرء إحصاء غامضا بأن الشاعر يغمره شعور صادق تجاه المرثي، إلا أنه قصر في التعبير عن هذا الشعور، فقد اقتصر رثاؤه على الطالب إلى قريش أن تنتحب وتعمل في مطابخ الأبيات، وخص باقيها بالإشادة ببطولة والد المرثي وبسالته وتمجيد أعماله وفتوحاته. فهي أقرب إلى أن تكون في رثاء الوالد منها في رثاء الابن، بل هي أدنى أن تكون ثناء خالصا لا نشيجا لأن الشاعر في معظمها يتبدى كما لو كان يمجّد حيا ولكن بأسلوب فيه بعض الأسى.

ومهما يكن فمعاني الأبيات جديدة كل البدة، وليس بينها وبين معاني الرثاء القديم التي تتمثل بإبراز خلال المروءة التقليدية للمرثي مما تعارف عليه الجاهليون من كرم وشرف وسوء أدب صلة، إذ ذهب الشاعر إلى تمجيد المرثي عن طريق الإشادة بما قدم أبوه للإسلام وللمسلمين في عصر الفتوحات من أعمال مجيدة خلّدت اسمه في ذاكرة التاريخ.

(١) نسب قريش ٣٢٤ - ٣٢٥.

(٢) الإعوال: رفع الصوت بالبكاء والصياح.

(٣) سيف الله: خالد بن الوليد أبو المرثي.

وروى لكعب في رثاء السادة (١) :

برابية الثرثار قبر ترابيه
رأت تغلب العليا عند مصابه
وودت نجوم الجود يوم حملته
منافسة منها عليه وفتنة
وما بخلت عيناى بالدمع بعده
يضم الثمام الجود والشمر والبدر
عيون الأعداء نحو أعينها غزراً (٢)
على النمش لو كانت بأجمعها قبراً
على التراب أن تمحو المآثر والفرا
على ماله لا ذكرت لها عمراً

فكعب يرثي فيها شريفاً من أشراف قومه بني تغلب وهو عمرو الذي كان له قدرة
ومكانته فيهم ، ولذلك تنقّى بموته أعداء القبيلة ، فيما راح الشاعر يسكب
الدمع الفزير عليه ويبكي مآثره وفنائه التي دفنت بدفنه .

وبين أن الأبيات التي نعاها بها أقرب إلى الرثاء البدوي منها إلى الرثاء
الإسلامي ، فهو يتفجّع عليه ويستسقي لقبزه ، ويخصي محامده وصفاته السرية من
جود وكرم وجمال محباً ، وبين اشتفاء أعداء القبيلة بموته ، وبإلغى كالأهلين
في تبليان المنزلة التي كانت له في قومه ومقدار خسارتهم فيه ، فيدعى أن أشرفهم
وأهل الساحة فيهم ودوا يوم دفنوه أن يكونوا مثوى له .

وأثار موت الخليفة الأموي الثاني يزيد بن معاوية في نفس الأخطل التغلبي
أسى عميقاً ، نجد صداه في هذه الأبيات التي لم ينظم في حياته المأوية الحافلة
غيرها في الرثاء ، فكأنما لم يهزه موت أحد من أهله ومحبته وكبراء عصره مثل
ما هزه موت يزيد (٣) . قال (٤) :

لعمري لقد دلى إلى اللحد خالد جنازة لأبي الزناد ولا عَمْر (٥)

(١) الحماسة البصرية ١١٢/٢ .

(٢) الخزر : جمع الخزر وهو الذي ينظر بموخر عينه .

(٣) أنظر : الأخطل شاعر بني أمية ٧٥ .

(٤) شعر الأخطل ٥٧١/٢ .

(٥) خالد : هو خالد بن يزيد بن معاوية . كبا الزند : لم تخزن ناره . والشمر :

الذي لم يجرب الأمور .

من سادات الجزيرة (١) إلى القول بأن الحياة في الجزيرة بعد موت عبدالواحد لا تساوي شيئاً . قال (٢) :

ما خيرُ عيش بالجزيرة بعدما عشر الزمان ومات عبدالواحد
مات الندى والجود معه وضمنا قبر الكريم الأريحي الماجد (٣)
فصب الرجال الصالحون وبقيت ضعفى الرجال لدر الزمان الفاسد

واضح أن عبیدالله يبكي في المراثي فضائل الكرم والشرف والمروءة والسيادة، وهي نفس المصاني التي غلبها الجاهليون على أشرافهم بعد مماتهم ، كما أن الشاعر يخالي - على عادة الجاهليين - فنونا من الغلو في إبراز فضائل المراثي ، إذ يزعم أن المراثي كان يتصف بها من دون سائر الناس ، وآية ذلك أنها ماتت بموته وأن أعداء لن ينهي لها من بعده .

ولعله قد تبين أن هذه الصورة من رثاء السادة والأشراف والشلفاء قد تطورت في شكلها ومضمونها عند شعراء الجزيرة ، إذ جعلوا مراثياتهم فسي مقطوعات لا في مطولات ، وأسقطوا منها بعض الأجزاء البدوية مثل التمزية ، وأخذت تتردد في بعضها مكان جديدة مفادة من ظروف العصر الإسلامي وأحداثه ، وعففت فيها نفخة العزن . فيما استمر الشعراء يركزون فيها معاني الرثاء القديم من التنويه بفضائل المراثي ومحامده والمبالغة فيها . فهذه الصورة من الرثاء ليست نواحاً ولا نشيجا بل هي أدنى إلى الثناء منها إلى العزن الغالض والشجي المصق ، لأن الشعراء كانوا يضيفون فيها كل مظاهر المدح على مآثر المراثي ومذاقبه ، وكانهم أرادوا أن يصوروا خسارة الناس فيه وبيان تعمق الأثران لنفوسهم تجله ومعارلة ذكراه بتمجيده وبيان فضائله التي ماتت بموته .

(١) عبدالواحد: وعبدالواحد بن أبي سعد بن قيس بن وهب بن وهبان بن قباب بن حجير ابن عبد بن مميم بن عامر بن لوثر ، ولي البرقة وعقبه بها ، وهو والد رقية التي يشبب بها عبیدالله بن قيس الرقيات (جمهرة أنساب العرب ١/ ١٢٢) ، وانظر : ديوان عبیدالله بن قيس الرقيات ٧٩ ، الأغاني ٤/ ١٦٥ .

(٢) ديوانه ٧٩ .

(٣) الأريحي : الذي تأخذه الأريحية والزهو فيهتز للكرم والمعروف .

(٢) رثاء الإخوان والأهل

ومضى شمراء الخوارج وشواعرهم الجزريون يرثون في أبيات معدودات من يقتل من إخوانهم في المنصب ومن أدلهم في صراعهم الدائر مع جيوش الدولة . فمن الحق أن أعداداً كبيرة من الخوارج كانوا يقضون في تلك الغروب خدمة لعقيدتهم وفي سبيل مبادئهم التي خرجوا من أجلها ، بل يحسن القارئ لشعرهم أن طالع الموت والاستشهاد في سبيل الله كان أمنية كل فرد منهم ^(١) . يقول بهلول — ابن بشير :

من كان يكره أن يلقي منيته فالموت أشهى إلى قلبي من الفصل
فلا التقدّم في الهيجا يُجَلِّني ولا الحذار يُنجِّني من الأجل
فهم يقبلون على الموت في رضا وطعاً نينة ، لأن ذلك يحقق لهم اللحاق بالمالأ
الأعلى ولقاء الإخوان الأبرار الذين تقدّموهم في جنات الخلد والنسيم المقيم .
يقول أحد أصحاب الضحّاك ^(٢)

يا نفس من طول الحياة مُلِّني وعيشك المنقطع المولِّني
عليّ ألقى عاصماً لمُلِّني في جنة عالية رطُل ^(٤)
وبَيْهَساً وكَهَسَ المُلِّني ^(٥)

(١) أنظر : شعر الخوارج ٣ ، الفرق الإسلامية في الشعر الأسوي ١٣٧ ، المصنوع الإسلامي ٣٠٣ .

(٢) أنساب الأشراف المخطوط ٢/٢٦٤ ، شعر الخوارج ٣ . وبهلول بن بشر خرج بالجزيرة أيام هشام بن عبد الملك ، فتكاثر عليه جند الدولة فقتلوه مع أصحابه عند الكحيل بالجزيرة (أنظر ص ٧٢ من هذا البحث) .

(٣) شعر الخوارج ١١٢ . ومن المعروف أن الضحّاك بن قيس الشيباني قاد أكبر ثورة لخوارج الجزيرة في أخرة من العصر الأموي ، فسار إليه الخليفة مروان الثاني من " حرّان " والتقى بنواحي كفرتوثا من الجزيرة فقتل الضحّاك (أنظر ص ٧٣-٧٤ من هذا البحث) .

(٤) عاصم : هو عاصم بن الحدثان (أنساب الأشراف المخطوط ٢/٣٦٠) .

(٥) كهس : هو كهس بن عثمان الرفاعي من بني يشكر (أنساب الأشراف المخطوط ٢/٣٦٩) .

فهم يستعذبون الموت بل يتمجلونه حتى تكاد رغبتهم فيه تطفئ على رغبتهم فسي تحقيق أهدافهم ، ويستطيلون الحياة ويحصرصون على التخلص منها ورفض متمها ولذا نلنا (١) .

وهكذا تبدو الحياة للخارجي ذميمة فيزهد فيها ، ويقبل على حياض الموت الزوام دون خوف أو وجل ، حتى يلحق بأعبائه الذين سبقوه ويفوز برضوان ربه وجناته .

ومن هنا أصبحنا نجد صورة جديدة للثراء عند شعراء الخوارج ، فهم - في الغالب - لا يبكون في المراثيين خلال المروءة التقليدية التي عهدناها في شعر الرثاء ، لأن قتلهم يحقق سعادة حلموا بها وغاية صبوإ إليها . ولذلك شرعوا يحجّدون قتلاهم ويشيدون ببطولاتهم وتضحياتهم ومواقفهم ، مصوّرين قتلهم تقرباً إلى الله ، ورأسمين تراميمهم على الموت ابتغاء مرضاة الله وطامعاً في الفوز بجناته ونعيمه ، وواصفين رفضهم للحياة الدنيا وتمتعها الزائلة وبمعهم أنفسهم لرهبهم حتى إذا رعدت الحرب بصواعق الموت أقبلوا على الب الشهادة التي تفتح أمامهم أبواب الفرديس (٢) .

وهذا الرثاء وإن كان يتفق مع الرثاء التقليدي فيما يشيع فيه من مشاعر الحزن ، فإنه يختلف عنه فيما يطالب من روح التسليم بالقضاء والإيمان بالقدر الذر هو حقيقة واقعة لا سبيل إلى تخطيها ، والامتناع لإرادة الله وحسن تقبلها ، وتمثل ما أعدّه الله للمقاتلين في سبيل السقيدة من عظيم الأجر وحسن الثواب .

ويبدو لنا من مطالعة الأشعار القليلة التي وصلتنا في هذا الموضوع أن مصر قائد الجماعة كان يثير في نفوس أصحابه أسي عميقاً فيرثونه ، وهذا طبيعي فقائد الجماعة هو رمز وحدتها وقوتها وتماسكها ، ومصرعه يهدد كيان الجماعة ويصدع بناءها لأن المصاب يفقده محلّ بجماعته كلها .

(١) أنظر: الفرق الإسلامية في الشعر الأموي ٤٣٧ - ٤٣٨ ، العصر

الإسلامي ٣٠٧ ، شعر الخوارج ٧ .

(٢) أنظر: العصر الإسلامي ٣٠٤ - ٣٠٥ ، الفرق الإسلامية

في الشعر الأموي ٤٤٧ .

فمنذما قُتل بهلول بن بشر - قائد الخوارج الصفرية الذي حكم في عهد هشام بن عبد الملك - في حربه لجيوش الدولة بالكحيل من الجزيرة ، رثاه أحد رجاله المشهورين وهو الضحاك بن قيس الشيباني في هذين البيتين اللذين يكاه فيهما بكاءً حاراً ومنج بكاه بما ينتظره من نعيم الخلد . قال (١) :
يا عينُ أذري دموعاً منذ تهتانا وابكي لفاصحة بانوا وإخوانا (٢)
غلوا لنا ظاهر الدنيا وباطنها وأصبحوافي جنان الخلد جيرانا

ومن قادة الخوارج الذين بكاهم الضحاك ، سعيد بن بهدل الذي خرج بالجزيرة في أول أيام مروان الثاني وما لبث أن مات ، فرثاه الضحاك بهذين البيتين اللذين دعا فيهما بالسقيا لقبره وبأن يلحقه الله به وبغيره من إخوانه الأبرار الذين قضوا في سبيله فسبقوه إلى جنات النعيم . قال (٣) :
سقى الله دياراً خوضاً قبراً وحشوه إذا رحل الثارون لم يترحل (٤)
فيا ملحق الأرواح هل أنت ملحقني بموتى مضى فيهم سعيد بن بهدل

ومن قادة جيش الضحاك بن قيس الشيباني الذين قتلوا بأخرة من المصير الأموي ، أنباء لقاء الخوارج لجيش الخليفة مروان بن محمد بكفرتوثا ، الغيمري ومسكين اليشكري ويسقوب التغلبي (٥) . وقد رثاهم أحد الشعراء رثاءً أشاد فيه ببسالتهن وبطولتهن وتضحياتهن التي قدّموا في أعنف قتال جرى للخوارج مع جيوش مروان الضخمة . قال (٦) :

هم ضربوا الجنود بكفرتوثا وهم نزلوا وقد كره الزعام
سقى بلداً تضمن خيبريتاً ومسكينا ويسقوب الضمام
هم ضربوا على قرن المنايا ولم يقرعهم الحير اللهام (٧)

(١) الطبري: ١٣٦/٧ ، الكامل في التاريخ ٤١٦/٥ .

(٢) تهتانا : غزيرة .

(٣) شعر الخوارج ٨٢ ، وانظر : الطبري ٣١٧/٧ .

(٤) خوضاً : زوجة سعيد بن بهدل المرثي (شعر الخوارج ١٤٤) .

(٥) يسقوب التغلبي : بايعه الخوارج بعد قتل الغيمري (أنساب الأشراف المخطوط ٣٦٧/٢) .

(٦) أنساب الأشراف المخطوط ٣٦٧/٢ .

(٧) القراع والمقارعة : المصاربة بالسيوف . والجيش للهام : الكثير الذي يلتهم كل شيء .

ولم يقصر شعراء الخوارج مرائيهم على من قتل من قادة جيوشهم ، بل رثوا الأفراد العاديين الذين انضموا إلى تلك الحركات الثائرة وأرخصوا نفوسهم فقتلوا في سبيل عقيدتهم . وتطالعنا هنا بعض المرائي لشواعر كنّ على ما يبدو قد انضموا إلى الخوارج ، وهي مراث بكين فيها من لاقوا حتوفهم من أهلهم في قتال الخوارج لجيش الدولة . ولعل وجه الاختلاف بينها وبين مرائي الشعراء للقادة أنها تطعن بها في حالات الحزن وتسكب في أحناؤها الدموع ولا تصدر إلا عن قلوب ملتاعة ونفوس حزينة سَمَرها موت المرثيين وأثما المصاب بفقدهم . لكنها مليئة بالإشادة ببطولاتهم وتضحياتهم وبيسهم نفوسهم رخيصة خدمة لعقيدتهم وطلباً للموت الذي يحقق لهم السعادة المنشودة وهي لقاء ربهم واللحاق بمن تقدمهم من إخوانهم الأبرار . على نحو ما يتضح في قول امرأة من بني شيبان ترثي أباهما وأخاهما وزوجها وأُمها وعمتها ومخالتيها الذين قتلوا مع الضحاك (١) :

مَنْ لِقَلْبَ شَفَةِ الْخُسْرَى	أَوْ لِنَفْسٍ مَا لَهَا سَكَنٌ
ظَنَّ الْأَبْرَارَ فَارْتَحَلُوا	خَيْرُهُمْ مِنْ مَعْشَرِ ظَنَنْتُوا
مَعْشَرٌ قَضَوْا نَحْوَهُمْ	كُلٌّ مَا قَدْ قَدَّمُوا حَسَنٌ
مَهْرًا عِنْدَ السُّيُوفِ فَلَمْ	يَنْكَلُوا عَنْهَا وَلَا جَبْنُوا
فَتَيْةٌ بَاعُوا نَفْسَهُمْ	لَا وَرَبَّ الْبَيْتِ مَا غُبْنُوا
تَبِعُوا مَرْثَا رَبِّهِمْ	حِينَ مَاتَ الدِّينُ وَالسُّنَنُ
فَأَصَابَ الْمَوْتَ مَا طَلَبُوا	مِنَّمَا قَبْلَهُمَا مَنَنْ

وكما يظهر في قول امرأة أخرى من الخوارج ترثي أخاهما وكان قتل مع الضحاك بكفرتوثا ، وتشيد بعظم تضحيات إخوانها الخوارج وهم يقارعون جيوش الدولة مقارعة متصلة ، وتصور ما كان يتممها من أحزان مبرحة كانت تشققها شفاً وتلدخ كبدتها لقعا على من يقتل منهم من حين لآخر :

مَنْ لَمِينَ رَبِّيًا مِنَ الدَّمْعِ عَبْرَى	وَلِنَفْسٍ مِنَ الْمَصَائِبِ حَسْرَى
أَفْسَدَتْ عَيْشَنَا صُرُوفُ اللَّيَالِي	وَوَقَاعُ مِنَ الْكَتَائِبِ تَنْزَرَى
كَلَّمَا نَسَكْنَتْ حَرَارَةً وَجَّهَدْ	مِنْ فَقِيدٍ مَنَّا شُجِينَا بِأَخْرَى

(١) تاريخ خليفة بن غياط ٥٧٥/٢ - ٥٧٦ .

(٢) أنساب الأشراف المخطوط ٢٦٧/٢ ، شعر الخوارج ١١٣ .

وقولها فيه واصفة ولها بد وجزعها عليه وانكبابها على نفسها بإكيسة
تستدرّ الدمع مدرارا وتتجرّع غصص الفراق (١) :

يا عين جودى بالدموع وابكي بجهد المستطیع
يا موت ويحك ما تزال مفترقا بين الجمیع
أبكي وما ينني التلـهـه فوالبكاء عن الجـزـوع

واضح أن الأبيات مفعمة بالمشاعر الحارقة ، وهي مشاعر أختضضها حزن مكن في
فؤادها حتى كاد يكو به بحرارة ، وهي لا تملك وسيلة تطفي بها هذه الحرارة
الملتبهة غير هذه الدموع التي تجود بها ما استطاعت .

وغير خاف أن رثاء شوارع الخوارج لأهلهم يرتفع فيه النحيب والبكاء وتتوالى
فيه حركات الألم وأثاته أكثر بكثير من رثاء أقرانهم الشراء لقادة الخوارج ،
ومرد ذلك إلى رقة شعور المرأة وعدم احتراسها من البكاء عند تأثرها بأدنى
مكروه ، فكيف إذا أصيبت في أهلها ؟ لا شك أنها ستجرّع جزعا شديدا وتلتساع
أعظم التيساع .

وتقدّم أن خوارج الجزيرة كانت تدفعهم ظروف القتال إلى الجهاد في المناطق
المجاورة وبخاصة العراق ، وكان قتل بعض قادتهم وأصحابهم هناك يثير في نفوس
شراء تلك البلاد ممن يوافقونهم في الاعتقاد أسى بالنا ، فيرثونهم في أبيات
معدودات تتجلى فيها نفس المصابي التي رأيناها في رثاء الجزريين لهم ، من :
الثناء على شجاعتهم وإقدامهم ، وانصرافهم عن الدار الدنيا ، وطلبهم للموت
حتى يتحقق لهم الهدف الذي خرجوا من أجله وبعو نيل الشهادة واللحاق بمن سبقوهم
من إخوانهم في دار الشد . (٢)

(١) أنساب الأشراف المخطوط ٣٦٧/٢ - ٣٦٨ ، شعـر

الخوارج ١١٣ .

(٢) أنظر : أنساب الأشراف المخطوط ٨٧/٢ و ٣٦٤ ، الطبري

٥٧٦/١ - ٥٧٨ و ٧٧٧/٢ و ٣٦٨ ، شعر الخوارج ٦١ و

٦٩ و ٧١ و ٧٧ و ٧٨ .

ولعلّ فيما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على أن هذه الصورة من الرثاء في شعر الخوارج الجزريين الأمويين لقتلهم ، تختلف في معانيها وأساليبها عما ألفناه في شعر الرثاء التقليدي . أما اختلافها في المعاني فراجع إلى أسرين : أولهما ، أنها صورة لا تبكي في المرثيين من القتلى خلال المروءة التقليديسقة لأن قتلهم كان يحقق غاية طلبوها وسعادة علموا بها ، ولذلك مضى الشعراء بمجدون قتالهم ويشيدون بتضحياتهم ومواقفهم ، فصوّروا رفضهم للحياة الدنيا ومنتصها الفانية ، ووصفوا إقبالهم على الموت وتراعيهم في حياض زلفى إلى الله وابتغاء مرضاته وطمأنينة في الفوز بثوابه . وثانيهما ، أنها صورة لا تطيف بها غيالات الحزن والدموع ، بل غالبا ما تظللها روح التسليم بقضاء الله والامتثال لإرادته وتمثل ما أعدّه للمقاتلين في سبيله من عظيم الأجر . وأما اختلافها في الأساليب فراجع إلى أن الشعراء أفردوها في مقطوعات خاصة ، تخيروا لها لغة بسيطة مألوفة ، وصاغوها في أوزان قصيرة موجبة لشدة جزئهم على المرثيين وفراط ولهم بهم .

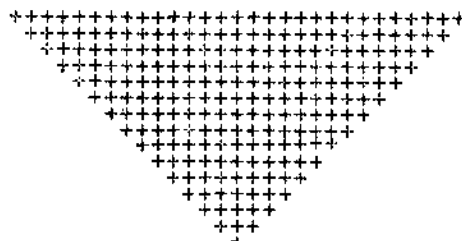
لعل استهلاكي هذا البحث بوصف الجزيرة الفراتية والتعريف بسكانها وماثار
بينهم من نزاعات أو قاموا به من ثورات على السلطة كان طبيعياً ، ففي ذلك
تعريف بالمنطقة وتوضيح لصورتها وكشف عن مواقع الأحداث فيها ، وضبط لأهلها ومن
هاجروا إليها ، وتحديد لعلاقاتهم ومواقفهم من بعضهم ومن الحاكمين . وهي أمور
كان رصدها ضرورياً ، لكي ألم بحياة الجزيريين من الناحية التاريخية والسياسية
التي ترتبط بحياة الشعر وتشعر الظروف والأجواء القبلية والسياسية التي قيل
فيها وعبر عنها . وإذا أحسست أنني بسطت هذه المسائل بسطاً واضحاً ، انتقلت إلى
استقصاء موضوعات الشعر ، فوجدت أنها تنحصر في ثلاثة ، هي : الشعر القبلي ،
والشعر السياسي ، والشعر الوجداني .

أما الشعر القبلي ، فقد كان ثمرة للمصيبة القبلية التي تجلت أولاً في
شعر الصراع القبلي ، واتضح لنا فيه أن الشراء أصروا على إبراز انتصارات
قومهم في الممارك وإضفاء سمات البطولة عليها ، وألحوا على تصوير مزاياهم
أعدائهم ووصفهم بالجبن وتوعدهم بالقتل والتنكيل وتهديدتهم بالنار لأبنائهم
قومهم . وأنهم اندفعوا إلى قول الشعر في مجالين : الأول — أثناء المعركة ،
والثاني فيما بعدها ، فكانوا في المجال الثاني أكثر إبداعاً وإسهاباً ، وفي
الأول — أكثر إثارة وحفاة ، ففي أثناء المعركة لم يعنوا بالإطالة ولا
بالجوانب الفنية ، إذ أن نضالهم في حومة الوغى دفعهم إلى استنهاض الهمم والمضي
على الاستبسال ، وذلك بأبيات مرتجلة أوحتها مناسبة الحرب . كما تجلت ثانياً
في ألوان أخرى من الشعر ، هي : المدح القبلي ، الذي أنشأه الأقطار التغلبي
في أشرف قبيلته وقبيلة بكر ، مختاراً لتقريظهم مجموعة الفضائل التي تميز
شخصية زعيم القبيلة ، من النباهة وضخامة المكانة ، وإهلاك الأموال — في
الحرب على المحتاجين ، والصبر على الملمات والضناء في الحرب ، والاتصاف
بسوءد الأصل ورجحان النبل وساحة الخلق ، وغير ذلك من المماني المتداولة
التي دارت عليها هذه المدائح ، وأخرجها الأخطل إخراجاً أعرابياً ضخماً ،
باختياره لها الأوزان الطويلة ، وباصطناعه فيها الأساليب المتينة ، وبنشره
في تضاعفها بعض الصور والتشبيهات البدوية . والشعر القبلي ، وقد رأينا كيف
أن مفاخر الشراء ظلت تجرؤ على الصورة الجاهلية ، فهم يفتشرون بشعرهم

قبائلهم ومنعتها وتماسكها ، وبطولة فرسانهم في الذود عن الحمى والبلاء في القتال والظفر على الأعداء ، وإيثار حياة البادية ، والترحيب بالـزوار ، مفاخرة ألبيها في نفوسهم تمكهم بالقيم والمثل القبلية ، التي كانت للإنسان العربي في الجاهلية محلّ اعتزاز وترفع وتناول ومثلاً أعلى في حياته وسلوكه . والهجاء القبلي ، الذي ناهج فيه الأخطال والقطامي التغلبيان أعداء قبيلتهما من القيسيين وبعض القبائل الأخرى ، وانكمن لنا كيداً أن هذا الفن تطور في شعرهما بعض التطور ، فهما لم يقتصر على اقتفاء آثار القدماء في الإلمام بالهجاء إلماً مبتسراً عبر قصائدكما التقليدية وفي تضاعيف العماسة والفخر ، بل أفرداه أحياناً في مقطوعات أو أبيات خاصة به دون غير ، كما أن واحداً منهما وهو الأخطال زاحج في مضمون هجائه بين تداول الممانسي القديمة ، التي تناقض كل ما اعتاد العرب على تعظيمه من فضائل الشجاعة والنجدة والكرم والوفاء وحماية الجار وطالب الثار ، وبين الممانسي الجديدة المستمدة من الدين الجديد كالإيمان ومما شاع في شعر النقائض الأموية كالإفحاش وذكر السورات .

أما الشعر السياسي ، فقد نجم عن الخصومة السياسية بين المناكمين من الأمويين وبين معارضتهم من القبائل والخوارج ، وقد تبين لنا كيف أن الأمويين اصطنعوا الأخطال وأعدّوه للدفاع عن سياستهم ومهاجمة أعدائهم ، فانتصر لحقهم في الخلافة ، ونوّه بمجد أسرته ومارآثرها ومكانتها وتاريخها وعزّها الخالد المتجدّد ، وتصدّى لخصومهم من أمثال الزبيريين والقيسيين الذين خرجوا على طاعة الدولة وانتقضوا عليها . كما تبين كيف أن الخوارج صوّروا حربهم لبيوش الدولة وعزمهم على متابعة قتالها والتنديد بهزائمها ، في شعر لا يخرج عن دائرة الصراع السياسي بينهم وبين الأمويين ، لأنه كان دفاعاً عن المبدأ الذي خرجوا من أجله وجاءوا في سبيله . وهو شعر لم يحتفل أصحابه بتأثير التقاليد الفنية الموروثة أو بالمحافظة على نظام القصيدة التقليدية ، لأن ظروف القتال التي عاشوها لم تساعد على الإكثار أو الإطالة ، فظهرت القصيدة عندهم في مقطوعة قصيرة من أبيات مرتجلة غالباً ذات هدف وحيد ، مما أكسبها وحدة موضوعية وفنية ، ومما جعل أسلوبها غلوّاً من الجوانب الفنية وبميداً عن التكلف .

أما الشعر الوجداني ، فقد استغرق الشعراء أكثر أشعارهم في الوصف ، فرسموا لنا مشاهد بديعة للطبيعة الساكنة التي تناولت صورة : الصحراء والرياح والندى والنهر والرحلة النهرية والبحر ، والمتحركة التي تناولت صورة : الثور الوحشي والذئب والفراب والعرباء والقطا ، إلا أن وصفهم لهذه المشاهد جاء عرضاً على سبيل الاستطراد في ثنايا القصائد ، وقل أن يفرد في قصائد خاصة به ، وهو وصف لا يندو تقليد الوصف الجاهلي ، فالتجديد فيه ضئيل سواء من حيث المبنى أو من حيث المعنى ، إلا أنه من ذلك عُرِضَ في صور بديعة غالبية متقنة الأداء تُقَصِّت فيها كل صفات الموصوف . ووصف لنا الأنطاس والقطامي التلبيسان الشعر وصفاً جرى على طريقة الجاهليين ، فقد استمداً فيه معانيهم وتشبيهاتهم وأساليبهم وأغيلتهم ، دون أن يحاولا تعويرها أو تطويرها أو يلائما بين فنيهما الشعرى وواقع حياتهما المتعصرة المتفرقة ، ودون أن يذميا الوصف ويصقلاه بالإكثار من النظم فيه أو بإفراده في قصائد تامة تُستوفى فيها جزئيات الموصوف ودقائقه . ومن الشعر الوجداني الرثاء ، وقد رثى الشعراء بعض السادة والأمراء والوفاء رثاء متسطورا في شكله ومضمونه ، إذ جعلوا رثياتهم في مقطوعات لا في مطولات ، وأسقطوا منها بعض الأجزاء البدوية مثل التعزية ، وأخذت تتردد في بعضها معان جديدة مفادة من طروحات العصر الإسلامي وأحداثه ، ونفقت فيها نغمة الحزن ، فيما استمر الشعراء يركزون فيها معاني الرثاء القديم من التنبؤ بفضائل المرثي ومعامده والمبالغة فيها . كما رثى شعراء الخواري وشواعرهم إخوانهم في المنصب وأهلهم ممن لاقوا مقتلهم في حروبهم مع جيوش الدولة رثاء جديداً في معانيه وأساليبه ، فقد جرّدوه من معاني الرثاء الجاهلي ، ومضوا ينوون ببسالة المرثيين وتضحياتهم وتراحمهم على حياض الموت حتى يفسوزوا برضوان الله ، وصاغوه في مقطوعات تغيّروا لها لنة بسيطة مألوفة وأوزاناً قصيرة شبيهة لشدة حزنهم عليهم وفرط ولهم بهم .



انتهى بحمد الله

أولا - المصادر القديمة

(المخطوطة)

- ١ - الأغلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (القسم الخاص بالجزيرة)
لابن شداد (- ١٣٢ هـ) ،

Bodleian Library - Oxford , Marsh 333 .

ميكروفيلم عن هذا المخطوط موجود في مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة
الأردنية تحت رقم ٥٦٨ .

- ٢ - أنساب الأشراف ، لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (- ٢٧٩ هـ) ،

Soleymany G. Kotoppanes, Reasilkittap, No 598,

نسخة مصورة موجودة بحوزة الأستاذ الدكتور عبدالعزيز الدوري بالجامعة
الأردنية .

- ٣ - تاريخ ابن عساكر ، لأبي القاسم علي بن الحسن بن عبد الله (- ٥٧١ هـ) ،
مخطوط رقم ٣٣٧٦ ، موجود بحوزة الأستاذ الدكتور عبدالعزيز الدوري
بالجامعة الأردنية .

- ٤ - جمهرة النسب ، لهشام بن محمد بن السائب الكلبى ،

British Museum Photographic, London, Catalogue ADD . 23 .

297 - Order Sch . 5050 .

ميكروفيلم عن هذا المخطوط موجود في مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة
الأردنية ، على شريط رقم ٣٨٢ .
(المطبوعة)

- ٥ - آثار البلاد ، لذكرى بن محمد القزويني (١٢٨٣م) ، طبع دار صادر
ببيروت ١٩٦٠ .

- ٦ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، للمقدسي المعروف بالبشارى ، طبع
بريل بليدن ١٩٠٦ .

- ٧ - الأخبار الطوال ، لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري (- ٢٨٢ هـ) ، تحقيق
عبد المنعم عامر ، طبع القاهرة ١٩٦٠ .

- ٢١- بسط الأرض في الطول والعرض ، لابن سعيد المنبري ، تحقيق الدكتور
خوان قرنيط ، طبع مطبعة كريما ديس بتطوان ١٩٥٨ .
- ٢٢- البلدان ، لأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (- ٢٩٢ هـ) ، طبع
مطبعة الحيدرية بالنجف ١٩٥٧ .
- ٢٣- البلدان ، لأبي بكر أحمد بن محمد الهمداني المعروف بأبن الفقيه ،
طبع مطبعة بريل بليدن ١٣٠٢ .
- ٢٤- البيان والتبيين ، لأبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ
(- ٢٥٥ هـ) ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، طبع مطبعة دار التأليف
ببصر ١٩٦٨ .
- ٢٥- تاج العروس ، لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، طبع مطبعة الخيرية
بجمالية مصر ١٣٠٦ .
- ٢٦- تاريخ خليفة بن خياط ، لخليفة بن خياط المصفر (- ٢٤٠ هـ) ، تحقيق
سهيل زكـار ، طبع مطابع وزارة الثقافة والسياحة
والارشاد القومي بدمشق ١٩٦٧ .
- ٢٧- تاريخ الرسل والملوك ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (- ٣١٠ هـ) ،
تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، طبع مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٣ .
- ٢٨- تاريخ الموصل ، لأبي زكريا يزيد بن محمد بن اياس بن القاسم الأزدي
(- ٣٣٤ هـ) ، تحقيق الدكتور علي حبيبة ، طبع دار التحرير بالقاهرة
١٩٦٧ .
- ٢٩- تاريخ اليعقوبي ، لأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب (- ٢٩٢ هـ) ،
طبع المطبعة الحيدرية بالنجف ١٩٦٤ .
- ٣٠- التذكرة السعدية في الأشعار العربية ، لمحمد بن عبدالرحمن المبيد
(من رجال القرن الثامن الهجري) ، تحقيق عبدالله الجبوري ،
طبع مطابع النعمان بالنجف الأشرف ١٩٧٢ .
- ٣١- الترجمانة الكبرى في أخبار الممـور برا وبحرا ، لأبي
القاسم الزباني (١٨٠٩م) ، تحقيق عبدالكريم الفيلاسي ،
طبع غشت ١٩٦٧ .

- ٣٢- تقويم البلدان ، لأبي الفداء * عماد الدين اسماعيل بن محمد (- ٧٣٢ هـ) ،
طبع دار الدبابة السلطانية بباريس ١٨٤٠ .
- ٣٣- التنبيه والإشراف ، لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي (- ٣٤٥ هـ) ،
تصحيح عبدالله اسماعيل الصاوي ، نشر المكتبة التاريخية ١٩٣٨ .
- ٣٤- تهذيب تاريخ ابن عساكر ، لأبي القاسم علي بن الحسن بن عبدالله (- ٥٧١ هـ) ،
تصحيح عبدالقادر بدران ، الجزء الخامس طبع مطبعة روضة الشام ١٣٣٢
والجزء السابع طبع مطبعة التراثي بدمشق .
- ٣٥- تهذيب التهذيب ، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (- ٨٥٢ هـ) ،
تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف ، طبع مطابع دار الكتاب العربي بمصر .
- ٣٦- جمهرة أنساب العرب ، لأبي محمد علي بن أحمد بن عزم (- ٤٥٦ هـ) ، تحقيق
عبدالسلام محمد هارون ، طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٢ .
- ٣٧- حساسة البحتري ، لأبي عبادة الوليد بن عبيد الطائي (- ٢٨٤ هـ) ، نشر
دار الكتاب العربي ببيروت ١٩٦٧ .
- ٣٨- الحماسة البصرية ، لصدر الدين بن أبي الفرج بن الحسين البصري (- ٦٥٩ هـ) ،
تصحيح الدكتور مختار الدين أحمد ، طبع الهند ١٩٦٤ .
- ٣٩- الحماسة الشجرية ، لهبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الملوي (- ٥٤٦ هـ) ،
تحقيق عبدالحميد الملوي وأسداء الحمصي ، طبع دمشق ١٩٧٠ .
- ٤٠- الحيوان ، لأبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ (- ٢٥٥ هـ) ، تحقيق
قوزي عطوي ، طبع مطابع دار الفد ببيروت ١٩٦٨ .
- ٤١- الخراج ، لأبي يوسف يعقوب بن ابراهيم (- ١٨٢ هـ) ، طبع المطبعة السلفية
بالقاهرة ١٣٨٢ .
- ٤٢- الخراج وصناعة الكتابة ، لقدامة بن جعفر (- ٣٢٠ هـ) ، طبع مطبعة
بريسل بلیدن ١٨٨٩ .
- ٤٣- خريدة السجائب وفريدة الخرائب ، لسراج الدين أبي حفص عمر
(- ٧٤٩ هـ) ، طبع مطبعة مصافي البابي الحلبي وأولاده بمصر .
- ٤٤- خزائن الأئمة ولب لباب لسان العرب ، لعبدالقادر بن عمر البغدادي (- ١٠٩٣ هـ) ،
تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، طبع دار الكتاب العربي بالقاهرة ١٩٦٧ .

- ٤٥- الديارات ، لأبي الحسن علي بن محمد الشاشتي (- ٣٨٨ هـ) ، تحقيق
كوركيس عواد ، طبع مطبعة المعارف ببغداد ، الطبعة الثانية ١٩٦٦ .
- ٤٦- ديوان الأعشى الكبير ، شرح الدكتور محمد محمد عيسى ، طبع المطبعة
النموذجية .
- ٤٧- ديوان امرؤ القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبع دار المعارف
بمصر ١٩٥٨ .
- ٤٨- ديوان أوس بن حجر ، تحقيق الدكتور محمد يوسف نجيم ، طبع دار صادر
ببيروت ١٩٦٠ .
- ٤٩- ديوان جرير ، تحقيق الدكتور نيمان محمد أمين طه ، طبع دار المعارف
بمصر ١٩٦٩ .
- ٥٠- ديوان عاتم الطائي ، تحقيق الدكتور عادل سليمان جمال ، طبع مطبعة
المدني بالقاهرة .
- ٥١- ديوان الحماسة ، لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي ، تعليق ومراجعة محمد
عبد المنعم خفاجي ، طبع مطبعة محمد علي صبيح بمصر .
- ٥٢- ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ، تحقيق محمد يوسف نجم ، طبع دار صادر
ببيروت ١٩٥٨ .
- ٥٣- ديوان القطامي ، تحقيق إبراهيم السامرائي .
- ٥٤- ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق كرم البستاني ، طبع دار صادر ببيروت
١٩٦٠ .
- ٥٥- زهر الآداب وثمر الألباب ، لأبي اسحق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني
(- ٤٥٣ هـ) ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، طبع مطبعة السعادة
بمصر ١٩٥٣ .
- ٥٦- سير أعلام النبلاء ، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (- ٧٤٨ هـ) ،
تحقيق محمد أسعد طلس ، طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٢ .
- ٥٧- سيرة عمر بن عبد العزيز ، لأبي محمد عبد الله بن عبد الحكم (- ٤٦٤ هـ) ،
تصحيح وتعليق أحمد عبيد ، طبع دار الفكر بدمشق ، الطبعة الثالثة ١٩٦٤ .

- ٥٨- السيرة النبوية ، لأبي محمد عبد الملك بن هشام (- ٢١٨ هـ) ، تحقيق - مصطفى السقا و ابراهيم الأبياري و عبد الحفيظ شلبي ، طبع مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٥٥ .
- ٥٩- شرح ديوان الحماسة ، لأبي زكريا يحيى بن علي التبريزي (- ٥٠٢ هـ) ،
- ٦٠- شرح ديوان كعب بن زهير ، لأبي سعيد الحسن بن الحسين السكري ، طبع دار الكتب بالقاهرة ١٩٥٠ .
- ٦١- شرح القصائد العشر ، لأبي زكريا يحيى بن علي التبريزي (- ٥٠٢ هـ) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، طبع مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٦٤ .
- ٦٢- شرح نهج البلاغة ، لعز الدين أبي حامد بن هبة الله بن محمد بن أبي الحديد (- ٦٥٥ هـ) ، طبع دار الفكر ببيروت ١٩٥٦ .
- ٦٣- شعر الأخطال ، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة ، طبع دار الأضيء بحلب ١٩٧١ .
- ٦٤- شعر عمرو بن أحمر الباهلي ، تحقيق الدكتور حسين عطوان ، طبع مطبعة مجمع اللغة العربية بدمشق .
- ٦٥- الشعر والشعراء ، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (- ٢٧٦ هـ) ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٦ .
- ٦٦- صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، لأبي النحاس أحمد بن علي القلقشندي (- ٨٢١ هـ) ، طبع مطابع كوستا تسوماس بالقاهرة .
- ٦٧- صفة جزيرة العرب ، لأبي محمد الحسن بن أحمد الهمداني (- ٣١٤ هـ) ، تحقيق محمد بن عبد الله النجدي ، طبع مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٣ .
- ٦٨- صورة الأرض ، لأبي القاسم ابن حوقل النصيبي ، طبع مطبعة بيان وشركاؤه بجونيه بلسبندان .
- ٦٩- الصناعتين ، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل السكري (- ٣٩٥ هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، طبع دار احياء الكتب العربية ١٩٥٢ .
- ٧٠- طبقات فحول الشعراء ، لأبي عبد الله محمد بن سلام الجمحي (- ٥٣١ هـ) ، تحقيق محمود محمد شاكر ، طبع مطبعة المدني بالقاهرة .

- ٨٥- المؤلف، والمختلف، لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي (١٣٧٠هـ)، تحقيق
عبد الستار أحمد فراج، طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٩٦١.
- ٨٦- مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، منشورات دار مكتبة
الحياة ببيروت ١٩٦١.
- ٨٧- المحبر، لأبي جعفر محمد بن حبيب (٢٤٥هـ)، تصحيح الدكتور أيلنزه
ليختن، طبع المكتب التجاري ببيروت.
- ٨٨- المختصر في أخبار البشر، لأبي الفدا إسماعيل بن علي الأيوبي (٧٣٢هـ)،
طبع دار الكتاب اللبناني ببيروت.
- ٨٩- مراد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، لصفي الدين عبدالمؤمن ابن
عبدالحق البغدادي (٧٣٩ هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، طبع دار احيا
الكتب العربية ١٩٥٤.
- ٩٠- الرصع، لمجد الدين المبارك بن محمد بن الأثير (٦٠٦ هـ)، تحقيق
الدكتور ابراهيم السامرائي، طبع مطبعة الارشاد ببغداد ١٩٧١.
- ٩١- مروج الذهب ومعادن الجواهر، لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي
(٨٤٥هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبع دار التحرير ١٩٦٦.
- ٩٢- مسالك الأبطال في ممالك الأمصار، لابن فضل الله العمري (٧٤٨هـ)، تحقيق
أحمد زكي باشا، طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٢٤.
- ٩٣- المسالك والممالك، لأبي القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة
(٣٠٠ هـ)، طبع مطبعة بريل بليدن ١٨٨٩.
- ٩٤- المسالك والممالك، لأبي القاسم اسحق بن ابراهيم الاصلخري، تحقيق
الدكتور محمد جابر عبدالعال، طبع مطابع دار القلم بالقاهرة ١٩٦١.
- ٩٥- المعارف، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢٧٦ هـ)، تصحيح
محمد إسماعيل عبد الله، طبع دار احيا التراث العربي ببيروت ١٩٧٠.
- ٩٦- المعاني الكبير، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢٧٦ هـ)، طبع
المنجد ١٩٤٩.
- ٩٧- معجم البلدان، لأبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (٦٢٥هـ)،
طبع دار صادر ببيروت ١٩٥٧.

٩٨- معجم الشعراء ، لأبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني (- ٣٨٤ هـ) ،

تحقيق عبدالستار أحمد فراج ، طبع دار احياء الكتب العربية ١٩٦٠ .

٩٩- معجم ما استعجم ، لأبي عبيد الله بن عبدالمعز البكري الأندلسي

(- ٤٨٧ هـ) ، تحقيق مصطفى السقا ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر

بالقاهرة ١٩٤٥ .

١٠٠- الملل والنحل ، لأبي الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني (- ٥٤٨ هـ) ،

تحقيق محمد سيد كيلاي ، طبع مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٩٦٧ .

١٠١- الموهج في مأخذ العلماء على الشعراء ، لأبي عبيد الله محمد بن عمران

المرزباني (- ٣٨٤ هـ) ، طبع المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٤٣ .

١٠٢- نخبة الدهر في عجائب البحر والبحر ، لأبي عبد الله محمد الأنصار والدمشقي

طبع ليبنغ ١٩٣٣ .

١٠٣- نسب قريش ، لأبي عبد الله المصعب بن عبد الله الزبيري (- ٢٣٦ هـ) ، نشر

وتصحيح ليفي بروثنسال ، طبع دار المعارف بمصر .

١٠٤- نقائص جرير والأخطل ، لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي ، طبع الكاثوليكية

ببيروت ١٩٢٧ .

١٠٥- نهاية الأرب في فنون الأدب ، لأحمد بن عبد الوهاب النويري (- ٧٣٣ هـ) ،

طبع مطابع كوستانتينوس بالقاهرة .

١٠٦- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، لأبي المباس أحمد بن علي

القلقشندي (- ٨٢١ هـ) ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، طبع مطبعة مصر

بالقاهرة ١٩٥٩ .

١٠٧- الوحشيات ، لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي ، تحقيق عبدالمعز الميمني

الراجكوتي ، طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٣ .

١٠٨- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لأحمد بن محمد بن أبي بكر ابن

خلكان (- ٦٨١ هـ) ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، طبع مطبعة

الضريب ببيروت .

١٠٩- وقعة صفين ، لنصر بن مزاحم المغيرة (- ٢١٢ هـ) ، تحقيق عبدالسلام محمد

هارون ، طبع مطبعة المدني بالقاهرة ١٣٨٢ .

ثانياً: المراجع الحديثة
(العربية)

- ١١٠- الأخطال : أهاجي منتخبة ، لفواء أفرام البستاني ، طبع المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٥١ .
- ١١١- الأخطال شاعر بني أمية ، للدكتور السيد مصطفى غازي ، طبع دار المعارف بصر ، الطبعة الثانية .
- ١١٢- الأخطال في سبته ونفسيته وشعره ، لايليا حاوي ، طبع دار الثقافة ببيروت
- ١١٣- الأخطال الكبير : حياته وخصيته وقيمته الفنية ، للدكتور فخرالدين قباوة ، طبع دار الأضيء بطب ١٩٧١ .
- ١١٤- الأخطال : مدائح منتخبة ، لفواء أفرام البستاني ، طبع المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٥١ .
- ١١٥- امرؤ القيس شاعر المرأة والديمة ، لايليا حاوي ، طبع دار الثقافة ببيروت ١٩٧٠ .
- ١١٦- أيام العرب في الاسلام ، لمحمد ابو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي ، طبع دار احياء الكتب العربية ١٩٦٨ .
- ١١٧- أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي ، لمنذر الجبوري ، طبع دار الحرية ببغداد ١٩٧٤ .
- ١١٨- تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية ، ليوليوس قلهوزن ، ترجمة الدكتور محمد عبدالهادي ابو زيـده ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٥٨ .
- ١١٩- التاريخ السياسي للدولة العربية ، للدكتور عبدالمنعم ماجد ، طبع مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة ١٩٦٠ .
- ١٢٠- تاريخ الموصل ، لسليمان صائغ الموصلية ، طبع المطبعة السلفية بصر ١٩١٣ .
- ١٢١- تاريخ النقائص في الشعر العربي ، لأحمد الشايب ، طبع دار الاتحاد العربي بالقاهرة ١٩٦٦ .
- ١٢٢- التطور والتجديد في الشعر الأموي ، للدكتور موقي ضيف ، طبع دار المعارف بصر الطبعة الرابعة .

- ١٢٣- تطور الخمريات في الشعر العربي من الجاهلية الى ابي نواس ، لجميل سعيد ، طبع مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٤٥ .
- ١٢٤- الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ، للدكتور محمد زياء الدين الرئيس ، طبع مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٦١ .
- ١٢٥- خطط الشام ، لمحمد كرد علي ، طبع المطبعة الحديثة بدمشق ١٩٢٥ .
- ١٢٦- الخلافة الأموية ، لعبد الأمير عبد حسين دكسن ، طبع دار النهضة العربية ببيروت ١٩٧٣ .
- ١٢٧- الخواارج في الاسلام ، لعمر ابي النصر ، طبع مكتبة المعارف ببيروت ١٩٥٦ .
- ١٢٨- الرثاء ، للدكتور شوقي ضيف ، طبع دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية .
- ١٢٩- رغبة الأمل من كتاب الكامل ، لسيد بن علي المرصفي ، طبع مكتبة الأندلس بطهران ١٩٧٠ .
- ١٣٠- الشعر الجاهلي : منهج في دراسته وتقويمه ، لمحمد النويهي ، طبع الدار القومية بالقاهرة .
- ١٣١- شعر الحرب في أدب الحرب ، للدكتور زكي المحاسني ، طبع دار المعارف بمصر ١٩٦١ .
- ١٣٢- شعر الخواارج ، للدكتور احسان عباس ، طبع دار الثقافة ببيروت .
- ١٣٣- شعر اللهو والخمر ، لمعز غريب ، طبع مطبعة الفريب ببيروت .
- ١٣٤- الشعراء من مخزومي الدولتين الأموية والعباسية ، للدكتور حسين عطوان ، نشر دار الجيل ببيروت ١٩٧٤ .
- ١٣٥- شعراء النصرانية بعد الاسلام ، للأب لويس شيخو ، طبع المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٦٧ .
- ١٣٦- الصابئون في حاضرم وماضيهم ، لعبد الرزاق الحسني ، طبع مطبعة العرفان بصيدا (لبنان) ١٩٧٠ .
- ١٣٧- الطبيعة في الشعر الجاهلي ، لنور حمود القيسي ، طبع دار الارشاد ببيروت ١٩٧٠ .
- ١٣٨- العرب في الشام قبل الاسلام ، لمحمد أحمد باشميل ، طبع دار الفكر ١٩٧٣ .

١٣٩- العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ، لاسان النص ، طبع المطبعة
التعاونية اللبنانية بدرعون (حريصا) ١٩٦٣ •

١٤٠- العصر الاسلامي ، للدكتور شوقي ضيف ، طبع دار المعارف بمصر ، الطبعة
الثالثة •

١٤١- العصر الجاهلي ، للدكتور شوقي ضيف ، طبع دار المعارف بمصر ١٩٦٠ •

١٤٢- الفخر والحماة ، لمجموعة من الأدباء ، طبع دار المعارف بمصر ،
الطبعة الثانية •

١٤٣- الفرق الاسلامية في الشعر الأموي ، للدكتور النعمان القاضي ، طبع دار
المعارف بمصر ١٩٧٠ •

١٤٤- فن الشعر الغمري وتطوره عند العرب ، لايليا حاوي ، طبع دار الثقافة
ببيروت •

١٤٥- فن المديح وتطوره في الشعر العربي ، لأحمد أبي حاقه ، نشر دار الشرق
الجديد ببيروت ١٩٦٢ •

١٤٦- فن الهجاء وتطوره عند العرب ، لايليا حاوي ، طبع دار الثقافة ببيروت

١٤٧- فن الوصف وتطوره في الشعر العربي ، لايليا حاوي ، طبع مطابع
المجمع ببيروت ١٩٦٧ •

١٤٨- قادة فتح العراق والجزيرة ، لمحمود شيث خطاب ، طبع دار الفكر ١٩٧٣ •

١٤٩- المجتمعات الاسلامية في القرن الأول ، للدكتور شكرى فيصل ، طبع مطابع
دار الكتاب العربي بمصر ١٩٥٧ •

١٥٠- مختارات من حاتم الطائي ، نشر مكتبة صادر ببيروت •

١٥١- المديح ، لسامي الدمان ، طبع دار المعارف بمصر •

١٥٢- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، لعمر رضا كحالة ، طبع مطبعة
الهاشمية بدمشق ١٩٤٩ •

١٥٣- الدفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، للدكتور جواد علي ، طبع دار العلم
للملايين ببيروت ١٩٧٠ •

١٥٤- مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، للدكتور حسين عطوان ،
طبع دار المعارف بمصر ١٩٧٠ •

- ١٥٥- مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي ، للدكتور حسين عطــوان
طبع دار المعارف بمصر ١٩٧٤ .
- ١٥٦- ملخص تاريخ الثوار ، لمحمد شريف سليم ، طبع دار التقدم بمصر ١٩٧٤ .
- ١٥٧- منجم الثمران في المستدرك على معجم البلدان ، لمحمد أمين الغانجي ،
طبع مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٧ .
- ١٥٨- النابغة سياسته وفنه ونفسيته ، لايلىا حاوى ، طبع دار الثقافة
بيروت ١٩٧٠ .
- ١٥٩- النظم الإسلامية ، للدكتور عبدالعزيز الدورى ، طبع مطبعة نجســيب
بيغداد ١٩٥٠ .
- ١٦٠- نقائص جرير والأخطل ، للدكتور عبدالمجيد المحتسب ، طبع دار الفكر ١٩٧٢ .
- ١٦١- نهر الذهب في تاريخ حلب ، لكامل بن حسين الشزى ، طبع المطبعة
المارونية بحلب .
- ١٦٢- الهجاء ، للجنة من الأدباء ، طبع دار المعارف بمصر .
- ١٦٣- الهجاء والهجاءون في الجاهلية ، للدكتور محمد محمد حسين ، طبع مطبعة
أحمد مخرمير .
- ١٦٤- الهجاء والهجاءون في صدر الاسلام ، للدكتور محمد محمد حسين ، طبع
المطبعة النموذجية .
- ١٦٥- وصف البحر والنهر في الشعر العربي من العصر الجاهلي حتى العصر
العباسي الثاني ، للدكتور حسين عطــوان ، طبع المطبعة الأردنية
بمــان ١٩٧٥ .
- ١٦٦- وصف الطبيعة وتطوره في الشعر العربي ، للجنة من الأدباء ، طبع
مكتبة نهضة مصر .
- ١٦٧- الوصف ، للجنة من الأدباء ، طبع دار المعارف بمصر .
- ١٦٨- الوصف في الشعر العربي ،
لعبدالمطلبــيم علي قنــاوى ، طبع
مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة ١٩٤٩ .

SUMMARY

This thesis dealt with a study of the poetry of Mesopotamia throughout the Umayyad reign. The first chapter was devoted to the geographical description and an introduction of its population, the struggle which took place among them, disputes or rebellions they practised for authority, to clarify the region and the places of events ; to control its population and those who immigrated to it; to limit their relations and attitudes towards each other , and towards their rulers. This is all to comprehend the Jazareyyeen's life from the historical and political points of view which are connected to the life of poetry; and explains the Tribal and political circumstances which this poetry expressed. The thesis, then, followed the objectives of poetry. They are: Tribal poetry; political poetry ,and sentimental poetry.

For Tribal poetry, it resulted from Tribal partyship which appeared in the verse of Tribal disputes in which poets showed the victory and heroism of their tribes; and the defeat of their enemies, describing them with cowardice, threatening them of killing and revenge. Secondly it appeared clearly in other kinds of verse, i.e, Tribal panegyric poetry, which was founded by Al-Akhtal Al - Taghlibi to praise the Nobles of his tribe and those of Bakr, choosing exquisitenesses which makes the character of the chief pre-eminent; such as generosity, boldness , the greatness of status and descent, intelligence, and good manners. Also, Vainglorious poetry which continued to be composed following the Jahiliyyeen's (Pre-Islamic) style. They are proud of the honour of their tribes, the heroism of their knights, the preferring of Badia life, and welcoming visitors. Satiric poetry of tribes by which Al-Akhtal and Al-Katami , the poets of Taghleb, attacked the enemies of their tribe from the Qaisiyyeen and other tribes, and it is an art which was developed in their poetry; they devoted special stanzas or lines for this kind of poetry. And Al-Akhtal included new meanings to

his satiric poetry derived from the new religion and what was popular in the poetry of Al-Naka'id.

Political poetry was a result of political disputes between the Umayyad rulers and their opponents from other tribes including Al-Khawarej. The Umayyad rulers prepared Al-Akhtal to defend their policy and to face their opponents. Al-Khawarej's poets described their disputes against the armies of the government and their determination to continue struggle; and criticised their defeats.

Sentimental poetry was mostly devoted for the description of Static Nature such as; the desert, the wind, the rain, the river, the river trip and the sea. And Dynamical Nature such as; the wild ox, the wolf and the crow, the chameleon and the sand grouse. All of these were, mostly, traditionally described in structure and meaning. Al-Akhtal and Al-Katami described Wine in the same style of Al-Jahel-eyeen's; they derived meanings, allegories, styles, and imaginations from that style. Elegic poetry is a branch of sentimental poetry by which the poets of Mesopotamia lamented some Masters, the princes and Caliphs in a developed style. The poets made their elegies as stanzas in which they neglected the style of condolence; they included new meanings to these elegies. The poets of Al-Khawarij, men and women, lamented their comrades and relatives, who were killed through their wars against the armies of the government, in a new style of lamentation; they did not follow the same meaning of Al-Jahel-eyeen, and mentioned the boldness of the lamented. They composed stanzas for which they chose a simple language and short rhythms.

STUDENT:

ADEL JABER SALEH MOHAMMED

February, 1980

his satiric poetry derived from the new religion and what was popular in the poetry of Al-Naka'id.

Political poetry was a result of political disputes between the Umayyad rulers and their opponents from other tribes including Al-Khawarej. The Umayyad rulers prepared Al-Akhtal to defend their policy and to face their opponents. Al-Khawarej's poets described their disputes against the armies of the government and their determination to continue struggle; and criticised their defeats.

Sentimental poetry was mostly devoted for the description of Static Nature such as; the desert, the wind, the rain, the river, the river trip and the sea. And Dynamical Nature such as; the wild ox, the wolf and the crow, the chameleon and the sand grouse. All of these were, mostly, traditionally described in structure and meaning. Al-Akhtal and Al-Katami described Wine in the same style of Al-Jahel-eyeen's; they derived meanings, allegories, styles, and imaginations from that style. Elegic poetry is a branch of sentimental poetry by which the poets of Mesopotamia lamented some Masters, the princes and Caliphs in a developed style. The poets made their elegies as stanzas in which they neglected the style of condolence; they included new meanings to these elegies. The poets of Al-Khawarij, men and women, lamented their comrades and relatives, who were killed through their wars against the armies of the government, in a new style of lamentation; they did not follow the same meaning of Al-Jahel-eyeen, and mentioned the boldness of the lamented. They composed stanzas for which they chose a simple language and short rhythms.

STUDENT:

ADEL JARER SALEH MOHAMMED

February, 1980

